التدبر والبيان

في

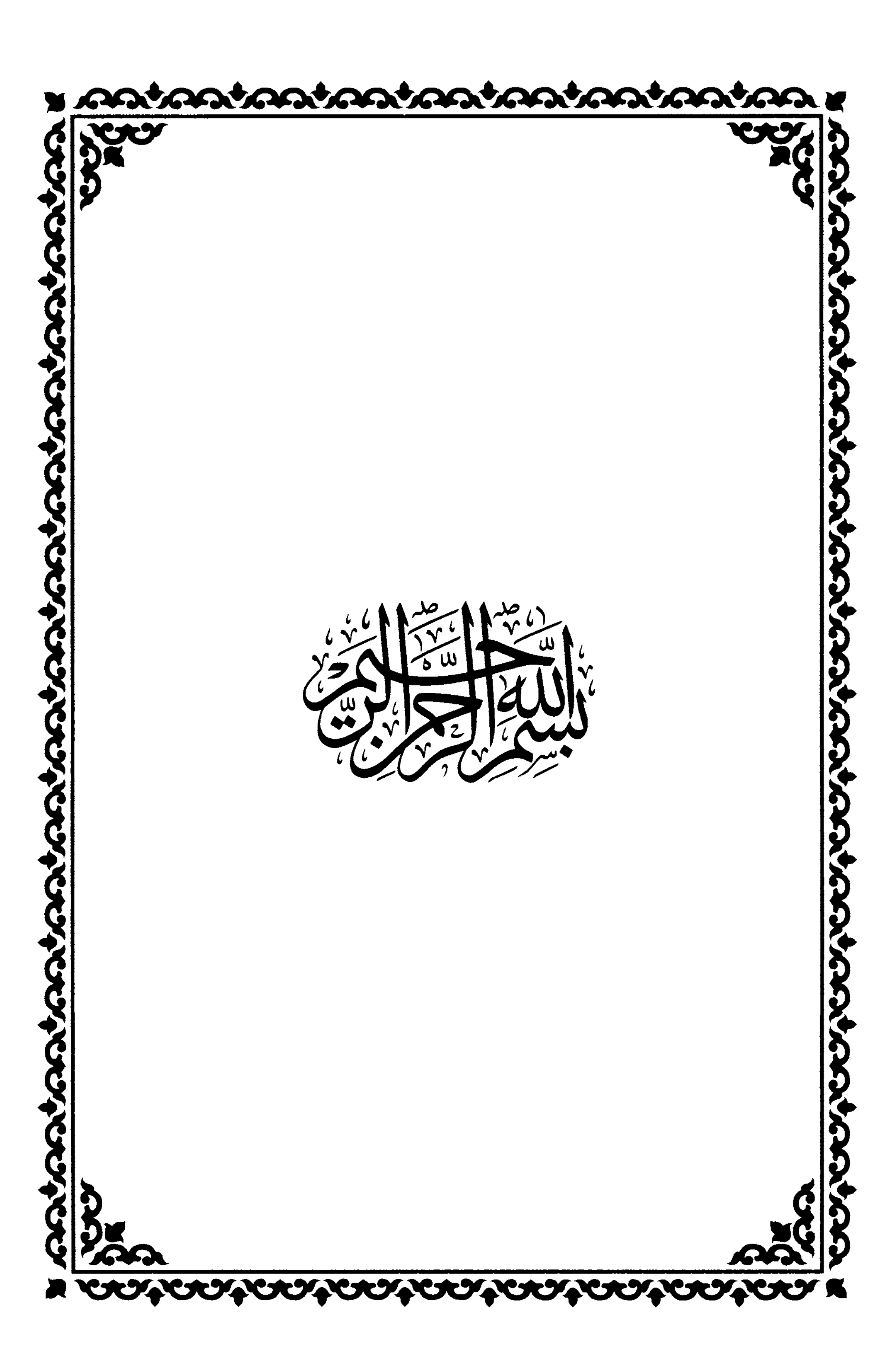
تفسير القرآن بصحيح السنن

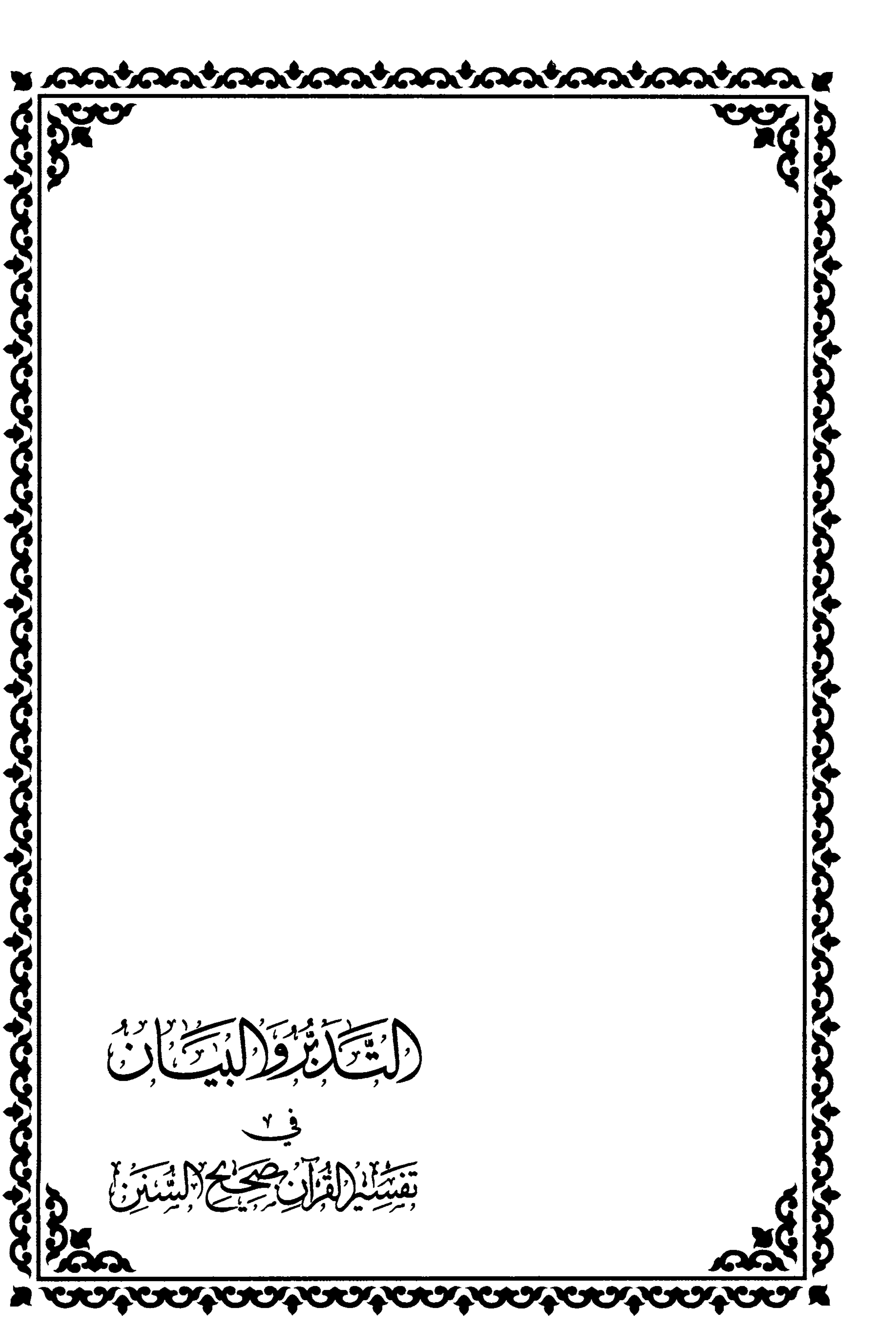
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثامن والثلاثون

التين - الناس


بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FÎ TAFSÎR AL-QUR'ÂN BI ṢAḤÎḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17×24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨





سورة التين

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «احتوت هذه السورة على التنبيه بأن اللَّه خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة، ليعلموا أن الإسلام هو الفطرة كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾[1]، وأن ما يخالف أصوله بالأصالة أو بالتحريف فساد وضلال، ومتبعي ما يخالف الإسلام أهل ضلالة. والتعريض بالوعيد للمكذبين بالإسلام، والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة إيماء إلى أن الإسلام جاء مصدقا لها، وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام، والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه، وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في القراءة بالتين ونحوها في العشاء

* عن البراء بن عازب: «أن النبي ﷺ كان في سفر، فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بـ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءةً منه»[3].

---

(1) الروم: الآية (٣٠). (2) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٩-٤٢٠).

(3) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٤و٣٠٢)، والبخاري (٢/ ٣١٨/ ٧٦٧)، ومسلم (١/ ٣٣٩/ ٤٦٤)، وأبو داود (٢/ ١٩/ ١٢٢١)، والترمذي (٢/ ١١٥/ ٣١٠)، والنسائي (٢/ ٥١٤/ ٩٩٩-١٠٠٠)، وابن ماجه (١/ ٢٧٢/ ٨٣٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «وقراءته ﷺ فيها (العشاء) بـ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ وبـ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ يدل على أنه لا توقيت في القراءة في الصلوات لا يجزئ غيره، إلا أنه حين قرأ في العشاء بـ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ كان في سفر، وأما في الحضر فكان يقرأ بـ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ ونحوها وأطول منها»[1].

قال ابن حجر: «وإنما قرأ في العشاء بقصار (المفصل) لكونه كان مسافرًا، والسفر يطلب فيه التخفيف، وحديث أبي هريرة محمول على الحضر، فلذلك قرأ فيها بأوساط (المفصل)»[2].

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (٢/ ٣٨٢).

(٢) فتح الباري (٢/ ٣١٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

طور: اسم جبل. وهو الجبل الذي كلم اللَّه عليه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

سينين: مبارك حسن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة، التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما، وهو أرض بيت المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا، وقد قال جماعة من المفسرين: أنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخلّصة من شوائب التنغيص لا عجم له، وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت، وغذاء وأدم، ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة؛ الحرارة والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبا ويابسا، وأما الزيتون ففيه من الآيات ماهو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمرا يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق مالا يخفى، وشجره باق على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق، ولا ينفي أن يكون منبته مرادا، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبد اللَّه ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه

عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه. ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة، مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه. ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها اللَّه على كليمه موسى، جاء اللَّه من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران، فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع، ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ، وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها، ونبوة محمد ﷺ وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم»[١].

قال ابن العربي: «إنما أقسم اللَّه سبحانه بالتين ليبين وجه المنة العظمى، فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجني، على قدر المضغة، وقد أحسن القائل فيه:

انظر إلى التين في الغصون ضحى ... ممزق الجلد مائل العنق

كأنه رب نعمة سلبت ... فعاد بعد الجديد في الخلق

أصغر ما في النهود أكبره ... لكن ينادى عليه في الطرق

ولامتنان الباري سبحانه، وتعظيم النعمة فيه، فإنه مقتات مدخر، فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه، وإنما فر كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه تقية جور الولاة، فإنهم يتحاملون في الأموال الزكائية، فيأخذونها مغرما، حسبما أنذر به الصادق ﷺ، فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال آخر يتشططون فيه، ولكن ينبغي للمرء أن يخرج عن نعمة ربه بأداء حقه. وقد قال الشافعي لهذه العلة أو غيرها: لا زكاة في الزيتون. والصحيح وجوب الزكاة فيهما»[٢].

قال ابن القيم: «وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه، بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم باللَّه ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه»[٣].

---

(١) التبيان (ص: ٣٣-٣٤).
(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٥١).
(٣) التبيان (ص: ٣٥).

قال ابن عاشور: «في ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية، براعة استهلال لغرض السورة، وهو أن اللَّه خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركا لأدلة وجود الخالق ووحدانيته، وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أصول شرائع اللَّه كلها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تَقوّمَ معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال»[١].

قال عطية سالم: «قد جاء ذكر الزيتون في القرآن عدة مرات مقصودا به تلك الشجرة المباركة، فذكر في ضمن الأشجار، خاصة في قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢] وسماها بذاتها في قوله تعالى من سورة المؤمنين: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[٣] وذكرها مع النخل والزرع في عبس في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾[٤] وذكر من أخص خصائص الأشجار في قوله في سورة النور في المثل العظيم المضروب: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾[٥] فوصفها بالبركة، ووصف زيتها بأنه يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار، واختيارها لهذا المثل العظيم، يجعلها أهلا لهذا القسم العظيم هنا»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف الزيت بالبركة لكثرة منافعها

* عن أبي أسيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة**»[٧].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) الأنعام: الآية (٩٩).

(٣) المؤمنون: الآية (٢٠).

(٤) عبس: الآيات (٢٧-٢٩).

(٥) النور: الآية (٣٥).

(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٧)، والترمذي (٤/ ٢٥١/ ١٨٥٢)، والحاكم (٢/ ٣٩٧-٣٩٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري عن عبد اللَّه بن عيسى» والحديث صححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيحة رقم الحديث (٣٧٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «وصفها بالبركة لكثرة منافعها وانتفاع أهل الشام بها، كذا قيل، والأظهر لكونها تنبت في الأرض التي بارك اللَّه فيها للعالمين، قيل: بارك فيها سبعون نبيا، منهم: إبراهيم عليه السلام وغيرهم، ويلزم من بركة هذه الشجرة بركة ثمرتها، وهي الزيتون، وبركة ما يخرج منها وهو الزيت، وكيف لا؟ وفيه التأدم والتدهن، وهما نعمتان عظيمتان، وفيه تسريج القناديل في المساجد الثلاثة، فما أبركها زمانا ومكانا»[1].

* * *

(١) المرقاة (٨/ ٥١-٥٢).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

تقويم: أي: اعتدال واستواء. يقال: قوَّم العود: إذا عدله وجعله مستقيمًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أي في أحسن صورة وشكل واعتدال، معتدل القامة، مستوي الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه. والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته -تبارك وتعالى-، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء. وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته، وحكمته وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرا في القرآن لمكان العبرة بها، والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدإ والمعاد»[1].

قال عطية سالم: «وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حسا ومعنى، أي: شكلا وصورة وإنسانية، وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث، وروي عن علي رضي الله عنه:

دواؤك منك ولا تشعر ... وداؤك منك ولا تبصر

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نطفة فعلقة إلى آخره في أكثر من موضع، كما في قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾[2] وكذلك في هذه السورة التنبيه على البعث بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾[3] أما الجانب المعنوي فهو الجانب الإنساني،

---

(١) التبيان (ص: ٣٤-٣٥).

(٢) القيامة: الآيات (٣٧-٤٠).

(٣) التين: الآية (٧).

وهو المتقدم في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾[1] على ما قدمنا هناك، من أن النفس البشرية هي مناط التكليف، وهو الجانب الذي به كان الإنسان إنسانا، وبهما كان خلقه في أحسن تقويم، ونال بذلك أعلى درجات التكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[2] والإنسان وإن كان لفظا مفردا، إلا أنه للجنس بدلالة قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3] وهذا مثل ما في سورة: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[4] فباستثناء الجمع منه، علم أن المراد به الجنس.
والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان في أحسن تقويم، يشعر أن المخاطب منكر لذلك، مع أن هذا أمر ملموس محسوس، لا ينكره إنسان. وقد أجاب الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على ذلك: بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات الإنكار، عومل معاملة المنكر، كقول الشاعر:

جاء شقيق عارضا رمحه ... إن بني عمك فيهم رماح

وأمارات الإنكار على المخاطبين، إنما هي عدم إيمانهم بالبعث، لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان، لعرف منه أن القادر على خلقه في هذه الصورة قادر على بعثه. وهذه المسألة أفردها الشيخ في سورة الجاثية بتنبيه على قوله تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[5] وتكرر هذا البحث في عدة مواضع، وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء في آخر يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[6] »[7].

قال ابن عاشور: «أفادت الآية أن اللَّه كوَّن الإنسان تكوينًا ذاتيًا مُتناسبًا، مع ما خلق له نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته، وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند اللَّه تعالى، ولا جديرًا بأن يقسم عليه إذ لا أثر له في إصلاح النفس، وإصلاح الغير، والإصلاح في الأرض، ولأنه لو كان هو المراد، لذهبت المناسبة التي في القَسَمِ بالتين والزيتون وطور سينين والبلدِ الأمين. وإنما هو متمّم لتقويم

---

(١) الشمس: الآية (٧).
(٢) الإسراء: الآية (٧٠).
(٣) التين: الآيتان (٥-٦).
(٤) العصر: الآيات (١-٣).
(٥) الجاثية: الآية (٤).
(٦) يس: الآيتان (٧٨-٧٩).
(٧) تتمة الأضواء (٩/ ٣٣٠-٣٣٢).

النفس، قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[١] فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع. فالمرضيّ عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح، لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد، إذ الجسم آلة خادمة للعقل، فلذلك كان هو المقصود من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾. وأما خلق جسد الإنسان في أحسن تقويم، فلا ارتباط له بمقصد السورة، ويظهر هذا كمال الظهور في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ فإنه لو حمل الرد أسفل سافلين، على مصير الإنسان في أرذل العمر إلى نقائص قوته، كما فسر به كثير من المفسرين، لكان نبوّه عن غرض السورة أشد، وليس ذلك مما يقع فيه تردد السامعين، حتى يحتاج إلى تأكيده بالقسم، ويدل لذلك قوله بعده: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأن الإيمان أثر التقويم لعقل الإنسان الذي يلهمه السير في أعماله على الطريق الأقوم، ومعاملةِ بني نوعه السالمين من عدائه، معاملة الخير معهم على حسب توافقهم معه في الحق، فذلك هو الأصل في تكوين الإنسان إذا سلم من عوارض عائقة، من بعض ذلك مما يعرض له وهو جنين؛ إما من عاهة تلحقه لِمرض أحد الأبوين، أو لفساد هيكله من سقطة أو صدمة في حمله، وما يعرض له بعد الولادة من داء معضل يعرض له، يترك فيه اختلال مزاجه فيحرف شيئًا من فطرته، كحماقة السوداويين والسُّكريين أو خبال المختبلين، ومما يدخله على نفسه من مساوي العادات، كشرب المسكرات وتناول المخدرات مما يورثه على طولٍ، انثلامَ تعقله أو خَوَرَ عزيمته. والذي نأخذه من هذه الآية: أنَّ الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع ليتصف بآثارها، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكًا مستقيمًا، مما يتأذى من المحسوسات الصادقة، أي: الموافقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر، بسبب سلامة ما تؤديه الحواس السليمة، وما يتلقاه العقل السليم من ذلك، ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين، بحيث لو جانبتْه التلقينات الضالة، والعوائد الذميمة، والطبائع المنحرفة، والتفكير الضار، أو لو تسلطت عليه تسلطًا ما، فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب، لجَرى في جميع شؤونه على الاستقامة، ولما صدرت منه

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٩). مسلم (٤/ ١٩٨٦-١٩٨٧/ ٢٥٦٤ [٣٣-٣٤]). ابن ماجه (٢/ ١٣٨٨/ ٤١٤٣).

إلا الأفعال الصالحة، ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره، ويُرخي العنان لهواه وشهوته، فترمي به في الضلالات، أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع، فيتابعهم طوعًا أو كرهًا، ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلده، فيعتاده وينسى الصواب والرشد. ويفسر هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»[1] الحديث؛ ذلك أن أبويه هما أول من يتولى تأديبه وتثقيفه، وهما أكثر الناس ملازمة له في صباه، فهما اللذان يُلقيان في نفسه الأفكار الأولى، فإذا سلم من تضليل أبويه فقد سار بفطرته شوطًا، ثم هو بعد ذلك عُرضة لعديد من المؤثرات فيه، إنْ خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، واقتصر النبي ﷺ على الأبوين، لأنهما أقوى أسباب الزج في ضلالتهما، وأشد إلحاحًا على ولدهما. ولم يعرج المفسرون قديمًا وحديثًا على تفسير التقويم بهذا المعنى العظيم، فقصروا التقويم على حسن الصورة، وروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والكلبي وإبراهيم وأبي العالية، أو على استقامة القامة، وروي عن ابن عباس، أو على الشباب والجلادة، وروي عن عكرمة وابن عباس. ولا يلائم مقصد السورة إلا أن يتأول بأن ذلك ذكر نعمة على الإنسان عكس الإنسان شكرها، فكفر بالمنعم فرد أسفل سافلين، سوى ما حكاه ابن عطية عن الثعلبي عن أبي بكر بن طاهر أنه قال: «تقويم الإنسان عقله وإدراكه اللذان زيّناه بالتمييز» ولفظه عند القرطبي قريب من هذا مع زيادة: «يتناول مأكوله بيده» وما حكاه الفخر عن الأصم أن ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ «أكمل عقل وفهم، وأدب وعلم وبيان». وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير، وأن في جبلته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنّه باطلًا أو هلاكًا، ومحبة الخير والحسن من الأفعال، لذلك تراه يسر بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره، ويغيث الملهوف ويعامل بالحسنى، ويغار على المستضعفين، ويشمئزّ من الظلم ما دام مجردًا عن رَوْم نفع يجلبه لنفسه، أو إرضاء شهوة يريد قضاءها، أو إشفاء غضب يجيش بصدره، تلك العوارض التي تحول بينه وبين فطرته زمنًا، ويهش إلى كلام الوعّاظ والحكماء والصالحين، ويكرمهم ويعظمهم ويودّ طول بقائهم. فإذا ساورتْه الشهوة السيئة فزينت له ارتكاب

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣، ٢٥٣، ٢٧٥، ٢٨٢، ٣١٥، ٣٩٣، ٤٨١)، والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨) من حديث أبي هريرة.

المفاسد ولم يستطع ردها عن نفسه انصرف إلى سوء الأعمال، وثَقُل عليه نصح الناصحين، ووعظُ الواعظين على مراتب في كراهية ذلك، بمقدار تحكم الهوى في عقله. ولهذا كان الأصل في الناس الخيرَ والعدالة، والرشد وحسن النية، عند جمهور من الفقهاء والمحدِّثين»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٤-٤٢٧).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين: منهم من أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين، فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين، والصحيح أنه النار، قاله مجاهد والحسن وأبو العالية، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي النار بعضها أسفل من بعض، وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء والكلبي وإبراهيم: أنه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس، والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصا بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن اللّه سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1]، فجعلهم قسمين: قسما متوفى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرا غير ممنون.

---

(١) الحج: الآية (٥).

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار، وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس، فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصيره بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدأه ومعاده، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين، أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن، وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه.

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره، والتكلف البعيد له، فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس، وإن قالوا من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء؟ فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا ردوا إلى أ رذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة، فهذا -وإن كان حقا- فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل، ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف، خص بعضهم الذي آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة، فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر، وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين قارئهم وأميهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه، وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان، وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به وأشرك به وعصى رسله نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم، صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين، فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه، وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾[١] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم»[٢].

قال ابن عاشور: «أحسب أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ انتزع منه مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره عياض في المدارك، قال: قال ابن أبي أويس: قال مالك: أقبل علي يوما ربيعة فقال لي: من السفلة يا مالك؟ قلت: الذي يأكل بدينه، قال لي: فمن سفلة السفلة؟ قلت: الذي يأكل غيره بدينه، فقال: زه، وصدرني. أي: ضرب على صدري يعني: استحسانا. وأن المشركين كانوا أسفل سافلين، لأنهم ضللهم كبراؤهم وأيمتهم، فسولوا لهم عبادة الأصنام لينالوا قيادتهم»[٣].

* * *

(١) الانشقاق: الآيتان (٢٤-٢٥).

(٢) التبيان (ص: ٣٥-٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٨-٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

★غريب الآية:

ممنون: مقطوع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الألوسي: «وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على ما تقدم، استثناء متصل من ضمير رددناه، العائد على الإنسان، فإنه في معنى الجمع، فالمؤمنون لا يردون أسفل سافلين يوم القيامة، ولا تقبح صورهم، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم وحسنا إلى حسنهم»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى هذا الاستثناء، فقال بعضهم: هو استثناء صحيح من قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ قالوا: وإنما جاز استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم جمع من الهاء في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ وهي كناية الإنسان، والإنسان في لفظ واحد، لأن الإنسان وإن كان في لفظ واحد، فإنه في معنى الجمع، لأنه بمعنى الجنس، كما قيل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾[2] قالوا: وكذلك جاز أن يقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ فيضاف أفعل إلى جماعة، وقالوا: ولو كان مقصودا به قصد واحد بعينه لم يجز ذلك، كما لا يُقال: هذا أفضل قائمين، ولكن يقال: هذا أفضل قائم وقال آخرون: بل الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد يدخلون في الذين ردّوا إلى أسفل سافلين، لأن أرذل العمر قد يردّ إليه المؤمن والكافر. قالوا: وإنما استثنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من معنى مضمر في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ قالوا: ومعناه: ثم رددناه أسفل سافلين، فذهبت عقولهم وخرفوا، وانقطعت أعمالهم، فلم تثبت لهم بعد ذلك حسنة﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) روح المعاني: (٣٠/ ١٧٦).
(٢) العصر: الآية (١-٢).

﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فإن الذي كانوا يعملونه من الخير في حال صحة عقولهم، وسلامة أبدانهم، جار لهم بعد هرمهم وخَرَفِهم.

وقد يُحتمل أن يكون قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ استثناء منقطعا، لأنه يحسن أن يقال: ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لهم أجر غير ممنون، بعد أن يردّ أسفل سافلين.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فإنه يُكتب لهم حسناتهم ويُتجاوز لهم عن سيئاتهم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم رددناه أسفل سافلين في جهنم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون، فعلى هذا التأويل: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات مستثنون من الهاء في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ﴾، وجاز استثناؤهم منها إذ كانت كناية للإنسان، وهو بمعنى الجمع، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[1].. وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة، قول من قال: معناه: ثم رددناه إلى أرذل العمر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال صحتهم وشبابهم، فلهم أجر غير ممنون بعد هرمهم، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل. وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة لما وصفنا من الدلالة على صحة القول بأن تأويل قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝﴾ إلى أرذل العمر»[2].

قال ابن كثير: «ولو كان هذا -القول- هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[3] »[4].

قال ابن القيم: «وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب، وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم، وذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية، قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة، فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه، وهذا القول خطأ قطعا، أُتِي أربابه من تشبيه نعمة اللّه على عبده بإنعام المخلوق على

(١) العصر: الآيتان (٢-٣).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٤٥-٢٤٨).
(٣) العصر: الآيات (١-٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٥٧).

المخلوق، وهذا من أبطل الباطل، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق، وأما من الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة، ولذتها وطيبها فإنها منة حقيقية، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾[2] فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة، وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[3] وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[5] الآية. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾[6] الآية. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالا فهداكم اللَّه بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم اللَّه بي؟**»[7] فجعلوا يقولون له: اللَّه ورسوله أمنُّ؛ فهذا جواب العارفين باللَّه ورسوله وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في منته وإنما قبحت منه المخلوق لأنها منة بما ليس منه وهي منة يتأذى بها الممنون عليه، وأما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة، فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها، وكيف يجوز أن يقال: إنه لا منَّة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟ فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم، لا نمن عليكم بما أعطيناكم، قيل: وهذا أيضا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنا له، ولا معاوضة عنه، وقد قال أعلم الخلق باللَّه ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل**»[8]، فأخبر أن دخول الجنة برحمة

---

(١) الحجرات: الآية (١٧).
(٢) الصافات: الآيتان (١١٤-١١٥).
(٣) طه: الآية (٣٧).
(٤) الطور: الآية (٢٧).
(٥) آل عمران: الآية (١٦٤).
(٦) القصص: الآية (٥).
(٧) أحمد (٤/ ٤٢). البخاري (٨/ ٥٩/ ٤٣٣٠). مسلم (٢/ ٧٣٨/ ١٠٦١) من حديث عبد اللَّه بن زيد بن عاصم.
(٨) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (١٠/ ١٥٧/ ٥٦٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦/ ٧٥).

اللَّه وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه سبحانه المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياهم لم يكن له عليه منة، فإن كان في الدنيا باطل، فهذا ليس منه في شيء. فإن قيل: كيف تقولون هذا، وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا وحَّدوه، أن لا يعذبهم وقد أخبر عن نفسه أن حقا عليه نصر المؤمنين؟ قيل: لعمر اللَّه هذا من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه؟ فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، فهو الكريم الواسع»[1].

* * *

(١) التبيان (ص: ٣٦-٣٨).

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

★غريب الآية:

الدين: الجزاء. من دان، بمعنى: جازى.. قال الشاعر:

دِنَّا تميمًا كما كانت أوَائِلُنَا دانتْ أَوَائِلَهُمْ في سالِفِ الزَّمَنِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وقوله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان؟ فتقول إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدإ خلقك وصورتك لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك، وينشئك خلقا جديدا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول، وأيضا فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقا لك إليها، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقضي خلافه، قال منصور: قلت لمجاهد ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ عنى به محمدا؟ فقال: معاذ الله إنما عنى به الإنسان، وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ واختاره الفراء، وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان. يقال: كذب الرجل إذا قال الكذب، وكذبته أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه، وكذبته إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقا، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[1] وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[2] فالأول بمعنى: وأن ينسبوك إلى الكذب، والثاني بمعنى: لا يعتقدون أنك كاذب ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته جحودا وعنادا، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه وإلى خبره بالباء وبفي،

---

(١) آل عمران: الآية (١٨٤).

(٢) الأنعام: الآية (٣٣).

فيقال: كذبته بكذا وكذبته فيه والأول أكثر استعمالا، ومنه قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾[1] وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾[2]. إذا عرف هذا فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ اختلف في ما، هل هي بمعنى: أي شيء يكذبك، أو بمعنى: من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى: أي شيء تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ، قال الفراء: كأنه يقول من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟ وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟ وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين: أحدهما: إقامة (ما) مقام (من)، وأمره سهل، والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقا، وهو يكذبك، أي: فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا بالدين أو مكذبا به، ولا يصح واحد منهما، أما الثاني والثالث فظاهر، فإن كذبته ليس معناه جعلته مكذبا أو مكذبا، وإنما معناه نسبته إلى الكذب، فالمعنى على هذا: فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به. وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به، ثم حذف المفعول به لظهور العلم به حتى كأنه نسي، وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى: كذبوك بكذا سواء، أي: نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان وهو المكذب، أي: فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي يجعلك مكذبا، والمعروف كذبه، إذا جعله كاذبا لا مكذبا، ومثل فسقه إذا جعله فاسقا لا مفسقا لغيره. وجواب هذا الإشكال: أن صدق وكذب بالتشديد- يراد به معنيان: أحدهما: النسب، وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم، والثاني: الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل، قال الكسائي: يقال: ما صدقك بكذا أو ما كذبك بكذا، أي: ما حملك على التصديق والتكذيب. قلت: وهو نظير ما أجرأك على هذا، أي: ما حملك على

(١) ق: الآية (٥).

(٢) البقرة: الآية (٣٩).

الاجتراء عليه، وما قدمك وما أخرك، أي: ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير، وهذا استعمال سائغ موافق للعربية، وبالله التوفيق. ثم ختم السورة بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ وهذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة والتوحيد والمعاد وحكمه، بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ما جاء به بالحجة والقدرة، والظهور عليه وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق حالا بعد حال إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حُكمه وحكمته؟ فلله ما أخصر لفظ هذه السورة وأعظم شأنها وأتم معناها، والله أعلم»[١].

* * *

---

(١) التبيان (ص: ٣٨-٤٠).



سورة العلق

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أغراضها تلقين محمد ﷺ الكلام القرآني وتلاوته، إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل، والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر، لأن اللَّه الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء. وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم. وتوجيهه إلى النظر في خلق اللَّه الموجودات، وخاصة خلقه الإنسان خلقا عجيبا مستخرجا من علقة، فذلك مبدأ النظر. وتهديد من كذب النبي ﷺ وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى. وإعلام النبي ﷺ أن اللَّه عالم بأمر من يناوونه، وأنه قامعهم وناصر رسوله، وتثبيت الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى اللَّه، وأن لا يعبأ بقوة أعدائه، لأن قوة اللَّه تقهرهم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ نزول السورة وصفات الداعية وما يلقاه من الأذى في حياته الدعوية

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أول ما بدئ به رسول اللَّه ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حراء، فيتحنث فيه -قال: والتحنث التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود بمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال رسول اللَّه ﷺ: ما أنا

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٤).

بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، **قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال**: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ الآيات إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. فرجع بها رسول اللَّه ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال: **زملوني زملوني**. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. قال لخديجة: **أي خديجة! ما لي؟ لقد خشيت على نفسي**. فأخبرها الخبر، قالت خديجة: كلاّ، أبشر، فواللَّه لا يخزيك اللَّه أبدًا، فواللَّه إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء اللَّه أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت خديجة: يا بن عم! اسمع من ابن أخيك، قال ورقة: يا بن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا، ذكر حرفًا، قال رسول اللَّه ﷺ: **أو مخرجيّ هم؟** قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حيًّا أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول اللَّه ﷺ»[(١)].

⋆ غريب الحديث:

الرؤيا الصادقة: وهي التي لا تكون أضغاثًا، ولا من تلبس الشيطان.

فلق الصبح: شبه ما جاء في اليقظة ووجده في الخارج طبقًا لما رآه في المنام بالصبح في إنارته ووضوحه، والفلق الصبح، لكن لما كان استعماله في هذا المعنى وغيره أضيف إليه للتخصيص والبيان إضافة العام إلى الخاص.

الخلاء: بالمد: المكان الخالي، ويراد به الخلوة، وهو المراد هنا.

---

(١) أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

يتحنث: بالحاء المهملة ثم النون ثم الثاء المثلثة، قد فسره في الحديث بأنه التعبد.

يتزود: من التزود، وهو اتخاذ الزاد.

فجأه الحق: أتاه أمر الحق بغتة.

فغطني: من الغط، وهو العصر الشديد والضغط، ومنه الغط في الماء، وهو الغوص فيه.

الجهد: يجوز فيه فتح الجيم وضمها، وهو الغاية والمشقة.

ترجف بوادره: أي: تضطرب، وبوادره، بفتح الباء الموحدة، وهي اللحمة التي بين الكتف والعنق، ترجف عند الفزع.

زمّلوني: من التزميل، وهو التلفيف، والتزمل الاشتمال والتلفف، ومثله التدثر.

الرَّوع: بفتح الراء، هو الفزع. وأما الذي بضم الراء، فهو موضع الفزع من القلب.

لا يخزيك: من الخزي، وهو الفضيحة والهوان.

الكَلّ: بفتح الكاف، وهو ما لا يستقل بأمره.

تُكسب المعدوم: بضم أوله، والمعدوم الفقير، والكسب: الاستفادة، فكأنها قالت: إذا رغب غيرك أن يستفيد مالًا موجودًا، رغبت أنت أن تستفيد رجلًا فتعاونه، وقال قاسم بن ثابت في «الدلائل»: قوله: «يكسب» معناه: ما يعدمه غيره ويعجز عنه يصيبه ويكسبه.

تَقري الضيف: بفتح التاء، تقول: قَرَيْتُ الضيفَ أَقْرِيهِ قِرىً، بكسر القاف والقصر.

نوائب الحق: النوائب: جمع نائبة، وهي الحادثة والنازلة خيرًا أو شرًّا، وإنما قال: «الحق»؛ لأنها تكون في الحق والباطل.

الناموس: صاحب السر، والمراد جبريل عليه السلام.

جذعًا: بفتح الجيم والذال المعجمة والعين المهملة: الشاب القوي.

ذكر حرفًا: أي: ذكر ورقةُ بعد ذلك كلمة أخرى، وهي في الروايات الأخر: «إذ يخرجك قومك».

مؤزرًا: بلفظ اسم المفعول، من التأزير، أي: التقوية، والأزر القوة.

لم ينشب: بفتح الشين المعجمة، أي: لم يلبث.

فتر الوحي: أي: احتبس، وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان؛ ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع؛ ليحصل التشوق إلى العود.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن أبي جمرة: «هذا الحديث يحتوي على فوائد كثيرة من أحكام وآداب ومعرفة بقواعد جملة من قواعد الإيمان، ومعرفة بالسلوك والترقي في المقامات، ولأجل ما فيه من هذه المعاني حدث به النبي ﷺ عائشة ﵂ لتبدي ذلك للناس، لكي يتأسوا بتلك الآداب، ويحصل لهم معرفة بكيفية الترقي من مقام إلى مقام، مع ما فيه من فائدة المعرفة، بابتداء أمره ﵇ كيف كان، لأن النفوس أبدا تتشوف إلى معرفة مبادئ الأمور كلها، وتنشرح الصدور للاطلاع عليها، فكيف بها لابتداء هذا الأمر الجليل الذي فيه من الفوائد ما قد ذكرناه، ويعرف منه مقتضى الحكمة في تربيته وتأديبه، ولأجل ما فيه من هذه الفوائد حدثت به عائشة ﵂، وأخذ عنها»[1].

قال الخطابي: «وهذه الأمور التي كان بدئ بها من صدق الرؤيا وحب العزلة عن الناس والخلوة في غار حراء والتعبد فيه ومواظبة الصبر عليه الليالي ذوات العدد، وإنما هي أسباب ومقدمات أرهصت لنبوته، وجعلت بادئة لظهوره، ورؤيا الأنبياء حق، قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ونزع بقول اللَّه ﷻ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[2].

وكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه، والخلوة يكون معها فراغ القلب، وهي معينة على الفكر وقاطعة لدواعي الشغل، والبشر لا ينتقل عن طباعه، ولا يترك ما ألفه من عاداته إلا بالرياضة البليغة، والمعالجة الشديدة، فلطف اللَّه تعالى لنبيه ﷺ في بدء

(١) بهجة النفوس (١/ ٨).

(٢) الصافات: الآية (١٠٢).

أمره، فحبب إليه الخلوة، وقاطعه عن مخالطة البشر ليتناسى المألوف من عاداتهم، ويستمر على هجران ما لا يحمد من أخلاقهم، وألزمه شعار التقوى، وأقامه مقام التعبد بين يديه ليخشع قلبه وتلين عريكته لورود الوحي، فيجد فيه مرادًا سهلًا، ولا يصادفه حزنًا وعرًا، وعلى هذا المعنى كان -والله أعلم- مطالبة الملك إياه بالقراءة، ومعالجته إياه بالغط وشدة الضغط، فإن الآدمي إذا بلغ منه هذا المبلغ في أمر سمح به إن كان في وسعه، أو تكلف منه بعض ما حمل منه إن لم يكن ذلك من طبعه، فجعلت هذه الأسباب مقدمات لما أرصد له من الشأن ليرتاض بها، ويستعد لما ندب له منه، ثم جاء التوفيق والتيسير وأمد بالقوة الإلهية، وبزت منه النقائص البشرية، وجمعت له الفضائل النبوية»[1].

قال ابن أبي جمرة: «قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ فيه دليل لمن ذهب من العلماء إلى أن أول الواجبات الإيمان، دون النظر والاستدلال، وأن النظر والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة، لأن قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ تمت به الفائدة، وحصل به الإيمان المجزي، وقوله بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ هو طلب النظر والاستدلال، وهو زيادة كمال الإيمان، لأن الأنبياء ﷺ أكمل الناس إيمانا، ولم يفرض الله ﷻ على الناس على أيديهم إلا الإيمان المجزي، وبقي الكمال يهبه الله لمن يشاء من أتباعهم، يشهد لما قررناه قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[2] الحديث. فلم يطلب منهم إلا النطق بكلمة الإخلاص، ولم يشترط في ذلك نظرا ولا استدلالا»[3].

قال ابن كثير: «فأول شيء من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيه التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم

---

(١) أعلام الحديث (١/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩١-٣٩٢)، البخاري (٨/ ٨٣٦/ ٤٩٠٥)، مسلم (٤/ ١٩٩٨-١٩٩٩/ ٢٥٨٤[٦٣])، الترمذي (٥/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٣٣١٥)، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٢/ ١١٥٩٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) بهجة النفوس (١/ ١٣).

تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾»[1].

قال القاضي عياض: «قد اختلف العلماء في أول ما نزل من القرآن فقيل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ على مقتضى ظاهر هذا الحديث، وهو قول عائشة وجماعة من المفسرين، وقيل: إن الذي نزل منها أولا إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ وهو مفسر في الحديث، ثم نزل بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾، وفي رواية جابر: إنّ أوّل ما نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[2].

قال ابن أبي جمرة: «قد اختلف العلماء في هاتين الآيتين أيتهما أنزلت قبل صاحبتها، بعد اتفاقهم على أنهما أول ما نزل من القرآن أعني آية المدثر وآية اقرأ، فمن قائل يقول: آية المدثر، ومن قائل يقول: آية اقرأ، وكلاهما والله أعلم حق، لأنه يمكن الجمع بينهما بأن يقال: أول ما نزل من التنزيل آية اقرأ، وأول ما نزل من الأمر بالإنذار في التنزيل آية المدثر. ومثله قوله ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد الصلاة**»[3]، وقوله ﷺ: «**أول ما يقضى فيه الدماء**»[4]. وهذان أيضا حديثان متعارضان، ويمكن الجمع بينهما على ما قررناه في الجمع بين الآيتين، وهو أن يقال: أول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة، وأول ما يحكم فيه في المظالم التي بين العباد في الدماء، فصح الجمع بين الآيتين والحديثين بهذا الذي ذكرناه، والله أعلم»[5].

قال الحافظ: «هذا القدر من هذه السورة هو الذي نزل أولًا والحكمة في هذه

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥٩).

(٢) الإكمال (١/ ٤٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٠)، وأبو داود (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٨٦٤)، والترمذي (٢/ ٢٦٩-٢٧٠/ ٤١٣) وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والنسائي (١/ ٢٥١/ ٤٦٤)، وابن ماجه (١/ ٤٥٨/ ١٤٢٥)، والحاكم (١/ ٢٦٢) وقال: «حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨). البخاري (١٢/ ٢٣٠/ ٦٨٦٢)، مسلم (٣/ ١٣٠٤/ ١٦٧٨)، الترمذي (٤/ ١٠/ ١٣٩٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، النسائي (٧/ ٩٦/ ٤٠٠٤)، ابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٥).

(٥) بهجة النفوس (١/ ٢٤).

الأولية أن هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن، ففيها براعة الاستهلال، وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله، وهذا بخلاف الفن البديعي المسمى العنوان، فإنهم عرفوه بأن يأخذ المتكلم في فن فيؤكده بذكر مثال سابق، وبيان كونها اشتملت على مقاصد القرآن أنها تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار، وقد اشتملت على الأمر بالقراءة والبداءة فيها ببسم اللَّه، وفي هذه الإشارة إلى الأحكام، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل، وفي هذا إشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾»[1].

قال ابن أبي جمرة: «لقائل أن يقول: لم أنزلت هذه الآية أولًا قبل غيرها من آي القرآن؟ أعني: قوله ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، والجواب عنه أن نقول: إن كان ذلك تعبدًا فلا بحث، وإن كان ذلك لحكمة فحينئذ نحتاج إلى البحث فيها، ومعنى قولنا: تعبدًا، أي: تعبدنا اللَّه بذلك، ولم يطلعنا على الحكمة فيها، وأما الأمر في نفسه فلا بد فيه من حكمة هو ﷻ يعلمها، ومن شاء اطلاعه عليها. وظاهر مسألتنا هذه أنها لحكمة تفهم وتعرف من لفظ الآي، بيان ذلك: أن هذا الكلام دل بمنطوقه وما تضمن من الفوائد على ما تضمنه القرآن إجمالًا، بيانه أن كل ما كان في القرآن من آيات الإيمان والتوحيد والتنزيه دل عليه مضمون اسم الربوبية، وما كان فيه من الأمر والنهي والترغيب والترهيب والندب والإرشاد والمحكم والمتشابه دل عليه مضمون مقتضى حكمة الربوبية وما كان فيه من استدعاء الفكرة والنظر والاستدلال وما أشبه ذلك دل عليه متضمن مقتضى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ وما كان فيه من الرحمة والمغفرة والإيناس والإنعام والترجي والإحسان والإباحة وما أشبه ذلك، دل عليه متضمن كرم الربوبية، فلما كان بعد هذا الإجمال نزلت الآيات بحسب ما احتيج إليها مبينة بالنص لما تضمنه هذا الكلام الجليل من الإجمال. فلما تجلت معاني ذلك الإجمال تبيينًا وتفسيرًا قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2]، أي: ما أجملت لكم أولًا اليوم أكملته لكم في التنزيل مفصلًا؛ لأن متضمن الكمال

(١) فتح الباري (٨/ ٩٢١-٩٢٢).

(٢) المائدة: الآية (٣).

يقتضي قبله أجزاء، والأجزاء هو ما أشرنا إليه من الإجمال، فكان الأول مصدقًا للثاني، والثاني مصدقًا للأول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال: «في الآية شبه الحال والإشارة بالتسلي للنبي ﷺ والصبر عند نزول الحوادث والوعد له بالنصر والظفر؛ لأن نسبته ﷺ الآن منفردًا في أول أمره كنسبته في خلقه أولًا علقة، فالإشارة إلى الامتحان بانتقال العلقة بالتطوير حتى رجع بشرًا، ثم الخروج إلى هذه الدار، وهي دار المكابدات، فالإخراج مقابله الخروج، والتطويرات مقابلها التغييرات، والإشارة إلى اللطف بالإلطاف في إخراجه من ظلمة الحشا بلا نصب ولا أذى، وتيسير اللطف له بالغذاء مثل إجراء اللبن له من بين فرث ودم بلا تعب ولا عناء، والإشارة إلى النصر والظفر بما رزق بعد ذلك الضعف من كمال القوى والعقل والتصرف ودفع المضار وجلب المنافع، فلم تضره تلك التطويرات حين صار أمره إلى هذا الحال، فكذلك خروجه ﷺ الآن بالضعف؛ لأنه وحيد فيما يأتي به يدعو لشيء لا يفهم عنه ولا يعرف للعوائد التي جرت بضد ما يدعو إليه، فكأنه ﷻ يقول له في ضمن ذلك الكلام: لا تهتم لشيء من ذلك، فإن العاقبة بالنصر لك وبالظفر. يؤيد ما أشرنا إليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[(٣)]، فما سلى به بالضمن فيما نحن بسبيله صرح له به في هذه الآية؛ لأنه ﷻ مثّله بالزرع الذي يخرج وحده أولًا منفردًا، ثم أخرج شطأه، أي: أفراخه، فاستوت الأفراخ والأصل، وتلاحقت بالسبل فنورت وأينعت، فأعجب الزراع، وأغاظ الكفار، فسبحان القادر على ما يشاء كيف يشاء»[(٤)].

وقال: «قول جبريل ﵇ للنبي ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ يريد: اذكر اسم ربك، وفيه دليل على أن الإنسان إنما يخاطب أولا بما يعرف أنه يصل إلى فهمه بسرعة من غير مشقة ولا بحث يحتاج إليه، لأن الله ﷻ قد أحال نبيه ﷺ أولا على أن ينظر في

---

(١) النساء: الآية (٨٢).
(٢) بهجة النفوس (١/ ١٣-١٤).
(٣) الفتح: الآية (٢٩).
(٤) بهجة النفوس (١/ ١٤).

خلق نفسه بقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾، ولم يقل له الذي خلق السموات والأرض والأفلاك وغير ذلك، وإنما قال له ﷻ ذلك بعد ما تقرر له خلق نفسه وما هو عليه، وحصل له من المادة الإلهية ما يتسلط به على ذلك»[١].

وقال: «فيه دليل على أن الفكرة أفضل الأعمال، لأن في ضمن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ ما يستدعي الفكرة فيما قيل، حتى يحصل للمخاطب بذلك علم قطعي وإيمان صادق، وليس الإيمان به والتصديق بعد الفكرة كالإيمان به بديهة.. لأن المرء إذا تفكر قوي إيمانه وبان له الحق واتضح، وبقدر تعمقه في الفكرة يقوى الإيمان»[٢].

وقال: «فيه دليل على أن المتفكر في عظمة اللّه وجلاله ينبغي أن يتفكر عقب ذلك في عفو اللّه وكرمه وإحسانه، لأن قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ معناه ما تقدم، وهو استدعاء الفكرة فيما نص اللّه عليه، وذلك يقتضي العظمة والإجلال، ثم قال ﷻ بعد ذلك: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، وهذا الاسم يتضمن معاني الأسماء كلها الموجبة للطف والإحسان، نسأل اللّه بمنه أن يعاملنا بمقتضى متضمنه، والحكمة في منع التفكير في عظمة اللّه دون ما يضادها، أن المتفكر فيها إذا تفكر فيها وحدها قد يخاف عليه، لئلا يذهب به الخوف إلى بحر التلف، وهو القنط، فإذا أعقبه بالتفكر في مقتضى الرحمة والإحسان أمن من ذلك»[٣].

قال السهيلي: وقوله: «ما أنا بقارئ»، أي: إني أمي، فلا أقرأ الكتب، قالها ثلاثا، فقيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: إنك لا تقرؤه بحولك، ولا بصفة نفسك، ولا بمعرفتك، ولكن اقرأ مفتتحا باسم ربك مستعينا به، فهو يعلمك كما خلقك، وكما نزع عنك علق الدم، ومغمز الشيطان بعد ما خلقه فيك، كما خلقه في كل إنسان، والآيتان المتقدمتان لمحمد، والآخرتان: لأمته، وهما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ لأنها كانت أمة أمية لا تكتب، فصاروا أهل كتاب، وأصحاب قلم، فتعلموا القرآن بالقلم، وتعلمه نبيهم تلقينا من جبريل نزله على قلبه بإذن اللّه، ليكون من المرسلين. الاستفتاح باسم الله: وفي قوله: ﴿ٱقْرَأْ

(١) المصدر السابق (١/ ١٧).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٧-١٨).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٨).

﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ من الفقه: وجوب استفتاح القراءة ببسم اللَّه الرحمن الرحيم، غير أنه أمر مبهم لم يبين له بأي اسم من أسماء ربه يفتتح، حتى جاء البيان بعد في قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾[(١)] ثم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(٢)] ثم كان بعد ذلك ينزل جبريل عليه ببسم اللَّه الرحمن الرحيم مع كل سورة، وقد ثبتت في سواد المصحف بإجماع من الصحابة على ذلك، وما ذكره البخاري من مصحف الحسن البصري فشذوذ، فهي على هذا من القرآن، إذ لا يكتب في المصحف ما ليس بقرآن، ولا يلتزم قول الشافعي أنها آية من كل سورة، ولا أنها آية من الفاتحة، بل نقول: إنها آية من كتاب اللَّه تعالى، مقترنة مع السورة، وهو قول داود وأبي حنيفة، وهو قول بين القوة لمن أنصف»[(٣)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ »[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الخلاف في أول ما نزل من القرآن في سورة (المدثر)، فلينظر.

* * *

---

(١) هود: الآية (٤١).

(٢) النمل: الآية (٣٠).

(٣) الروض الأنف (١/ ٢٧٠-٢٧١).

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢٥٢)، والحاكم (٢/ ٢٢٠-٢٢١ و٥٢٩) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي (٩/ ٦) وفيه عنعنة ابن إسحاق لكن له شواهد.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾
ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

★ غريب الآية:

علق: جمع علقة، وهي القطعة الجامدة من الدم. سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإن جفت لم تكن علقة. قال الشاعر:

تركناه يخر على يديه يمج عليهما علق الوتين

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض بيانه لأوجه تفضيل العلم وأهله: «الوجه الثامن والثلاثون: أن أول سورة أنزلها اللَّه في كتابه سورة القلم، فذكر فيها ما من به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم، فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم، وذكر خلقه خصوصا وعموما، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته، وعلمه وحكمته، وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، وذكر هنا مبدأ خلقه من علق، لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم، وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو موليها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقا، ثم ذكر تعليمه عموما وخصوصا، فقال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصا فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ

يَعۡلَمۡ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها، فإن الوجود له مراتب أربعة: إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ واللفظية من لوازم التعليم بالقلم، فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه، فهو الخالق المعلم، وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد، وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبأقداره وخلقه وتعليمه، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته، من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفا وفضلا له»[١].

وقال: «تأمل نعمة اللَّه على الإنسان بالبيانين، البيان النطقي والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه، فذكر أولا عموم الخلق، وهو إعطاء الوجود الخارجي، ثم ذكر ثانيا خصوص خلق الإنسان، لأنه موضع العبرة، والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب أو الطين، أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق، وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة، فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة، ثم ذكر ثالثا التعليم بالقلم، الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٢-٢٤٣).

الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، لما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان، فنعمة اللَّه ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن، من أجل النعم والتعليم به، وإن كان مما يتخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها اللَّه منه، وفضل أعطاه اللَّه إياه، وزيادة في خلقه وفضله فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإن علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم، هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد، فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم، وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب، والنظم والنثر، وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا، معناه: أعجب من صورته، فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك ويجدي عليك مالا يجدي من ترسله، سوى من: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة: مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب، ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العيني، فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعليما، وذكر خلقين وتعليمين: خلقا عاما وخلقا خاصا، وتعليما خاصا وتعليما عاما، وذكر من صفاته ههنا اسم الأكرم، الذي فيه كل خير وكل كمال، فله كل

كمال وصفا، ومنه كل خير فعلا، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك، وهو الغني الحميد»[١].

قال عطية سالم: «وفي هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب، والعام بالخاص، والدليل بالمدلول عليه، وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك. وفي الواقع أنها كلها مسائل أساسية، بالغة الأهمية، عظيمة الدلالة. وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية: إنها وأمثالها من السور التي فيها العجائب، وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة، ولا تستطيع إيفاءها حقها عجزًا وقصورًا. وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية، وفصلًا آخر في مباحث تتصل بها، ولو أوردنا كل ما يسعنا مما تحتمله لكان خروجًا عن موضوع الكتاب، ولذا فإنا نقصر القول على ما يتصل بموضوعه، إلا ما جرى القلم به مما لا يمكن تركه، وباللَّه تعالى التوفيق.

أما المسائل التسع التي ذكرت هنا، فإنا نوردها لنتقيد بها وهي:

أولًا: الأمر بالقراءة يوجه لنبي أمي.

والثانية: كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافًا للمخاطب ﷺ باسم ربك.

الثالثة: وصف للرب الذي خلق بدلًا من اسم اللَّه، واسم الذي يحيي ويميت أو غير ذلك.

الرابعة: خلق الإنسان بخصوصه، بعد عموم خلق وإطلاقه.

الخامسة: خلق الإنسان من علق، ولم يذكر ما قبل العلقة من نطفة أو خلق آدم من تراب.

السادسة: إعادة الأمر بالقراءة مع ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، بدلًا من أي صفة أخرى، وبدلًا من الذي خلق المتقدم ذكره.

الثامنة: التعليم بالقلم.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٣٩-٢٤١).

التاسعة: تعليم الإنسان ما لم يعلم.

لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح، فهي بحق افتتاحية الوحي، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم، والكلام على ذلك مستفيض في كتب التفسير والحديث والسيرة، فلا موجب لإيراده هنا. ولكن نورد الكلام على ما ذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء اللَّه.

أما المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، فالقراءة لغة الإظهار والإبراز، كما قيل في وصف الناقة: لم تقرأ جنينًا، أي: لم تنتج. وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لغة، وتوجيه الأمر بالقراءة إلىٰ نبي أمي لا تعارض فيه، لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل ﷺ، وهذا إبراز للمعجزة أكثر، لأن الأمي بالأمس صار معلمًا اليوم.

وقد أشار السياق إلى نوعي القراءة هذين حيث جمع القراءة مع التعليم بالقلم. وفي وقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بدء للنبوة وإشعار بالرسالة، لأنه يقرأ كلام غيره. وقوله تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، تؤكد لهذا الإشعار، أي: ليس من عندك ولا من عند جبريل الذي يقرئك. وقد قدمنا الرد على كونه ﷺ لم يكتب ولا يقرأ مكتوبًا من أنه صيانة للرسالة، كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغي له، إذًا لارتاب المبطلون كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[1] الآية. وذلك عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾[2] وهنا لم يبين ما يقرؤه ولكن مجيء سورة القدر بعدها بمثابة البيان لما يقرؤه وهي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾[3]، وجاء بيان ما أنزل في سورة الدخان ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾[4]. وللشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾[5]، فكأنه في قوة اقرأ ما يوحى إليك من ربك، والمراد به هو القرآن بالإجماع.

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٨).
(٢) الجمعة: الآية (٢).
(٣) القدر: الآية (١).
(٤) الدخان: الآيات (١-٣).
(٥) النساء: الآية (١١٣).

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، أي اقرأ باسم ربك منشئًا ومبتدئًا القراءة باسم ربك، وقد تكلم المفسرون على الباء أهي صلة ويكون اقرأ اسم ربك، أي: قل باسم اللَّه كما في أوائل السور. وقيل: الباء بمعنى على، أي: على اسم ربك وعليه فالمقروء محذوف.

والذي يظهر واللَّه أعلم أن قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: إنما تقرأه هو من ربك، وتبلغه للناس باسم ربك، وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[1]. وقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾[2]، أي عن اللَّه تعالى. وكقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[3]. ونظير هذا في الأعراف الحاضرة خطاب الحكم، أو ما يسمى خطاب العرش، حينما يقول ملقيه باسم الملك، أو باسم الأمة، أو باسم الشعب، على حسب نظام الدولة، أي: باسم السلطة التي منها مصدر التشريع والتوجيه السياسي. وهنا باسم اللَّه، باسم ربك، وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذي ينبه العبد إلى ما أولاه اللَّه إياه من التربية والرعاية والعناية، إذ الرب يفعل لعبده ما يصلحه، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخيري الدنيا والآخرة، وفي إضافته إلى المخاطب إيناس له.

المسألة الثالثة: وصف الرب بالذي خلق مع إطلاق الوصف، وذلك لأن صفة الخلق هي أقرب الصفات إلى معنى الربوبية، ولأنها أجمع الصفات للتعريف باللَّه تعالى لخلقه، وهي الصفة التي يسلمون بها ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[4]. ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[5] ولأن كل مخلوق لا بد له من خالق ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾[6]، وقد أطلق صفة الخلق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود كله، خالق كل شيء في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[7]. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[8]. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾[9].

---

(١) النجم: الآيتان (٣-٤).
(٢) المائدة: الآية (٩٩).
(٣) النساء: الآية (٦٤).
(٤) لقمان: الآية (٢٥).
(٥) الزخرف: الآية (٨٧).
(٦) الطور: الآية (٣٥).
(٧) الأنعام: الآية (١٠٢).
(٨) الزمر: الآية (٦٢).
(٩) الحشر: الآية (٢٤).

وتلك المسائل الثلاث: هي الأصول في الرسالة وما بعدها دلالة عليها، فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحي، وباسم ربك بيان لجهة التكليف، والذي خلق تدليل لتلك الجهة، أي: الرسالة والرسول والمرسل مع الدليل المجمل. ولا شك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا بواحدة منها، فكان لا بد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل، ولما كانت جهة المرسل هي الأساس وهي المصدر، كان التدليل عليها أولًا، فجاء التفصيل في شأنها بما يسلمون به ويسلمونه في أنفسهم، وهي المسألة الرابعة.

والخامسة: خلق الإنسان من علق، وهذا تفصيل بعد إجمال ببيان للبعض من الكل، فالإنسان بعض مما خلق، وذكره من ذكر العام بعد الخاص أولًا، ومن إلزامهم بما يسلمون به ثم لانتقالهم مما يعلمون، ويقرون به إلى ما لا يعلمون وينكرون. وفي ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له، كذكر الروح بعد عموم الملائكة، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[1] ونحوه، والإنسان هنا الجنس بدليل الجمع في علق جمع علقة، ولأنه أوضح دلالة عنده، ليستدل بنفسه من نفسه كما سيأتي.
وقوله: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾، وهو جمع علقة، وهي القطعة من الدم، كالعرق أو الخيط بيان على قدرته تعالى، وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحيانًا فيما تلقى به الرحم، ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان. فالقادر على إيجاد إنسان في أحسن تقويم من هذه العلقة، قادر على جعلك قارئًا وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل، كما أوجد الإنسان من تلك العلقة ولم يكن موجودًا من قبل، ولأن الذي يتعهد تلك العلقة حتى تكتمل إنسانًا يتعهدها بالرسالة. وقد يكون في اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة وجوده أن غيره من المخلوقات لم تعلم مبادئ خلقتها كعلمهم بالإنسان، ولأن الإنسان قد مر ذكره في السورة قبلها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[2]، فبين أنه من هذه العلقة كان في أحسن تقويم، ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن المقام هنا مقام دلالة على وجود اللَّه، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به لله، ولم يبدأ من النطفة أو التراب؛ لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان، فقد تقذف في غير رحم

---

(١) القدر: الآية (٤).

(٢) التين: الآية (٤).

كالملتحم، وقد تكون فيه، ولا تكون مخلقة. اهـ.

وهذا في ذاته وجيه، ولكن لا يبعد أن يقال: إن السورة في مستهل الوحي وبدايته، فهي كالذي يقول: إذا كنت بدأت بالوحي إليه ولم يكن من قبل، ولم يوجد منه شيء بالنسبة إليك، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقة، بعد أن لم يكن شيئًا. وعليه يقال: لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي، قد تركت أيضًا وهي فترة الرؤيا الصالحة، كما في الصحيحين «أنه ﷺ كان أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصالحة، يراها فتأتي كفلق الصبح»[1] فكان ذلك إرهاصًا للنبوة وتمهيدًا لها لمدة ستة أشهر، ولذا قال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءًا من النبوة**»[2] وهي نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحي، ولكن الرؤيا الصالحة قد يراها الرجل الصالح، ومثل ذلك تمامًا فترة النطفة، فقد تكون النطفة ولا يكون الإنسان، كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة، أما العلقة فلا تكون إلا في رحم وقرار مكين، ومن ثم يأتي الإنسان مخلقًا كاملًا، أو غير مخلق على ما يقدر له، فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان، وكان مثلها فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر، ويبدأ الدليل بما هو الواقع المسلم على أن اللَّه تعالى هو الخالق، والخالق للإنسان من علقة، فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل، فالدليل هو خلق الإنسان، والمستدل به هو الإنسان نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[3]، فيستدل لنفسه من نفسه على قدرة خالقه سبحانه. وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق، كان بعده إقامة الدليل على صحة النبوة ورسالة الرسول ﷺ.

فجاءت المسألة السادسة: وهي إعادة القراءة في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾، إذ أقام الدليل على أنك مرسل من اللَّه تبلّغ عنه وتقرأ باسمه، فاعلم أن تلك القراءة وهذا الوحي من ربك الأكرم، والأكرم قالوا: هو الذي يعطي بدون مقابل، ولا انتظار مقابل، والواقع أن مجيء الوصف هنا بالأكرم بدلًا من أي صفة أخرى،

(١) أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (١/ ٣٤٨-٤٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٨٧٦)، والنسائي (٢/ ٥٣٤/ ١٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٩) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٣) الذاريات: الآية (٢١).

لما في هذه الصفة من تلاؤم للسياق، ما لا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة. فأولًا: رحمة الخليقة بهذه القراءة التي ربطت العباد بربهم وكفى. وثانيًا: نعمة الخلق والإيجاد، فهما نعمتان متكاملتان: الإيجاد من العدم بالخلق، والإيجاد الثاني من الجهل إلى العلم، ولا يكون هذا كله إلاً من الرب الأكرم سبحانه.

ثم تأتي المسألة الثامنة: وهي من الدلالة على النبوة والرسالة، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾، سواء كان الوقف على: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وابتداء الكلام: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾. أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾، لأن من يعلم الجاهل بالقلم، يعلّم غيره بدون القلم بجامع التعليم بعد الجهل. فالقادر على هذا قادر على ذلك.

والتاسعة: بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذي علمه بالقلم. فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، وهذا مشاهد ملموس في أشخاصهم ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[١]. فاللَّه الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وكل ما تعلمه الإنسان فهو من اللَّه ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢]، وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول ما لم يكن يعلم؟ وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة، أي: الرسالة والرسول والمرسل، وهي أسس الدعوة والبعثة الجديدة. وقد اشتهر عند الناس أنه نبئ «باقرأ» وأرسل «بالمدثر» ولكن في نفس هذه السورة معنى الرسالة، لما قدمنا من أن القراءة باسم ربك، إشعار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم، ففيها إثبات الرسالة من أول بدء الوحي.

تنبيه: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾، مبحث التعليم ومورد سؤال، وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه علّم بالقلم وأنه علّم الإنسان ما لم يعلم، فكان فيه الإشادة بشأن القلم، حيث إن اللَّه تعالى قد علم به، وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم، ثم أورده في معرض التكريم في قوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[٣]، وعظم المقسم عليه

---

(١) النحل: الآية (٧٨).

(٢) المائدة: الآية (٤).

(٣) القلم: الآيتان (١-٢).

وهو نعمة الله على رسوله ﷺ بالوحي، يدل على عظم المقسم به، وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحي وغيره. وقد ذكر القلم في السنة أنواعًا متفاوتة، وكلها بالغة الأهمية.

منها أولها وأعلاها: القلم الذي كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، والوارد في الحديث: «**أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب**»(١) الحديث. فعلى رواية الرفع، يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالقدر كله، وبما قدر وجوده كله.

ثانيها: القلم الذي يكتب مقادير العام في ليلة القدر من كل سنة، المشار إليه بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾(٢).

ثالثها: القلم الذي يكتب به الملك في الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل.

رابعها: القلم الذي بأيدي الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾(٣)، أي بالكتابة كما في قوله: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾(٤)، إذا قلنا إن الكتابة في ذلك تستلزم قلمًا، كما هو الظاهر.

خامسا: القلم الذي بأيدي الناس يكتبون به ما يعلمهم الله، ومن أهمها أقلام كتاب الوحي، الذين كانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، وكتابة سليمان لبلقيس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝﴾، شامل لهذا كله، إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره، وعظيم المنة له على الأمة، بل وعلى الخليقة كلها. وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة، فلماذا لم يكن النَّبي ﷺ الذي أعلن عن هذا الفضل كله للقلم! لم يكن هو كاتبًا به، ولا من أهله؛ بل هو أمي لا يقرأ ولا يكتب، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾. والجواب: أنا أشرنا أولًا إلى ناحية من، وهي أنه أكمل للمعجزة، حيث أصبح النَّبي الأمي معلمًا كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠٠)، والترمذي (٥/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٣٣١٩) وقال: «حديث حسن غريب». وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٢) الدخان: الآية (٤).

(٣) ق: الآية (١٨).

(٤) الانفطار: الآيتان (١١-١٢).

(٥) آل عمران: الآية (١٦٤).

وثانيًا: لم يكن هذا النَّبي الأمي مُغْفِلًا شأن القلم؛ بل عنى به كل العناية، وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتّابًا للوحي يكتبون ما يوحى إليه بين يديه، مع أنه يحفظه ويضبطه، وتعهد اللَّه له بحفظه وبضبطه في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[١]، حتى الذي ينساه يعوضه اللَّه بخير منه أو مثله، كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٢]، ووعد اللَّه تعالى بحفظه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾[٣]. ومع ذلك، فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة كتاب، وهذا غاية في العناية بالقلم.

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة، ومعهم تتمة سبعة عشر شخصًا، ثم لم يقتصر ﷺ في عنايته بالقلم والتعليم به عند كتابة الوحي؛ بل جعل التعليم به أعم، كما جاء خبر عبد اللَّه بن سعيد بن العاص (أن رسول اللَّه ﷺ أمره أن يعلِّم الناس الكتابة بالمدينة، وكان كاتبًا محسنًا) ذكره صاحب الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر في الاستيعاب. وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: «علّمت ناسًا من أهل الصفة الكتابة والقرآن»[٤]. وقد كانت دعوته ﷺ الملوك إلى الإسلام بالكتابة كما هو معلوم. وأبعد من ذلك، ما جاء في قصة أسارى بدر، حيث كان يفادي بالمال من يقدر على الفداء، ومن لم يقدر وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلِّم عشرة من الغلمان الكتابة[٥]، فكثرت الكتابة في المدينة بعد ذلك. وكان ممن تعلم: زيد ابن ثابت وغيره.

فإذا كان المسلمون وهم في بادئ أمرهم وأحوج ما يكون إلى المال والسلاح؛ بل واسترقاق الأسارى، فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله، ليدل على أمرين:

---

(١) الأعلى: الآيتان (٦-٧).

(٢) البقرة: الآية (١٠٦). (٣) الحجر: الآية (٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٥-٣٢٤)، أبو داود (٣/ ٧٠١-٧٠٢/ ٣٤١٦). ابن ماجه (٢/ ٧٣٠/ ٢١٥٧). الحاكم (٢/ ٤١) و(٣/ ٣٥٦) وصححه الحاكم في الموضعين ووافقه الذهبي في الموضع الثاني. من طرق عن عبادة ابن الصامت ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٤٧)، وصححه الحاكم (٢/ ١٥٢) ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٢) وقال: «رواه أحمد عن علي بن عاصم وهو كثير الغلط والخطأ وقد وثقه أحمد»، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

أولهما: شدة وزيادة العناية بالتعليم.

وثانيهما: جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بالدين، كما يوجد الآن من الأمور الصناعية، في الهندسة والطب، والزراعة والقتال ونحو ذلك. وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك، حتى كان عدد كتاب الوحي اثنين وأربعين رجلًا، ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام، وجاء النص على الكتابة في توثيق الدين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾[1] الآية، وهي أطول آية في كتاب اللَّه تعالى رسمت فيهم كتابة العدل الحديثة كلها. وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه، فقد وقع الكلام في تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال في التكليف والعلم، فهل كن كذلك في تعلم الكتابة أم لا؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

وقع الخلاف بسبب نصين في المسألة:

الأول: حديث الشفاء بنت عبد اللَّه قالت: (دخل عليَّ رسول اللَّه ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة؟»[2] رواه المجد في المنتقى عن أحمد وأبي داود وقال بعده: وهو دليل على جواز تعلم النساء الكتابة.

والثاني: حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقي مرفوعًا: «**لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة** - يعني النساء - **وعلموهن الغزل وسورة النور**»[3].

قال الشوكاني في نيل الأوطار، على حديث المنتقى وحديث عائشة: إن حديث الشفاء دليل على جواز تعليمهن وحديث النهي محمول على من يخشى من تعليمها الفساد، أعني تعليم الكتابة والقراءة. أما تعليم العلم فليس محل خلاف، والواقع أن هذه المسألة واضحة المعالم، إذا نظرت كالآتي:

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٢)، وأبو داود (٤/ ٣٨٨/ ٣٨٨٧)، من حديث الشفاء بنت عبد اللَّه.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٩٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: بل هو موضوع وآفته عبد الوهاب بن الضحاك قال أبو حاتم: كذاب. وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٩٣)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن إبراهيم الشامي قال الدارقطني: كذاب.

أولًا: لا شك أن العلم من حيث هو خير من الجهل، والعلم قسمان:

علم سماع وتلقي، وهذه سيرة زوجات رسول اللَّه ﷺ، وعائشة كانت القدوة الحسنة في ذلك في فقه الكتاب والسنة، وكم استدركت على الصحابة رضوان اللَّه تعالى عليهم، وهذا مشهور ومعلوم.

والثاني: علم تحصيل بالقراءة والكتابة، وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها، فمن رأى أن تعليمهن مفسدة منعه، كما روي عن علي رضي الله عنه: أنه مرَّ على رجل يعلم امرأة الكتابة فقال: لا تزد الشر شرًا. وروي عن بعض الحكماء: أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة، فقال: أفعى تسقى سمًا، وانشدوا الآتي:

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابة
هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطي:

يا قوم لم تخلق بنات الورى للدرس والطرس وقال وقيل
لنا علوم ولها غيرها فعلّموها كيف نشر الغسيل
والثوب والإبرة في كفها طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعليمهن وموقفهن من زاوية واحدة. كما قال الشاعر الآخر:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

مع أننا وجدنا في تاريخ المرأة نسوة شاركن في القتال، حتى عائشة رضي الله عنها كانت تسقي الماء، وأم سلمة تداوي الجرحى، إذ لا يؤخذ قول كل منهما على عمومه.
قال صاحب التراتيب الإدارية: أورد القلنشدي أن جماعة من النساء كن يكتبن، ولم ير أن أحدًا من السلف أنكر عليهن. اهـ.

ومن المعلوم رواية «كريمة» لصحيح البخاري، وهي من الرواية المعتبرة عن المحدثين، فقد رأيت بنفسي وأنا مدرس بالأحساء نسخة لسنن أبي داود عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبي، وذكر صاحب التراتيب الإدارية قوله: وقد ثبت عن كثير من نساء أهل الصحراء الإفريقية خصوصًا شنقيط: شنجط، أي شنقيط، وهي المعروفة الآن بموريتانيا، وتنبكتو، وقبيلة كنت العجب، حتى

جاء أن الشيخ المختار الكنتي الشهير، ختم مختصر خليل للرجال، وختمته زوجته في جهة أخرى للنساء انتهى.

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن في بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا، سمعنا ونحن في مدينة أطار وهي على مقربة من مدينة شنجيط المذكورة، سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقًا مائتا فتاة يحفظن المدونة كاملة. وقد سمعت في الآونة الأخيرة، أنه كانت توجد امرأة تدرس في المسجد النبوي، الحديث والسيرة، واللغة العربية وهي شنقيطية. ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة اليوم وفي كل يوم، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة، ولكن المشكلة تكمن في منهج تعليمها، وكيفية تلقيها العلم فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصرًا على النواحي التي يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى. أما كيفية تعليمها، فإن مشكلتها إنما جاءت من الاختلاط في مدرجات الجامعات، وفصول الدراسة في الثانويات في فترة المراهقة، وقلة المراقبة، وفي هذا يكمن الخطر منها وعليها في آن واحد، فإذا كان لا بد من تعليمها، فلا بد أيضًا من المنهج الذي يحقق الغاية منه، ويتضمن السلامة فيه، والتوفيق من اللَّه سبحانه.

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة، فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف في البيوت، فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة. والمدار في ذلك كله على الحصانة التربوية، والمتانة الدينية، والقوة الأخلاقية. وقد أوردت هذا المبحث استطرادًا لبيان وجهة النظر في المسألة، اقتباسًا من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾، وباللَّه التوفيق»[1].

وقال: «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ لا يمنع تعليمه تعالى بغير القلم، كما في قصة الخضر مع موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾[2] وكما في حديث: «**نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها**»[3] الحديث. وكما في حديث الرقية بالفاتحة لمن

(١) تتمة الأضواء (٩/ ٣٤٣-٣٦٣).

(٢) الكهف: الآية (٦٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦-٢٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٧٩/ ٣٤٣٣٢)، وابن أبي الدنيا في القناعة (ص: ٣٨)، والحاكم=

لدغته العقرب، في قصة السرية المعروفة، فلما سأله ﷺ «وما يدريك أنها رقية؟»[١] قال: شيء نفث في روعي. وحديث علي لما سئل: «هل خصكم رسول اللَّه ﷺ بعلم؟ قال: لا، إلا فهما يؤتيه اللَّه من شاء في كتابه، وما في هذه الصحيفة»[٢]. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[٣] نسأل اللَّه علم ما لم نعلم، والعمل بما نعلم. وباللَّه التوفيق»[٤].

قال ابن عاشور: «وخص خلق الإنسان بالذكر من بين بقية المخلوقات لأنه المطَّرد في مقام الاستدلال، إذ لا يَغفُلُ أحد من الناس عن نفسه، ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده ولذلك قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٥]. وفيه تعريض بتحميق المشركين الذين ضلوا عن توحيد اللَّه تعالى، مع أن دليل الوحدانية قائم في أنفسهم. وفي قوله: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى ما ينطوي في أصل خَلْق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطانَ هذا العالم الأرضي. والعلق: اسم جمع عَلَقَة، وهي قطعةٌ قَدرُ الأنملة من الدم الغليظ الجامد الباقي رطْبًا لم يجفّ، سمي بذلك تشبيهًا لها بدودةٍ صغيرة تسمَّى علقة، وهي حمراء داكنة تكون في المياه الحلوة، تمتص الدم من الحيوان إذا علق خرطومها بجلده، وقد تدخل إلى فم الدابة، وخاصة الخيل والبغال، فتعلق بلهاته ولا يُتفطن لها. ومعنى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافيَة تصيران علقةً، فإذا صارت علقة فقد أخذت في أطوار التكوّن، فجُعلت العلقة مبدأ الخلق، ولم تُجعل النطفة مبدأ الخلق، لأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل، فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة، فلا يتخلق الجنين، وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق، ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على

= (٢/ ٤)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٠٣-٣٠٥/ ٤٠١١و٤٠١٣)، وأخرجه من حديث جابر ﷺ ابن ماجه (٢/ ٧٢٥/ ٢١٤٤)، وصححه الحاكم (٢/ ٤)، وابن حبان الإحسان (٨/ ٣٢/ ٣٢٣٩)، وانظر الصحيحة (٢٨٦٦).

(١) أحمد (٣/ ٢-١٠-٤٤)، البخاري (٤/ ٥٧١/ ٢٢٧٦)، مسلم (٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠١)، أبو داود (٣/ ٧٠٣/ ٣٤١٨)، الترمذي (٤/ ٣٤٨/ ٢٠٦٣)، النسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٤-٢٥٥/ ١٠٨٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١١٨)، ومسلم (٣/ ١٥٦٧/ ١٩٧٨[٤٥]).

(٣) البقرة: الآية (٢٨٢).

(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٣٦٨).

(٥) الذاريات: الآية (٢١).

قوى كامنة، وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة. ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقة، لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جدًا لا ترى إلا بالمرآة المكبِّرة أضعافًا، تكون في مبدإ ظهورها كروية الشكل سابحة في دم حيض المرأة، فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل، فتمتزج معها، فتأخذ في التخلق إذا لم يَعُقْها عائق كما قال تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[1]، فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تكورها قليلًا، فشابهت العلقة التي في الماء مشابَهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي سابحة فيه، وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة»[2].

وقال: «وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية، فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ووصف ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها، ووصف ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص»[3].

قال شيخ الإسلام: «سمى ووصف نفسه بالكرم، وبأنه الأكرم، بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة، كما قال في موضع آخر، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[4]، وكما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[5]، وكما قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾[6] فالخلق يتضمن الابتداء، والكرم تضمن الانتهاء، كما قال في أم القرآن ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[7]، ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[8] ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته.. وهو سبحانه أخبر

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٠).

(٤) الأعلى: الآيتان (٢-٣).

(٥) طه: الآية (٥٠).

(٦) الشعراء: الآية (٧٨).

(٧) الفاتحة: الآية (٢).

(٨) الفاتحة: الآية (٣).

أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها، فدل على أنه الأكرم وحده، بخلاف ما لو قال: «وربك أكرم» فإنه لا يدل على الحصر، وقوله: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ يدل على الحصر، ولم يقل «الأكرم من كذا»، بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقا غير مقيد. فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه. قال ابن عطية: ثم قال له تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ على جهة التأنيس، كأنه يقول: امض لما أمرت به، وربك ليس كهذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك. قلت: وقد قال بعض السلف: «لا يهدين أحدكم لله ما يستحيي أن يهديه لكريمه، فإن اللّه أكرم الكرماء»، أي: هو أحق من كل شيء بالإكرام، إذ كان أكرم من كل شيء، وهو سبحانه ذو الجلال والإكرام، فهو المستحق لأن يجل، ولأن يكرم، والإجلال يتضمن التعظيم، الإكرام يتضمن الحمد والمحبة. وهذا كما قيل في صفة المؤمن: إنه رزق حلاوة ومهابة، وفي حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ: «**من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه**»[١]. وهذا لأنه سبحانه له الملك وله الحمد»[٢].

وقال: «قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموما، وخلق الإنسان خصوصا، وإن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم. ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادرا؛ بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة وقدرة، حتى أفعال الجمادات كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة فيها، وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه، وكذلك فعل كل حي من الدواب وغيرها هو بقوة فيها، وكذلك الإنسان وغيره. والخلق أعظم الأفعال فإنه لا يقدر عليه إلا اللّه، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة، وليس لها نظير من قدر المخلوقين.

وأيضا فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة، فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة،

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥٩/ ٣٦٣٨)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٤٩-١٥٠/ ١٤١٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨/ ٣١٨٠٥). من حديث علي بن أبي طالب، وقال الترمذي: هذا حديث غريب ليس إسناده بمتصل».
تنبيه: حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ ليس فيه هذه الجملة التي ذكرها شيخ الإسلام، وإنما وردت في حديث علي كما هو واضح في التخريج.

(٢) الفتاوى (١٦/ ٢٩٣-٢٩٦).

وكذلك كل منهما يستلزم العلم، فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالما بما علمه إياه، وإلا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو، فمن علم كل شيء الإنسان وغيره ما لم يعلم أولى أن يكون عالما بما علمه، والخلق أيضا يستلزم العلم كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝﴾[1] وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة، فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة، ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذاك، والإرادة تستلزم العلم، فلا يريد المريد إلا ما شعر به وتصور في نفسه، والإرادة بدون الشعور ممتنعة.

وأيضا فنفس الخلق خلق الإنسان هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات، وفيه من الإحكام والإتقان ما قد بهر العقول، والفعل المحكم المتقن لا يكون إلا من عالم بما فعل، وهذا معلوم بالضرورة. فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه، ومن هذا الوجه. وقد قال في سورة الملك: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾[2] وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة، والعلم بالطريق الموصل، وكذلك الخبرة، وبسط هذا يطول؛ إذ المقصود هنا التنبيه على ما في الآيات التي هي أول ما أنزل»[3].

وقال: «وقوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ يدل على إثبات أفعاله وأقواله، فالخلق فعله، والتعليم يتناول تعليم ما أنزله كما قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾[4]، وقوله: ﴿بِالْقَلَمِ﴾ يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم، ونزوله في أول السورة التي أنزل فيها كلامه، وعلم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم، دليل على شمول الآية لذلك، فإن سبب اللفظ المطلق والعام لابد أن يكون مندرجا فيه، وإذا دل على أنه خلق وتكلم. وقد قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ومعلوم بالعقل وبالخطاب أن الإنسان المخلوق غير خلق الرب له، وكذلك خلقه لغيره. والذين نازعوا في ذلك إنما نازعوا لشبهة عرضت لهم كما قد ذكر بعد هذا وفي مواضع، وإلا فهم لا يتنازعون

(١) الملك: الآية (١٤).
(٢) يوسف: الآية (١٠٠).
(٣) المصدر السابق: (١٦/ ٣٥٣-٣٥٥).
(٤) الرحمن: الآيات (١-٤).

أن خلق فعل له مصدر، يقال: خلق يخلق خلقا، والإنسان مفعول المصدر المخلوق ليس هو المصدر، ولكن قد يطلق لفظ المصدر على المفعول كما يقال: درهم ضرب الأمير، ومنه قوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾(١) والمراد هناك هذا مخلوق الله، وليس الكلام في لفظ خلق المراد به المخلوق؛ بل في لفظ الخلق المراد به الفعل، الذي يسمى المصدر، كما يقال: خلق يخلق خلقا، وكقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾(٢)، وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾(٣)، وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾(٤).

وإذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته إذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئة وما كان بالمشيئة امتنع قدم عينه؛ بل يجوز قدم نوعه. وإذا كان الخلق للحادث لابد له من مؤثر تام أوجب حدوثه لزم أنه لم يزل متصفا بما يقوم به من الأمور الاختيارية، لكن إن يثبت أنه كان قبل هذا المخلوق مخلوق آخر ثبت أنه متصف بخلق بعد خلق. وكذلك الكلام هو متكلم بمشيئته ويمتنع أن لا يكون متكلما ثم يصير متكلما لوجهين: أحدهما: أنه سلب لكماله والكلام صفة كمال.

والثاني: أنه يمتنع حدوث ذلك، فإن من لا يكون متكلما يمتنع أن يجعل نفسه متكلما، ومن لا يكون عالما يمتنع أن يجعل نفسه عالما، ومن لا يكون حيا يمتنع أن يجعل نفسه حيا، فهذه الصفات من لوازم ذاته. وكذلك من لا يكون خالقا يمتنع أن يجعل نفسه خالقا، فإنه إذا لم يكن قادرا على أن يخلق فجعله خالقة أعظم، فيكون هذا ممتنعا بطريق الأولى، فإن جعل نفسه خالقة يستلزم وجود المخلوق.

ولهذا لما كان قادرا على جعل الإنسان فاعلا كان هو الخالق لما يفعله الإنسان، فلو جعل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه. فإذا فرض أنه يمتنع أن يكون خالقا في الأزل امتنع أن يجعل نفسه خالقة بوجه من الوجوه، ويلزم من القول بامتناع الفعل عليه في الأزل امتناعه دائما، وقد دلت الآية على أنه خلق، فعلم أنه ما زال قادرا على الخلق ما زال يمكنه أن يخلق، وما زال الخلق ممكنا مقدورا، وهذا يبطل أصل الجهمية؛ بل وإذا كان قادرا عليه، فالموجب له ليس شيئا

---

(١) لقمان: الآية (١١).
(٢) لقمان: الآية (٢٨).
(٣) الزمر: الآية (٦).
(٤) الكهف: الآية (٥١).

بائنا من خارج؛ بل هو من نفسه فيمتنع أن يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن، فيلزم أنه ما زال مريدا قادرا.

وإذا حصلت القدرة والإرادة وجب وجود المقدور، وأهل الكلام الذين ينازعون في هذا يقولون: لم يزل قادرا على ما سيكون. فيقال لهم القدرة لا تكون إلا مع إمكان المقدور إذا كانت القدرة دائمة فهل كان يمكنه أن يفعل المقدور دائما، وهم يقولون: لا بل الإمكان إمكان الفعل حادث، وهذا يناقض إثبات القدرة، وإن قالوا: بل الإمكان حاصل تبين أنه لم يزل الفعل ممكنا، فثبت إمكان وجود ما لا يتناهى من مقدور الرب.

وحينئذ فإذا كان لم يزل قادرا والفعل ممكنا، وهذا الممكن قد وجد فما لا يزال، فالموجب لوجود جنس المقدور كالإرادة مثلا إما أن يكون وجودها في الأزل ممتنعا فيلزم امتناع الفعل، وقد بينا أنه ممكن. وأيضا: إذا كان وجودها ممتنعا لم يزل ممتنعا؛ لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلا عن أن تكون موجودة، ومعلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لابد له من موجب.

وإذا كان وجودها في الأزل ممكنا فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته، وذاته كافية في حصوله، فيلزم أنه لم يزل مريدا. وهكذا في جميع صفات الكمال، متى ثبت إمكانها في الأزل لزم وجودها في الأزل، فإنها لو لم توجد لكانت ممتنعة، إذ ليس في الأزل شيء سوى نفسه يوجب وجودها فإذا كانت ممكنة والمقتضي التام لها نفسه لزم وجوبها في الأزل. وهذا مما يدل على أنه لم يزل حيا عليما قديرا مريدا متكلما فاعلا، إذ لا مقتضى لهذه الأشياء إلا ذاته، وذاته وحدها كافية في ذلك، فيلزم قدم النوع وأنه لم يزل متكلما إذا شاء، لكن أفراد النوع تحصل شيئا بعد شيء بحسب الإمكان والحكمة. ولهذا قد بين في مواضع أنه ليس في نفس الأمر ممكن يستوي طرفا وجوده وعدمه؛ بل إما أن يحصل المقتضى لوجوده فيجب، أو لا يحصل فيمتنع. فما اتصف به الرب فاتصافه به واجب، وما لم يتصف به فاتصافه به ممتنع، وما شاء كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده، فالممكن مع مرجحه التام واجب وبدونه ممتنع.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾، وفي قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ دلالة على ثبوت صفات الكمال له، وأنه لم

يزل متصفا بها. وأقوال السلف في ذلك كثيرة، وبهذا فسروا قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١] ونحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس، ورواه ابن أبي حاتم من عدة طرق، لما قيل له قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾، كأنه كان شيء ثم مضى؟ فقال ابن عباس: (هو سمى نفسه بذلك ولم يزل كذلك). هذا لفظ ابن أبي حاتم من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، فقال ابن عباس: كذلك كان ولم يزل، ومن رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: سمعت اللّه يقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ كأنه شيء كان؟ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿كَانَ﴾ فإنه لم يزل ولا يزال، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾[٢]. ومن رواية عبد الرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال: (قال يهودي: إنكم تزعمون أن اللّه كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم؟ فقال ابن عباس: إنه كان في نفسه عزيزا حكيما). وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان، ولا يزال كذلك، وأن ذلك حصل له من نفسه، فلم يزل متصفا في نفسه إذا كان من لوازم نفسه، ولهذا لا يزال لأنه من نفسه. وقال أحمد بن حنبل: (لم يزل اللّه عالما متكلما غفورا)، وقال أيضا: لم يزل اللّه متكلما إذا شاء.

وكما أنه أول آية نزلت من القرآن تدل على ذلك، فأعظم آية في القرآن تدل على ذلك لكن مبسوطا دلالة أتم من هذا»[٣].

قال الرازي: «قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة، وقوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝﴾ إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية، الثاني إلى النبوة، وقدم الأول على الثاني تنبيها على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية»[٤].

* * *

(١) النساء: الآية (١٥٨).
(٢) الحديد: الآية (٣).
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣٦٤-٣٧٠).
(٤) التفسير الكبير (٣٢/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

الرجعى: أي: الرجوع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿كَلَّآ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان، أن ينعم عليه ربه بتسوية خلقه، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وإنعامه بما لا كفؤ له، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك، ويطغى عليه، أن رآه استغنى»(١).

قال أبو بكر الجزائري: «يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان قبل أن يهذّبه الإيمان والمعارف الإلهية المشتملة على معرفة محابّ اللَّه تعالى ومساخطه، أنه إذا رأى نفسه قد استغنى بماله أو ولده أو سلطانه أو بالكُلِّ، وما أصبح في حاجة إلى غيره، يطغى فيتجاوز حدّ الآداب، والعدل والحق والعرف، فيتكبر ويظلم ويمنع الحقوق ويحتقر الضعفاء ويسخر بغيره»(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ يقول: إن إلى ربك يا محمد مرجعه، فذائق من أليم عقابه ما لا قبل له به»(٣).

قال ابن عاشور: «وهذا موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة، وتعليم للنبي ﷺ وتثبيت له، أي: لا يحزنك طغيان الطاغي، فإن مرجعه إلي، ومرجع الطاغي إلى العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾(٤)، وهو موعظة للطاغي بأن غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٥٣).
(٢) أيسر التفاسير (٥/ ٥٩٥).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٢٥٣).
(٤) النبأ: الآيتان (٢١-٢٢).

إلى اللَّه، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾[(١)]، وفيه معنى آخر، وهو أن استغناءه غير حقيقي، لأنه مفتقر إلى اللَّه في أهم أموره، ولا يدري ماذا يصيره إليه ربه من العواقب، فلا يزده بغنى زائف في هذه الحياة»[(٢)].

قال ابن القيم: «لم يقل: إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئا عن رؤيته غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾[(٣)]، وهذا واللَّه أعلم لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بدا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله، وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[(٤)]، ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا اللَّه فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى، ومن فسرها بالخلف في الإنفاق فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءا من أجزاء الحسنى، والمقصود أن الاستغناء عن اللَّه سبب هلاك العبد، وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية»[(٥)].

قال عطية سالم: «ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان، ولفظ الإنسان هنا عام، ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغني ولا يطغى، فيكون هذا من العام المخصوص، ومخصصه إما من نفس الآية، أو من خارج عنها، ففي نفس الآية ما يفيده قوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي: إن رأى الإنسان نفسه، وقد يكون رأيا واهما، ويكون الحقيقة خلاف ذلك، ومع ذلك يطغى، فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان، ولذا جاء في السنة ذم العائل المتكبر، لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى، فهو مغني في نفسه لا بسبب غناه.

أما من خارج الآية، فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ

---

(١) الانشقاق: الآية (٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) الليل: الآيات (٨-١٠).

(٤) يونس: الآية (٢٦).

(٥) طريق الهجرتين (ص: ١٤).

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[١]، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان، وكما في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾[٢] الآية. ومفهومه: أن من لم يؤثر الحياة الدنيا، ولم يحسب أن ماله أخلده، لن يطغيه ماله ولا غناه، كما جاء في قصة النفر الثلاثة، الأعمى والأبرص والأقرع من بني إسرائيل[٣]، وقد نص القرآن على أوسع غنى في الدنيا في نبي اللَّه سليمان، آتاه اللَّه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ومع هذا قال: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾[٤] الآية. وقصة الصحابي الموجودة في الموطأ[٥]: لما شغل ببستانه في الصلاة، حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان، ينفذ منه، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: «يا رسول اللَّه، إني فتنت ببستاني في صلاتي، فهو في سبيل الله»، فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطغيان، ولكن إذا صحبه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى، إن النفس لأمارة بالسوء، وأنه لا يقي منه إلا التهذيب بالدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾[٦]. وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٧]، وكذلك قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٨] وقال ثالث الثلاثة من بني إسرائيل: «إنما ورثته كابرا عن كابر»[٩] بخلاف المسلم إلى آخره. فلا يزيده غناه إلا تواضعا وشكرا للنعمة، كما قال نبي اللَّه سليمان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[١٠]، وقد نص في نفس السورة أن شكر اللَّه، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ

---

(١) النازعات: الآيات (٣٧-٣٩). (٢) الهمزة: الآيتان (٢-٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٦٢٠-٦٢١/ ٣٤٦٤)، مسلم (٤/ ٢٢٧٥/ ٢٩٦٤).

(٤) ص: الآيتان (٣٢-٣٣).

(٥) (١/ ٩٨/ ٢٢٢) في رواية يحيى. قال ابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ٣٨٩): «هذا الحديث لا أعلمه يروى من غير هذا الوجه وهو منقطع». وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب (١/ ٨٤/ ٢٨٦).

(٦) الشورى: الآية (٢٧). (٧) الزخرف: الآية (٥١).

(٨) القصص: الآية (٧٨).

(٩) أخرجه البخاري (٦/ ٦٢٠-٦٢١/ ٣٤٦٤)، مسلم (٤/ ٢٢٧٥/ ٢٩٦٤).

(١٠) النمل: الآية (٤٠).

ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾(١)، وفي العموم قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢)، وقد كان في أصحاب رسول اللّه ﷺ من أصحاب المال الوفير، فلم يزدهم إلا قربا لله، كعثمان بن عفان رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف، وأمثالهم، وفي الآية ربط لطيف بأول السورة، إذا كان خلق الإنسان من علق، وهي أحوج ما يكون إلى لطف اللّه وعنايته ورحمته في رحم أمه، فإذا بها مضغة ثم عظام، ثم تكسى لحما، ثم تنشأ خلقا آخر، ثم يأتي إلى الدنيا طفلا رضيعا لا يملك إلا البكاء، فيجري اللّه له نهرين من لبن أمه، ثم ينبت له الأسنان، ويفتق له الأمعاء، ثم يشب ويصير غلاما يافعا، فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية، فإذا هو ينسى كل ما تقدم، وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز حده حتى مع اللّه خالقه ورازقه، كما رد عليه تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٣) الآية.

ومما في الآية من لطف التعبير قوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾، أي: أن الطغيان الذي وقع فيه عن وهم، تراءى له أنه استغنى سواء بماله أو بقوته، لأن حقيقة المال ولو كان جبالا، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق، وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من اللّه عليه. ومن هذه الآية أخذ بعض الناس أن الغني الشاكر أعظم من الفقير الصابر، لأن الغنى موجب للطغيان. وقد قال بعض الناس: الصبر على العافية، أشد من الصبر على الحاجة»(٤).

قال ابن عاشور: «وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقا، حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى عن الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء

---

(١) النمل: الآية (١٩).
(٢) الأحقاف: الآية (١٥).
(٣) يس: الآيات (٧٧-٧٩).
(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٣٦٩-٣٧٢).

من لامة سلاح وخدم وأعوان، وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء، فهو في عزة عند نفسه، فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس. ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس»[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٤-٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾

★ غريب الآية:

نسفعًا: السفع: الجذب بشدة. يقال: سفعت بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذبًا شديدًا. قال الشاعر:

قَوْمٌ إذا كَثُر الصياح رأيتهم ... مِنْ بينِ مُلْجِم مُهْرِهِ أو سَافِعِ

الناصية: شعر مقدم الرأس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ تقبيح وتشنيع لحاله وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة، بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية، ويقضي منها العجب.. ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه عليه السلام، واستعظام النهي وتأكيد التعجب منه»[(١)].

قال ابن جرير: «ذكر أن هذه الآية وما بعدها نزلت في أبي جهل بن هشام، وذلك أنه قال فيما بلغنا: لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن رقبته، وكان فيما ذكر، قد نهى رسول اللَّه ﷺ أن يصلي، فقال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: أرأيت يا محمد أبا جهل الذي ينهاك أن تصلي عند المقام، وهو معرض عن الحق، مكذب به، يعجب -جل ثناؤه- نبيه والمؤمنين من جهل أبي جهل، وجراءته على ربه، في نهيه محمدا عن الصلاة لربه، وهو مع أياديه عنده مكذب به»[(٢)].

قال الرازي: «قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ خطاب مع الرسول على سبيل التعجب، ووجه

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٩).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٥٣).

التعجب فيه أمور أحدها: أنه ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بِعُمر»[1]، فكأنه تعالى قال له: كنت تظن أنه يُعز به الإسلام، أمِثْلُه يعز به الإسلام؟! وهو: ينهى عبدًا إذا صلى!. وثانيها: أنه كان يلقب بأبي الحكم، فكأنه تعالى يقول: كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن، ويسجد للأوثان؟! وثالثها: أن ذلك الأحمق يأمر وينهى، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته، مع أنه ليس بخالق ولا رب، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق، ألا يكون هذا غاية الحماقة.

المسألة الثالثة: قال: ﴿يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا﴾ ولم يقل: ينهاك، وفيه فوائد أحدها: أن التنكير في ﴿عَبْدًا﴾ يدل على كونه كاملًا في العبودية، كأنه يقول: إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه في عبوديته، يروى في هذا المعنى أن يهوديًا من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته فقال: أخبرني عن أخلاق رسولكم، فقال عمر: اطلبه من بلال فهو أعلم به مني. ثم إن بلالًا دله على فاطمة، ثم فاطمة دلته على علي ﷺ، فلما سأل عليًا عنه قال: صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه، فقال الرجل: هذا لا يتيسر لي، فقال علي: عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد اللَّه على قلته حيث قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2] فكيف أصف أخلاق النبي وقد شهد اللَّه تعالى بأنه عظيم، حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۞﴾[3] فكأنه تعالى قال: ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية، وذلك عين الجهل والحمق، وثانيها: أن هذا أبلغ في الذم، لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى وثالثها: أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة، روي عن علي ﷺ أنه رأى في المصلى أقوامًا يصلون قبل صلاة العيد، فقال: «ما رأيت رسول اللَّه ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۞﴾»[4] فلم يصرح بالنهي عن الصلاة، وأخذ أبو حنيفة منه هذا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٥)، والترمذي (٥/ ٥٧٦/ ٣٦٨١)، وقال: «حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر»، وابن حبان (١٥/ ٣٠٥/ ٦٨٨١)، والحاكم (٣/ ٨٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) النساء: الآية (٧٧).

(٣) القلم: الآية (٤).

(٤) أخرجه البزار في مسنده (٢/ ١٢٩/ ٤٨٧)، البحر الزخار وقال: لا نعلمه يروى عن علي إلا من هذا الوجه متصلا، وذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٠٣)، وقال: «فيه من لم أعرفه».

الأدب الجميل حيث قال له أبو يوسف: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي؟ قال: يقول ربنا لك الحمد ويسجد، ولم يصرح بالنهي، ورابعها: أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لي لا أجد ساجدًا غيره، إن محمدا عبد واحد، ولي من الملائكة المقربين مالا يحصيهم إلا أنا، وهم دائمًا في الصلاة والتسبيح، وخامسها: أنه تفخيم لشأن النبي ﷺ، يقول: إنه مع التنكير معرف، نظيره الكناية في سورة القدر، حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[1] ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[2] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[3] »[4].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾ محمد ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾، يعني: على استقامة وسداد في صلاته لربه، ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ أو أمر محمد هذا الذي ينهى عن الصلاة، باتقاء اللَّه وخوف عقابه.. يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ أبو جهل بالحق الذي بعث به محمدا ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يقول: وأدبر عنه، فلم يصدق به»[5].

قال الرازي: «أما قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر، والمعنى: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه، فيكون هذا تخويفا شديدا للعصاة، وترغيبا عظيما لأهل الطاعة.

المسألة الثانية: هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل فكل من نهى عن طاعة اللَّه فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد، ولا يرد عليه المنع من الصلاة في الدار المغصوبة والأوقات المكروهة، لأن المنهي عنه غير الصلاة، وهو المعصية، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل وصوم التطوع، وزوجته عن الاعتكاف، لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه، لا بغضا لعبادة ربه»[6].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، يقول: ليس كما قال: إنه يطأ عنق

---

(١) الإسراء: الآية (١).
(٢) الكهف: الآية (١).
(٣) الجن: الآية (١٩).
(٤) التفسير الكبير (٣٢/ ٢١-٢٢).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ٢٥٤).
(٦) التفسير الكبير (٣٢/ ٢٣-٢٤).

محمد، يقول: لا يقدر على ذلك، ولا يصل إليه. وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ يقول: لئن لم ينته أبو جهل عن محمد ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ يقول: لنأخذن بمقدم رأسه، فلنضمنه ولنذلنه، يقال منه: سفعت بيده، إذا أخذت بيده. وقيل: إنما قيل: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ والمعنى: لنسودن وجهه، فاكتفى بذكر الناصية من الوجه كله، إذ كانت الناصية في مقدم الوجه. وقيل: معنى ذلك: لنأخذن بناصيته إلى النار، كما قال: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[1]. وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ فخفض ناصية ردا على الناصية الأولى بالتكرير، ووصف الناصية بالكذب والخطيئة، والمعنى لصاحبها»[2].

قال الشنقيطي: «أسند الكذب في هذه الآية الكريمة إلى ناصية هذا الكافر، وهي مقدم شعر رأسه، مع أنه أسنده في آيات كثيرة إلى غير الناصية، كقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[3]، والجواب ظاهر: وهو أنه هنا أطلق الناصية، وأراد صاحبها، على عادة العرب في إطلاق البعض وإرادة الكل، وهو كثير في كلام العرب وفي القرآن، فمن أمثلته في القرآن هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[4]، يعني: أبا لهب، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[5]، يعني: بما قدمتم. ومن ذلك تسمية العرب الرقيب عينا»[6].

قال عطية سالم: «والذي ينبغي التنبيه عليه من جهة البلاغة: أن البعض الذي يطلق ويراد به الكل، لابد في هذا البعض من مزيد مزية للمعنى المساق فيه الكلام، فمثلا هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكذبه، فجاء ذكر الناصية، وهي مقدم شعر الرأس، لأنها أشد نكارة على صاحبها ونكالا به؛ إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلة وخزيا، فكانت هي هنا أنسب من اليد أو غيرها، بينما في أبي لهب تطاول بماله، والغرض مذمة ماله وكسبه الذي تطاول به، واليد هي جارحة الكسب وآلة التصرف في المال، فكانت اليد أولى فيه من الناصية، وهكذا كما يقولون: بث الأمير عيونه: يريدون جواسيس له، لأن العين من الإنسان أهم ما فيه لمهمته تلك،

---

(١) الرحمن: الآية (٤١).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٥٥).
(٣) النحل: الآية (١٠٥).
(٤) المسد: الآية (١).
(٥) آل عمران: الآية (١٨٢).
(٦) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٨٤).

ولم يقولوا: بث أرجله ولا رؤوسا ولا أيد، لأنها كلها ليست كالعين في ذلك. ومن هذا القبيل: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝﴾[(١)]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝﴾[(٢)]؛ لأن القلب هو مصدر الخوف، والنفس هي محط الطمأنينة، على أن النفس جزء من الإنسان، وهكذا، ومنها الآتي: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أطلق السجود وأراد الصلاة، لأن السجود أخص صفاتها»[(٣)].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿خَاطِئَةٍ﴾ لا يعارضه قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾[(٤)]؛ لأن الخاطئ هو فاعل الخطيئة أو الخطء، بكسر الخاء، وكلاهما الذنب، كما بينه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[(٥)]، وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[(٦)] فالخاطئ: المذنب عمدا، والمخطئ: من صدر منه الفعل من غير قصد، فهو معذور»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عصمة اللَّه نبيه ﷺ من أعدائه وحفظه له

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة، لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: **لو فعل لأخذته الملائكة**»[(٨)].

* عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتى رسول اللَّه ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا، وأجنحة. فقال رسول اللَّه ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوًا. قال: فأنزل اللَّه ﷻ: -لا ندري في

(١) النازعات: الآية (٨).
(٢) الفجر: الآية (٢٧).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٣٧٣-٣٧٤).
(٤) الأحزاب: الآية (٥).
(٥) نوح: الآية (٢٥).
(٦) الإسراء: الآية (٣١).
(٧) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٨٤).
(٨) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨، ٣٦٨)، والبخاري (٨/ ٧٢٤/ ٤٩٨٥)، والترمذي (٥/ ٤١٣/ ٣٣٤٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٨/ ١١٦٨٥).

حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ -يعني أبا جهل- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾[1] ». زاد عبيدالله في حديثه قال: «وأمره بما أمره به». وزاد ابن عبد الأعلى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ يعني قومه»[2].

★ غريب الحديثين:

يعفّر: أي: يسجد ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب.

فجأهم: أي: بغتهم، يقال: فجئ الأمر، بكسر الجيم وفتحها: إذا أتى بغتة دون استعداد له.

ينكص: معنى نكص على عقبيه: رجع القهقرى لما رأى من الأهوال والنار والأجنحة.

الهول: الخوف والأمر الشديد، وقد هاله يهوله، فهو هائل ومهول.

★ فوائد الحديثين:

قوله: «لو دنا لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»:

قال الحافظ: «وإنما شدد الأمر في حق أبي جهل، ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبي معيط حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلي، كما تقدم شرحه في الطهارة؛ لأنهما وإن اشتركا في مطلق الأذية حالة صلاته، لكن زاد أبو جهل بالتهديد، وبدعوى أهل طاعته، وبإرادة وطء العنق الشريف، وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة لو فعل ذلك، ولأن سلى الجزور لم يتحقق نجاستها، وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ عليه وعلى من شاركه في فعله، فقتلوا يوم بدر»[3].

وقال القاضي عياض: «هذا من جملة آياته ﷺ وعلامات نبوته، ولهذا

---

(١) العلق: الآيات (٦-١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٠)، ومسلم (٤/ ٢١٥٤/ ٢٧٩٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٨/ ١١٦٨٣).

(٣) فتح الباري (٨/ ٩٣٩).

الحديث أمثلة كثيرة في عصمته من أبي جهل وغيره ممن أراد ضره، وحماية اللَّه له بما ذكر، وتلك الأجنحة أجنحة الملائكة، واللَّه أعلم»[١].

وقد تقدم بيان هذا المعنى مستوفى عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ الآية السابعة والستون من سورة (المائدة).

* * *

(١) الإكمال (٨/ ٣٢٩).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾[1]

★ **غريب الآية:**

ناديَه: النادي: مجلس القوم، ثم أطلق مجازًا على أهله. والمعنى: فليدع أهل مجلسه وعشيرته. وناديت الرجل أناديه: إذا جالسته. قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجُلُ المنادي ... أَمَامَ الحي عقدهما سواءُ

الزبانية: مأخوذ من الزبن: وهو الدفع. والمراد: ملائكة العذاب الذين يدفعون الكفار إلى نار جهنم. والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه. قال الشاعر:

مطاعيمُ في القصوى مطاعين في الوغى ... زبانيةٌ غُلْب عظامٌ حُلُومُها

وقال آخر:

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنَاتِنَا ... وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحربُ لم يترمرم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾، وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب، أحزبنا أو حزبه»[2].

قال ابن عاشور: «ولام الأمر في: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ للتعجيز؛ لأن أبا جهل هدد النبي ﷺ بكثرة أنصاره، وهم أهل ناديه، فرد اللَّه عليه بأن أمره بدعوة ناديه، فإنه إن دعاهم ليسطوا على النبي ﷺ دعا اللَّه ملائكة فأهلكوه، وهذه الآية معجزة خاصة من معجزات القرآن، فإنه تحدى أبا جهل بهذا، وقد سمع أبو جهل القرآن وسمعه أنصاره، فلم يقدم أحد منهم على السطو على الرسول ﷺ مع أن الكلام

---

(١) العلق: الآيتان (١٧و١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٦٠).

يلهب حميته»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تجبر الطغاة وغرورهم وبطشهم بدعاة التوحيد وانتقام اللَّه منهم في العاجل أو الآجل

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾. قال ابن عباس: فواللَّه لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله»[٢].

⋆ غريب الحديث:

زبره: بزاي موحدة فراء، كنصر وضرب، أي: نهر النبي ﷺ أبا جهل، وأغلظ له في القول.

⋆ فوائد الحديث:

قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾:

قال المباركفوري: «أي: أهل ناديه؛ لأن النادي من المجلس الذي يجلس وينتدي فيه القوم، ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة، ولا يسمى المكان ناديًا حتى يكون فيه أهله. والمعنى: ليدعُ عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، وهم خزنة جهنم، سموا بذلك لأنهم يدفعون أهل النار إليها بشدة، مأخوذ من الزبن، وهو الدفع»[٣].

قال ابن العربي: «قد فعل بالنبي ﷺ مثل هذا من ضربه وخنقه، وطرح النجاسة على ظهره، ولكن الملائكة لم تدفع عنه، وكان ذلك -واللَّه أعلم- لأن فاعله به لم يتعاطاه وأبو جهل تعاطى، وأيضًا فإن من ضربه وخنقه لم يكن ذلك في النهي عن العبادة، فتعاظم جرم أبي جهل وهدّد فهدد، واللَّه أعلى وأجل»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٦، ٣٢٩)، والترمذي (٥/ ٤١٤/ ٣٣٤٩) وقال: «حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٨/ ١١٦٨٤)، قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٣٩): «ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ١٩٦).

(٤) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٥١-٢٥٢).

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه ما يدل على أن أمر محمد ﷺ قد بلغ من الكافر كل مبلغ، كما أن الشدة تناهت بالنبي ﷺ من أذى المشركين إلى أقصى غاية.

وفيه أيضًا أن اللَّه سبحانه لا يذل نبيه ولا يسلط عليه أعداءه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لو فعله لأخذته الملائكة عيانًا**»»[١].

* * *

(١) الإفصاح (٣/ ٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَلَّا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ليس الأمر كما يقول أبو جهل، إذ ينهى محمدا عن عبادة ربه والصلاة له، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: لا تطع أبا جهل فيما أمرك به من ترك الصلاة لربك، ﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَاقْتَرِب﴾ منه، بالتحبب إليه بطاعته، فإن أبا جهل لن يقدر على ضرك، ونحن نمنعك منه»[1].

قال عطية سالم: «ربط بين السجود والاقتراب من اللَّه كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾[2]، وقوله في وصف أصحابه ﷺ: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[3] فقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، في معنى يتقربون إليه، يبين قوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، وهذا مما يدل لأول وهلة على أن الصلاة أعظم قربة إلى اللَّه، حيث وجه إليها الرسول ﷺ من أول الأمر، كما بين تعالى في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[4] وقال ﷺ «أقرب ما يكون العبد إلى اللَّه وهو ساجد»»[5].

قال ابن العربي: «قوله: ﴿وَاسْجُدْ﴾ فيها طريقة القربة، فهو يتأكد على الوجوب على ما بيناه في أصول الفقه، لكنه يحتمل أن يكون سجود الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة، والظاهر أنه سجود الصلاة، لقوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: «سجدت مع النبي ﷺ في: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾[6]، وفي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ سجدتين»، فكان

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٥٧).
(٢) الإنسان: الآية (٢٦).
(٣) الفتح: الآية (٢٩).
(٤) البقرة: الآية (٤٥).
(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٦) الانشقاق: الآية (١).

هذا نصا على أن المراد به سجود التلاوة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة السجود على غيره من العبادات

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «وهذا نص في أنه في حال السجود أقرب إلى اللَّه منه في غيره، وهذا صريح في فضيلة السجود على غيره»[٣].

وقال: «فالساجد يقرب الرب إليه فيدنو قلبه من ربه، وإن كان بدنه على الأرض. ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر صار الآخر إليه قريبًا بالضرورة، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته، كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه»[٤].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة، ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها، فكلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره، وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم**»[٥]، ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللت الرقاب تواضعا ... منا إليك فعزها في ذلها»[٦].

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢١)، ومسلم (١/ ٣٥٠/ ٤٨٢)، وأبو داود (١/ ٥٤٥/ ٨٧٥)، والنسائي (٢/ ٥٧٦/ ١١٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٧٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠٩).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (١/ ٣٤٨/ ٤٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٨٧٦)، والنسائي (٢/ ٥٣٤/ ١٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ١٨٩٩) دون محل الشاهد.

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٢٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على ثبوت سجود التلاوة في المفصل

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجد رسول اللَّه ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال محمود خطاب السبكي: قوله: «سجدنا مع رسول اللَّه الخ» فيه دليل لمن قال بثبوت سجود التلاوة آخر فعله»[2].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٠٦/ ٥٧٨[١٠٨])، وأبو داود (٢/ ١٢٣/ ١٤٠٧)، والترمذي (٢/ ٤٦٢/ ٥٧٣)، والنسائي (٢/ ٥٠١/ ٩٦٦)، وابن ماجه (١/ ٣٣٦/ ١٠٥٨).

(٢) المنهل (٨/ ٢٧-٢٨).



سورة القدر

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أغراضها: التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى اللَّه تعالى. والرد على الذين جحدوا أن يكون القرآن منزلا من اللَّه تعالى. ورفع شأن الوقت الذي أنزل فيه ونزول الملائكة في ليلة إنزاله. وتفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام. ويستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام والتصدق»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٥-٤٥٦).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾﴾

* **غريب الآية**

ليلة القدر: أي: ليلة الشرف والفضل، وذلك لاختصاصها بإنزال القرآن الكريم فيها.

شهر: الشهر في الشرع عبارة عما بين الهلالين من الأيام. والهلال: إذا أَهَلَّ سمي شهرًا. يقال: رأيتُ شهرًا، أي: هلالًا. قال ذو الرمة:

فأصبحتُ أُجْلِي الطرفَ ما يستزيدُه ... يرى الشهرَ قبل الناسِ وهو نَحِيلُ

مطلع الفجر: أي: وقت طلوعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[1]، وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[2] قال ابن عباس وغيره: أنزل اللَّه القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول اللَّه ﷺ»[3].

قال ابن عاشور: «اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن، فافتتحت

---

(١) الدخان: الآية (٣).

(٢) البقرة: الآية (١٨٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٦٢).

بحرف: «إن»، وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي، ويفيد هذا التقديم قصرا، وهو قصر قلب للرد على المشركين الذين نفوا أن يكون القرآن منزلا من اللّٰه تعالى. وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن. وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه، فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم. فيجوز أن يراد به القرآن كله، فيكون فعل: «أنزلنا» مستعملا في ابتداء الإنزال، لأن الذي أنزل في تلك الليلة خمس الآيات الأول من سورة العلق، ثم فتر الوحي، ثم عاد إنزاله منجما ولم يكمل إنزال القرآن إلا بعد نيف وعشرين سنة، ولكن لما كان جميع القرآن مقررا في علم اللّٰه تعالى مقداره، وأنه ينزل على النبي ﷺ منجما حتى يتم، كان إنزاله بإنزال الآيات الأول منه، لأن ما ألحق بالشيء يعد بمنزلة أوله، فقد قال النبي ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه»[1] الحديث. فاتفق العلماء على أن الصلاة فيما ألحق بالمسجد النبوي لها ذلك الفضل، وأن الطواف في زيادات المسجد الحرام يصح كلما اتسع المسجد»[2].

قال عطية سالم: «الضمير في أنزلناه للقرآن قطعا، وحكى الألوسي عليه الإجماع، وقال: ما يفيد أن هناك قولا ضعيفا لا يعتبر من أنه لجبريل. وما قاله عن الضعف لهذا القول يشهد له السياق، وهو قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ والمشهور: أن الروح هنا هو جبريل ﷺ، فيكون الضمير في أنزلنا لغيره، وجيء بضمير الغيبة تعظيما لشأن القرآن، وإشعارا بعلو قدره. وقد يقال: ذكر سورة العلق قبلها مشعرة به في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[3]، ثم جاءت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن المقروء، والضمير المتصل في إنا، ونا في ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ مستعمل للجمع والتعظيم، ومثلها نحن، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾[4]، والمراد بهما هنا التعظيم قطعا لاستحالة التعدد، أو إرادة معنى الجمع. فقد صرح في موضع آخر باللفظ الصريح في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[5]،

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥٦). البخاري (٣/ ٨١/ ١١٩٠). مسلم (٢/ ١٠١٢/ ١٣٩٤). الترمذي (٢/ ١٤٧/ ٣٢٥). النسائي (٥/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٢٨٩٩). وابن ماجه (١/ ٤٥٠/ ١٤٠٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٦).

(٣) العلق: الآية (١).

(٤) الحجر: الآية (٩).

(٥) الزمر: الآية (٢٣).

والمراد به القرآن قطعا، فدل على أن المراد بتلك الضمائر تعظيم اللَّه تعالى. وقد يشعر بذلك المعنى وبالاختصاص تقديم الضمير المتصل (إنا)، وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه، ومثله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[2]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾[3]، وإنزال القرآن منة عظمى. وقد دل على تعظيم المنة وتعظيم اللَّه سبحانه في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[4]، فقال: كتاب أنزلناه بضمير التعظيم، ثم قال في وصف الكتاب: مبارك.

وتقدم للشيخ -رحمة اللَّه علينا وعليه- التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية «ص» هذه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى اللَّه تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الإفراد، فمن صيغ الجمع ما تقدم، ومن صيغ الإفراد قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[5]، وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[7]، ويلاحظ في صيغ الإفراد: أنها في مواضع التعظيم والإجلال، كالأول: في مقام خلق البشر من طين، ولا يقدر عليه إلا اللَّه، والثاني: في مقام أنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه، فسواء جيء بضمير بصيغة الجمع أو الإفراد، ففيها كلها تعظيم لله ﷻ، سواء بنصها وأصل الوضع، أو بالقرينة في السياق. ثم اختلف في المنزل ليلة القدر، هل هو الكل أو البعض؟ فقيل: وهو رأي الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط، أي: بداية الوحي بالقرآن، وهو مروي عن ابن عباس، قال: «ثم تتالى نزول الوحي بعد ذلك، وكان بين أوله وأخره عشرون سنة». وقيل: المنزل في تلك الليلة هو جميع القرآن جملة واحدة، وكله إلى سماء الدنيا، ثم صار ينزل على رسول اللَّه ﷺ منجما حسب الوقائع. وهذا الأخير هو رأي الجمهور كما قدمنا، وقد اختاره الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[8] وحكاه الألوسي، وحكى عليه الإجماع. وعن ابن حجر في فتح الباري، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيه بين القولين الأخيرين،

---

(١) الكوثر: الآية (١).
(٢) نوح: الآية (١).
(٣) ق: الآية (٤٣).
(٤) ص: الآية (٢٩).
(٥) البقرة: الآية (٣٠).
(٦) ص: الآية (٧١).
(٧) البقرة: الآية (٣٠).
(٨) البقرة: الآية (١٨٥).

وهو أنه لا منافاة بين القولين، ويمكن الجمع بينهما، بأن يكون نزل جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، وبدء نزول أوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[1] في ليلة القدر. وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامي حول كيفية نزول القرآن، وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ، وأن اللَّه لم يتكلم به عند نزوله على الرسول ﷺ. وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك، وكتب جوابه وطبع، فكان كافيا، وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وبين أن اللَّه تعالى تكلم به عند وحيه، ورد على كل شبهة في ذلك. والواقع أنه لا تعارض كما تقدم بين كونه في اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة، ونزوله على الرسول ﷺ منجما؛ لأن كونه في اللوح المحفوظ، فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة، ومن جملة ذلك القرآن الذي سينزله اللَّه على محمد ﷺ.

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا، فهو بمثابة نقل جزء مما في اللوح وهو جملة القرآن، فأصبح القرآن موجودا في كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه، وموجودا في سماء الدنيا، ثم ينزل على الرسول ﷺ منجما. ومعلوم أنه الآن هو أيضا موجود في اللوح المحفوظ، لم يخل منه اللوح، وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجما بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[2] لأن نَزَّلَ بالتضعيف تدل على التكرار كقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: في كل ليلة قدر. وقد جاء ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فتدل على الجملة.

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقا على رسول اللَّه ﷺ في حديث أبي هريرة وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى اللَّه الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير**». الحديث في صحيح البخاري. وفي أبي داود وغيره: «**إذا تكلم اللَّه بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان**». وعلى هذا يكون القرآن موجودا في اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا

(١) العلق: الآية (١).
(٢) الحجر: الآية (٩).

جملة في ليلة القدر، ثم نزل منجما في عشرين سنة، وكلما أراد اللَّه إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله، فيسمعه جبريل عليه السلام عن اللَّه تعالى. ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث، واللَّه أعلم.

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحي وتلقي الرسول ﷺ للوحي، وقيل: معنى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، أي: أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر تعظيما لها، فلم تكن ظرفا على هذا الوجه. والواقع: أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكنا إلا أن ما بعده يغني عنه؛ لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلا، وهو ما بعدها مباشرة في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ إلى آخر السورة. وعليه: فيكون أول السورة في شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله، وآخر السورة في ليلة القدر، وبيان منزلتها. وقد ذكرت ليلة القدر مبهمة، ولكن جاء في القرآن ما يعين الشهر التي هي فيه، وهو شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[1]، وتقدم للشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه في سورة الدخان بيان ذلك، وأنها الليلة التي فيها يبرم كل أمر حكيم، وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس. وتقدم للشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه-، بيان الحكمة من إنزاله مفرقا عند قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾[2]»[3].

قال القرطبي: «سميت بذلك لأن اللَّه تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلمه إلى مدبرات الأمور..

وعن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتى الحاج.

قال عكرمة: يكتب حاج بيت اللَّه تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم، وقاله سعيد بن جبير. وقد مضى في أول سورة

(١) البقرة: الآية (١٨٥).

(٢) ص: الآية (٢٩).

(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٣٧٩-٣٨٥).

الدخان هذا المعنى.

وعن ابن عباس أيضا: إن اللَّه تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر.

وقيل: إنما سميت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومنزلة. قاله الزهري وغيره. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما، وثوابا جزيلا.

وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها.

وقيل: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر. وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر. وقيل: لأن اللَّه تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة. وقال سهل: سميت بذلك لأن اللَّه تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[1] أي ضيق»[2].

قال عطية سالم: «والواقع أن في السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة، وهو قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم، كقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾[3]، وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها، إذ إنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة، أي: فوق متوسط أعمار هذه الأمة، وأيضا كونها اختصت بإنزال القرآن فيها، وبتنزل الملائكة والروح فيها، وبكونها سلاما هي حتى مطلع الفجر، لفيه الكفاية بما لم تختص وتشاركها فيه ليلة من ليالي السنة. وعليه: فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر، لكونها محلا لتقدير الأمور في كل سنة، وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها، واللَّه تعالى أعلم»[4].

---

(١) الطلاق: الآية (٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٣٠-١٣١)، وانظر التفسير الكبير للرازي (٣٢/ ٢٩).

(٣) القارعة: الآيات (١-٣).

(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٣٨٥-٣٨٦).

قال ابن عاشور: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ تنويه بطريق الإبهام المراد به أن إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمة، وكلمة: «وما أدراك ما كذا» كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه، والمعنى: أي شيء يعرفك ما هي ليلة القدر، أي بعسر على شيء أن يعرفك مقدارها، وقد تقدمت غير مرة، منها قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾[(1)] في سورة الانفطار قريبا، والواو واو الحال. وأعيد اسم ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ الذي سبق قريبًا في قوله: ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ على خلاف مقتضى الظاهر، لأن مقتضى الظاهر الإضمار، فقصد الاهتمام بتعيينها، فحصل تعظيم ليلة القدر صريحا، وحصلت كناية عن تعظيم ما أنزل فيها، وأن اللَّه اختار إنزاله فيها ليتطابق الشرفان»[(2)].

قال القرطبي: «قال الفراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه. وما كان من قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يدره، وقاله سفيان، وقد تقدم»[(3)].

قال السعدي: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ أي: تعادل في فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر، خالية منها، وهذا مما تتحير فيها الألباب، وتندهش له العقول، حيث من تعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمرا طويلا، نيفا وثمانين سنة»[(4)].

قال ابن عاشور: «وتفضيلها بالخَيْر على ألف شهر، إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة، واستجابة الدعاء ووفرة ثواب الصدقات والبركة للأمة فيها؛ لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها ولا بما يحدث فيها من حَر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو بقصرها، فإن تلك الأحوال غير معتدّ بها عند اللَّه تعالى، ولكن اللَّه يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفرادًا وجماعات، وما يعين على الحق والخير ونشر الدين. وقد قال في فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[(5)] فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها؛ لأنها ظروف للأعمال وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس، ففضلها بما أعدّه اللَّه

---

(١) الانفطار: الآية (١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٣١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٥٤).

(٥) الحجرات: الآية (١٣).

لها من التفضيل، كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات، وعدد الألف يظهر أنه مستعمل في وفرة التكثير، كقوله: «واحد كألف» وعليه جاء قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، وإنما جعل تمييز عدد الكثرة هنا بالشهر، للرعي على الفاصلة التي هي بحرف الراء. وفي «الموطأ»[2]: «قال مالك إنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول اللَّه ﷺ أري أعمار الناس قبله أو ما شاء اللَّه من ذلك، فكأنه تقاصر أعمارَ أمته، أن لا يبلغُوا من العمَل مثلَ ما بلغ غيرهم في طول العُمر، فأعطاه الله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ اهـ.

وإظهار لفظ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ في مقام الإضمار للاهتمام، وقد تكرر هذا اللفظ ثلاث مرات، والمرات الثلاث ينتهي عندها التكرير غالبًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[3]. وقول عديّ:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

ومما ينبغي التنبه له ما وقع في «جامع الترمذي»[4] بسنده إلى القاسم بن الفضل الحُدَّاني، عن يوسف بن سَعد قال: «قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال: سَّوَدتَ وجوهَ المؤمنين، أوْ يا مُسوِّد وجوهِ المؤمنين، فقال: لا تؤنبني رَحمك اللَّه فإن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ يا محمّد يعني نهرًا في الجنة، ونزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ يملكها بنو أمية يا محمدُ، قال القاسم: فعددناها فإذا هي ألف شهر لا يَزيدُ يومٌ ولا ينقص»، قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد قيل: عن

---

(١) البقرة: الآية (٩٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ كما في فتح البر (٧/ ٤٦٨)، ولم يسنده، قال أبو عمر بن عبد البر: «لا أعلم هذا الحديث روي مسندا من وجه من الوجوه، ولا أعرفه في غير الموطأ مرسلا ولا مسندا، وهذا أحد الأحاديث التي انفرد بها مالك، ولكنها رغائب وفضائل، وليست أحكاما ولا يبنى عليها في كتابه ولا في موطنه حكما». فتح البر (٧/ ٤٦٨).

(٣) آل عمران: الآية (٧٨).

(٤) الترمذي (٥/ ٤٤٤/ ٣٣٥٠)، والحاكم (٣/ ١٧٥)، والطبراني في الكبير (٣/ ٩٢/ ٢٩٥٤) قال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد مضطرب ومتنه منكر.

القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازِن نعرفه، والقاسم بن الفضل ثقة، ويُوسف بن سَعْد رجل مجهول، اهـ.

قال ابن كثير في «تفسيره»: ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن كذا قال، وعيسى بن مازن غير معروف، وهذا يقتضي اضطرابًا في هذا الحديث، أي لاضطرابهم في الذي يروي عنه القاسم ابن الفضل، وعلى كل احتمال فهو مجهول.

وأقول: وأيضًا ليس في سنده ما يفيد أن يوسف بن سعد سمع ذلك من الحسن ﷺ. وفي «تفسير الطبري» عن عيسى بن مازن أنه قال: قلت للحسن: يا مسود وجوه المؤمنين، إلى آخر الحديث. وعيسى بن مازن غير معروف أصلًا، فإذا فرضنا توثيق يوسف بن سعد، فليس في روايته ما يقتضي أنه سمعه، بل يجوز أن يكون أراد ذكر قصة تُروى عن الحسن.

واتفق حذاق العلماء على أنه حديث منكر، صرح بذلك ابن كثير وذكره عن شيخه المزي، وأقول: هو مختل المعنى، وسمات الوضع لائحة عليه، وهو من وضع أهل النحَل المخالفةِ للجماعة، فالاحتجاجُ به لا يليق أن يصدر مثله عن الحسن مع فرط علمه وفطنته، وأيَّة ملازمة بين ما زعموه من رؤيا رسول اللَّه ﷺ، وبين دفع الحسن التأنيب عن نفسه؟. ولا شك أن هذا الخبر من وضع دُعاة العباسيين على أنه مخالف للواقع؛ لأن المدة التي بين تسليم الحسن الخلافة إلى معاوية وبين بيعة السفاح، وهو أول خلفاء العباسية ألف شهر واثنان وتسعون شهرًا أو أكثر بشهر أو بشهرين، فما نُسب إلى القاسم الحُدَّاني من قوله: فعددناها فوجدناها الخ، كذب لا محالة. والحاصل أن هذا الخبر الذي أخرجه الترمذي منكر كما قاله المِزِّي»[1].

وقال: «إذا ضُم هذا البيان الثاني لما في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ من الإبهام التفخيمي، حصل منهما ما يدل دلالةً بيّنة على أن اللَّه جعل مثل هذه الفضيلة لكل ليلة من ليالي الأعوام، تقع في مثل الليلة من شهر نزول القرآن كرامةً للقرآن، ولمن أنزل عليه، وللدِّين الذي نزل فيه، وللأمة التي تتبعه، ألا ترى أن معظم

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٩-٤٦١).

السورة كان لذكر فضائل ليلة القدر، فما هو إلا للتحريض على تطلب العمل الصالح فيها، فإن كونها خيرًا من ألف شهر أومأ إلى ذلك وبينته الأخبار الصحيحة. والتعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مؤذن بأن هذا التنزل متكرر في المستقبل بعد نزول هذه السورة.

وذِكر نهايتها بطلوع الفجر لا أثرَ له في بيان فضلها، فتعين أنه إدماج للتعريف بمنتهاهَا ليحرص الناسُ على كثرة العمل فيها قبل انتهائها. لا جرم أن ليلة القدر التي ابتدئ فيها نزول القرآن قد انقضت قبل أن يشعر بها أحد، عدا محمد ﷺ إذْ كان قد تحنث فيها، وأنزل عليه أول القرآن آخرها، وانقلب إلى أهله في صبيحتها، فلولا إرادة التعريف بفضل الليالي الموافقة لها في كل السنوات، لاقتُصر على بيان فضل تلك الليلة الأولى، ولما كانت حاجة إلى تَنزّل الملائكة فيها، ولا إلى تعيين منتهاها.

وهذا تعليم للمسلمين أن يُعظموا أيام فضلهم الديني، وأيام نِعَم اللّه عليهم، وهو مماثل لما شرع اللّه لموسى من تفضيل بعض أيام السنين، التي توافق أيامًا حصلت فيها نعم عظمى من اللّه على موسى، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[1] فينبغي أن تعد ليلة القدر عيد نزول القرآن..

هذا محصّل ما أفاده القرآن في فضل ليلة القدر من كل عام، ولم يبين أنها أيّ ليلة، ولا من أي شهر، وقد قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[2]، فتبين أن ليلة القدر الأولى هي من ليالي شهر رمضان لا محالة، فبنا أن نتطلب تعيين ليلة القدر الأولى التي ابتدئ إنزال القرآن فيها، لنطلب تعيين ما يماثلها من ليالي رمضان في جميع السّنين، وتعيين صفة المماثلة، والمماثلةُ تكون في صفات مختلفة، فلا جائز أن تُماثلها في اسم يومها نحو الثلاثاء أو الأربعاء، ولا في الفصل من شتاءٍ أو صيف أو نحو ذلك مما ليس من الأحوال المعتبرة في الدين، فعلينا أن نتطلب جهة من جهات المماثلة لها في اعتبار الدين وما يرضي الله»[3].

(١) إبراهيم: الآية (٥).
(٢) البقرة: الآية (١٨٥).
(٣) المصدر نفسه (٣٠/ ٤٦١-٤٦٢).

قال القاسمي: «قال الإمام.. وما ورد في الأحاديث من ذكرها، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة، شكرا لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ اللَّه إفاضته فيهم في أثنائها. ولهم أن يعبدوا اللَّه فيها أفرادا وجماعات. فمن رجح عنده خبر في ليلة أحياها، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق، فعليه أن يشكر اللَّه بالفراغ إليه بالعبادات في الشهر كله. وهذا هو السر في عدم تعيينها، وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفا لنزول القرآن، ليذكر المؤمنون نعمة اللَّه عليهم فيه. فهي ليلة عبادة وخشوع، وتذكر لنعمة الحق والدين.

فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد اللَّه مضامير للرياء، يتسابق إليها المنافقون، ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون، كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام، فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر اللَّه إليه. ويسمعون شيئا من كتاب اللَّه لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه؛ بل إن أصغوا إليه، فإنما يصغون لنغمة تاليه، ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره، ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره. ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال، فضلا عن الراشدين من الرجال، انتهى.

وقال الطبري: إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ما لا يظهر في سائر السنة؛ إذ لو كان ذلك حقا، لم يخف على كل من قام ليالي السنة، فضلا عن ليالي رمضان»[1].

قال ابن عاشور: «ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أن هذا التنزل كرامة أكرم اللَّه بها المسلمين بأن أنزل لهم في تلك الليلة جماعات من ملائكته وفيهم أشرفهم، وكان نزول جبريل في تلك الليلة ليعود عليها من الفضل مثل الذي حصل في مماثلتها الأولى ليلة نزوله بالوحي في غار حراء»[2].

قال عطية سالم: «قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر، والذي يظهر أنه شامل لهما معا؛ لأن الأمر من الأمور لا يكون إلا بأمر

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٣).

من الأوامر، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾[١] ويشهد له ما جاء في شأنها في سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾[٢]، والذي يفرق من الأمر، هو أحد الأمور، حيث يفصل بين الخير والشر، والضر والنفع إلى آخره، ثم قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، كما أشار إليه السياق: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[٣] فكل أمر من الأمور يقتضي أمرا من الأوامر، وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ المشتركة المستعملة في معنييها، والله تعالى أعلم»[٤].

قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾ بيان لمضمون ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ وهو كالاحتراس، لأنّ تنزّل الملائكة يكون للخير ويكون للشر لعقاب مكذبي الرسل، قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝﴾[٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[٦]، وجُمع بين إنزالهم للخير والشر في قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾[٧] الآية. فأخبر هنا أن تنزل الملائكة ليلة القدر لتنفيذ أمر الخير للمسلمين الذين صاموا رمضان وقاموا ليلة القدر، فهذه بشارة.

والسلام: مصدر أو اسم مصدر معناه السلامة قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝﴾[٨]، ويطلق السلام على التحية والمِدحة، وفسر السلام بالخَيْر، والمعنيان حاصلان في هذه الآية، فالسلامة تشمل كل خير، لأن الخَيْر سلامة من الشر ومن الأذى، فيشمل السلامُ الغفرانَ وإجزال الثواب واستجابة الدعاء بخير الدنيا والآخرة. والسلام بمعنى التحية والقول الحسن مراد به ثناء الملائكة على أهل ليلة القدر، كدأبهم مع أهل الجنة فيما حكاه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٩].

وتنكير ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتعظيم. وأخبر عن الليلة بأنها سلام للمبالغة لأنه إخبار

(١) يس: الآية (٨٢).
(٢) الدخان: الآيتان (٤-٥).
(٣) الدخان: الآية (٨).
(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٣٩١-٣٩٢).
(٥) الحجر: الآية (٨).
(٦) الفرقان: الآية (٢٢).
(٧) الأنفال: الآية (١٢).
(٨) الأنبياء: الآية (٦٩).
(٩) الرعد: الآيتان (٢٣-٢٤).

بالمصدر . . و﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ غاية لما قبله من قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾.

والمقصود من الغاية إفادة أن جميع أحيان تلك الليلة معمورة بنزول الملائكة والسلامة، فالغاية هنا مؤكدة لمدلول ﴿لَيْلَةُ﴾ لأن الليلة قد تطلق على بعض أجزائها، كما في قول النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذَنْبه» أي: من قام بعضها، فقد قال سعيد بن المسيب: من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحَظه منها. يريد شهدها في جماعة كما يقتضيه فعل شهد، فإن شهود الجماعة من أفضل الأعمال الصالحة.

وجيء بحرف ﴿حَتَّىٰ﴾ لإدخال الغاية لبيان أن ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر، بحيث إن صلاة الفجر تعتبر واقعة في تلك الليلة، لئلا يتوهم أن نهايتها كنهاية الفِطر بآخر جزء من الليل، وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر.

ويستفاد من غاية تَنَزُّل الملائكة فيها، أن تلك غاية الليلة، وغاية لما فيها من الأعمال الصالحة التابعة لكونها خيرًا من ألف شهر، وغاية السلام فيها»[1].

قال عطية سالم: «لطيفة: كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار، مشعر بفضل اختصاص الليل، وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2]، ومنه قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[3]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾[4]، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾[5]، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[6]، ومن السنة قوله ﷺ: «**إذا كان ثلث الليل الآخر، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا**»[7] الحديث. وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية، وبتجليات الرب سبحانه لعباده، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون الليل، ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه»[8].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٤-٤٦٦) وانظر تتمة الأضواء (٩/ ٣٩٢).

(٢) الإسراء: الآية (١).

(٣) الإسراء: الآية (٧٩).

(٤) ق: الآية (٤٠).

(٥) المزمل: الآية (٦).

(٦) الذاريات: الآية (١٧).

(٧) أخرجه بنحو من هذا اللفظ: أحمد (٢/ ٤٨٧). البخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥). مسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨). أبو داود (٢/ ٧٦-٧٧/ ١٣١٥). الترمذي (٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٦). النسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٨). ابن ماجه (١/ ٤٣٥/ ١٣٦٦).

(٨) تتمة الأضواء (٩/ ٣٩٢-٣٩٣).

قال أبو بكر الجزائري: «من هداية الآيات: تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.

تقرير عقيدة القضاء والقدر.

فضل ليلة القدر وفضل العبادة فيها.

بيان أن القرآن نزل في رمضان واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وأنه ابتدئ نزوله على رسول اللَّه ﷺ في رمضان أيضا.

الندب إلى طلب ليلة القدر للفوز بفضلها، وذلك في العشر الأواخر من شهر رمضان، وأرجى ليلة في العشر الأواخر هي الوتر، كالواحدة والعشرين إلى التاسعة والعشرين، للحديث الصحيح «التمسوها في العشر الأواخر»[١].

استحباب الإكثار من قراءة القرآن وسماعه فيها، لمعارضة جبريل الرسول ﷺ القرآن في رمضان مرتين»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضيلة ليلة القدر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٣].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أتاكم رمضان شهر مبارك، فرض اللَّه عز وجل عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتقل فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم**»[٤].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا. (٢) أيسر التفاسير (٥/ ٥٩٨-٥٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤١و٣٤٧و٤٠٨و٤٢٣و٤٧٢و٥٠٣)، والبخاري (٤/ ٥٥٢/ ٤١٠٢)، ومسلم (١/ ٥٢٣/ ٧٦٠)، وأبو داود (٢/ ١٠٣/ ١٣٧٢)، والنسائي (٤/ ٤٦٦/ ٢٢٠١). وبلفظ آخر: الترمذي (٣/ ١٧١/ ٨٠٨)، وابن ماجه (١/ ٤٢٠/ ١٣٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٠)، والنسائي (٤/ ٤٣٥/ ٢١٠٥)، قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٩٨): «رواه النسائي والبيهقي كلاهما عن أبي قلابة عن أبي هريرة، ولم يسمع منه فيما أعلم». وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تحقيق المسند (٧١٤٨): «ولم أجد ما يؤيد هذا، وأبو قلابة لم يعرف بتدليس، والمعاصرة كافية في الحكم بوصل الإسناد». والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٩٩٩).

★ **غريب الحديثين:**

إيمانًا واحتسابًا : يعني تصديقًا أن اللَّه فرض عليه الصوم، واحتسابًا لثواب اللَّه عليه.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن الملقن : «هذه الليلة أفضل ليالي السنة، وهي مختصة بهذه الأمة، ولم تكن لمن قبلنا»[١].

قال القرطبي : «فإنها ليلة عظيمة، تغفر فيها الذنوب، ويطلع اللَّه تعالى فيها من شاء من ملائكته على ما شاء من مقادير خليقته على ما سبق به علمه، ولذلك عظمها ﷻ بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ إلى آخر السورة، وبقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٢]»[٣].

قال ابن قدامة : «هي ليلة شريفة مباركة معظمة مفضلة؛ قال اللَّه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾، القدر قيل: معناه العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقال النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» متفق عليه»[٤].

قال ابن عبد البر : «وجملة القول في ليلة القدر أنها ليلة عظيم شأنها وبركتها، وجليل قدرها، هي خير من ألف شهر، تدرك فيها هذه الأمة ما فاتهم من طول أعمار من سلف قبلهم من الأمم في العمل، والمحروم من حرم خيرها، نسأل اللَّه برحمته أن يوفقنا لها، وأن لا يحرمنا خيرها آمين»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعيين ليلة القدر وبيان حكمة إخفائها

❋ عن ابن عمر ﷺ أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٤٠٧-٤٠٨).
(٢) الدخان: الآيات (١-٦).
(٣) المفهم (٣/ ٢٥٠-٢٥١).
(٤) المغني (٤/ ٤٤٧).
(٥) التمهيد (٢/ ٢١٤).

السبع الأواخر، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**»[٢].

* عن عبادة بن الصامت قال: «خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: **خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»[٣].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان رسول اللَّه ﷺ يجاور في رمضان العشر التي في وسط الشهر، فإذا كان حين يمسي من عشرين ليلة تمضي ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه ورجع من كان يجاور معه، وأنه أقام في شهر جاور فيه الليلة التي كان يرجع فيها، فخطب الناس فأمرهم ما شاء اللَّه، ثم قال: **كنت أجاور هذه العشر، ثم قد بدا لي أن أجاور هذه العشر الأواخر، فمن كان اعتكف معي فليثبت في معتكفه، وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين**، فاستهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت، فوكف المسجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين، فبصرت عيني رسول اللَّه ﷺ ونظرت إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلئ طينًا وماءً»[٤].

* عن عبد اللَّه بن أنيس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين**» قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول اللَّه ﷺ، فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، قال: وكان

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧و٧٤و١١٣و١٥٧)، والبخاري (٤/ ١٢٣/ ٥١٠٢)، ومسلم (٢/ ٨٢٢/ ١١٦٥)، وأبو داود (٢/ ١١١/ ١٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٩/ ١١٦٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٦)، والبخاري (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢٠)، ومسلم (٢/ ٨٢٨/ ١١٦٩)، والترمذي (٣/ ١٥٨/ ٧٩٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٣و٣١٩)، والبخاري (٤/ ٣٣٧/ ٢٠٢٣)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٧٠/ ٣٣٩٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٠)، والبخاري (٤/ ٣٢٦/ ٢٠١٨)، ومسلم (٢/ ٨٢٤/ ١١٦٧)، وأبو داود (٢/ ١٠٩/ ١٣٨٢)، وابن ماجه (١/ ٥٦١/ ١٧٦٦)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٢٧٤/ ٣٤٠٥).

عبد اللَّه بن أنيس يقول: ثلاث وعشرين[(١)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى، وفي سابعة تبقى، وفي خامسة تبقى**»[(٢)].

* عن عبد الرحمن بن جوشن قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال: ما أنا ملتمسها لشيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ إلا في العشر الأواخر؛ فإني سمعته يقول: «**التمسوها في تسع يبقين، أوفي سبع يبقين، أو في خمس يبقين، أو في ثلاث أواخر ليلة**» قال: وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر اجتهد[(٣)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليلة القدر ليلة السابعة أو التاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة أكثر في الأرض من عدد الحصى**»[(٤)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»[(٥)].

⋆ غريب الأحاديث:

أروا ليلة القدر: «أُرُوا» بضم أوله على البناء للمجهول، أي: قيل لهم في المنام إنها في السبع الأواخر.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٥)، ومسلم (٢/ ٨٢٧/ ١١٦٨)، وأبو داود (٢/ ١٠٧/ ١٣٧٩) بنحوه، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٧٢و٢٧٣/ ٣٤٠١و٣٤٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣١)، والبخاري (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢١)، وأبو داود (٢/ ١٠٨/ ١٣٨١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦و٣٩و٤٠)، والترمذي (٣/ ١٦٠/ ٧٩٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٧٣/ ٣٤٠٤)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٣٢٤/ ٢١٧٥)، وابن حبان (الإحسان ٨/ ٤٤٢/ ٣٦٨٦)، والحاكم (١/ ٤٣٨).

(٤) أخرجه: الطيالسي (٢٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٥١٩)، والبزار (كشف الأستار ١/ ٤٨٤/ ١٠٣٠)، قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٧٥): «رواه أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط»، ورجاله ثقات»، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٣٣٢/ ٢١٩٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٤١)، والبخاري (٤/ ٣٣٨/ ٢٠٢٤)، ومسلم (٢/ ٨٣٢/ ١١٧٤)، وأبو داود (٢/ ١٠٥/ ١٣٧٦)، والترمذي (٣/ ١٦١/ ٧٩٥) بنحوه، والنسائي (٣/ ٢٤٠-٢٤١/ ١٦٣٨)، وابن ماجه (١/ ٥٦٢/ ١٧٦٨).

تواطأت: بالهمزة، أي: توافقت، وزنًا ومعنىً.

تحروا: احرصوا على طلبها واجتهدوا فيها.

تلاحى: بالمهملة، أي: وقعت بينهما ملاحاة، وهي المخاصمة والمنازعة والمشاتمة، والاسم: اللِّحاء، بالكسر والمد.

يجاور: أي: يعتكف.

وكف: أي: قطر ماء المطر من سقفه.

شد مئزره: أي: اعتزل النساء، وبذلك جزم عبد الرزاق عن الثوري، واستشهد بقول الشاعر:

قـومٌ إذا حَـاربـوا شَـدّوا مَـآزِرهـم ... عـنِ الـنِّـسـاء ولـوْ بَـاتـت بِـأطْـهـار

قال الحافظ: «قال الخطابي: يحتمل أن يريد به الجد في العبادة، كما يقال: شددت لهذا الأمر مئزري، أي: تشمرت له، ويحتمل أن يراد التشمير والاعتزال معًا، ويحتمل أن يراد الحقيقة والمجاز، كمن يقول: طويل النجاد، لطويل القامة، وهو طويل النجاد حقيقة، فيكون المراد شد مئزره حقيقة فلم يحله، واعتزل النساء، وشمر للعبادة».

وقال أيضًا: «وقع في رواية عاصم بن ضمرة المذكور: «شد مئزره، واعتزل النساء» فعطفه بالواو، فيتقوى الاحتمال الأول»[1].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن بطال: «قال الطبري: اختلف الصحابة والتابعون لهم بإحسان في تحديد ليلة القدر بعينها، مع اختلافهم في روايتهم عن النبي ﷺ حدها، قال ابن مسعود: هي ليلة سبع عشرة من رمضان، وقال علي وابن مسعود وزيد بن ثابت: هي ليلة تسع عشرة، وقال بعضهم: ليلة إحدى وعشرين، على حديث أبي سعيد، وروي ذلك أيضًا عن علي وابن مسعود، وقال آخرون: ليلة ثلاث وعشرين على حديث ابن عمر وابن عباس، وروي ذلك عن ابن عباس وعائشة وبلال، وقاله مكحول، وقال ابن عباس وبلال: هي ليلة أربعة وعشرين، وهو قول الحسن

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٣٩) بتصرف يسير.

وقتادة، وأحسب الذين قالوا هذه المقالة ذهبوا إلى قوله ﷺ: «التمسوها لسبع بقين» أن السابعة هي أول الليالي السبع البواقي، وهي ليلة أربعة وعشرين إذا كان الشهر كاملًا، وقال علي وابن عباس وأبي بن كعب ومعاوية: هي ليلة سبعة وعشرين، وروي عن ابن عمر أنه قال: هي في رمضان كله، وروى عبد اللَّه بن بريدة عن معاوية عن النبي ﷺ أنها آخر ليلة، وقال أيوب عن أبي قلابة: إنها تجول في ليالي العشر كلها.

قال الطبري: والآثار المروية في ذلك عن النبي ﷺ صحاح، وهي متفقة غير مختلفة، وذلك أن جميعها ينبئ عنه ﷺ أنها في العشر الأواخر، وغير منكر أن تتجول في كل سنة في كل ليلة من ليالي العشر كما قال أبو قلابة، وكان معلومًا أنه ﷺ إنما قال في كل ليلة من الليالي التي أمر أصحابه بطلبتها فيها أنها كانت عنده في ذلك العام في تلك الليلة، فالصواب أنها في شهر رمضان دون شهور السنة؛ لإجماع الجميع وراثة عن النبي ﷺ أنه قال: «هي في العشر الأواخر في وتر منها» ثم لا حد في ذلك خاص لليلة بعينها لا يعدوها إلى غيرها؛ لأن ذلك لو كان محصورًا على ليلة بعينها لكان أولى الناس بمعرفتها النبي ﷺ مع جده في أمرها ليعرفها أمته، فلم يعرفهم منها إلا الدلالة عليها»(١).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن ليلة القدر فأجاب: «الحمد لله، ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان، هكذا صح عن النبي أنه قال: هي في العشر الأواخر من رمضان، وتكون في الوتر منها، لكن الوتر يكون باعتبار الماضي، فتطلب ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وليلة خمس وعشرين، وليلة سبع وعشرين، وليلة تسع وعشرين، ويكون باعتبار ما بقي كما قال النبي: «لتاسعة تبقى، لسابعة تبقى، لخامسة تبقى، لثالثة تبقى»، فعلى هذا إذا كان الشهر ثلاثين يكون ذلك ليال الأشفاع، وتكون الاثنين وعشرين تاسعة تبقى، وليلة أربع وعشرين سابعة تبقى، وهكذا فسره أبو سعيد الخدري في الحديث الصحيح، وهكذا أقام النبي ﷺ في الشهر، وإن كان الشهر تسعًا وعشرين كان التاريخ بالباقي كالتاريخ الماضي، وإذا كان الأمر هكذا فينبغي أن يتحراها المؤمن في العشر الأواخر

---

(١) شرح ابن بطال (٤/ ١٥٤-١٥٧).

جميعه، كما قال النبي: «تحروها في العشر الأواخر»، وتكون في السبع الأواخر أكثر، وأكثر ما تكون ليلة سبع وعشرين، كما كان أبي بن كعب يحلف أنها ليلة سبع وعشرين، فقيل له: بأي شيء علمت ذلك؟ فقال: «بالآية التي أخبرنا رسول الله: أخبرنا أن الشمس تطلع صبحة صبيحتها كالطست لا شعاع لها»[1] »[2].

وقال الحافظ بعدما ذكر الأقوال الواردة في تعيين ليلة القدر التي بلغت عنده ستًا وأربعين قولًا: «وأرجحها كلها أنها في وتر من العشر الأخير، وإنها تنتقل، كما يفهم من أحاديث هذا الباب، وأرجاها أوتار العشر، وأرجى أوتار العشر عند الشافعية ليلة إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، على ما في حديث أبي سعيد وعبد الله بن أنيس، وأرجاها عند الجمهور ليلة سبع وعشرين»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: «فرفعت»[4] أي: رفع علم تَعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلة الشيعة؛ لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وقوله: «وعسى أن يكون خيرًا لكم» يعني: عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طُلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر. ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٥١و٢٢٧) عن الحسن مرسلا.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٤-٢٨٥). (٣) فتح الباري (٤/ ٣٣٥).

(٤) قال ابن الملقن: «أجمع من يعتد به من العلماء على دوام ليلة القدر ووجودها إلى آخر الدهر، وشذ قوم فقالوا: كانت خاصة برسول الله ﷺ ثم رفعت، وعزاه الفاكهي إلى أبي حنيفة، وهو غريب، وإنما هو معزى إلى الروافض واستدلوا بقوله -عليه الصلاة والسلام- حين تلاحى الرجلان: «فرفعت»، وهو غلط؛ فإن آخر الحديث يرد عليهم، فإنه قال -عليه الصلاة والسلام- بعد قوله: «فرفعت»: «وعسى أن يكون خيرًا لكم، التمسوها في السبع، والتسع، والخمس» وهو صريح في أن المراد برفعها بيان علم عينها، ولو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها»، الإعلام (٥/ ٣٩٧-٣٩٨).

قال ابن عبد البر: «والأظهر أنه رفع علم تلك الليلة عنه، فأنسيها بعد أن كان عَلِمها، ولم ترفع رفعًا لا تعود بعده؛ لأن في حديث أبي ذر أنها في كل زمان، وأنها إلى يوم القيامة»، فتح البر (٧/ ٤٤٣).

قال النووي: «ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة، ويستحب طلبها، والاجتهاد في إدراكها»، المجموع (٦/ ٣٩٨).

توفاه اللَّه ﷿. ثم اعتكف أزواجهُ من بعده. أخرجاه من حديث عائشة.

ولهما عن ابن عمر: (كان رسول اللَّه ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان).

وقالت عائشة: (كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل العشر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر). أخرجاه. ولمسلم عنها: (كان رسول اللَّه ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره). وهذا معنى قولها: (وشد المئزر). وقيل: المراد بذلك: اعتزال النساء. ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين، لما رواه الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج، حدثنا أبو معْشَر، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: (كان رسول اللَّه ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شَدَّ مئزره، واعتزل نساءه). انفرد به أحمد. وقد حكي عن مالك، رحمه الله، أن جميع ليالي العشر في تطلب[1] ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى: رأيته في شرح الرافعي رحمه الله»[2].

قال ابن قدامة: «أبهم اللَّه تعالى هذه الليلة على الأمة ليجتهدوا في طلبها، ويجدّوا في العبادة في الشهر كله طمعًا في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكثروا من الدعاء في اليوم كله، وأخفى اسمه الأعظم في الأسماء، ورضاه في الطاعات ليجتهدوا في جمعها، وأخفى الأجل وقيام الساعة ليجد الناس في العمل حذرًا منهم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر علامات ليلة القدر

* عن زر قال: «سمعت أبي بن كعب يقول قيل له: إن عبد اللَّه بن مسعود يقول: من قام السنة أصاب ليلة القدر، فقال أبي: واللَّه الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، وواللَّه إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول اللَّه ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها»[4].

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب واللَّه أعلم: «تطلب فيها».

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٧١-٤٧٢). (٣) المغني (٤/ ٤٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٠-١٣١)، ومسلم (١/ ٥٢٥/ ٧٦٢)، وأبو داود (٢/ ١٠٦/ ١٣٧٨)، والترمذي (٣/ ١٦٠/ ٧٩٣)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٧٤/ ٣٤٠٩-٣٤١٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال الشوكاني: «قد ورد لليلة القدر علامات، أكثرها لا تظهر إلا بعد أن تمضي، منها طلوع الشمس على هذه الصفة، وروى ابن خزيمة من حديث ابن عباس مرفوعًا: «**ليلة القدر طلقة، لا حارة ولا باردة، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة**»، ولأحمد من حديث عبادة: «**لا حر فيها ولا برد، وأنها ساكنة صاحية، وقمرها ساطع**»، وفي علاماتها أحاديث منها: عن جابر بن سمرة عند ابن أبي شيبة، وعن جابر بن عبد اللَّه عند ابن خزيمة، وعن أبي هريرة عنده، وعن ابن مسعود عند ابن أبي شيبة، وعن غيرهم»[١].

قال ابن قدامة: «فأما علامتها فالمشهور فيها ما ذكره أبي بن كعب عن النبي ﷺ أن «**الشمس تطلع من صبيحتها بيضاء لا شعاع لها**»، وفي بعض الأحاديث: «**بيضاء مثل الطست**»، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**بلجة سمحة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها لا شعاع لها**»»[٢].

قال شيخ الإسلام: «فهذه العلامة التي رواها أبي بن كعب عن النبي ﷺ من أشهر العلامات في الحديث، وقد روي في علاماتها: أنها ليلة بلجة منيرة، وهي ساكنة لا قوية الحر، ولا قوية البرد»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما يستحب فعله في هذه الليلة

* عن عائشة ﵂ قالت: «قلت: يا رسول الله! إن علمت أي ليلةٍ ليلةُ القدر، ما أقول فيها؟ قال: **قولي: اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «يسن الإكثار من الصلاة فيها، والدعاء، والاجتهاد في ذلك،

---

(١) نيل الأوطار (٤/ ٢٧٥). (٢) المغني (٤/ ٤٥٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧١و١٨٢و١٨٣و٢٥٨)، والترمذي (٥/ ٤٩٩/ ٣٥١٣)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٨-٢١٩/ ١٠٧٠٨-١٠٧١٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٥/ ٣٨٥٠)، وصححه الحاكم (١/ ٥٣٠)، والنووي في «الأذكار» (١/ ٤٩٧).

وغيره من العبادات فيها؛ لقوله ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، ولحديث عائشة في الدعاء، وهما صحيحان سبق بيانهما، ويستحب الدعاء فيها بما في حديث عائشة، كما ذكره المصنف والأصحاب، ويستحب إحياؤها بالعبادة إلى مطلع الفجر؛ قال اللَّه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ قال أصحابنا: معناه: إنها سلام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر»[1].

قال ابن كثير: «والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر، والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»»[2].

* * *

(١) المجموع شرح المهذب (٦/ ٣٩٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٧٢).



سورة البينة

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها الإعلام بأن هذا الكتاب القيم من علو مقداره وجليل آثاره، أنه كما أنه لقوم نور وهدى، فهو لآخرين وقر وعمى، فيقود إلى الجنة دار الأبرار، ويسوق إلى النار دار الأشقياء الفجار، وعلى ذلك دل كل من أسمائها، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ و«المنفكين» بتأمل الآية في انقسام الناس إلى أهل الشقاوة وأهل الهداية، وكذا القيامة بانقسام أهل الدعوة فيها بحسب الإرادة إلى القسمين: أهل الشقاوة وأهل السعادة»[1].

قال ابن عاشور: «أغراضها: توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ. والتعجيب من تناقض حالهم؛ إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة، فلما أتتهم البينة كفروا بها. وتكذيبهم في ادعائهم أن اللّٰه أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها. ووعيدهم بعذاب الآخرة. والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية. والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ووعدهم بالنعيم الأبدي ﷺ وإعطائه إياهم ما يرضيهم. وتخلل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ من قبل، وما فيه من فضل وزيادة»[2].

قال شيخ الإسلام: «تضمنت السورة ذكر أصناف الخلق، وما أمر اللّٰه به جميع العباد، وأن ذلك أمر لا بد منه، -لا بد من إرسال الرسل، وإنزال الكتب- وبيان

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٨).

السعداء أهل الجنة، والأشقياء أهل النار»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة السورة وبيان فضيلة أبي بن كعب رضي الله عنه

* عن أبي بن كعب: «أن رسول الله ﷺ قال له: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك. فقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ فقرأ فيها: «إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية، من يعمل خيرًا فلن يكفره**»، وقرأ عليه: «**ولو أن لابن آدم واديًا من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانيًا لابتغى إليه ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[٢].

* عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: **إن الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: وسماني لك؟ قال: **نعم**، فبكى»[٣].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «فيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم، قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أبي، ليعلم الناس التواضع، لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة. وقيل: لأن أبيا كان أسرع أخذا لألفاظ رسول الله ﷺ، فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره. وفيه فضيلة عظيمة لأبي، إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه»[٤].

قال النووي: «أما بكاؤه فبكاء سرور واستصغار لنفسه عن تأهيله لهذه النعمة، وإعطائه هذه المنزلة، والنعمة فيها من وجهين: أحدهما: كونه منصوصًا عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣١-١٣٢)، والترمذي (٥/ ٦٢٤/ ٣٧٩٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ٢٢٤) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، من طريق شعبة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن أبي به.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠)، والبخاري (٨/ ٧٢٥/ ٤٩٥٩-٤٩٦٠)، ومسلم (٤/ ١٩١٥/ ٧٩٩[١٢٢])، والترمذي (٥/ ٦٢٤/ ٣٧٩٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٠/ ١١٦٩١)، من طرق عن شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه به.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٣٩).

بعينه، ولهذا قال: «وسماني» معناه نص علي بعيني، أو قال: اقرأ على واحد من أصحابك، قال: «بل سمّاكَ» فتزايدت النعمة. والثاني: قراءة النبي ﷺ، فإنها منقبة عظيمة له لم يشاركه فيها أحد من الناس. وقيل: إنما بكى خوفًا من تقصيره في شكر هذه النعمة، وأما تخصيص هذه السورة بالقراءة، فلأنها مع وجازتها جامعة لأصول وقواعد ومهمات عظيمة، وكان الحال يقتضي الاختصار، وأما الحكمة في أمره بالقراءة على أبيّ، قال: المازري والقاضي: هي أن يتعلم أبيّ ألفاظه، وصيغة أدائه، ومواضع الوقوف، وصنع النغم في نغمات القرآن على أسلوب ألفه الشرع وقدره، بخلاف ما سواه من النغم المستعمل في غيره، ولكل ضرب من النغم مخصوص في النفوس، فكانت القراءة عليه ليتعلم منه. وقيل: قرأ عليه ليسن عرض القرآن على حفاظه البارعين فيه المجيدين لأدائه، وليسن التواضع في أخذ الإنسان القرآن وغيره من العلوم الشرعية من أهلها، وإن كانوا دونه في الفضيلة والمرتبة والشهرة وغير ذلك، ولينبه الناس على فضيلة أبيّ في ذلك، ويحثهم على الأخذ منه، وكان كذلك، فكان بعد النبي ﷺ رأسًا وإمامًا مقصودًا في ذلك مشهورًا به، والله أعلم»[1].

قال القرطبي: «وتخصيص سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ لما تضمنته من ذكر الرسالة والصحف والكتب في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ وهو مناسب لحالهما»[2].

وقال شيخ الإسلام: «وتخصيص هذه السورة بقراءتها على أبيّ يقتضي اختصاصها وامتيازها بما اقتضى ذلك. وقوله: «أن أقرأ عليك»، أي: قراءة تبليغ وإسماع وتلقين، ليس هي قراءة تلقين وتصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم، فإن هذا قد ظنه بعضهم، وجعلوا هذامن باب التواضع. وجعل أبو حامد هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم، وليس هذابشيء. فإن هذه القراءة كان يقرؤها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام، فإنه هوالذي نزل عليه القرآن. وأما الناس فمنه تعلموه، فكيف يصحح قراءته على أحد منهم، أو يقرأكما يقرأ المتعلم؟ ولكن

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٧).
(٢) المفهم (٢/ ٤٢٦).

قراءته على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الإنس والجن. فقد قرأ على الجن القرآن، وكان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، ويقرأه على الناس في الصلاة وغير الصلاة. قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[3]، وذكر مثل هذا في غير موضع، فهو يتلو على المؤمنين آيات الله.

وأبي بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفضيلة أبيّ واختصاصه بعلم القرآن، كما ثبت في الصحاح عن عمر أنه قال: «أبيّ أقرؤنا، وعلي أقضانا»[4]. وفي الصحيح أنه قال لابن مسعود: «**اقرأ علي القرآن**»[5]. قال: أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**». فقراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لإسماعه إياه، لا لأجل التصحيح والتلقين»[6].

* * *

(١) الانشقاق: الآيتان (٢٠و٢١).
(٢) مريم: الآية (٥٨).
(٣) آل عمران: الآية (١٦٤).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١١٣). البخاري (٨/ ٢١١/ ٤٤٨١). النسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٩/ ١٠٩٩٥).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٨/ ٣١٧/ ٤٥٨٢)، ومسلم (١/ ٥٥١/ ٨٠٠)، وأبو داود (٤/ ٧٤/ ٣٦٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٢٢/ ٣٠٢٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٨-٢٩/ ٨٠٧٨).
(٦) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٨١-٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

★ غريب الآية:

منفكين: مُنْتَهِينَ وزَائِلِينَ. تقول: ما انفك فلان قائمًا: أي: ما زال. وأصل الفكّ: الفتح. ومنه: فك الكتاب، وفك الخلخال: وانفك من هذا الأمر: انفصل منه. قال ذو الرمة:

حَرَاجِيجُ ما تنفكُّ إلا مناخة   على الخسْفِ أو نرمي بها بلدًا قفرًا

البينة: الحجة الواضحة.

مطهرة: أي: منزهة عن الباطل والشبهات.

قَيِّمَة: مستقيمة، محكمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية سالم: «ذكر هنا الذين كفروا، ثم جاءت ﴿مِنْ﴾ وجاء بعدها ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أهل الكتاب والمشركين، مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلا من أهل الكتاب والمشركين، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب لوجود العطف، وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين. وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير، واتفقوا على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وأن المشركين هم عبدة الأوثان، والكفر يجمع القسمين. وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضا أم لا؟ فبين الفريقين عموم وخصوص، عموم في الكفر وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى، وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان. ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ

ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[1] فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكا، وجاء عن عبد اللَّه بن عمر منع نكاح الكتابية، وقال: «وهل كبر إشراكا من قولها: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[2] ». فهو وإن كان مخالفا للجمهور في منع الزواج من الكتابيات، إلا أنه اعتبرهن مشركات. ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك، هل يشمل أهل الكتاب أم لا؟ مع أننا وجدنا فرقا في الشرع في معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين، فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين، وأحل نكاح الكتابيات ولم يحله من المشركات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[4]، وقال ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ﴾[5]، بينما في حق الكتابيات، قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[6]، فكان بينهما مغايرة في الحكم. وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[7] المتقدم ذكرها جمعا مفصلا مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة أنواع، وأهل الكتاب متصفون ببعض دون بعض، إلى آخر ما أورده رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه. ولعل في نفس آية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[8] فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[9]، أي: يشابهونهم في مقالتهم، وهذا القدر اتصف به المشركون من أنواع الشرك.

الثاني: تذييل الآية بصيغة المضارع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[10] بينما وصف عبدة

---

(١) التوبة: الآيتان (٣٠-٣١).
(٢) البقرة: الآية (١١٦).
(٣) البقرة: الآية (٢٢١).
(٤) الممتحنة: الآية (١٠).
(٥) الممتحنة: الآية (١٠).
(٦) المائدة: الآية (٥).
(٧) التوبة: : الآية (٣٠).
(٨) التوبة: الآية (٣٠).
(٩) التوبة: الآية (٣٠).
(١٠) الأعراف: الآية (١٩٠).

الأوثان في سورة البينة بالاسم والمشركين . ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث، وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت، فمشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام، وأهل الكتاب يقع منهم حينا وحينا . وقد أخذ بعض العلماء: أن الكفر ملة واحدة، فورث الجميع من بعض، ومنع الآخرون على أساس المغايرة، والعلم عند اللَّه تعالى .

تنبيه: بقي المجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معاملة أهل الكتاب لحديث: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**»[١] .

وقوله تعالى: ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ اختلف في: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ اختلافا كثيرا عند جميع المفسرين، حتى قال الفخر الرازي عند أول هذه السورة ما نصه: «قال الواحدي في كتاب البسيط: هذه الآية من أصعب ما في القرآن العظيم نظما وتفسيرا، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء. ثم إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يلخص كيفية الإشكال فيها. وأنا أقول: وجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة، التي هي الرسول ﷺ، ثم إنه لم يذكر أنهم منفكون عماذا لكنه معلوم، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه. فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض في الظاهر، هذا منتهى الإشكال فيما أظن. اهـ حرفيا.

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال في الآيتين، وهو مبني على أن منفكين بمعنى تاركين: وعليه جميع المفسرين. والذي جاء عن الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه في إملائه: أن منفكين، أي: مرتدعين عن الكفر والضلال، حتى تأتيهم البينة، أي: أتتهم. ولكن في منفكين، وجه يرفع هذا الإشكال، وهو أن تكون منفكين بمعنى متروكين، لا بمعنى تاركين، أي لم يكونوا جميعا متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة على معنى قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٢٧٨/ ٦١٦) وعبد الرزاق في المصنف (٦/ ٦٨/ ١٠٠٢٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٥/ ١٠٧٦٥). وضعفه الشيخ الألباني في الإرواء (٥/ ٨٨).

أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[١]، وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾[٢]، أي: لن يتركوا، وقريب منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾[٣]، وقد حكى أبو حيان قولا عن ابن عطية قوله، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أن يكون المراد: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر اللّه تعالى وقدرته ونظره لهم، حتى يبعث اللّه تعالى إليهم رسولا منذرا، تقوم عليهم به الحجة، ويتم على من آمن النعمة، فكأنه قال: ما كانوا ليتركوا سدى، ولهذا نظائر في كتاب اللّه تعالى. اهـ. فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه، ويزيل الإشكال الكبير عن المفسرين، كما أسلفنا»[٤].

قال شيخ الإسلام: «فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾، أي: لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم، كما أن المنفك لا حجر عليه، وهو لم يقل مفكوكين؛ بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ وهذا أحسن، فإنه نفي لفعلهم، ولو قال: مفكوكين كان التقدير لم يكونوا مسيبين مخلين، فهو نفي لفعل غيرهم، والمقصود: أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولا ترسل إليهم رسل؛ بل يفعلون ما شاؤا مما تهواه الأنفس.

والمعنى: أن اللّه ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولا، وهذا كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[٥] لا يؤمر ولا ينهى أي: أيظن أن هذا يكون، هذا ما لا يكون البتة؛ بل لابد أن يؤمر وينهى.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾[٦]، وهذا استفهام إنكار، أي: لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر، ونعرض عن إرسال الرسل، ومن كره إرسالهم فإن الأول تكذيب بوجودهم، والثاني يتضمن بغضهم، وكراهة ما جاؤوا به، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ

(١) القيامة: الآية (٣٦).
(٢) العنكبوت: الآيتان (١-٢).
(٣) هود: الآية (٥٣).
(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ٣٩٧-٤٠٢).
(٥) القيامة: الآية (٣٦).
(٦) الزخرف: الآيات (٣-٥).

ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾[(١)]، وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[(٢)].

وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر، ولكن من ظن أن اللَّه لا يرسل إليه رسولا، وأنه يترك سدى مهملا لا يؤمر ولا ينهى، فهذا أيضا مما ذمه اللَّه، إذ كان لابد من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أنه أيضا لابد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة.

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[(٥)] وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[(٦)]، وقال عن أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[(٧)] ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي والثواب والعقاب والمعاد مما لابد منه، وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك، وأنه يمتنع أن لا يقع.

وهذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر؛ فإن اللَّه أخبر بذلك، وخبره صدق، فلابد من وقوع مخبره، وهو واجب بحكم وعده وخبره؛ فإنه إذا علم أن ذلك سيكون، وأخبر أنه سيكون، فلابد أن يكون، فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه، وأخبر به وكتبه وقدره، وأيضا: فإنه قد شاء ذلك، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولابد أن يقع كل ما

---

(١) محمد: الآية (٩).
(٢) غافر: الآية (٣٤).
(٣) ص: الآيتان (٢٧-٢٨).
(٤) المؤمنون: الآية (١١٥).
(٥) الحجر: الآيتان (٨٥-٨٦).
(٦) الجاثية: الآية (٢٢).
(٧) آل عمران: الآية (١٩١).

شاءه، لكن هل يقال: إن المشيئة موجبة، فيه نزاع، وكذلك يقال: إن ذلك وجب لإيجابه له على نفسه، أو لاقتضاء حكمته ذلك، فيه أيضا نزاع.

و ما أقسم ليفعلنه فلابد أن يقع، والقسم متضمن معنى الخبر، ومعنى الحض والطلب، لكن في ثبوت الثاني في حق اللَّه نزاع بين الناس كقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[2].

والذين قالوا: إن حكمته أو حكمه أو مشيئته توجب ذلك يقولون: إن ذلك قد يعرف بالعقل، فيقولون: إنه قد يعرف بالعقل أنه لابد من إرسال الرسل، وأن ذلك واجب في حكمه وحكمته، وهذا قول كثير من الطوائف أو أكثرهم.

ومنهم من يقول: لا يعلم شيء من ذلك إلا بالخبر، وهذا قول الجهمية والأشعرية، وذاك قول المعتزلة والكرامية والحنفية أو أكثرهم.

وأما أصحاب مالك والشافعي وأحمد فمنهم من يقول بهذا، ولكن جمهور الفقهاء مع السلف يثبتون الحكمة والتعليل، وإنما ينفي ذلك منهم من وافق الجهمية المجبرة كالأشعري ومن وافقه.

وكذلك جمهورهم يثبتون للأفعال صفات بها كانت حسنة أو سيئة قبيحة، لا يجعلون حسنها وقبحها ترجيحا لأحد الأمرين بلا مرجح؛ بل لمحض المشيئة كما تقوله الجهمية ومن وافقهم، هذا قول الأئمة والجمهور، كما أن الأئمة والجمهور على إثبات القدر والإيمان به، وأن اللَّه خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يقولون بقول من أنكر القدر من المعتزلة ونحوهم، ولا بقول من أنكر حكمة الرب من الجهمية المجبرة ونحوهم، فلا يقولون بقول القدرية النفاة للقدر، ولا بقول القدرية المجبرة الذين يستلزم قولهم إنكار الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والجزاء بالثواب والعقاب، لاسيما من أفصح منهم بذلك، أو قال: إن من شهد القدر سقط عنه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، فآمنوا بما جاءت به الرسل في الجملة، وأوجبوا ما أوجبه اللَّه، وحرموا ما حرمه اللَّه، وآمنوا بالجنة والنار،

---

(١) ص: الآية (٨٥).

(٢) الأعراف: الآية (١٦٧).

واجتهدوا في متابعة الرسل، لكن أخطؤوا حيث نفوا القدر، وظنوا أن إثباته يناقض الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأنه لا يتم إيمانهم بأن اللَّه عادل صادق حتى يكذبوا بالقدر، وبإخراج أهل الكبائر من النار ظنا منهم أن اللَّه أخبر بأن كل من كان له ذنب يستحق به العذاب لا يخرجه من النار، ولا يرحمه أبدا، فلم يجوزوا أن يعذب بذنبه ثم يرحم؛ بل عندهم من كان له ذنب يستحق به العذاب لم يرحم أبدا.

وهم وإن كانوا لم يتعمدوا تكذيب الرسل فقولهم هذا يتضمن مخالفة الأخبار المتواترة عند أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ في خروج أهل الذنوب من النار، وشفاعة الشفعاء فيهم، ويتضمن أنهم آيسوا الخلق من رحمة اللَّه، مع تكذيبهم بعموم خلق اللَّه ومشيئته وقدرته حيث زعموا أن من الحوادث ما لا يقدر عليه، ولا يشاؤه ولا يخلقه، وتشبهوا بالمجوس من هذا الوجه حتى قيل: «القدرية مجوس هذه الأمة»[1]، وقابلهم أولئك فتوقفوا في خبر اللَّه مطلقا حتى أنكروا صنفي العموم، فلم يعلموا بخبره ما أخبر به من الوعد والوعيد، فلا يجزمون بالنجاة للصنف الذين يعلم اللَّه أنهم آمنوا وعملوا الصالحات، وكانوا من أعظم الناس طاعة لله إذا كان لأحدهم سيئة واحدة صغيرة، ولا بالعذاب للصنف الذين يعلم اللَّه أنهم أفجر أهل القبلة وشرها، بل يجوزون مع علم اللَّه بهذا وبهذا أن يعذب أهل الحسنات الكبيرة على سيئة صغيرة عذابا ما يعذبه أحدا من أهل القبلة، وأن يدخل فجار أهل القبلة الجنة مع السابقين الأولين.

وبسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء له مقام آخر، والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع أخر من القرآن من أن اللَّه يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم وتنهاهم، يرسلهم مبشرين ومنذرين كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[2]، ينذرون الذين أساؤا عقوبات أعمالهم، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم، وأن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود (٥/ ٦٦-٦٧/ ٤٦٩٤)، والحاكم (١/ ٨٥)، وقال: حسن صحيح إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٥)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح وغيره وضعفه جماعة». والحديث حسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في تعليقه على المشكاة (١/ ٣٨/ ١٠٧)، من حديث ابن عمر.

(٢) الأنعام: الآية (٤٨).

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر؛ بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيرا ونذيرا؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[١].

ومما يبين ذلك أن حتى حرف غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[٢]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[٣]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[٤] ونظائر ذلك.

فلو أريد أنهم لم يكونوا منتهين ويؤمنون حتى يتبين لهم الحق، لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيء البينة قد انتهوا وآمنوا، فإن اللفظ عام فيهم، وكذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل إرساله إليهم، وأنهم كلهم بعد إرساله تفرقوا واختلفوا، وكلاهما باطل، فكثير منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ولم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثه، ومن أمور أخر، ولما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم، ولم يتفرقوا كلهم عن الإيمان به، وحينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقا كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا ولم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق، ولا تتضمن ذمهم مطلقا كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا واختلفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق؛ بل تضمنت مدح من آمن منهم بالرسول، وذم من لم يؤمن، والإخبار أنه لابد من إرسال الرسول إليهم فيؤمن به بعضهم ويكفر بعض.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾[٥]، ثم إن الذين آمنوا بالرسل لابد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ

(١) النجم: الآية (٣١).
(٢) البقرة: الآية (١٨٧).
(٣) البقرة: الآية (٢٢٢).
(٤) البقرة: الآية (٢٣٠).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٣).

ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[(١)]، ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾[(٢)].

فالناس إذا أرسل إليهم أحد رجلين إما رجل آمن بهم في الظاهر فلابد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب، وإما رجل عمل السيئات ولم يؤمن فلا يفوت الله؛ بل هو آخذه ﷻ.

ولهذا انقسم الناس في الرسل إلى ثلاثة أقسام: مؤمن باطن وظاهر، وكافر مظهر للكفر، ومنافق مظهر للإيمان مبطن للكفر، ومن حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حصل هذا الانقسام، وأنزل اللّه تعالى في أول البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين.

وأما حين كان بمكة، وكان المؤمنون مستضعفين، فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق؛ بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس، ومنهم من يتكلم بالكفر مكرها، مع طمأنينة قلبه بالإيمان، وهذا مؤمن باطنا وظاهرا، فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس ما أكره عليه، أو كتم عنه إيمانه، فهو يتكلم بالإيمان في خلوته، ومع من يأمنه، ويعمل بما يمكنه، وما عجز عنه فقد سقط عنه. ولهذا قال العلماء منهم أحمد بن حنبل: لم يكن يمكنهم نفاق إنما كان النفاق بالمدينة.

ولكن كان بمكة من في قلبه مرض كما قال في السورة المكية: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾[(٣)].

وهو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾[(٤)]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ

---

(١) العنكبوت: الآيتان (٢-٣).
(٢) العنكبوت: الآية (٤).
(٣) المدثر: الآية (٣١).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٩).
(٥) التوبة: الآية (١٦).

﴿نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[1]، وأمثال ذلك، فكذلك الذين كفروا لم يكن ليتركهم حتى يبعث إليهم الرسول بالآيات البينات، فهذا معنى قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ وهم إذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن ومنهم من يكفر، وإذا قيل: إن الآية تتضمن بعد ذلك المعنى الآخر، وهو أنهم لم يكونوا ليهتدوا ويعرفوا الحق ويؤمنوا حتى تأتيهم البينة، إذ لا طريق لهم إلى معرفة الحق إلا برسول يأتي من اللَّه أيضا، أو لم يكونوا منتهين متعظين وإن عرفوا الحق حتى يأتيهم من اللَّه من يذكرهم، فهذا المعنى لا يناقض ذاك، بخلاف قول من قال: لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكره، ولم يكونوا متفرقين فيه؛ بل متفقين على الإيمان به حتى جاءتهم البينة فتركوا الإيمان به وتفرقوا، فإن هذا غير مراد قطعا.

ومما يبين ذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ ولم يقل حتى أتتهم، وأولئك لما لم يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي، وأن المراد ما انفكوا عما كانوا عليه، إما من كفر وإما من إيمان حتى أتتهم البينة، فلما قيل: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أشكل عليهم، وقال بعضهم: لما تأتهم كلها، وأما على المعنى الصحيح، فالموضع موضع المضارع كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ فإن المراد ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتيهم البينة.

وهو سبحانه قال: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولم وإن كانت تقلب المضارع ماضيا فذاك إذا تجرد فقيل: لم يأت ولم يذهب، فمعناه ما أتى وما ذهب.

وأما إذا قيل: لم يكن يفعل هذا، ولم يكن اللَّه ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا، فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقا، وإذا قيل: لم يكن فلان آتيا حتى يذهب إليه فلان، بخلاف ما إذا قلت: لم يكن فلان قد أتى حتى ذهب إليه فلان، ولو قيل: ما كان فلان فاعلا لهذا حتى يكون كذا كان نحو ذاك بخلاف ما إذا قيل: ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان.

فنفى المضارع الذي خبره اسم فاعل وهو الدائم، والمراد: لم يكونوا في الحال والاستقبال متروكين حتى تأتيهم البينة، ولو قيل هنا حتى أتتهم البينة لم يكن

---

(١) البقرة: الآية (٢١٤).

موضعه، وكذلك لو أراد الانتهاء عن الكفر والإيمان لقيل حتى تأتيهم البينة، أي: لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبي يعرفهم، أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم ويذكرهم، فليس هذا موضع الماضي؛ بخلاف ما لو قيل: ما زالوا كافرين حتى أتاهم.

فالآية تتضمن الإخبار عن وجوب إثبات البينة وامتناع الانفكاك بدونها لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الانفكاك ثم ثبوته في الماضي، وهو كما لو قيل: لم يكونوا ينفكوا حتى تأتيهم البينة، لكن هنا ذكر اسم الفاعلين فقيل منفكين.

وهو سبحانه لما ذكر أنه لابد من إرسال الرسل إلى الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك ذكر بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وقامت عليهم الحجة، فبينات اللّٰه وحجته قامت على هؤلاء وهؤلاء.

وهو لم يعذب واحدا من الحزبين إلا بعد أن جاءتهم البينة، وقامت عليهم الحجة، كما في قصة موسى ومن أرسل إليه، فإن اللّٰه لم يدع فرعون وقومه حتى أرسل إليهم موسى، ولم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة، ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب والرسل لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، فلم يكونوا معذورين في ذلك. ولهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم، فقيل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[1]، والناس الذين بعث إليهم محمد هم كذلك، فمن كان كافرا لم يكن منفكا حتى تأتيه البينة، ومن آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا واختلفوا فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة.

وما أمر الجميع ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[2].

والآية تضمنت مدح الرب، وذكر حكمته وعدله وحجته في أنه لا يدعهم حتى يرسل إليهم رسولا، كما قال لأهل الكتاب: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[3] الآية لم تتضمن

(١) آل عمران: الآية (١٠٥).
(٢) البينة: الآية (٥).
(٣) المائدة: الآية (١٩).

مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول؛ فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول، لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول، فإن هذا لا يقوله عاقل، ولم يقله أحد، لاسيما وأهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله، ونظير هذا في اللفظ قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾(١)، ليس المراد ما كنتم بالغيه في الماضي؛ بل هذه حالهم دائما.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ يقتضي أن هذه حالهم دائما.

وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق، وما أمر اللَّه به جميع العباد، وأن ذلك أمر لابد منه، لابد من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبيان السعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝﴾ جملة فيه بيان إرسال الرسول إلى الجميع. وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝﴾ فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع، وذم تفرقهم واختلافهم، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة.

وهاتان الجملتان نظيرهما قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾(٢).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝﴾(٣)، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝﴾(٤)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

---

(١) النحل: الآية (٧).
(٢) البقرة: الآية (٢١٣).
(٣) الشورى: الآية (١٣).
(٤) الشورى: الآية (١٤).

﴿مُرِيبٍ ۝١١٠﴾[1] في سورة هود وسورة عسق.

ثم ذكر ما أمر به الجميع بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[2] ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات»[3].

قال عطية سالم: «قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ أجمل البينة ثم فصلها فيما بعدها ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا﴾، وفي هذا قيل: إن البينة هي نفس الرسول في شخصه، لما كانوا يعرفونه قبل مجيئه، كما في قوله: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[4]، وقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[5] فكأن وجوده ﷺ بذاته بينة لهم.. كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل الكتاب، وبما كان متصفا به ﷺ، ومن جميل الصفات كما قالت له خديجة عند بدء الوحي له وفزعه منه: «كلا واللّه لن يخزيك اللّه، واللّه إنك لتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر»[6] إلى آخره.. وقد لقبوه بالأمين. وحادثة شق الصدر في رضاعه[7].. فكلها دلائل على أنه ﷺ كان في شخصه بينة لهم، ثم أكرمه اللّه بالرسالة، فكان رسولا يتلو صحفا مطهرة، من الأباطيل والزيغ وما لا يليق بالقرآن.

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾[8]، فعليه يكون ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بدل من البينة، مرفوع على البدلية، أو أن البينة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة. فالتشريع الذي فيها، والإخبار الذي أعلنه تكون البينة، وعلى كل فإن البينة تصدق على الجميع، كما تصدق على المجموع، ولا ينفك أحدها عن الآخر، فلا رسول إلا برسالة تتلى، ولا رسالة تتلى إلا برسول يتلوها.

---

(١) هود: الآية (١١٠) وفصلت: الآية (٤٥). (٢) البينة: الآية (٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٩٥-٥١٠).

(٤) الصف: الآية (٦). (٥) البقرة: الآية (١٤٦).

(٦) جزء من حديث أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

(٧) أخرجها: أحمد (٣/ ٢٨٨و١٢١)، ومسلم (١/ ١٤٧/ ٢٦٢[٢٦١])، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٨) الأحزاب: الآية (٤٦).

وقد عرف لفظ البينة، للإشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها، فكأنه قيل: حتى تأتيهم البينة الموصوفة لهم في كتبهم، ويشير إليها ما قدمنا في إخبار عيسى عليه السلام عنه، وآخر سورة الفتح: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾(1) الآية.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ جمع كتاب، وقال الشيخ رحمة اللّه تعالى علينا وعليه في إملائه: كتب: بمعنى مكتوبات. وقال ابن جرير: في الصحف المطهرة كتب من اللّه قيمة، يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء. وحكاه ابن كثير واقتصر عليه. وقال القرطبي: إن الكتب بمعنى الأحكام، مستدلا بمثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾(2)، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾(3). وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن، فجعله كتبا، لأنه يشتمل على أبواب من البيان. وذكر الفخر الرازي: أنه يحتمل في كتب أي الآيات المكتوبة في المصحف، وهو قريب من قول الشيخ رحمة اللّه تعالى علينا وعليه.

وقال الشوكاني: المراد: الآيات والأحكام المكتوبة فيها، وهذه المعاني وإن كانت صحيحة، إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى كتب منه على معنى كتابة أحكام. والذي يظهر أن مدلول كتب على ظاهرها، هو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة، كما ينص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾(4)، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾(5)، وكقوله في عموم الكتب الأولى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(6)، وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ﴾(7)، ولذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾(8)، أي: بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم إنزالها، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾(9)، وقوله: ﴿إِنَّ

---

(1) الفتح: الآية (٢٩).
(2) البقرة: الآية (١٨٣).
(3) المجادلة: الآية (٢١).
(4) الأعلى: الآيتان (١٦-١٧).
(5) الأعلى: الآيتان (١٨-١٩).
(6) الأحقاف: الآية (٣٠).
(7) آل عمران: الآيتان (٣-٤).
(8) الأنعام: الآية (١١٤).
(9) النور: الآية (٣٤).

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات، مما يدل على أن آي القرآن متضمنة كتبا قيمة مما أنزلت من قبل، وقد جاء عمليا في آية الرحمن، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾[3].

فهذه من الكتب القيمة التي تضمنها القرآن الكريم، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[4]، ولعل هذا بين وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد، أن الرسول ﷺ قال لأبي بن كعب: «أمرت أن أقرأ عليك سورة البينة، فقال: أو ذكرت، ثم»[5] وبكى رضي الله عنه؛ لأن فيها زيادة طمأنينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المتقدمة، والتي يعرفها عبد اللّٰه بن سلام أن الرجم في التوراة لما غطاه الآتي بها، كما هو معروف في القصة، والعلم عند اللّٰه تعالى»[6].

* * *

(١) النمل: الآية (٧٦).
(٢) الأنعام: الآية (٩٢).
(٣) المائدة: الآية (٤٥).
(٤) البقرة: الآية (١٧٩).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٤٠٤-٤٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية سالم: «يلاحظ أن السورة في أولها عن الكفار عموما من أهل الكتاب والمشركين معا، وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط، وذلك مما يخصهم في هذا المقام دون المشركين، وهو أنهم لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم به ﷺ، وبما سيأتي به، ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[1]، وكقوله صراحة: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[2]، فلمعرفتهم به قبل مجيئه، واختلافهم فيه بعد مجيئه، وخصهم هنا بالذكر في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾»[3].

قال القرطبي: «خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف»[4].

قال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ قال طائفة من المفسرين: هو تفرقهم في محمد بعد أن كانوا مجتمعين على الإيمان به، ثم من هؤلاء من جعل تفرقهم إيمان بعضهم وكفر بعض. قال البغوي: ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾، أي: البيان في كتبهم أنه نبي مرسل، قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد حتى بعثه اللّه، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم وكفر به بعضهم.

وهكذا ذكر طائفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ

---

(١) البقرة: الآية (٨٩).
(٢) الشورى: الآية (١٤).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٤٠٩-٤١٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٤٣).

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾[1]. قال أبو الفرج: قال ابن عباس: ما اختلفوا في أمر محمد لم يزالوا به مصدقين حتى جاءهم العلم، يعني: القرآن.

وروى عنه: حتى جاءهم العلم يعني: محمدا، فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم، وبيان هذا أنه لما جاءهم اختلفوا في تصديقه، فكفر به أكثرهم بغيا وحسدا بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه بغيا وحسدا.

ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفارا، قال ابن عطية: ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد إلا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته، فلما جاء من العرب حسدوه.

وكذلك قال الثعلبي: ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة، البيان في كتبهم أنه نبي مرسل، قال العلماء: من أول هذه السورة إلى قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[2] حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، وما تفرق حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليه.

وكذلك قال أبو الفرج: قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني من لم يؤمن، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها أنه محمد، والمعنى: لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث، قاله الأكثرون، والثاني: القرآن، قاله أبو العالية. والثالث: ما في كتبهم من بيان نبوته ذكره الماوردي.

قلت: هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين، ولم يذكر الثعلبي والبغوي وغيرهما سواه، وأبو العالية إنما قال: الكتاب لم يقل القرآن، هكذا رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قال: قال أبو العالية الكتاب، ومراد أبي العالية جنس الكتاب فيتناول الكتاب الأول كما قال، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾[3] في موضعين من القرآن، وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ

---

(١) يونس: الآية (٩٣). (٢) البينة: الآية (٣).
(٣) هود: الآية (١١٠) وفصلت: الآية (٤٥).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾(١).

وهذا التفسير معروف عن أبي العالية، ورواه عن أبي بن كعب ورواه ابن أبي حاتم وغيره عن الربيع عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين، وأن اللّه إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب عند الاختلاف، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يعني: بني إسرائيل أوتوا الكتاب والعلم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: بغيا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها، أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ يقول: فهداهم اللّه عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص للّه وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم.

قلت: الاختلاف في كتاب اللّه نوعان:

أحدهما: يذم فيه المختلفين كلهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾(٣).

والثاني: يمدح المؤمنين ويذم الكافرين كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٤)، وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٥)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾(٦).

---

(١) البقرة: الآية (٢١٣).
(٢) البقرة: الآية (١٧٦).
(٣) هود: الآيتان (١١٨-١١٩).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٥) الحج: الآيات (١٩-٢٣).
(٦) الحج: الآية (١٧).

وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذم فيه الجميع، ونهى عن التشبه بهم فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[١]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

وذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق، وتكفر بما عند الأخرى من الحق، وتزيد في الحق باطلا كما اختلف اليهود والنصارى في المسيح وغير ذلك، وحينئذ نقول: من قال: إن أهل الكتاب ما تفرقوا في محمد إلا من بعد ما بعث إرادة إيمان بعضهم وكفر بعضهم كما قاله طائفة فالمذموم هنا من كفر لا من آمن، فلا يذم كل المختلفين، ولكن يذم من كان يعرف أنه رسول، فلما جاء كفر به حسدا أو بغيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[٢].

وإن أريد بالتفرق فيه أنهم كلهم كفروا به، وتفرقت أقوالهم فيه، فليس الأمر كذلك، وقد بين القرآن في غير موضع أنهم تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد ﷺ، فاختلاف هؤلاء وتفرقهم في محمد ﷺ هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه والله أعلم»[٣].

قال الرازي: «والمقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ، أي: لا يغمنك تفرقهم، فليس ذلك لقصور في الحجة؛ بل لعنادهم، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة العجل ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ فهي عادة قديمة لهم»[٤].

* * *

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٥).

(٢) البقرة: الآية (٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥١١-٥١٦).

(٤) التفسير الكبير (٣٢/ ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

حنفاء: جمع حنيف، وهو المائل عن الباطل إلى الحق. وأصل الحنف: الميل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾[1]، ولهذا قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾، أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[2]، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته ههنا. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾»[3].

قال عطية سالم: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ وهذا لا يستوجب التفرق في أمره ﷺ. ولكن هنا لم يبين موضع الأمر عليهم بعبادة اللَّه مخلصين له الدين، هل هو في كتبهم السابقة، أم في هذا القرآن الذي يتلى عليهم في صحف مطهرة؟ وقد بين القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود في كل من

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) النحل: الآية (٣٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٧٧).

كتبهم والقرآن الكريم، فما في كتبهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[1] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2]، فإقامة الدين وعدم التفرقة فيه، هو عين عبادة اللّه مخلصين له الدين. ومما في القرآن قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[3]، فقد نص على كامل المسألة هنا، أن الكتب القيمة المنصوص عليها في الصحف المطهرة هي كتب أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، وأنهم أمروا في هذا القرآن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعليمات المذكورة نفسها، وإقام الصلاة لا يكون إلا عبادة اللّه بإخلاص. وهذه الأوامر سواء كانت في كتبهم أو في القرآن لا تقتضي التفرق؛ بل تستوجب الاجتماع والوحدة.

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ القيمة: فيعلة من القوامة، وهي غاية الاستقامة. وقد جاء بعد قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: مستقيمة بتعاليمها. وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كما في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾[5]، فنفى عنه العوج، وأثبت له الاستقامة. وهذا غاية في القوامة كما قدمنا من قبل، من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات، لكنه ينحرف تارة يمينا وشمالا مع استقامته، فهو مع الاستقامة لم يخل من العوج. ولكن ما ينتفي عنه العوج وتثبت له الاستقامة، هو الطريق الذي يمتد في اتجاه واحد بدون أي اعوجاج إلى أي الجانبين، مع استقامته في سطحه.

وهكذا هو القرآن، فهو الصراط المستقيم، ولذا قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) الشورى: الآية (١٣).
(٣) البقرة: الآيات (٤٠-٤٣).
(٤) الإسراء: الآية (٩).
(٥) الكهف: الآية (١).

﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ الملة القيمة، قيمة في ذاتها، وقيمة على غيرها، ومهيمنة عليه، وكقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[١]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[٢] تنبيه: إن في هذه الآية ردا صريحا على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك، حيث لم تسلم من لبس، وهي دعوة وحدة الأديان، ومحل اللبس فيها أن هذا القول منه حق، ومنه باطل. أما الحق فهو وحدة الأصول، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأما الباطل فهو الإبهام، بأن هذا ينجر على الفروع مع الجزم عند الجميع، بأن فروع كل دين قد لا تتفق كلها مع فروع الدين الآخر، فلم تتحد الصلاة في جميع الأديان ولا الصيام، ونحو ذلك.

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما في القرآن من تفصيل الفروع، والسنة تكمل تفصيل ما أجمل. وهنا النص الصريح بأن ذلك الذي جاء به القرآن هو دين القيمة، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وهي أفعل تفضيل، فلا يمكن أن يعادل ويساوي مع غيره أبدا مع نصوص القرآن، بأن اللّه أخذ العهد على جميع الأنبياء لئن أدركوا محمدا ﷺ ليؤمنن به، ولينصرنه وليتبعنه، وأخذ عليهم العهد بذلك، وقد أخبر الرسل أممهم بذلك. فلم يبق مجال في هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان؛ بل الدين الإسلامي وحده. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٣]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٤]، وباللّه تعالى التوفيق»[٥].

قال القرطبي: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي العبادة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾[٦]، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه اللّه تعالى لا غيره»[٧].

---

(١) التوبة: الآية (٣٦).
(٢) الأنعام: الآيات (١٦١-١٦٣).
(٣) آل عمران: الآية (١٩).
(٤) آل عمران: الآية (٨٥).
(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٤١١-٤١٥).
(٦) الزمر: الآية (١١).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٤٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان شرائع الإسلام وأن المتمسك بالفرائض مخلصًا ناج وإن لم يأت بالنوافل

* عن طلحة بن عبيد اللَّه يقول: «جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: **خمس صلوات في اليوم والليلة**، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: **لا، إلا أن تطوع**. قال رسول اللَّه ﷺ: **وصيام رمضان**، قال: هل عليّ غيره؟ قال: **لا، إلا أن تطوع**. قال: وذكر له رسول اللَّه ﷺ الزكاة، هل عليّ غيرها؟ قال: **لا، إلا أن تطوع**، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: واللَّه لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول اللَّه ﷺ: **أفلح إن صدق**»(١).

⋆ غريب الحديث:

ثائر الرأس: هو مرفوع على الصفة، ويجوز نصبه على الحال، والمراد أن شعره متفرق من ترك الرفاهية، ففيه إشارة إلى قرب عهده بالوفادة، وأوقع اسم الرأس على الشعر إما مبالغة، أو لأن الشعر منه ينبت.

دوي: بفتح الدال وكسر الواو وتشديد الياء، قال القاضي عياض: جاء عندنا في البخاري بضم الدال، قال: والصواب الفتح، وقال الخطابي: الدوي صوت مرتفع متكرر لا يفهم.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا السائل إنما سأل عن شرائع الإسلام، لا عن حقيقة الإسلام؛ إذ لو كان ذلك لأجابه بما أجاب به جبريل ﷺ في حديثه، ولما روى البخاري في هذا الحديث فإنه قال: «فأخبره رسول اللَّه ﷺ بشرائع الإسلام»، وكأنه ﷺ فهم عنه أنما سأل عما تعين فعله من شرائع الإسلام الفعلية لا القلبية، ولذلك لم يذكر له: أن تشهد ألا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وكذلك لم يذكر له

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٠٦/ ٤٦)، ومسلم (١/ ٤٠/ ١١)، وأبو داود (١/ ٢٧٢-٢٧٣/ ٣٩١)، والنسائي (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٤٥٧).

الحج؛ لأنه لم يكن واجبًا عليه؛ لأنه غير مستطيع، أو لأن الحج على التراخي، أو لأنه كان قبل فرض الحج، والله أعلم»[١].

وقال الحافظ: «قوله: فإذا هو يسأل عن الإسلام، أي: عن شرائع الإسلام، ويحتمل أنه سأل عن حقيقة الإسلام، وإنما لم يذكر له الشهادة لأنه علم أنه يعلمها، أو علم أنه إنما يسأل عن الشرائع الفعلية، أو ذكرها ولم ينقلها الراوي لشهرتها، وإنما لم يذكر الحج إما لأنه لم يكن فرض بعد، أو الراوي اختصره، ويؤيد هذا الثاني ما أخرجه المصنف في الصيام من طريق إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل في هذا الحديث قال: «فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام»، فدخل فيه باقي المفروضات، بل والمندوبات»[٢].

وقال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه تعين الفرائض بما ذكر، وأن السائل سأله عن الإسلام، فأخبره بخمس صلوات في اليوم والليلة وصيام شهر رمضان والزكاة. وهذا أرى فيه أن إخلاله ﷺ بالشهادتين والحج في هذا الحديث من أجل أن دعاءه إلى الشهادتين كان دعاءً ظاهرًا، وأن الدعوة بذلك اتصلت في البادي والحاضر، وكذلك الحج فهو أمر شائع، وقد كان في الجاهلية قبل الإسلام، وزاد الإسلام في تأكيده فلم يكن يخفى تحتمه ووجوبه، فأخبره ﷺ عما عدا ذلك من أركان الإسلام»[٣].

قال النووي: «وفي هذا الحديث أن الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام التي أطلقت في باقي الأحاديث هي الصلوات الخمس، وأنها في كل يوم وليلة على كل مكلف بها، وقولنا بها احتراز من الحائض والنفساء؛ فإنها مكلفة بأحكام الشرع إلا الصلاة وما ألحق بها مما هو مقرر في كتب الفقه، وفيه أن وجوب صلاة الليل منسوخ في حق الأمة، وهذا مجمع عليه، واختلف قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نسخه في حق رسول الله ﷺ، والأصح نسخه، وفيه أن صلاة الوتر ليست بواجبة، وأن صلاة العيد أيضًا ليست بواجبة، وهذا مذهب الجماهير. وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وطائفة إلى وجوب الوتر، وذهب أبو سعيد الإصطخري من أصحاب الشافعي إلى أن صلاة

(١) المفهم (١/ ١٥٨).
(٢) فتح الباري (١/ ١٤٣).
(٣) الإفصاح (١/ ٣٠٤).

العيد فرض كفاية، وفيه أنه لا يجب صوم عاشوراء ولا غيره سوى رمضان، وهذا مجمع عليه. واختلف العلماء: هل كان صوم عاشوراء واجبًا قبل إيجاب رمضان أم كان الأمر به ندبًا؟ وهما وجهان لأصحاب الشافعي، أظهرهما: لم يكن واجبًا، والثاني: كان واجبًا، وبه قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه أنه ليس في المال حق سوى الزكاة على من ملك نصابًا، وفيه غير ذلك، واللَّه أعلم»[1].

قال ابن بطال: «ودل قوله: (أفلح إن صدق) على أنه إن لم يصدق في التزامها أنه ليس بمفلح، وهذا خلاف قول المرجئة».

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (١/ ١٥١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

البرية: الخلق. من بَرَأَ اللهُ الخلقَ. والبارئ: الخالق. ومنه قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب اللّه المنزلة وأنبياء اللّه المرسلة: أنهم يوم القيامة: ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ﴾ أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخليقة التي برأها اللّه وذرأها»[2].

قال عطية سالم: «قد تضمنت هذه الآية مسألتين: الأولى منها أن أولئك في نار جهنم خالدين فيها، ومبحث خلود الكفار في النار، تقدم للشيخ رحمة اللّه تعالى علينا وعليه وافيا. والمسألة الثانية أنهم شر البرية، والبرية أصلها البريئة، قلبت الهمزة ياء تسهيلا، وأدغمت الياء في الياء، والبريئة الخليقة، واللّه تعالى بارئ النسم، هو الخالق الباري المصور سبحانه. ومن البرية الدواب والطيور، وهنا النص على عمومه، فأفهم أن أولئك شر من الحيوانات والدواب. وقد جاء النص صريحا في هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾[3]، وقد بين أن المراد بهم الكفار في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣﴾[4]، وقال عنهم: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٠﴾[5]، فهم لصممهم وعماهم في ضلال مبين. وقد

---

(١) الحديد: الآية (٢٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٧٧).
(٣) الأنفال: الآية (٢٢).
(٤) محمد: الآية (٢٣).
(٥) الزخرف: الآية (٤٠).

ثبت أن الدواب ليست في ضلال مبين؛ لأنها تعلم وتؤمن بوحدانية اللّٰه، كما جاء في هدهد سليمان، أنكر على بلقيس وقومها سجودهم للشمس والقمر من دون اللّٰه.

ونص مالك في الموطأ في فضل يوم الجمعة «أنه وما من دابة إلا تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة»، وهذا كله ليس عند الكافر منه شيء، ثم في الآخرة لما يجمع اللّٰه جميع الدواب ويقتص للعجماء من القرناء، فيقول لها: كوني ترابا، فيتمنى الكافر لو كان مثلها فلم يحصل له، كما قال: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[1]، وذلك واللّٰه تعالى أعلم: أن الدواب لم تعمل خيرا فتبقى لتجازى عليه، ولم تعمل شرا لتعاقب عليه، فكانت لا لها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها، فلما اقتص لها من بعضها انتهى أمرها، فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب، بخلاف الكافر، فإن عليه حساب التكاليف وعقاب المخالفة، فيعاقب بالخلود في النار، فكان شر البرية»[2].

قال البقاعي: «دل بالإتيان بالوصف هنا والفعل في أولئك واللّٰه أعلم- على أن المشرك يرجع عن شركه ويؤمن إن لم يكن عريقا في الشرك بخلاف أهل الكتاب متى تلبس أحد منهم بكفر لا يرجع عنه، وإن كان تلبسه به على أضعف الوجوه، وكذا كل من ينسب إلى علم ولا سيما إن كان بليدا متى عرضت له شبهة بَعُدَ رجوعه عنها، فلذلك جمع بينهم في قوله: ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي النار التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة، تكون عذابا لأجسامهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي يوم القيامة أو في الحال لسعيهم في موجباتها»[3].

قال صديق حسن خان في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قال: «هذا فيه تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد»[4].

قال الألوسي: «واشتراك الفريقين في دخول النار بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهما في الكيفية، فإن جهنم والعياذ باللّٰه تعالى دركات وعذابها ألوان فيعذب أهل الكتاب في درك منها نوعا من العذاب والمشركون في درك أسفل منه بعذاب أشد؛ لأن كفرهم أشد من كفر أهل الكتاب، وكون أهل الكتاب كفروا

(١) النبأ: الآية (٤٠).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤١٥-٤١٧).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٩٦).
(٤) فتح البيان (١٥/ ٣٣٦).

بالرسول ﷺ مع علمهم بنعوته الشريفة وصحة رسالته من كتابهم، ولم يكن للمشركين علم بذلك كعلمهم لا يوجب كون عذابهم أشد من عذاب المشركين ولا مساويا له، فإن الشرك ظلم عظيم، وقد انضم إليه من أنواع الكفر في المشركين مما ليس عند أهل الكتاب، وقد استدل بالآية على خلود الكفار مطلقا في النار»[1].

* * *

(١) روح المعاني (٣٠/ ٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة جريا على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، وعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ يقول: من فعل ذلك من الناس فهم خير البرية»[٢].

قال ابن كثير: «وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة، لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ »[٣]

قال عطية سالم: «الحكم هنا بالعموم كالحكم هناك ولكنه هنا بالخيرية والتفضيل، أما من حيث الجنس فلا إشكال؛ لأن الإنسان أفضل الأجناس، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[٤]. وأما من حيث العموم فقال بعض العلماء: فيها ما يدل على أن صالح المؤمنين أفضل من الملائكة. ولعل مما يقوي هذا الاستدلال هو أن بعض أفراد جنس الإنسان أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة، وهو الرسول ﷺ وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع في البعض الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة هذا هو محل الخلاف. وللقرطبي مبحث في ذلك مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية مأخوذة من البري وهو التراب فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل.

---

(١) تفسير أبي السعود (٩/ ١٨٦).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٦٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٧٧).
(٤) الإسراء: الآية (٧٠).

وأما من جهة النصوص فقال في سورة البقرة عند قوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾[(١)] قال: المسألة الثالثة: اختلف العلماء في هذا الباب أيهما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة.

وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل، واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وقوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾[(٣)]. وبما في البخاري: «**يقول اللَّه من ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منه**»[(٤)] وهذا نص على أن الملأ الأعلى خير من ملإ الأرض.

واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾ بالهمز من برأ اللَّه الخلق، وقوله ﷺ: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم**»[(٥)] أخرجه أبو داود. وبأن اللَّه يباهي بأهل عرفات الملائكة ولا يباهي إلا بالأفضل واللَّه تعالى أعلم.

وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خير منهم؛ لأن طريق ذلك خبر اللَّه وخبر رسول اللَّه ﷺ أو إجماع الأمة. وليس ههنا شيء من ذلك خلافا للقدرية، والقاضي أبي بكر، حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشيعة: إن الأنبياء أفضل؛ لأن اللَّه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم إلى آخره ثم رد هذا الاستدلال.

وقد سقنا هذا البحث لبيان الخلاف في هذه المسألة المشتمل عليها لفظ البرية، وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية، وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة، والملائكة فيهم النص بأنهم عباد مكرمون، والبشر فيهم النص: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ

---

(١) البقرة: الآية (٣٣). (٢) التحريم: الآية (٦).

(٣) الأنعام: الآية (٥٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥١)، والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٨-٢٠٦٩/ ٢٦٧٥[٢١])، والترمذي (٥/ ٥٤٢/ ٣٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٤/ ٥٧-٥٨/ ٣٦٤١)، والترمذي (٥/ ٤٧/ ٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/ ٨١/ ٢٢٣)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٨٩/ ٨٨ الإحسان) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وفي الباب عن صفوان بن عسال رضي الله عنه.

ءَادَمَ﴾ والفرق بينهما كالفرق بين الاسم والفعل في الدلالة. ففي الملائكة بالاسم مكرمون وهو يدل على الدوام والثبوت، وفي بني آدم كرمنا وهو يدل على التجدد والحدوث.

وهذا هو الواقع فالتكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه في بني آدم إذ فيهم وفيهم، ولا يبعد أن يقال: إن التفضيل في الأعمال من حيث صدورها من بني آدم ومن الملائكة، إذ الملائكة تصدر عنهم أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر، بخلاف بني آدم، وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج حيث ركبت فيهم النفس اللوامة والأمارة بالسوء، ونحو ذلك من الجانب الحيواني، وازدواجية المجهود هو أنه ينازع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ويبذل الجهد في فعل الخير، فهو يجاهد للتخليص من نوازع الشر، هو يجاهد للقيام بفعل الخير، وهذا مجهود يقتضي التفضيل على المجهود من جانب واحد، وقد جاء في السنة ما يشهد لذلك لما ذكر ﷺ لأصحابه أن يأتي بعدهم من أن العامل منهم له أجر خمسين، فقالوا: خمسين منا أو منهم يا رسول الله! قال: «**بل خمسين منكم؛ لأنكم تجدون أعوانا على الخير وهم لا يجدون**»[1]. وحديث: «**سبق درهم مائة ألف درهم**»[2] وبين ﷺ أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة؛ لأنه ثاني اثنين فقط، والمائة ألف جزء من مجموع كثير، فالنفس التي تجود بنصف ما تملك ولا يتبقى لها إلا درهم، خير بكثير ممن تنفق جزءا ضئيلا مما تملك ويتبقى لها المال الكثير، فكانت عوامل التصدق ودوافعه مختلفة منزلة في النفس متضادة، فالدرهم في ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس، ولكن تفاوتت الدوافع والعوامل لإنفاقه، ولعل المفاضلة المقصودة تكون من هذا القبيل أولى والله تعالى أعلم»[3].

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٢٦/ ٤٣٤١)، والترمذي (٥/ ٢٥٧/ ٣٠٥٨)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠/ ٤٠١٤)، وصححه ابن حبان (٢/ ١٠٨-١٠٩/ ٣٨٥)، من حديث أبي ثعلبة الخشني.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٩)، والنسائي (٥/ ٦٢/ ٢٥٢٦)، وصححه ابن حبان (٨/ ١٣٥/ ٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤١٧-٤٢١).

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثواب هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم يوم القيامة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني بساتين إقامة لا ظعن فيها، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يقول: ماكثين فيها أبدا، لا يخرجون عنها، ولا يموتون فيها، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أطاعوه في الدنيا وعملوا لخلاصهم من عقابه في ذلك ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الثواب يومئذ، على طاعتهم ربهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا الخير الذي وصفته ووعدته الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوم القيامة، ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ يقول: لمن خاف اللَّه في الدنيا في سره وعلانيته، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وباللَّه التوفيق»[١].

قال عطية سالم: «قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيه أربع مسائل: ثلاثة مجملة جاء بيانها في القرآن، والرابعة مفصلة ولها شواهد.

وأما الثلاثة المجملة فأولها قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إذ الجزاء في مقابل شيء يستوجبه، وعند ربهم تشعر بأنه تفضل منه، وإلا لقال: جزاؤهم على ربهم. وقد بين ذلك صريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾[٢] فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم عطاء لهم من عنده.

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٦٥).

(٢) النبأ: الآيات (٣١-٣٦).

الثانية والثالثة قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فأجمل ما في الجنات، ونص على أنها تجري من تحتها الأنهار، مع إجمال تلك الأنهار وقد فصلت آية ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾[١] ما أعد لهم في الجنة من حدائق وأعناب، وكواعب وشراب وطمأنينة، وعدم سماع اللغو إلى آخره، كما جاء تفصيل الأنهار في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾[٢] والخلود في هذا النعيم هو تمام النعيم

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان اللَّه تعالى على العباد في الجنة من باب العام بعد الخاص. وقد تقدم في سورة الليل في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾[٣] إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[٤]، واتفقوا على أنها في الصديق رضي الله عنه كما تقدم، وجاء في التي بعدها سورة والضحى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[٥] أي: للرسول ﷺ. وهنا في عموم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ فهي عامة في جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم، ثم قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وقد جاء ما يبين سبب رضوان اللَّه تعالى عليهم وهو بسبب أعمالهم كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٦] فكانت المبايعة سببا للرضوان.

وفي هذه الآية الإخبار بأن اللَّه رضي عنهم ورضوا عنه، ولم يبين زمن هذا الرضوان أهو سابق في الدنيا أم حاصل في الجنة، وقد جاءت آية تبين أنه سابق في الدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾[٧] فقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، ثم يأتي بعدها ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾. فهو في قوة الوعد في المستقبل، فيكون الإخبار بالرضى مسبقا عليه. وكذلك آية سورة الفتح في البيعة تحت الشجرة إذ فيها: ﴿لَّقَدْ

---

(١) النبأ: الآية (١).
(٢) محمد: الآية (١٥).
(٣) الليل: الآيتان (١٧-١٨).
(٤) الليل: الآية (٢١).
(٥) الضحى: الآية (٥).
(٦) الفتح: الآية (١٨).
(٧) التوبة: الآية (١٠٠).

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو إخبار بصيغة الماضي، وقد سميت بيعة الرضوان.

تنبيه: في هذا الأسلوب الكريم سؤال وهو أن العبد حقا في حاجة إلى أن يعلم رضوان اللَّه تعالى عليه؛ لأنه غاية أمانيه كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أما الإخبار عن رضى العبد عن اللَّه، فهل من حق العبد أن يسأل عما إذا كان هو راضيا عن اللَّه أم لا؟ إنه ليس من حقه ذلك فعلا، فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة، وهي أنهم في غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذي رضوا وتجاوز رضاهم حد النعيم إلى الرضى عن المنعم، كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية النبأ ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ قالوا: إنهم يعطون حتى يقولوا: حسبنا حسبنا، أي: كافينا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم، وقد تقدم أنه للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهنا يقول: إنه ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ مما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة، رغبة فيما عند اللَّه ورهبة من اللَّه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2]، والواقع أن صفة الخوف من اللَّه تعالى هي أجمع صفات الخير في الإنسان؛ لأنها صفة للملائكة المقربين، كما قال تعالى عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾[3]، وقد عم الحكم في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[4]، وفي هذه الآية السر الأعظم وهو كون الخشية في الغيبة عن الناس وهذا أعلى مراتب المراقبة لله، والخشية أشد الخوف»[5].

قال القاسمي في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾: «قال الإمام: أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس؛ بل الخاصة كذلك، وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة، وتقليد الأبوين، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام، وأداء بعض العبادات، كحركات الصلاة وإمساك الصوم، مجرد هذا لا يكفي في نيل ما أعد اللَّه من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء، وأفواههم ملؤها الكذب والنميمة

---

(١) الرحمن: الآية (١٦).

(٢) النازعات: الآيتان (٤٠-٤١).

(٣) النحل: الآية (٥٠).

(٤) الملك: الآية (١٢).

(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤٢١-٤٢٦).

والافتراء، وتهز أعطافهم رياح العجب والخيلاء. وسرائرهم مسكن العبودية والرق للأمراء. بل ولمن دون الأمراء خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء، كلا لا ينالون حسن الجزاء. فإن خشية ربهم لم تحل قلوبهم، ولهذا لم تهذب من نفوسهم، ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشي ربه، وأشعر خوفه قلبه. والله أعلم»[1].

قال الألوسي: «وفي تقديم مدحهم بخير البرية، وذكر الجزاء المؤذن بكون ما منح في مقابلة ما وصفوا به، وبيان كونه من عنده تعالى، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة، وبما يزيدها نعيما وتأكيد الخلود بالأبود من الدلالة على غاية حسن حالهم ما لا يخفى»[2].

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: «فيه بشارة عظيمة، كأنه تعالى يقول أنا الذي ربيتك أولا حين كنت معدوما صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء، فحين كنت مطلقا أعطيتك هذه الأشياء وما ضيعتك، أترى أنك إذا اكتسبت شيئا وجعلته وديعة عندي فأنا أضيعها، كلا، إن هذا مما لا يكون»[3].

وقال: «إنما قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ولم يقل: رضي الرب عنهم ولا سائر الأسماء؛ لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله، لأنه هو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها، أعني صفات الجلال وصفات الإكرام، فلو قال: رضي الرب عنهم لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد؛ لأن المربي قد يكتفي بالقليل، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة، فقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة»[4].

وقال: «هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلا على فضل العلم

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٢٢٦).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ٢٠٦).
(٣) التفسير الكبير (٣٢/ ٥٥).
(٤) المصدر السابق (٣٢/ ٥٦-٥٧).

والعلماء، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١)، فدلت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية، وهذه الآية وهي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء»(٢).

قال أبو السعود: «إن الخشية التي هي من خصائص العلماء بشؤون اللّه ﷻ مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية، والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية، والتربية للإشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية»(٣).

قال المراغي: «في ذلك تحذير من خشية غير اللّه، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال، كما أن فيه ترغيبا في تذكر اللّه ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصا، إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفي في نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء؛ لأن الخشية لم تحل قلوبهم، ولم تهذب نفوسهم. نسأل اللّه أن يطهر قلوبنا، وينير بصائرنا، حتى لا نرهب سواه، ولا نخشى إلا إياه، والحمد لله رب العالمين»(٤).

* * *

(١) فاطر: الآية (٢٨).
(٢) المصدر السابق (٣٢/ ٥٧).
(٣) تفسير أبي السعود (٩/ ١٨٧).
(٤) تفسير المراغي (٣٠/ ٢١٧).



سورة الزلزلة

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها انكشاف الأمور، وظهور المقدور أتم ظهور، وانقسام الناس في الجزاء في دار البقاء إلى سعادة وشقاء، وعلى ذلك دل اسمها بتأمل الظرف ومظروفه، وما أفاد من بديع القدر وصروفه»[1].

قال ابن عاشور: «أغراضها إثبات البعث وذكر أشراطه، وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع، وحضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر، وهو تحريض على فعل الخير واجتناب الشر»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على مشروعية تكرار السورة في الركعتين

* عن رجل من جهينة: «أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الصبح ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ في الركعتين كلتيهما، فلا أدري أنسي رسول اللّه أم قرأ ذلك عمدًا»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الشوكاني: «قوله: «أم قرأ ذلك عمدا» تردد الصحابي في أن إعادة النبي ﷺ للسـورة هل كان نسيانًا؛ لكون المعتاد من قراءته أن يقرأ في الركعة الثانية غير

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٢). (٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود (١/ ٥١٠-٥١١/ ٨١٦)، والبيهقي (٢/ ٣٩٠) وقال النووي في «المجموع» (٣/ ٣٨٢): «إسناده صحيح»، وقال الشوكاني: «ليس في إسناده معنعن، بل رجاله رجال الصحيح، وجهالة الصحابي لا تضر عند الجمهور، وهو الحق» نيل الأوطار (٢/ ٢٣٠).

ما قرأ به في الأولى، فلا يكون مشروعًا لأمته، أو فعله عمدًا لبيان الجواز، فتكون الإعادة مترددة بين المشروعية وعدمها، وإذا دار الأمر بين أن يكون مشروعًا أو غير مشروع، فحمل فعله ﷺ على المشروعية أولى؛ لأن الأصل في أفعاله التشريع، والنسيان على خلاف الأصل. ونظيره ما ذكره الأصوليون فيما إذا تردد فعله ﷺ بين أن يكون جبليًّا أو لبيان الشرع، والأكثر على التأسي به»[١].

قال الخطاب السبكي: «جوز الصحابي النسيان على النبي ﷺ؛ لقوله ﷺ: «**إنما أنا بشر أنسى كما تنسون**»[٢] لكن محل النسيان فيما لم يكن طريقه البلاغ، وإذا نسي فلا يقر عليه؛ بل لا بد أن يتذكره.

وفي الحديث: دلالة على جواز تكرار السورة في الركعتين، وإلى ذلك ذهبت الحنابلة بلا كراهة. وهو مشهور مذهب الحنفية، وذهبت المالكية وبعض الحنفية إلى كراهته، والحديث عندهم محمول على بيان الجواز، وظاهر كلام الشافعية أنه خلاف الأولى»[٣].

* * *

(١) نيل الأوطار (٢/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٦٦٣/ ٤٠١)، ومسلم (١/ ٣٩٨/ ٥٧٢)، وأبو داود (١/ ٦٢٠/ ١٠٢٠-١٠٢٢)، والنسائي (٣/ ٣٣-٣٤/ ١٢٤٢-١٢٤٣)، وابن ماجه (١/ ٣٨٢/ ١٢١١).

(٣) المنهل (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾

★ غريب الآية:

زلزلت: الزلزلة: الحركة الشديدة. والمعنى: حركت تحريكًا عنيفًا.

أثقالها: أي: ما في جوفها من موتى وكنوز. مفردها: ثقل. قال الأخفش: «إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها. وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها». قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

أَبَعْدَ ابْنِ عَمرٍو من آل الشرِ ... يدِ حلَّتْ به الأرضُ أثقالَها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم، فتندك جبالها، وتسوى تلالها، وتكون قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمت»[(١)].

قال ابن كثير: «وهذه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾[(٢)]، وكقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[(٣)]»[(٤)].

قال عطية سالم: «واختلف في الأثقال ما هي على ثلاثة أقوال: فقيل: موتاها، وقيل: كنوزها، وقيل: التحدث بما عمل عليها الإنسان. ولعل الأول أرجح هذه الثلاثة؛ لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة، والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته، فليس هو الأثقال. ورجحوا القول الأول لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٦٠).

(٢) الحج: الآية (١).

(٣) الانشقاق: الآيتان (٣-٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٠).

﴿٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ٢٦﴾[١]. وقالوا: الإنس والجن ثقلان على ظهرها، فهما ثقل عليها، وفي بطنها فهم ثقل فيها، ولذا سميا بالثقلين. قاله الفخر الرازي وابن جرير. وروي عن ابن عباس: أنه موتاها. وشبيه بذلك قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤﴾[٢]. ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أثقالها، ولم يقل ثقلها، وإرادة الجمع مروية أيضًا عن ابن عباس. ذكره الألوسي، وابن جرير عنه وعن مجاهد. وحكى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القولين في إملائه: أي موتاها، وقيل: كنوزها»[٣].

قال ابن عطية: «والأثقال: الموتى الذين في بطنها قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البعث، وقال قوم من المفسرين منهم منذر بن سعيد الزجاج والنقاش: أخرجت موتاها وكنوزها. قال القاضي أبو محمد: وليست القيامة موطنا لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال»[٤].

قال ابن عاشور: «افتتاح الكلام بظرف الزمان مع إطالة الجمل المضاف إليها الظرف تشويق إلى متعلق الظرف، إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتا ليروا أعمالهم؛ بل الإخبار عن وقوع ذلك وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفروغ منه، بحيث لا يهم الناس إلا معرفة وقته وأشراطه، فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الموقت»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي استدل بها من قال: إن المراد بالأثقال في الآية الكنوز

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا**»[٦].

---

(١) المرسلات: الآيتان (٢٥-٢٦).
(٢) الانشقاق: الآية (٣-٤).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٤٣٠-٤٣١).
(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٥١٠).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٩٠).
(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠١/ ١٠١٣)، والترمذي (٤/ ٤٢٧/ ٢٢٠٨).

★ **غريب الحديث:**

أفلاذ: قال ابن الجوزي: «قال ابن السكيت: الفِلْذُ لا يكون إلا للبعير، وهو قطعة من كبده، وفلذة واحدة، وجمعها فلذ، وهي القطع المقطوعة طولًا، وسمي ما في بطن الأرض كبدًا تشبيهًا بالكبد الذي في بطن البعير، وكذلك قوله: «تقيء»، وقيئها: إخراجها. والأسطوان: العمود، والأساطين: الأعمدة، ويحتمل أن يكون هذا قبيل القيامة وهم في شغل، ويحتمل أن يكون في القيامة».

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قال القاضي البيضاوي: معناه أن الأرض يلقى من بطنها ما فيه من الكنوز، وقيل: ما رسخ فيها من العروق المعدنية، ويدل عليه قوله: «أمثال الأسطوانة»، وشبهها بالأكباد حبًا؛ لأنها أحب ما هو مجني فيها، كما أن الكبد أطيب ما في بطن الجزور وأحبه إلى العرب، بأفلاذها: هيئة وشكلًا كأنها قطع الكبد المقطوعة طولًا، وقد حكي عن ابن الأعرابي أنه قال: الفلذة لا تكون إلا للبعير»[1].

* * *

---

(١) شرح المشكاة (١١/ ٣٤٣٨-٣٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ أي: استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر اللَّه ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار»[١].

قال عطية سالم: لفظ الإنسان هنا عام وظاهره أن كل إنسان يقول ذلك، ولكن جاء ما يدل على أن الذي يقول ذلك هو الكافر. أما المؤمن فيقول: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[٢]، وذلك في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾[٣]، فالكافر يدعو بالويل، والمؤمن يطمئن للوعد، ومما يدل على أن الجواب من المؤمنين لا من الملائكة، كما يقول بعض الناس، ما جاء في آخر السياق قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾[٤] أي: كلا الفريقين ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿مَا لَهَا﴾ سؤال استيضاح، وذهول من هول ما يشاهد»[٦].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٠).
(٢) يس: الآية (٥٢).
(٣) يس: الآيتان (٥١-٥٢).
(٤) يس: الآية (٥٣).
(٥) يس: الآية (٥٣).
(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٤٣١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

أوحى: ووَحَى، بمعنى واحد. قال العجاج يصف الأرض:

وَحَى لها القرارَ فاستقرَّتِ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ أي: وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره»[1].

قال عطية سالم: «التحديث هنا صريح في الحديث وهو على حقيقته؛ لأن في ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شيء وتظهر حقائق كل شيء، وكما أنطق اللَّه الجلود ينطق الأرض، فتحدث بأخبارها، ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر؛ لأن اللَّه أودع في الجمادات القدرة على الإدراك والنطق، والمراد بإخبارها أنها تخبر عن أعمال كل إنسان عليها في حال حياته. ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن «لا يسمع صوته حجر ولا مدر إلا وشهد له يوم القيامة»[3]، وذكر ابن جرير وجهًا آخر، وهو أن إخبارها هو ما أخرجته من أثقالها بوحي اللَّه لها، والأول أظهر؛ لأنه يثبت معنى جديدًا. ويشهد له الحديث الصحيح»[4].

قال ابن عطية: «انتزع بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أن قول المحدث: حدثنا وأخبرنا سواء»[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٦٠-٦٦١).
(٢) فصلت: الآية (٢١).
(٣) سيأتي تخريجه.
(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٤٣١-٤٣٢).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٥١١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تكلم الجمادات

* عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «**إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**» قال أبو سعيد: سمعته من رسول اللَّه ﷺ[(١)].

* **فوائد الحديث:**

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث أن كل من يسمع صوت المؤذن يشهد له يوم القيامة، والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء» هل يعني بشيء كل حيوان أو جماد أو حيوان ليس إلا، فالظاهر أنه كل جماد وغير ذلك، لقوله: «ولا شيء»؛ لأنه يقع على الجماد وغيره، لاسيما وقد جاء في حديث آخر مدر وشجر، وهنا بحث، وهو أن يقال: ما الفائدة في شهادة هؤلاء وما يترتب عليه للفاعل من الخير، فالجواب واللَّه أعلم أنه يكون له من الثواب بقدر ثواب عمل من سمعه، يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: «من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به»[(٢)]..

الوجه الثاني: فيه دليل على أن الجمادات تسمع، وقد اختلف العلماء فيما جاء من الأخبار عن الجمادات في مثل هذا، والتسبيح في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٣)] فمن قائل يقول: إنه يوضع فيها حياة، وحينئذ تسبح، ومنهم من حملها على ظاهرها، وقال: إن القدرة صالحة، وهو الحق لاسيما مع قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾[(٤)]، قال أهل التحقيق من العلماء: إنه ما من حجر يهيل، أو

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥)، والبخاري (٦/ ٤٢٣/ ٣٢٩٦)، والنسائي (٢/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٧٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٧) ومسلم (٤/ ٢٠٦٠/ ٢٦٧٤) وأبو داود (٥/ ١٥-١٦/ ٤٦٠٩) والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٤) وابن ماجه (١/ ٧٥/ ٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الإسراء: الآية (٤٤). (٤) البقرة: الآية (٧٤).

جبل يخر، إلا من خشية اللّٰه ﷻ، وهو الحق، فلو كان ذلك كله بلسان الحال كما زعمت تلك الطائفة، فما تكون فائدة الإخبار بذلك لنا، ونحن نعلم كل ذلك بعلم الضرورة، فيكون الإخبار به كتحصيل الحاصل، وهذا في حق الحكيم محال.

والوجه الثالث: فيه دليل على أن الجمادات تشهد يوم القيامة بالذي وقع فيها من الخير وضده.. والأحاديث في ذلك كثيرة، والقدرة صالحة، وبذلك تترتب الفائدة على الإخبار بهذا، والذي يتحكم على القدرة ويقول: لا يتكلم ولا يفهم إلا من له حياة وعقل، ليس له في ذلك دليل شرعي، وإنما أخذ ذلك من علم العقل، والقدرة لا تنحصر بالعقل، وقد قال ﷻ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] »[2].

* * *

(١) النحل: الآية (٨).

(٢) بهجة النفوس (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ قيل: إن معنى هذه الكلمة التأخير بعد ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قالوا: ووجه الكلام: يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها، لِيُرَوْا أعمالهم، يومئذ يصدر الناس أشتاتا. قالوا: ولكنه اعترض بين ذلك بهذه الكلمة.

ومعنى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ عن موقف الحساب فِرَقا متفرقين، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار.

وقوله: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: يومئذ يصدر الناس أشتاتا متفرقين عن اليمين وعن الشمال، ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيرى المحسن في الدنيا، المطيع لله عمله وما أعد اللَّه له يومئذ من الكرامة على طاعته إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيء العاصي لله عمله، وجزاء عمله، وما أعد اللَّه له من الهوان والخزي في جهنم، على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفره به»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[1]، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾[2]، وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرا»[3].

قال القرطبي: «قال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن، وصدق. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به. وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل اللّه على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾، قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝﴾ قال: في الحال قبل المآل. وكان النبي ﷺ يسمي هذه الآية الآية الجامعة الفاذة، كما في الصحيح لما سئل عن الحمر وسكت عن البغال، والجواب فيهما واحد، لأن البغل والحمار لا كر فيهما ولا فر، فلما ذكر النبي ﷺ ما في الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحمر؛ لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بغل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبي ﷺ «الدلدل»، التي أهداها له المقوقس، فأفتاه في الحمير بعموم الآية، وإن في الحمار مثاقيل ذر كثيرة قاله ابن العربي»[4].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تقتضي أن كل إنسان كافرا أو مسلما يجازى

(١) آل عمران: الآية (٣٠).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٦١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٥٢).

بالقليل من الخير والشر، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف هذا العموم، أمّا ما فعله الكافر من الخير فالآيات تصرّح بإحباطه كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾[٢]، وكقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾[٤] الآية، إلى غير ذلك من الآيات، وأمّا ما عمله المسلم من الشر فقد صرّحت الآيات بعدم لزوم مؤاخذته به لاحتمال المغفرة، أو لوعد اللّه بها كقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[٥]، وقوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات، والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآية من العام المخصوص، والمعنى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إن لم يحبطه الكفر، بدليل آيات إحباط الكفر عمل الكفار، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره إن لم يغفره اللّه له، بدليل آيات احتمال الغفران والوعد به.

الثاني: أنّ الآية على عمومها وأنّ الكافر يرى جزاء كل عمله الحسن في الدنيا كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾[٧] الآية، وقوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾[٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾[٩]، والمؤمن يرى جزاء عمله السيئ في الدنيا بالمصائب والأمراض والآلام، ويدل لهذا ما أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم وجماعة عن أنس قال: (بينا أبو بكر ﷺ يأكل مع رسول اللّه ﷺ إذ نزلت عليه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله! إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «**يا أبا بكر! أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر**»[١٠] الحديث.

---

(١) هود: الآية (١٦).
(٢) الفرقان: الآية (٢٣).
(٣) إبراهيم: الآية (١٨).
(٤) النور: الآية (٣٩).
(٥) النساء: الآية (٤٨).
(٦) النساء: الآية (٣١).
(٧) هود: الآية (١٥).
(٨) الشورى: الآية (٢٠).
(٩) النور: الآية (٣٩).
(١٠) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٣٢-٥٣٣)، من حديث أبي أسماء الرحبي وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «مرسل». وأورده الألباني في الضعيفة (١١/ ٣٥٥/ ٥٢١٢).

الوجه الثالث: أن الآية أيضًا على عمومها وأن معناها أن المؤمن يرى كل ما قدم من خير وشر فيغفر اللَّه له الشر ويثيبه بالخير، والكافر يرى كل ما قدم من خير وشر فيحبط ما قدم من خير ويجازيه بما فعل من الشر»[١].

قال عطية سالم: «في هاتين الآيتين مبحثان: أحدهما: في معنى مَنْ لعمومه، والآخر في صيغة (يعمل). أما الأول فهو مطروق في جميع كتب التفسير.

أما المبحث الثاني فلم أر من تناوله بالبحث، وهو في صيغة يعمل؛ لأنها صيغة مضارع، وهي للحال والاستقبال. والمقام في هذا السياق ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾[٢]، وهو يوم البعث، وليس هناك مجال للعمل، وكان مقتضى السياق أن يقال: فمن عمل مثقال ذرة خيرًا يره. ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع، والمقام ليس مقام عمل، ولكن في السياق ما يدل على أن المراد يعمل مثقال ذرة، أي: من الصنفين ما كان من قبل ذلك، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾[٣]، فهم إنما يروا في ذلك اليوم أعمالهم التي عملوها من قبل، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات، حيث كان السياق أولًا من أول السورة في معرض الإخبار عن المستقبل: إذا زلزلت الأرض زلزالها، وإذا أخرجت الأرض أثقالها، وإذا قال الإنسان ما لها. في ذلك اليوم الآتي تحدث أخبارها، وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم التي عملوها من قبل كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[٥]، ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير، فمن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة شرًا يره في الآخرة، ومثقال الذرة: قيل: هي النملة الصغيرة، لقول الشاعر:

من القاصرات الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الإتب منها لأثرا

والإتب: قال في القاموس: الإتب بالكسر، والمئتبة كمكنسة: برد يشق، فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين، وقيل: هي الهباء التي ترى في أشعة

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٨٥-٢٨٧).
(٢) الزلزلة: الآية (٦).
(٣) الزلزلة: الآية (٦).
(٤) النبأ: الآية (٤٠).
(٥) الكهف: الآية (٤٩).

الشمس، وكلاهما مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وسيأتي زيادة إيضاح لكيفية الوزن في سورة القارعة إن شاء اللَّه. ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفتهم لصغرها، لأنه تعالى عمم العمل في قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[1]، أيا كان هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير، وقد جاء النص صريحًا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وهنا تنبيهان:

الأول من ناحية الأصول: وهو أن النص على مثقال الذرة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فلا يمنع رؤية مثاقيل الجبال؛ بل هي أولى وأحرى. وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفي الفارق، وقد يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به، وقد يكون مساويًا له، فمن الأول هذه الآية وقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[3]، ومن المساوي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[4]؛ فإن إحراق ماله وإغراقه ملحق بأكله، بنفي الفارق وهو مساوٍ لأكله في عموم الإتلاف عليه، وهو عند الشافعي ما يُسمى القياس في معنى الأصل، أي النص.

التنبيه الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾[5] رد على بعض المتكلمين في العصر الحاضر، والمسمى بعصر الذرة، إذ قالوا: لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شيء، وأنها لا تقبل التقسيم، كما يقول المناطقة: إنها الجوهر الفرد، الذي لا يقبل الانقسام. وجاء العلم الحديث، ففتَّتَ الذرة وجعل لها أجزاء. ووجه الرد على تلك المقالة الجديدة، على آيات من كتاب اللَّه هو النص الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب. فمعلوم ذلك عند اللَّه ومثبت في كتاب ما هو أصغر من الذرة، ولا حد لهذا الأصغر بأي نسبة كانت، فهو شامل لتفجير الذرة ولأجزائها مهما

(١) النبأ: الآية (٤٠).
(٢) يونس: الآية (٦١).
(٣) الإسراء: الآية (٢٣).
(٤) النساء: الآية (١٠).
(٥) يونس: الآية (٦١).

صغرت تلك الأجزاء. سبحانك ما أعظم شأنك، وأعظم كتابك، وصدق اللَّه إذ يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1] »[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير النبي ﷺ للآية وبيان شمولها لعموم الخير والشر

* عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل اللَّه، فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة، كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق اللَّه في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً، فهي على ذلك وزر**». فسئل رسول اللَّه ﷺ عن الحمر، قال: «ما أنزل علي فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ »[3].

★ **غريب الحديث:**

مرج: أرض واسعة ذات نبات ومرعى الدواب، جمعه مروج.

روضة: الأرض ذات الخضرة والبستان الحسن.

طيلها: الطول الحبل.

استنت: الاستنان أن تلج في عدوها ذاهبة وراجعة.

شرفًا: الشرف: العالي من الأرض.

---

(١) الأنعام: الآية (٣٨).

(٢) تتمة الأضواء (٩/ ٤٣٢-٤٣٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٢)، والبخاري (٨/ ٧٢٦/ ٤٩٦٢)، ومسلم (٢/ ٦٨٠-٦٨٢/ ٩٨٧)، والترمذي (٤/ ١٤٨/ ١٦٣٦)، والنسائي (٦/ ٥٢٥-٥٢٧/ ٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٢/ ٢٧٨٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «وإنما سماها جامعة لاشتمال اسم الخير على جميع أنواع الطاعات فرائضها ونوافلها، وجعلها فاذة لخلوها من بيان ما تحتها من الأسماء، وتفصيل أنواعها، والفذ: الواحد الفرد، يقال: فَذَّ الشيءُ، فهو فَاذٌّ، وفَذَّ الرجلُ عن أصحابه: إذا شذّ عنهم، وبقي فردًا وحده»[(١)].

وقال: «فأما قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فليس معناه أنه يرى عين عمله الذي كان قد عمله من خير أو شر؛ إنما معناه أنه يرى جزاء ما عمل من خير أو شر، كقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[(٢)]. وتأويله: يعلمه اللَّه ويجازي عليه»[(٣)].

قال ابن عبد البر: «يعني -واللَّه أعلم- أنها آية منفردة في عموم الخير والشر، ولا أعلم آية أعم منها؛ لأنها تعم كل خير وكل شر، فأما الخير فلا خلاف بين المسلمين أن المؤمن يرى في القيامة ما عمل من الخير ويثاب عليه، وأما الشر فللّه ﷻ أن يغفر وله أن يعاقب، قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٤)]، ولما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[(٥)] بكى أبو بكر وقال: يا رسول الله! أكلُّ ما نعمل نجزى به؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: **«يا أبا بكر! ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به في الدنيا»**[(٦)]، وقال ﷺ: **«المرض كفارة، وما يصيب المؤمن من مصيبة إلا كفر بها من خطاياه»**[(٧)]. وقوله في الحمر

---

(١) أعلام الحديث (٢/ ١١٨٥).
(٢) البقرة: الآية (١٩٧).
(٣) أعلام الحديث (٣/ ١٩٤١).
(٤) هود: الآيات (١١٤).
(٥) النساء: الآية (١٢٣).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ١١)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ١٧٠-١٧١/ ٢٩١٠)، والحاكم (٣/ ٧٤)، كلهم من طريق أبي بكر بن أبي زهير. وهذا إسناد ضعيف للانقطاع بين هذا الأخير وبين أبي بكر ﷺ. وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٣١-٢٣٢/ ٣٠٣٩) بلفظ مغاير وقال: «حديث غريب وفي إسناده مقال، موسى بن عبيدة يضعف في الحديث»، لكن للحديث شواهد يتقوى بها كحديث أبي هريرة عند مسلم (٤/ ١٩٩٣/ ٢٥٧٤)، وحديث عائشة عند أحمد (٦/ ٦٥-٦٦)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ١٨٦/ ٢٩٢٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢): «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح».
(٧) أخرجه بنحوه أحمد (٢/ ٣٠٣)، والبخاري (١٠/ ١٢٧/ ٥٦٤١-٥٦٤٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٢-١٩٩٣/ ٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣/ ٢٩٨/ ٩٦٦) من حديث أبي سعيد وحده.

في هذا الحديث مثل قوله ﷺ: «**في كل ذي كبد رطبة أجر**»[(١)]، وكان الحميدي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن اتخذت حمارًا فانظر كيف تتخذه؟ أما الخيل فقد جاء فيها ما جاء»[(٢)].

وقال الحافظ: «قال ابن التين: والمراد أن الآية دلت على أن من عمل في اقتناء الحمير طاعة رأى ثواب ذلك، وإن عمل معصية رأى عقاب ذلك، قال ابن بطال: فيه تعليم الاستنباط والقياس؛ لأنه شبه ما لم يذكر اللَّه حكمه في كتابه -وهو الحمر- بما ذكره من عمل مثقال ذرة من خير أو شر؛ إذ كان معناهما واحدًا، قال: وهذا نفس القياس الذي ينكره من لا فهم عنده، وتعقبه ابن المنير بأن هذا ليس من القياس في شيء، وإنما هو استدلال بالعموم، وإثبات لصيغته، خلافًا لمن أنكر أو وقف، وفيه تحقيق لإثبات العمل بظواهر العموم، وأنها ملزمة حتى يدل دليل التخصيص، وفيه إشارة إلى الفرق بين الحكم الخاص المنصوص والعام الظاهر، وأن الظاهر دون المنصوص في الدلالة»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن مسعود أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**».. وإن رسول اللَّه ﷺ ضرب لهن مثلًا «**كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها**»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٥)، والبخاري (٦/ ٤٣٨/ ٣٣١٨) ومسلم (٤/ ١٧٦٠/ ٢٢٤٢)، وأبو داود (٢/ ٨٠/ ٢٥٥٠).

(٢) فتح البر (٧/ ٨٥-٨٦).

(٣) فتح الباري (٦/ ٨١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢١-٤٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٢/ ١٠٥٠٠)، وفي «الأوسط» (٣/ ٢٥٤/ ٢٥٥٠)، والبيهقي (١٠/ ١٨٧-١٨٨)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٨٩): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق».

وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها وهو الآتي بعده، ومن حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٥-١٦٦/ ٥٨٧٢)، وفي «الأوسط» (٨/ ١٥٩/ ٧٣١٩)، وفي «الصغير» (٨٨٧)، والروياني في مسنده (٢/ ٢١٦/ ١٠٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٤٥٦/ ٧٢٦٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٩٩/ ٤٢٠٣)، وقال الهيثمي (١٠/ ١٩٠): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم، وهو ثقة». وحسن إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٠٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله: «**وإياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، كرجل كان بأرض فلاة**»: ذكر الأرض أو الفلاة مقحم «فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل يجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا من ذلك سوادًا، وأججوا نارًا، فأنضجوا ما فيها»: قال الغزالي: وتواتر الصغائر عظيم التأثير في سواد القلب، وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر، فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة، مع لين الماء وصلابة الحجر. قال العلائي: أخذ من كلام حجة الإسلام أن مقصود الحديث الحث على عدم التهاون بالصغائر، ومحاسبة النفس عليها، وعدم الغفلة عنها؛ فإن في إهمالها هلاكه، بل ربما تغلب الغفلة على الإنسان، فيفرح بالصغيرة، ويتحجج بها، ويعد التمكن منها نعمة، غافلًا عن كونها وإن صغرت سبب للشقاوة، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه لشدة فرحه بمقارفته، فيقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ ويقول المناظر: أما رأيتني كيف فضحته وذكرت مساوئه حتى أخجلته؟ وكيف استخففت به وحقرته؟ ويقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف؟ وكيف خدعته وغبنته؟.. وذلك وأمثاله من المهلكات»[1].

وقال السندي: «قوله: «ومحقرات الذنوب» بفتح القاف المشددة، أي: صغائرها. يهلكنه: إما لأن اعتيادها يؤدي إلى ارتكاب الكبائر، «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، فيكون الهلاك بالكبائر التي تؤدي إليها الصغائر، وإما لأن تكفير الصغائر عند اجتناب الكبائر جائز لا واجب، كما ذكر كثير من أهل العلم، وإن كان ظاهر القرآن يقتضي خلافه، فبين الحديث أنهن إذا كثرن يخاف عدم المغفرة، وإما لأن اعتيادها يؤدي إلى قلة المبالاة بها؛ إذ يوجب الهلاك، وإما لأن الإصرار على الصغيرة كبيرة، وهو محمل الحديث، والأقرب أن الحديث يدل على أن الإصرار على نوع الصغيرة أيضًا كبيرة، وإن لم يصر على صغيرة واحدة بعينها، وهذا هو ظاهر المثل المذكور»[2].

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «**يا عائشة! إياك ومحقرات الذنوب،**

---

(١) فيض القدير (٣/ ١٢٨).

(٢) حاشية السندي على المسند (٦/ ٣٦٩).

فإن لها من اللَّه ﷻ طالبًا»[١].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «قوله: «**فإن لها من اللَّه طالبًا**»: أي: فإن لها ملكًا يسألك، يجيء من اللَّه تعالى كالمنكر والنكير في القبر مثلًا»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يا نساء المسلمات! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة**»[٣].

★ غريب الحديث:

فرسن شاة: حافر شاة.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «أي: لا تحقرن أن تهدي إلى جارتها شيئًا ولو أنها تهدي لها ما لا ينتفع به في الغالب، ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء أمر بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت، فيتساوى في ذلك الغني والفقير، وخص النهي بالنساء؛ لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالًا في كل منهما.

وقال الكرماني: يحتمل أن يكون النهي للمعطية، ويحتمل أن يكون للمهدى إليها. قلت: ولا يتم حمله على المهدى إليها إلا بجعل اللام في قوله: «لجارتها» بمعنى (من)، ولا يمتنع حمله على المعنيين»[٤].

وقال النووي: «هذا النهي عن الاحتقار نهي للمعطية المهدية، ومعناه: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلًا كفرسن شاة، وهو خير من العدم، وقد قال اللَّه

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٧٠، ١٥١)، والدارمي (٢/ ٣٠٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٨٠/ ٣٤٣٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧/ ٤٢٤٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٩٥/ ٩٥٥)، وابن حبان (الإحسان ١٢/ ٣٧٩/ ٥٥٦٨). وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٤٦): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٢) حاشية السندي على المسند (٤٠/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٤-٣٠٧-٤٣٢-٤٩٣-٥٠٦)، والبخاري (١٠/ ٥٤٥/ ٦٠١٧)، ومسلم (٢/ ٧١٤/ ١٠٣٠)، والترمذي (٤/ ٣٨٣-٣٨٤/ ٢١٣٠).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٥٤٦).

تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ وقال النبي ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[١]، قال القاضي: هذا التأويل هو الظاهر، وهو تأويل مالك؛ لإدخاله هذا الحديث في باب الترغيب في الصدقة، قال: ويحتمل أن يكون نهيًا للمعطاة عن الاحتقار»[٢].

وقال ابن عبد البر: «في هذا الحديث الحض على الصدقة بكل ما أمكن من قليل الأشياء وكثيرها، وفي قول اللَّه ﷻ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ أوضح الدلائل في هذا الباب، وتصدقت عائشة ﵂ بحبتين من عنب، فنظر إليها بعض أهل بيتها، فقالت: «لا تعجبن، فكم فيها من مثقال ذرة»، ومن هذا الباب قول رسول اللَّه ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة»، وإذا كان اللَّه يربي الصدقات، ويأخذ الصدقة بيمينه فيربيها كما يربي أحدنا فلوه أو فصيله، فما بال من عرف هذا يغفل عنه؟! وما التوفيق إلا بالله»[٣].

وقال ابن بطال: «في هذا الحديث الحض على مهاداة الجار وصلته، وإنما أشار النبي ﷺ بفرسن الشاة إلى القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الفرسن؛ لأنه لا فائدة فيه، وقد قال ﷺ لأبي تميمة الهجيمي: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تضع من دلوك في إناء المستقي»[٤] »[٥].

* عن أم بجيد وكانت ممن بايع رسول اللَّه ﷺ أنها قالت له: يا رسول الله! صلى اللَّه عليك، إن المسكين ليقوم على بابي، فما أجد له شيئًا أعطيه إياه، فقال لها رسول اللَّه ﷺ: «**إن لم تجدي له شيئًا تعطينه إياه إلا ظلفًا محرقًا فادفعيه إليه في يده**»[٦].

⋆ فوائد الحديث:

قال السندي: «(ولو ظلفًا محرقًا): المراد: المبالغة في إعطائه بما أمكن،

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) شرح صحيح مسلم (٧/ ١٠٦).

(٣) فتح البر (٧/ ١٦٧-١٦٨).

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) شرح البخاري (٩/ ٢٢٢).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٣٨٢، ٤٣٤-٤٣٥)، وأبو داود (٢/ ٣٠٧/ ١٦٦٧)، والترمذي (٣/ ٥٢-٥٣/ ٦٦٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٥/ ٩٠/ ٢٥٧٣).

وإلا فالظلف المحرق ليس فيه كثير نفع، والله أعلم»[١].

وقال المباركفوري: «وقيد الإحراق مبالغة في رد السائل بأدنى ما يتيسر، أي: لا ترديه محرومًا بلا شيء مهما أمكن، حتى إن وجدت شيئًا حقيرًا مثل الظلف المحرق أعطيه إياه. وقال القاضي أبو بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي»: اختلف في تأويله، فقيل: ضربه مَثَلًا للمبالغة كما جاء: «من بنى لله مسجدًا، ولو مثل مفحص قطاة، بنى الله له بيتًا في الجنة»[٢]، وقيل: إن الظلف المحرق كان له عندهم قدر بأنهم يسحقونه ويسفونه»[٣].

* عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[٤].

★ غريب الحديث:

بوجه طلق: الوجه الطلق بسكون اللام وكسرها ضد العابس.

★ فوائد الحديث:

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه ما يدل على أن لقاء الأخ بالقطوب مكروه، وأن لقاءه بالبشر مستحب، وإن كنت في حال مقطبًا لغير حال تتعلق بأخيك، فالأولى أن لا تكشر في وجه أخيك متكلفًا ذلك لتحظى بأجره وأجر تكلفك له، وأن هذا من أدنى برك بأخيك، فكيف إذا كلمته وصافحته وصاحبته»[٥].

وقال النووي: «فيه الحث على فضل المعروف وما تيسر منه وإن قل، حتى طلاقة الوجه عند اللقاء»[٦].

---

(١) حاشية السندي على المسند (٤٥/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٧٥/ ٣١٥٥)، والبيهقي في السنن (٢/ ٤٣٧)، والطيالسي (٤٦١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٢٠٩/ ١٥٤٩)، البزار الكشف (١/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٤٠١)، والطبراني في الصغير (١٠٧٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٩١/ ٤٧٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٧)، وصححه ابن حبان (٤/ ٤٩٠/ ١٦١٠).

(٣) تحفة الأحوذي (٣/ ٢٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦/ ٢٦٢٦)، والترمذي (٤/ ٢٤٢/ ١٨٣٣).

(٥) الإفصاح (٢/ ١٩٥).

(٦) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٤٦).

* عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»**[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفي الحديث الحث على الصدقة بما قل وجل، وألا يحقر ما يتصدق به، وأن اليسير من الصدقة يستر المتصدق من النار»[2].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩)، والبخاري (٣/ ٣٥٩/ ١٤١٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٦)، والترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤١٥)، والنسائي (٥/ ٧٨-٧٩/ ٢٥٥١- ٢٥٥٢)، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥) (١/ ٥٩٠-٥٩١/ ١٨٤٣).

(٢) فتح الباري (٣/ ٣٦٣).



سورة العاديات

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أغراضها ذم خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصال غالية على المشركين والمنافقين، ويراد تحذير المسلمين منها، ووعظ الناس بأن وراءهم حسابًا على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن ويهدد به الجاحد، وأكد ذلك كله بأن افتتح بالقسم، وأدمج في القسم التنويه بخيل الغزاة أو رواحل الحجيج»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٩٨).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

العاديات: أي: الأفراس حالة العدْو. قال سلامة بن جندل:

والعادياتُ أَسَابِيُّ الدماءِ بِهَا كأن أعناقَها أنصاب تَرْجيبِ

ضبحًا: الضَّبْحُ: صوت أنفاس الخيل إذا عَدَتْ. قال عنترة:

والخيل تعلمُ حين تَضْـ بَحُ في حِيَاضِ الموتِ ضَبْحًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك فقال علي بن أبي طالب وعبد اللَّه بن مسعود ﷺ: هي إبل الحاج تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب وأبي صالح وجماعة من المفسرين وقال عبد اللَّه بن عباس: هي خيل الغزاة وهذا قول أصحاب ابن عباس والحسن وجماعة، واختاره الفراء والزجاج، قال أصحاب الإبل: السورة مكية ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة فهي عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال: ضبحت وضبعت بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجري جميعا وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا فهي تعدو ضبحا فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض فتثير النقع -وهو الغبار- بعدوها فيتوسط جمعا وهي المزدلفة.

قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة: أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى: والعاديات ضابحة فيكون ضبحا مصدرا على الأول، وحالا على الثاني، قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحا، وهو صوت

يسمع من أجوافها ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو، وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ والإيراء لا يكون إلا للحافر لصلابته، وأما الخف ففيه لين واسترخاء انتهى.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لإخفاف الإبل، قالوا: والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في به عائد على المكان الذي تعدو فيه، قالوا وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان، وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب لصلابة المكان، قالوا: وأما قولكم: إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد فهذا لا يلزم؛ لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل، إذا كانت في غزو فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو، وهذا أمر معروف، وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة، وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين، والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به العز والظفر، والنصر على الأعداء، فتعدوا طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء، فهذا من أعظم آيات الرب تعالى وأدلة قدرته وحكمته، فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم، كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالصبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك، ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة حامون مستريحون يبصرون مواقع الغارة، والعدو لم يأخذوا أهبتهم؛ بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذنا أمسك وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة، فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر، وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم الذين يغيرون فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾[1]، وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك؛ لأن الموريات هي العاديات بعينها، ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت. وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها، وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما نتكلم به، وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط، وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسيره على المعنى وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج: قدحا يعني: فالمنجحات أمرا، يريد: البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: (فأثرن فوسطن) وهما فعلان على العاديات والموريات لما فيه من معنى الفعل»[2].

قال الشوكاني: «والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور، وكما هو الظاهر

---

(١) الواقعة: الآية (٧١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥١-٥٣).

في هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي، فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل»[١].

قال الرازي: «إنه تعالى إنما أقسم بالخيل لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، فإنها تصلح للطلب والهرب والكر والفر، فإذا ظننت أن النفع في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة، وإذا ظننت أن المصلحة في الهرب قدرت على أشد العدو، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسكه لا للزينة والتفاخر، بل لهذه المنفعة، وقد نبه تعالى على هذا المعنى في قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[٢]، فأدخل لام التعليل على الركوب وما أدخله على الزينة، وإنما قال: ﴿ضَبْحًا﴾ لأنه أمارة يظهر به التعب، وأنه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب، فكأنه تعالى يقول: إنه مع ضعفه لا يترك طاعتك، فليكن العبد في طاعة مولاه أيضا كذلك»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض آداب الغزو والجهاد

* عن أنس بن مالك «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلًا، فلما أصبح ولم يسمع أذانًا ركب وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد واللّه، محمد والخميس، قال: فلما رآهم رسول اللّه ﷺ قال: **اللّه أكبر اللّه أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[٤].

★ غريب الحديث:

مكاتلهم: هو جمع المكتل، بكسر الميم، وهو القفة، أي: الزنبيل.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٩٦). (٢) النحل: الآية (٨).

(٣) التفسير الكبير (٣٢/ ٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٦و٢٦٣)، والبخاري (٢/ ١١٤-١١٥/ ٦١٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢٧/ ١٣٦٥)، والنسائي (١/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٥٤٧) و(٦/ ٤٤٣/ ٣٣٨٠)، والترمذي (٤/ ٤٠٢/ ١٥٥٠).

المساحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة، إلا أنها من الحديد.

الخميس: بفتح الخاء المعجمة وكسر الميم، وهو بمعنى الجيش، سمي به لأنه خمسة أقسام: قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني الإغارة وقت الصباح، كما كان النبي ﷺ يغير صباحًا ويتسمع أذانًا، فإن سمع وإلا أغار»[(١)].

قال الحافظ أبو عمر: «في الحديث إتعاب الدواب بالليل عند الحاجة إلى ذلك ما لم يكن سرمدًا. وفيه أن الغارة على العدو إنما ينبغي أن تكون في وجه الصباح؛ لما في ذلك من التبيين والنجاح في البكور»[(٢)].

قال ابن بطال: «فيه البيان عن حجة قول من أنكر على غزاة المسلمين بيات من لم يعرفوا حاله من أهل الحصون حتى يصبحوا فيتبين حالهم بالأذان، ويعلموا هل بلغتهم الدعوة أم لا؟ فإن كانوا ممن بلغتهم ولم يعلموا أمسلمين هم أم أهل صلح أو حرب، فلا يغيروا حتى يصبحوا، فإن سمعوا أذانًا من حصنهم كان من الحق عليهم الكف عنهم، وإن لم يسمعوا أذانًا وكانوا أهل حرب، أغاروا عليهم إن شاؤوا.

فإن قيل: فما أنت قائل في حديث الصعب بن جثامة: «أن الرسول ﷺ سئل عن أهل الدار من المشركين يبيتون ليلًا، ويصاب من نسائهم وذراريهم، فقال: هم منهم»[(٣)]. وفي هذا إباحة البيات، وحديث أنس بخلاف ذلك.

قيل: كل ذلك صحيح ولا يفسد أحدهما معنى الآخر؛ وذلك أن حديث الصعب فيمن بلغته الدعوة ولا يشك في حاله من أهل الحرب، فإنه يجوز بياتهم، وإنما الذين ينتظر بهم الصباح لاستبراء حالهم بالأذان أو غيره من شعار أهل الإسلام: من التبس أمره ولم يعرف حاله، فعلى هذا يحمل حديث أنس»[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٦).

(٢) فتح البر (١١/ ٤٩) بتصرف.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧-٣٨)، والبخاري (٦/ ١٨٠/ ٣٠١٢)، ومسلم (٣/ ١٣٦٤/ ١٧٤٥)، وأبو داود (٣/ ١٢٣-١٢٤/ ٢٦٧٢)، والترمذي (٤/ ١١٦/ ١٥٧٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٥/ ٨٦٢٢)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٧/ ٢٨٣٩).

(٤) شرح صحيح البخاري (٥/ ١١٩-١٢٠).

وقد تقدم شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ الآيـة (١٧٧) من سورة (الصافات)، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

★ غريب الآية:

أثرن: هَيَّجْنَ.

نقعًا: النقع: الغبار. قال الشاعر:

كأن مُثارَ النقعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كواكِبُه

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي: بعدوهن وغارتهن، ﴿نَقْعًا﴾ أي: غبارا، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ (أي: براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم»[1].

قال ابن القيم: «وكان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم؛ لأنه سبحانه قسم أفعالنا إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع، فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٦٢-٦٦٣).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

كنود: كفور وجحود، من كَنَدَ يَكْنُدُ: إذا جَحَدَ. قال الشاعر:

كنودٌ لنعماءِ الرجالِ ومَنْ يكن ... كنودًا لِنَعْمَاءِ الرجالِ يُبَعَّدِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود، قال ابن عباس، ومجاهد وإبراهيم النخعي، وأبو الجوزاء، وأبو العالية، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، ومحمد بن قيس، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه»[١].

قال عطية سالم: «وقد استدل ذو النون المصري بالآية الكريمة، وهي مفسرة للكنود على المعاني المتقدمة بأنه هو الهلوع ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾[٢]، ومثلها قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾[٣]، وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا. فهناك قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾[٤]، وهنا عقب عليه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[٥]، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عامّ في كل إنسان، ومعلوم أن بعض الإنسان ليس كذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾[٦]، مما يدل على أنه من العامّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٨).
(٢) المعارج: الآيتان (٢٠-٢١).
(٣) الفجر: الآيتان (١٥-١٦).
(٤) الفجر: الآيات (١٧-٢٠).
(٥) العاديات: الآية (٨).
(٦) الليل: الآيتان (٥-٦).

المخصوص. وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢] ونص الشيخ في إملائه أن المراد به الكافر»[٣].

قال ابن عاشور: «وضمير: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ عائد إلى الإنسان على حسب الظاهر الذي يقتضيه اتساق الضمائر، واتحاد المتحدث عنه وهو قول الجمهور.. والمعنى: أن الإنسان مقر بكنوده لربه من حيث لا يقصد الإقرار، وذلك في فلتات الأقوال مثل قول المشركين في أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٤] فهذا قول يلزمه اعترافهم بأنهم عبدوا ما لا يستحق أن يعبد وأشركوا في العبادة مع المستحق للانفراد بها، أليس هذا كنودا لربهم، قال تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾[٥]، وفي فلتات الأفعال كما يعرض للمسلم في المعاصي.

والمقصود من هذه الجملة: تفظيع كنود الإنسان بأنه معلوم لصاحبه بأدنى تأمل في أقواله وأفعاله.. وقال ابن عباس والحسن وسفيان: ضمير «وأنه» عائد إلى «ربه» أي: وأن اللّٰه على ذلك لشهيد، والمقصود أن اللّٰه يعلم ذلك في نفس الإنسان، وهذا تعريض بالتحذير من الحساب عليه. وهذا يسوغه أن الضمير عائد إلى أقرب مذكور، ونقل عن مجاهد وقتادة كلا الوجهين، فلعلهما رأيا جواز المحملين وهو أولى»[٦].

قال الشنقيطي: «هذه الآية تدل على أنّ الإنسان شاهد على كنود نفسه، أي: مبالغته في الكفر، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٧]، وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٨]، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[٩]، والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

---

(١) النساء: الآية (١٢٨).
(٢) الحشر: الآية (٩).
(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤٤٦-٤٤٧).
(٤) الزمر: الآية (٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٠٤-٥٠٥).
(٧) الكهف: الآية (١٠٤).
(٨) الزخرف: الآية (٣٧).
(٩) الزمر: الآية (٤٧).

الأول: أنّ شهادة الإنسان بأنه كنود هي شهادة حالة بظهور كنوده، والحال ربما تكفي عن المقال.

الثاني: أن شهادته على نفسه بذلك يوم القيامة كما يدل له قوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2]، وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3].

الوجه الثالث: أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ راجع إلى رب الإنسان المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾، وعليه فلا إشكال في الآية، ولكن رجوعه إلى الإنسان أظهر بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ والعلم عند اللَّه تعالى»[4].

قال ابن القيم: «فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير، فلا هو شكور للنعم ولا محسن إلى خلقه، بل بخيل بشكره بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه محسن إلى خلقه، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل، وقد ذم اللَّه سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[5]، فالرياء ضد الإخلاص، ومنع الماعون ضد الإحسان، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[6]، فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[7]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[8] وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[9]، ونظيره: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾[10]، ونظيره ما

---

(١) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٢) الملك: الآية (١١).
(٣) الزمر: الآية (٧١).
(٤) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٨٧-٢٨٨).
(٥) الماعون: الآيات (٤-٧).
(٦) النساء: الآيتان (٣٦-٣٧).
(٧) البقرة: الآية (٣).
(٨) النساء: الآية (٣٦).
(٩) النساء: الآية (٣٨).
(١٠) النساء: الآية (٣٩).

تقدم في سورة الليل، من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى، ونظيره قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾[١]، فإن الهمزة واللمزة من الفخر والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل، وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما»[٢].

* * *

(١) الهمزة: الآيتان (١-٢).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: وإنه لحب الخير وهو المال- لشديد، وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى، وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل، من محبة المال، وكلاهما صحيح»[1].

قال عطية سالم: «والواقع أن الثاني يتضمن الأول، ويشهد للوجه الثاني، قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾[2]، وقلنا: إن الثاني يتضمن الأول، لأن من أحب المال حبا جما سيحمله حبه على البخل.

وفي هذا النص مذمة حب المال، وهو جبلة في الإنسان، إلا من هذبه الإسلام، إلا أن الذم ينصب على شدة الحب التي تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدي الحدود، وهذه الآية وما قبلها نازلة في الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمة اللّٰه تعالى علينا وعليه في إملائه»[3].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٨).

(٢) الفجر: الآيتان (١٩-٢٠).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤٤٩-٤٥٠).

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية:

بُعْثِرَ: أُثِيرَ وقلب. من قولك: بعثرت المتاعَ: إذا جعلت أسفله أعلاه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ يقول: أفلا يعلم هذا الإنسان الذي هذه صفته، إذا أثير ما في القبور، وأخرج ما فيها من الموتى وبعث»[١].

قال عطية سالم: «البعثرة: الانتثار. وقال الزمخشري: إن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين: البعث والنثر. فالبعث: خروجهم أحياء. والنثر: الانتشار كنثر الحب، فهي تدل على بعثهم منتشرين. وقد نص تعالى على هذا المعنى في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾[٢]، أي بعثر من فيها. وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾[٣]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾[٥] »[٦].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ يقول: وميز وبين، فأبرز ما في صدور الناس من خير وشر»[٧].

قال عطية سالم: «والمراد بما في الصدور الأعمال، وهذا كقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾[٨]، ونص على الصدور هنا، مع أن المراد القلوب؛ لأنها هي مناط

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٨٠).
(٢) الانفطار: الآية (٤).
(٣) المعارج: الآية (٤٣).
(٤) القمر: الآية (٧).
(٥) القارعة: الآية (٤).
(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٤٥٠).
(٧) جامع البيان (٢٠/ ٢٨٠).
(٨) الطارق: الآية (٩).

العمل ومعقد النية. والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية، كما في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»[١] وحديث: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله**»[٢] الحديث. وقال الفخر الرازي: خصص القلب بالذكر، لأنه محل لأصول الأعمال. ولذا ذكره في معرض الذم، فإنه ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[٣]، وفي معرض المدح: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤]، ويشهد لما قاله قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾[٦]، وقال: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾[٧]، وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٨]، ونحو ذلك. ومما يدل على أن المراد بالصدور ما فيها هو القلب. قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٩]، وقال الفخر الرازي: نص على الصدور ليشمل الخير والشر؛ لأن القلب محل الإيمان. والصدر هو محل الوسوسة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾[١٠] وهذا وإن كان وجيهًا، لأن محل الوسوسة أيضًا هو القلب، فيرجع إلى المعنى الأول والله أعلم»[١١].

قال ابن القيم: «وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «**ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا**»[١٢] فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥)، البخاري (١/ ٩/ ١)، مسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، أبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، الترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، النسائي في المجتبى (١/ ٥٩-٦٠/ ٧٥) وفي الكبرى (١/ ٧٩-٨٠/ ٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٢-١٤١٣/ ٤٢٢٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨-١٣١٩/ ٣٩٨٤) وأخرجه دون موضع الشاهد أبو داود (٣/ ٦٢٣-٦٢٤/ ٣٣٢٩)، والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥)، وقال: حسن صحيح، والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥)، من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٣) البقرة: الآية (٢٨٣).

(٤) الأنفال: الآية (٢).

(٥) الشعراء: الآية (٨٩).

(٦) البقرة: الآية (٧٤).

(٧) الزمر: الآية (٢٣).

(٨) الرعد (٢٨).

(٩) الحج: الآية (٤٦).

(١٠) الناس: الآية (٥).

(١١) تتمة الأضواء (٩/ ٤٥١-٤٥٢).

(١٢) أحمد (١/ ٧٩) والبخاري (٧/ ٥١٥/ ٤١١١) ومسلم (١/ ٤٣٦/ ٦٢٧) وأبو داود (١/ ٢٨٧/ ٤٠٩) والترمذي (٥/ ٢٠٢/ ٢٩٨٤) والنسائي (١/ ٢٥٥/ ٤٧٢) وابن ماجه (١/ ٢٢٤/ ٦٨٤) من حديث علي ﷺ.

فيصير جسمه بارزا على الأرض، وسره باديا على وجهه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[(١)]، وقال: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ يقول: إن ربهم بأعمالهم، وما أسروا في صدورهم، وأضمروه فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ»[(٤)].

قال ابن القيم: «وقيد سبحانه كونه خبيرا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت- إيذانا بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه. والله ﷻ أعلم»[(٥)].

* * *

---

(١) الرحمن: الآية (٤١).

(٢) القلم: الآية (١٦).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٥-٥٦).

(٤) جامع البيان (٣٠/ ٢٨٠).

(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٦).



سورة القارعة

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

القارعة: اسم من أسماء القيامة. سميت بذلك لأنها تقرع الخلائق بأهوالها. وأصل القرع: الضرب. تقول العرب: قَرَعَتْهم القارعة، وفَقَرَتْهُمُ الفَاقِرَة: إذا وقع بهم أمر فظيع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية، وغير ذلك»[1].

قال عطية سالم: «معلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه، أو كما روي عن الإمام علي: كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى. ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات، فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به. فالواقعة لصدق وقوعها، والحاقة لتحقق وقوعها، والطامة لأنها تطم وتعم بأحوالها، والآزفة من قرب وقوعها أزفت الآزفة مثل اقتربت الساعة، وهكذا هنا، قالوا: القارعة: من قرع

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٩).

الصوت الشديد لشدة أهوالها . وقيل : القارعة اسم للشدة . قال القرطبي : تقول العرب : قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة، إذا وقع بهم أمر فظيع . قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عندك حينا

وقال تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾[(١)] وهي الشديدة من شدائد الدهر .

وقوله : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ ، تقدم قولهم : إن كل ما جاء وما أدراك أنه يدريه وما جاء وما يدريك لا يدريه . وقد أدراه هنا بقوله : ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ ، وهذا حال من أحوالها . وقد بين بعض الأحوال الأخرى في الواقعة بأنها خافضة رافعة، وهي الطامة والصاخة : ينظر المرء ما قدمت يداه . وقوله : ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾[(٢)] وأيضًا فإن كل حالة يذكر معها الحال الذي يناسبها ، فالقارعة من القرع وهو الضرب ، ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش»[(٣)] .

قال الرازي : «القرع : الضرب بشدة واعتماد، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة، قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾[(٤)] ومنه قولهم : العبد يقرع بالعصا ، ومنه المقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب، وتقارعوا تضاربوا بالسيوف، واتفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة، واختلفوا في لمية هذه التسمية على وجوه :

أحدها : أن سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق، لأن في الصيحة الأولى تذهب العقول، قال تعالى : ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٥)]، وفي الثانية تموت الخلائق سوى إسرافيل[(٦)]، ثم يميته اللَّه ثم يحييه ، فينفخ الثالثة فيقومون . . والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى : ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾[(٧)]،

---

(١) الرعد: الآية (٣١).
(٢) عبس: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٤٥٧-٤٥٩).
(٤) الرعد: الآية (٣١).
(٥) الزمر: الآية (٦٨).
(٦) تقدم في سورة غافر التنبيه على عدم ورود نص يدل أن إسرافيل هو الذي ينفخ في الصور، فلينظر هناك.
(٧) يس: الآية (٤٩).

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[١].

وثانيها: أن الأجرام العلوية والسفلية يصطكان اصطكاكًا شديدًا عند تخريب العالم، فبسبب تلك القرعة سمي يوم القيامة بالقارعة.

وثالثها: أن القارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والإفزاع، وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكور، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، وهو قول الكلبي.

ورابعها: أنها تقرع أعداء اللَّه بالعذاب والخزي والنكال، وهو قول مقاتل، قال بعض المحققين: وهذا أولى من قول الكلبي، لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[٢]»[٣].

وقال: «قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ فيه وجوه أحدها: معناه لا علم لك بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار، ولذلك قال في آخر السورة: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ تنبيهًا على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية، وصار آخر السورة مطابقًا لأولها من هذا الوجه. فإن قيل: ههنا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ وقال في آخر السورة: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ ولم يقل: وما أدراك ما هاوية فما الفرق؟ قلنا: الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس، أما كونها هاوية فليس كذلك، فظهر الفرق بين الموضعين، وثانيها: أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بإخبار اللَّه وبيانه؛ لأنه بحث عن وقوع الواقعات لا عن وجوب الواجبات، فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع.

نظير هذه الآية قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾[٤]، ثم قال المحققون: قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ أشد من قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا

---

(١) الصافات: الآية (١٩).

(٢) النمل: الآية (٨٩).

(٣) التفسير الكبير (٣٢/ ٧١).

(٤) الحاقة: الآيات: (١-٣).

ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾﴾ لأن النازل آخرا لا بد وأن يكون أبلغ، لأن المقصود من زيادة التنبيه، وهذه الزيادة لا تحصل لا إذا كانت أقوى، وأما بالنظر إلى المعنى، فالحاقة أشد لكونه راجعًا إلى معنى العدل، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٣٢/ ٧٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

المبثوث: المتفرق. والبث: إثارة الشيء وتفريقه.

العهن: الصوف الملون.

المنفوش: المنبث، المتطاير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين: الأول: كون الناس فيه كالفراش المبثوث، قال الزجاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره، ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر. أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة، والمبثوث المفرق، يقال: بثه إذا فرقه. وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة. قال الفراء: كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضًا، وبالجملة فالله ﷻ شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث، لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش، ويؤكد ما ذكرنا بقوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[1]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[2]، وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾[3].

(١) النبأ: الآية (١٨).
(٢) المطففين: الآية (٦).
(٣) الكهف: الآية (٩٩).

فإن قيل: الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معًا؟ قلنا: شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين. أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى. وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع، ويحتمل أن يقال: إنها تكون كبارًا أولًا كالجراد، ثم تصير صغارًا كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس، وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهًا أخرى، أحدها: ما روي أنه ﷺ قال: «**الناس عالم ومتعلم، وسائر الناس همج رعاع**»[1] فجعلهم اللَّه في الأخرى كذلك، جزاء وفاقًا، وثانيها: أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه، فقال: ﴿كَٱلۡفَرَاشِ﴾ لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش؛ لأن الفراش لا يعذب، وهؤلاء يعذبون، ونظيره: ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾[2] الصفة الثانية: من صفات ذلك اليوم قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ العهن الصوف ذو الألوان، والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض، وفي قراءة ابن مسعود: كالصوف المنفوش.

واعلم أن اللَّه تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان على ما قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾[3]، ثم إنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها، فيصير ذلك مشابهًا للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشًا. وههنا مسائل:

المسألة الأولى: إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها، فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه. ويحتمل أن يكون المراد أن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حمرتها.

المسألة الثانية: قد وصف اللَّه تعالى تغير الأحوال على الجبال من وجوه: أولها: أن تصير قطعًا، كما قال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤﴾[4].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٠/ ٢٠١/ ١٠٤٦١) في الأوسط وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٢) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفي سند الأوسط نهشل بن سعيد وفي الآخر الربيع بن بدر وهما كذابان، والحديث أورده الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الضعيفة (٥/ ٤٤٧/ ٢٤٢٧)، وقال عنه: موضوع.

(٢) الفرقان: الآية (٤٤).

(٣) فاطر: الآية (٢٧).

(٤) الحاقة: الآية (١٤).

وثانيها: أن تصير كثيبًا مهيلًا، كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[١]، ثم تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذر تدخل من كوة البيت لا تمسها الأيدي، ثم قال: في الرابع تصير سرابًا، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾[٢].

المسألة الثالثة: لم يقل: يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش بل قال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ لأن التكرير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير»[٣].

قال ابن عاشور: «وجملة مع متعلقها المحذوف بيان للإبهامين اللذين في قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾، وليس قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ خبرًا عن ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾؛ إذ ليس سياق الكلام لتعيين يوم وقوع القارعة. والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل بما أضيف إليه ﴿يَوْمَ﴾ من الجملتين المفيدتين أحوالًا هائلة، إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم، وإذ قد كان هذا الحال الموقت بزمانه غير معلوم مَداه. كان التوقيت لهُ إطماعًا في تعيين وقت حصوله، إذ كانوا يَسألون متى هذا الوعد، ثم توقيته بما هو مجهول لهم إبهامًا آخر للتهويل والتحذير من مفاجأته، وأبرز في صورة التوقيت للتشويق إلى البحث عن تقديره، فإذا باء الباحث بالعجز عن أخذ بحيطة الاستعداد لحلوله بما ينجيه من مصائبه التي قرَعتْ به الأسماع في آي كثيرة. فحصل في هذه الآية تهويل شديد بثمانية طرق: وهي الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهامُ عما ينبئ بكنه القارعة، وتوجيهُ الخطاب إلى غير معين، والإظهار في مقام الإضمار ثاني مرة، والتوقيتُ بزمان مجهولٍ حصوله، وتعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة»[٤].

قال أبو السعود: «وكلا الأمرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، يبدل الله ﷻ الأرض غير الأرض، ويغير هيئاتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت

---

(١) النمل: الآية (٨٨).

(٢) النبأ: الآية (٢٠).

(٣) التفسير الكبير (٣٢/ ٧٢-٧٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١١-٥١٢).

وتصدعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[2]؛ فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام، وبروز الخلق لله سبحانه لا يكون إلا بعد البعث قطعا»[3].

* * *

(١) طه: الآيات: (١٠٥-١٠٨).

(٢) إبراهيم: الآية (٤٨).

(٣) تفسير أبي السعود (٩/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة، بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾، أي: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ يعني: في الجنة»[1].

قال عطية سالم: «وقوله: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾، قالوا: بمعنى مرضية، وراضية أصلها مرضية، كما في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾[2]، إسناد الرضى للعيشة، على أنها فاعلة الرضى؛ لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم، راضية طائعة لينة لأصحاب الجنة، فتفجر لهم الأنهار طواعية، وتدنو الثمار طواعية، كما في قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾[3]، فالقول الأول: هو المعروف في البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾[4]. والنادي: مكان منتدى القوم، أي: ينادي بعضهم بعضًا للاجتماع فيه. والمراد: من يحل هذا النادي، ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة، وأراد الحال فيها. وعلى الثاني: فهو إسناد حقيقي من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به. ومما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البياني ليس متجهًا كالآية الأخرى، لأن العيشة ليست محلًا لغيرها؛ بل هي حالة، والمحل الحقيقي هو الجنة والعيشة حالة فيها، وهي اسم لمعاني النعيم كما تقدم، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح. وقد جاءت الأحاديث: أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير، كما أنها تتزين وتبتهج في رمضان، وأنها تناظرت مع النار. وكل يدلي بأهله وفرحه بهم، حتى وعد اللّه كلًّا بملئها. ونصوص تلقي الحور والولدان والملائكة في الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٩).
(٢) الغاشية: الآيتان (٨-٩).
(٣) الحاقة: الآية (٢٣).
(٤) العلق: الآية (١٧).

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[١]، أي: لا يتأخر عنهم شيء. وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾[٣]، وقاصرات الطرف عن رضى بأهلهن، ومنه ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾[٤]، أي على أزواجهن. وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾[٥]، ونحو ذلك مما يشعر بأنه نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة، والله ﷻ أعلم»[٦].

* * *

(١) يس: الآية (٥٧).
(٢) الزمر: الآية (٧٣).
(٣) الرحمن: الآية (٥٦).
(٤) الرحمن: الآية (٧٢).
(٥) الإنسان: الآية (١٤).
(٦) تتمة الأضواء (٩/ ٤٦١-٤٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

هاوية: الهاوية: اسم لجهنم. سميت بذلك لأن الناس يهوون فيها مع بعد قعرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وأما من خف وزن حسناته فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في جهنم»[١].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن الهاوية وصف لا علَم للنار إذ تنوينها ينافي كونها اسما من أسماء النار؛ لأنها على تقدير كونها من أسماء النار يلزم فيها المنع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾[٢] يدل على أن الهاوية من أسماء النار.

اعلم أولا أنّ في معنى قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ ثلاثة أوجه للعلماء، اثنان منها لا إشكال في الآية عليهما، والثالث هو الذي فيه الإشكال المذكور، أمّا اللذان لا إشكال في الآية عليهما فالأول منهما: أن المعنى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ أي: أمّ رأسه هاوية في قعر جهنم؛ لأنه يطرح فيها منكوسا، رأسه أسفل ورجلاه أعلا، وروي هذا القول عن قتادة وأبي صالح وعكرمة والكلبي وغيرهم، وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ عائد إلى محذوف دلّ عليه المقام أي: أم رأسه هاوية في نار ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

والثاني: أنه من قول العرب إذا دعَوا على الرجل بالهلكة قالوا: هوت أمه؛ لأنه

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٨٢).

(٢) القارعة: الآيتان (١٠-١١).

إذا هوى، أي: سقط وهلك، فقد هوت أمه ثكلا وحزنا، ومن هذا المعنى قول كعب ابن سعد الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يرد الليل حين يؤوب

وهذا القول رواية أخرى عن قتادة، وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿هِيَهْ﴾ للداهية التي دلّ عليها الكلام، وذكر الألوسي في تفسيره أن صاحب الكشاف قال: إنّ هذا القول أحسن، وأن الطيبي قال: إنه أظهر، وقال هو: وللبحث فيه مجال.

الثالث الذي فيه إشكال: أنّ المعنى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾، أي: مأواه الذي يحيط به ويضمّه هاوية وهي النار؛ لأن الأمّ تؤوي ولدها وتضمّه، والنار تضمّ هذا العاصي وتكون مأواه.

والجواب على هذا القول هو ما أشار له الألوسي في تفسيره من أنه نكّر الهاوية في محلّ التعريف لأجل الإشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل، ثم بعد إبهامها لهذه النكتة قرّرها بوصفها الهائل بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

قال مقيده عفا اللَّه عنه: هذا الجواب الذي ذكره الألوسي يدخل في حد نوع من أنواع البديع المعنوي يسمّيه علماء البلاغة التجريد، فحد التجريد عندهم هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه، وأقسامه معروفة عند البيانيين؛ فمنه ما يكون التجريد فيه بحرف نحو قولهم: لي من فلان صديق حميم، أي: بلغ من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه، وقولهم: لئن سألته لتسألن به البحر، بالغ في اتصافه بالسماحة حتى انتزع منه بحرا في السماحة، ومن التجريد بواسطة الحرف قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[1]، وهو أشبه شيء بالآية التي نحن بصددها؛ لأن النار هي دار الخلد بعينها، لكنه انتزع منها دارا أخرى وجعلها معدة في جهنم للكفار، تهويلا لأمرها ومبالغة في اتصافها بالشدة، ومن التجريد ما يكون من غير توسط الحرف نحو قول قتادة بن سلمة الحنفي:

---

(١) فصلت: الآية (٢٨).

ولئن بقيت لأرحلن بغزوة   تحوي الغنائم أو يموت كريم

يعني نفسه انتزع من نفسه كريما مبالغة في كرمه، فإذا عرفت هذا فالنار سميت الهاوية لغاية عمقها وبعد مهواها، فقد روي أن داخلها يهوي فيها سبعين خريفا، وخصها البعض بالباب الأسفل من النار، فانتزع منها هاوية أخرى مثلها في شدة العمق وبعد المهوى مبالغة في عمقها وبعد مهواها، والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال عطية سالم: «ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين، فتكون أمه هاوية، وهي النار، ويلقى فيها منكسًا تهوى رأسه والعياذ باللَّه. . وقد جاء قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝﴾[٢] والنبذ: الطرح، مما يرجح ما قلناه من إمكان إرادة المعنيين كون أمه هي الهاوية أي النار، يهوى فيها على أم رأسه، وذلك بالنبذ في الهاوية بعيدة المهوى، وعادة الجسم إذا ألقي من شاهق بعيدًا يسبقه إلى أسفل أثقله، وأثقل جسم الإنسان رأسه. واللَّه تعالى أعلم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التخويف من النار

عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن رسول اللَّه ﷺ صلى لنا يومًا الصلاة، ثم رقي المنبر فأشار بيده قبل قبلة المسجد فقال: «**قد رأيت الآن -منذ صليت لكم الصلاة- الجنة والنار ممثلتين في قبل هذا الجدار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، فلم أر كاليوم في الخير والشر**»[٤].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث فائدتان: «إحداهما: تنبيه للناس أن يتمثلوا الجنة والنار بين أعينهم إذا وقفوا بين يدي اللَّه، كما مثلها اللَّه لنبيه وشغله بالفكرة فيهما عن سائر الأفكار الحديثة عن تذكير الشيطان بما يسهيه حتى لا يدري كم صلى.

والثانية: أن يكون الخوف من النار الممثلة، والرغبة في الجنة نصب عيني

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٨٨-٢٩٠).   (٢) الهمزة: الآيات (٤-٦).

(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٤٦٣-٤٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٢)، والبخاري (١١/ ٣٥٦/ ٦٤٦٨)، ومسلم (٤/ ١٨٣٢/ ٢٣٥٩).

المصلي فيكونا باعثين له على الصبر والمداومة على العمل المبلغ إلى رحمة اللَّه والنجاة من النار برحمته»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتحدث عن شواهد طلب الدار الآخرة التي إذا قامت بقلب العبد ترحل قلبه عن الدنيا وتجافى عنها، وَجَدَّ في السير إلى اللَّه وإلى الدار الآخرة؛ قال: «ثم يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدها، واضطرامها، وبعد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا، فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون، وأتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ٢٤﴾[(٢)]، ثم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾[(٣)]، فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[(٤)]، فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾[(٥)]، فإذا شربوه قطع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم وطعامهم الزقوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[(٦)]، فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها، فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة وما

(١) أفاده ابن بطال في شرح البخاري (١٠/ ١٨٠).
(٢) الصافات: الآية (٢٤).
(٣) الطور: الآيات (١٤-١٦).
(٤) الأعراف: الآية (٤١).
(٥) الكهف: الآية (٢٩).
(٦) فاطر: الآيتان (٣٦و٣٧).

أعد اللَّه لأهلها فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عما وصفه اللَّه لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والصور والبهجة والسرور.. فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب ﷻ وسماع كلامه منه بلا واسطة.. فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا»[1].

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٠-٢٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾ أي: وأي شيء يخبرك بما هي تلك الهاوية، وأنها أي شيء تكون؟ ثم فسرها بعد إبهامها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ أي: هي نار ملتهبة يهوي فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل، وما اجترح من سيئات، وفي هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية، وذلك دليل على قوة حرارتها، وشدة استعارها، وقانا اللّه شر هذه النار الحامية، وآمننا من سعيرها بمنه وكرمه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان شدة حر نار جهنم وقوة لهبها وسعيرها وبعد قعرها

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: «**ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ضربت بماء البحر، ولولا ذلك ما جعل اللّه فيها منفعة لأحد**»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**. قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية، قال: **فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها**»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد**

---

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٥٠٤/ ٧٤٦٣). قال ابن كثير (٨/ ٤٩٠): «وهذا على شرط الصحيحين»، وفي الباب من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣و٢٤٤و٤٦٧)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٣)، والترمذي (٤/ ٦١١/ ٢٥٨).

ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»[١].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم**»[٢].

* عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه**»[٣].

★ **فوائد الأحاديث:**

تقدمت فوائد هذه الأحاديث عند قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ الآية (٢٤) من سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ الآية (٨١) من سورة التوبة، وموضع العبرة من هذه الأحاديث أن يستشعر المرء هول هذه النار وشدة حرها وسعيرها، وبعد قعرها، عساه أن يستعد للنجاة منها بصحيح الإيمان وصالح الأعمال.

قال الغزالي: «يا أيها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى موردك، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع؛ إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[٤]، فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد، فعساك تستعد للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا، ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨و٢٧٦-٢٧٧و٥٠٣)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٦٠)، ومسلم (١/ ٤٣١/ ٦١٧)، والترمذي (٤/ ٦١٢-٦١٣/ ٢٥٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٤/ ٤٣١٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٢/ ٢٣/ ٥٣٦)، ومسلم (١/ ٤٣٠/ ٦١٥)، أبو داود (١/ ٢٨٤/ ٤٠٢)، والترمذي (١/ ٢٩٥/ ١٥٧)، والنسائي (١/ ٢٧٠/ ٤٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٢٢/ ٢٧٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧١ و٢٧٤)، والبخاري (١١/ ٥٠٨/ ٦٥٦١-٦٥٦٢)، ومسلم (١/ ١٩٦/ ٢١٣)، والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٤). وفي الباب عن العباس بن عبد المطلب وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

(٤) مريم: الآيتان (٧١و٧٢).

أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلًا: أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له: ذق إنك أنت العزيز الكريم، فأسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك! قد حق علينا الوعيد، يا مالك! قد أثقلنا الحديد، يا مالك! قد نضجت منا الجلود، يا مالك! أخرجنا منها فإنا لا نعود، فتقول الزبانية: هيهات! لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب اللَّه يتأسفون، ولا ينجيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران، وضرب المقامع، وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها، ويتحطمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور، صب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعط من الأطراف شعورها، بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، قد عريت من اللحم عظامهم، فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون، فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادًا من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت

آذانهم، ومزقت جلودهم، وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، وهم يمشون على النار بوجوههم، ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار في بواطن أجزائها، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم، وانظر الآن في تفصيل أهوالهم. . فانظر الآن في عمق الهاوية، فإنه لا حد لعمقها، كما لا حد لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه، فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها، قال أبو هريرة: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ فسمعنا وجبة، فقال رسول اللَّه ﷺ: **أتدرون ما هذا؟** قلنا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عامًا، الآن انتهى إلى قعرها**»[(١)] ثم انظر إلى تفاوت الدركات، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت، فإن اللَّه لا يظلم مثقال ذرة، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان؛ بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذابًا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه ما هو قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أدنى أهل النار عذابًا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه**»[(٢)]، فانظر الآن إلى من خفف عليه، واعتبر بمن شدد عليه، ومهما تشككت في شدة عذاب النار، فقرب أصبعك من النار، وقس ذلك به، ثم اعلم أنك أخطأت في القياس؛ فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار، عرف عذاب جهنم بها، وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه، وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث. . قال ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضًا، فأذن لها في نفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها، وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها**»[(٣)]. . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧١)، ومسلم (٤/ ٢١٨٤-٢١٨٥/ ٢٨٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٠)، ومسلم (١/ ١٩٦/ ٢١٢)، من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سبق تخريجه.

لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾[(٤)]، وقال ابن عباس: قال رسول اللَّه ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم»[(٥)]. . فانظر يا مسكين- في هذه الأهوال، واعلم أن اللَّه تعالى خلق النار بأهوالها، وخلق أهلًا لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾[(٦)]، ولعمري الإشارة به يوم القيامة بل في أزل، ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو، وتشتغل بمحقرات الدنيا، ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك! فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي، وإلى ماذا مآلي ومرجعي، وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها، وتصدق رجاءك بسببها، وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كلًّا ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير، فأبشر، فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه، ولا تقصد شرًّا إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات، ودلالة الدخان على النار؛ فقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[(٧)]، فاعرض نفسك على الآيتين، وقد عرفت مستقرك من الدارين، واللَّه أعلم»[(٨)].

قال ابن قدامة: «واعلم أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن

---

(١) الواقعة: الآيات (٥١-٥٥).
(٢) الصافات: الآيات (٦٤-٦٨).
(٣) الغاشية: الآيتان (٤و٥).
(٤) المزمل: الآيتان (١٢و١٣).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠-٣٠١)، والترمذي (٤/ ٦٠٩/ ٢٥٨٥)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٦/ ٤٣٢٥)، والحاكم (٢/ ٢٩٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه أيضا ابن حبان (١٦/ ٥١١/ ٧٤٧٠).
(٦) مريم: الآية (٣٩).
(٧) الانفطار: الآيتان (١٣و١٤).
(٨) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٣٠-٥٣٥)، بتصرف.

يكفي في التخويف، فإن كنت مؤمنًا بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يديك، فإن اللَّه لا يجمع على عبد خوفين، ولسنا نعني بالخوف رقة النساء، فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفًا يمنع عن المعاصي، ويحث على الطاعة، فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا باللَّه، نعوذ باللَّه، يا رب سلم، وهم مع ذلك مصرون على القبائح، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قَصَدَهُ سَبُعٌ ضار وهو إلى جانب حصن فيقول: أعوذ باللَّه من هذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه»[1].

* * *

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٠٣).



سورة التكاثر

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

ألهاكم: شغلكم. قال امرؤ القيس:

فمثلِك حبلى قد طرقت ومرضع … فألهيتها عن ذي تَمَائِم مغيل

التكاثر: التباهي بكثرة المال والولد والجاه.

المقابر: القبور. واحدها: مقبرة. بفتح الباء وضمها. والقبور: جمع القبر.

قال الشاعر:

أَرَى أهل القصور إذا أُمِيتُوا … بَنَوْا فوق المقابر بالصخور

أَبَوْا إلاّ مُبَاهَاةً وفَخْرًا … على الفقراء حَتَّى في القبور

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها، فقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شغلكم على وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد فهو محل التكليف،

وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «**إنها ألهتني آنفا عن صلاتي**»[(١)] كان صاحبه معذورا، وهو نوع من النسيان، وفي الحديث: «فلها عن الصبي»[(٢)] أي: ذهل عنه، ويقال: لها بالشيء، أي: اشتغل به ولها عنه: إذا انصرف عنه، واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به، فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي: مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة اللَّه ورسوله، وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر، فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف، وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر: أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم، إلا فيما يقرب إلى اللَّه، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها»[(٣)].

وقال: «وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت، إيذانا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا زائرين لها غير مستقرين فيها»[(٤)].

قال عطية سالم: «لم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية.. وقد جاءت نصوص من كتاب اللَّه تدل على أن التكاثر الذي ألهاهم، والذي ذمَّهم اللَّه بسببه أو حذرهم منه، إنما هو في الجميع، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾[(٥)] إلى قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[(٦)] ففيه التصريح بأن التفاخر والتكاثر بينهم في الأموال والأولاد، ثم جاءت نصوص أخرى في هذا المعنى كقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[(٧)]، وقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ

(١) أحمد (٦/ ١٧٧). البخاري (١/ ٦٣٦/ ٣٧٣). مسلم (١/ ٣٩١/ ٥٥٦). أبو داود (١/ ٥٦٢/ ٩١٤). النسائي (٢/ ٧٢/ ٧٧٠) في المجتبى وفي الكبرى (١/ ٢٧٧/ ٨٤٧). ابن ماجه (٢/ ١١٧٦/ ٣٥٥٠).

(٢) أخرجه بنحوه: البخاري (١٠/ ٧٠٤/ ٦١٩١)، ومسلم (٣/ ١٦٩٢/ ٢١٤٩) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) الفوائد (ص: ٤٤-٤٥).

(٤) عدة الصابرين (ص: ٢٩٦-٢٩٧).

(٥) الحديد: الآية (٢٠).

(٦) الحديد: الآية (٢٠).

(٧) الأنعام: الآية (٣٢).

وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[١]، ولكون الحياة الدنيا بهذه المثابة، جاء التحذير منها والنهي عن أن تلهيهم، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾[٢]، وبين تعالى أن ما عند اللّٰه للمؤمنين خير من هذا كله في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾[٣]. ومما يرجح أن التكاثر في الأموال والأولاد في نفس السورة، ما جاء في آخرها من قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ لمناسبتها لأول السورة، كما هو ظاهر بشمول النعيم للمال شمولًا أوليًا. وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ أخذ منه من قال: إن تفاخرهم حملهم على الذهاب إلى المقابر ليتكاثروا بأمواتهم، كما في أخبار أسباب النزول المتقدمة. والصحيح في زرتم المقابر: يعني متم؛ لأن الميت يأتي القبر كالزائر؛ لأن وجوده فيه مؤقت، وقد روي: أن أعرابيًا سمع هذه الآية، فقال: بعثوا ورب الكعبة، فقيل له في ذلك، فقال: لأن الزائر لا بد أن يرتحل»[٤].

قال الرازي: «الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم، والعقل دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم، ومن ذلك ما روي من تفاخر العباس، بأن السقاية بيده، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال علي عليه السلام: وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي، فصار الكفر مثلة فأسلمتم فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾[٥] الآية. وذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[٦] أنه يجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته ومحاسن أخلاقه، إذا كان يظن أن غيره يقتدي به، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم؛ بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة هو المحمود، وهو أصل الخيرات، فالألف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق؛ بل للمعهود السابق، وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة اللّٰه تعالى وعبوديته، ولما كان ذلك مقررا في العقول ومتفقا عليه في الأديان، لا جرم حسن إدخال حرف

(١) العنكبوت: الآية (٦٤).
(٢) المنافقون: الآية (٩).
(٣) الجمعة: الآية (١١).
(٤) تتمة الأضواء (٩/ ٤٧٠-٤٧٢).
(٥) التوبة: الآية (١٩).
(٦) الضحى: الآية (١١).

التعريف عليه»[١].

قال القرطبي: «لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها»[٢].

وقال: «قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير.

وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول، قال ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[٣] رواه ابن عباس. فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك؛ بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت. .

---

(١) التفسير الكبير (٣٢/ ٧٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٧٠).
(٣) أحمد (١/ ٢٧١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤/ ١٢٤٥١)، وفي الأوسط (١/ ٤٥-٤٦/ ٢٥)، والبزار (كشف الأستار ١/ ١١١/ ٢٠٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٩٦-٩٧/ ٦٢١٣-٦٢١٤) والحاكم (٢/ ٣٨٠) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٥٣) وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويسلم إذا دخل المقابر..

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم. وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خُوّلَه وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله. وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الحرص والاستكثار من الدنيا

* عن عبد اللَّه بن الشخير ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: **«يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»**[٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٧١-١٧٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤و٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣/ ٢٩٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٩٤/ ٢٣٤٢)، (٥/ ٤١٦/ ٣٣٥٤)، والنسائي (٦/ ٥٤٨/ ٣٦١٥)، وفي الكبرى (٦/ ٥٢١/ ١١٦٩٥-١١٦٩٦).

* عن أبي ﷺ قال: «كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»[١].

⋆ غريب الحديث:

أبليت: من الإبلاء، وهو إخلاق الجديد.

أمضيت: المراد: أمضيت التصدق ونجزته، فأبقيت ثوابه مدخرًا لك عند المولى.

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«يقول العبد مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»**[٢].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمد»**[٣].

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»**[٤].

* عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال وطول العمر»**[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٢٥٣/ ٦٤٤٠). وهو عند ابن جرير (٣٠/ ٢٨٤) بلفظ: «كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن: (لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب اللَّه على من تاب) حتى نزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾ إلى آخرها».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٨و٤١٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣/ ٢٩٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٨و٥٣٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٢٨١-٢٨٢/ ١٠٣١٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٨/ ١٦/ ٣٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٥٣٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٢١) و(١٠/ ٢٣٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٨٠-١٨١): «رواه أحمد، ورواته محتج بهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم».

(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٤٠/ ٦٥١٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣/ ٢٩٦٠)، والترمذي (٤/ ٥٠٩/ ٢٣٧٩)، والنسائي (٤/ ٣٥٤-٣٥٥/ ١٩٣٦)، وفي الكبرى (١/ ٦٣٠/ ٢٠٦٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٥و١١٩و١٦٩و٢٧٥و١٩٢و٢٥٦)، والبخاري (١١/ ٢٨٧/ ٦٤٢١)، ومسلم (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٧)، والترمذي (٤/ ٤٩٣/ ٢٣٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٤).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الحافظ: «وجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال، والتقريع بالموت الذي يقطع ذلك، ولا بد لكل أحد منه، فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه، علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ. وقد شرحه بعضهم على أنه كان قرآنًا ونسخت تلاوته لما نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾، فاستمرت تلاوتها، فكانت ناسخة لتلاوة ذلك، وأما الحكم فيه والمعنى فلم ينسخ؛ إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ كنسخ الحكم، والأول أولى، وليس ذلك من النسخ في شيء. قلت: يؤيد ما رده ما أخرجه الترمذي من طريق زر بن حبيش عن أبي بن كعب أن رسول اللَّه ﷺ قال له: «**إن اللَّه أمرني أن أقرأ عليك القرآن، فقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾**[١]. قال: وقرأ فيها: (إن الدين عند اللَّه الحنيفية السمحة)»[٢] الحديث»[٣].

وفي هذه الأحاديث من الفوائد:

ما يدل على أن سورة (التكاثر) مدنية؛ قال ابن العربي: «قال المفسرون: إنها مكية، وروى البخاري أنها مدنية، قال ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب**»[٤]، وقال ثابت عن أنس قال: «كنا نعد هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝﴾»، وهذا نص مليح غاب عن أهل التفسير، فجهلوا وجهّلوا، والحمد لله على المعرفة»[٥].

وفيها: «التحريض على الزهد عن جميع الدنيا، والعروض عنها، والتحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة، وادخار ما عداه عند اللَّه، وما أحسن قول بعضهم: اجعل ما عندك ذخيرة لك عند اللَّه، واجعل اللَّه ذخيرة

---

(١) البينة: الآية (١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣١-١٣٢)، والترمذي (٥/ ٦٢٤/ ٣٧٩٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ٢٢٤) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، من طريق شعبة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن أبي به.

(٣) فتح الباري (١١/ ٣١٠-٣١١).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١١/ ٣٠٥/ ٦٤٣٩)، ومسلم (٢/ ٧٢٥/ ١٠٤٨)، والترمذي (٤/ ٤٩٢/ ٢٣٣٧).

(٥) أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٤).

لأولادك»[١].

وفيها: «ذم الحرص على الدنيا، والشره على الازدياد منها، ولذلك آثر أكثر السلف التقلل من الدنيا، والقناعة والكفاف فرارًا من التعرض لما لا يعلم كيف النجاة من شر فتنته، واستعاذ النبي ﷺ من شر فتنة الغنى، وقد علم كل مؤمن أن اللَّه تعالى قد أعاذه من شر كل فتنة، وإنما دعاؤه بذلك ﷺ تواضعًا لله وتعليمًا لأمته، وحضًا لهم على إيثار الزهد في الدنيا»[٢].

وفيها: «ما يدل على أن الفقر أقرب للسلامة، والاتساع في الدنيا أقرب للفتنة، فنسأل اللَّه الكفاف والعفاف»[٣].

فصل

قال أبو عمر بن عبد البر: «المال المذموم عند أهل العلم هو المطلوب من غير وجهه، والمأخوذ من غير حله، والآثار الواردة بذم المال نحو قول رسول اللَّه ﷺ: «**الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وإنهما مهلكاكم**»[٤]، ونحو قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في حظيرة غنم بأفسد لها من حب المرء للمال والشرف**»[٥] وما كان في معناه من حديثه ﷺ، ونحوه قول عمر بن الخطاب: «ما فتح اللَّه الدينار والدرهم والذهب والفضة على قوم إلا سفكوا دماءهم، وقطعوا أرحامهم»، ونحو هذا مما روي عنه وعن غيره من السلف في هذا المعنى، فوجه ذلك كله عند أهل العلم والفهم في المال المكتسب من الوجوه التي حرمها اللَّه ولم يبحها، وفي كل مال ما لم يطع اللَّه جامعه في كسبه، وعصى ربه من أجله وبسببه،

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٢٦).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٦٠).

(٣) المفهم (٧/ ١١٣).

(٤) أخرجه من حديث أبي موسى: ابن حبان (٢/ ٤٦٩/ ٦٩٤)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٨/ ٢٠٤٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٦/ ٣٧٥٩٤)، وأورده الهيثمي في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير والأوسط ثم قال: «إسناده حسن»، وله شاهد من حديث ابن مسعود عند الطبراني في الكبير (١٠/ ٩٥/ ١٠٠٦٩)، والبزار كما في كشف الأستار (٤/ ٢٣٦/ ٣٦١٣)، وعزاه الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٢) للطبراني وقال: فيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف ولم يعزه للبزار وعزاه له في الزهد (١٠/ ٢٣٧)، وقال: «إسناده جيد».

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٠)، والترمذي (٤/ ٥٠٨/ ٢٣٧٦)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٨/ ٣١٦)، وابن حبان (٨/ ٢٤/ ٣٢٢٨).

واستعان به على معصية اللَّه وغضبه، ولم يؤد حق اللَّه وفرائضه فيه ومنه، فذلك هو المال المذموم والمكسب المشؤوم. وأما إذا كان المال مكتسبًا من وجه ما أباح اللَّه، وتأدت منه حقوقه، وتقرب فيه إليه بالإنفاق في سبيله ومرضاته، فذلك المال محمود ممدوح كاسبه ومنفقه، لا خلاف بين العلماء في ذلك، ولا يخالف فيه إلا من جهل أمر اللَّه، وقد أثنى اللَّه على إنفاق المال في غير آية، ومحال أن ينفق ما لا يكتسب، قال اللَّه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾[١] الآية، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٢]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾[٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[٤] الآية، وقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٥]، وقال: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٦]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾[٧] الآية، وما في القرآن من هذا المعنى كثير جدًا، وكذلك السنن الصحاح كلها تنطق بهذا المعنى، وهو الثابت عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، قال ﷺ: «**كل معروف صدقة**»[٨]، وقال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المعطية، والسفلى السائلة**»[٩]، وقال لسعد بن أبي وقاص: «**لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس، وأنك لن تنفق نفقة إلا أجرت فيها**»[١٠] الحديث، وقال ﷺ: «**أفضل درهم درهم تنفقه**

(١) البقرة: الآية (٢٦٢).
(٢) البقرة: الآية (٢٧٤).
(٣) الحديد: الآية (١٠).
(٤) الأنفال: الآية (٧٢).
(٥) آل عمران: الآية (٩٢).
(٦) البقرة: الآية (٢٧٦).
(٧) البقرة: الآية (٢٤٥).
(٨) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٤٤)، البخاري (١٠/ ٥٤٨/ ٦٠٢١)، الترمذي (٤/ ٣٠٦/ ١٩٧٠) وزاد أحمد والترمذي: «ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك». وقال الترمذي: «حديث حسن» من حديث جابر بن عبد اللَّه ؓ.
(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٦٧)، والبخاري (٣/ ٣٧٦/ ١٤٢٩)، ومسلم (٢/ ٧١٧/ ١٠٣٣)، وأبو داود (٢/ ٢٩٧/ ١٦٤٨)، والنسائي (٥/ ٦٥/ ٢٥٣٢).
(١٠) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٢) والبخاري (٩/ ٤٩٧/ ٥٣٥٤) ومسلم (٣/ ١٢٥٠/ ١٦٢٨) وأبو داود (٣/ ٢٨٤-٢٨٧/ ٢٨٦٤) والترمذي (٤/ ٣٧٤/ ٢١١٦) والنسائي (٦/ ٥٥١-٥٥٣/ ٣٦٢٨-٣٦٣٢) وابن ماجه (٢/ ٩٠٣-٩٠٤/ ٢٧٠٨).

على عيالك»[١]، والآثار في هذا متواترة جدًا، وقال ﷺ لعمرو بن العاص: «**هل لك أن أرسلك في جيش يغنمك اللّه ويسلمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، فنعم المال الصالح للرجل الصالح**»[٢]، وقال أبو بكر الصديق لعائشة ﵄: «**ما أحد من خلق اللّه أحب إلي غنى بعدي منك، ولا أعز علي فقرًا بعدي منك**»[٣]، وكان رسول اللّه ﷺ يدخر مما أفاء اللّه عليه من صفاياه من فدك وغيرها قوت سنة لنفسه وعياله، ويجعل الباقي في الكراع والسلاح في سبيل اللّه. وهذه آثار مشهورة كرهت سياقتها بأسانيدها خشية التطويل»[٤].

ثم قال ﵀ **تعالى بعد ذكره لمجموعة من الآثار في إقبال السلف على الدنيا وحثهم على ذلك غيرهم**، قال: «هذه الآثار كلها إنما أوردناها ههنا لئلا يظن ظان جاهل بما يقرأ في هذا الباب أن طلب المال من وجهه للكفاف والاستغناء عن الناس هو طلب الدنيا المكروه الممنوع منه، فإنه ليس كذلك، رحم اللّه أبا الدرداء حيث يقول: «من فقه الرجل المسلم استصلاحه معيشته»[٥]، وقال أبو الدرداء أيضًا: «صلاح المعيشة من صلاح الدين، وصلاح الدين من صلاح العقل» وقال الشاعر الحكيم:

ألا عائذًا باللّه من بطر الغني ... ومن رغبة يومًا إلى غير مرغب»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على زيارة القبور

* عن ابن عباس ﵄: «أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: **لا بأس، طهور إن شاء اللّه**، فقال له:

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٩١/ ٩٩٤)، والترمذي (٤/ ٣٠٤/ ١٩٦٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٢/ ٢٧٦٠)، عن ثوبان مرفوعا: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل اللّه، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٢)، وصححه ابن حبان (٨/ ٧/ ٣٢١١)، والحاكم (٢/ ٢) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٧٥٢/ ٤٠)، والبيهقي (٦/ ١٦٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٨٨/ ٥٤٠٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٩/ ١٠١/ ١٦٥٠٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٩٤).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧١١-٧١٥).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٤)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٥٤/ ٦٥٦٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣١٣/ ١٦٤٥٤)، قال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف».

(٦) جامع بيان العلم (٢/ ١٩).

لا بأس، طهور إن شاء اللَّه. قال: قلتَ: طهور؟ كلَّا، **بل هي حمى تفور -أو تثور- على شيخ كبير تزيره القبور**، فقال النبي ﷺ: **فنعم إذا**»[١].

★غريب الحديث:

تفور: أي تظهر حرها وهجرها وغليانها.

أو تثور: قال العيني: شك من الراوي هل قالها، بالفاء أو بالثاء المثلثة وهما بمعنى واحد[٢].

تزيره: أي: تزير الشيخ القبور، وهي من الإزارة.

★فوائد الحديث:

احتج الحافظ ابن كثير في تفسيره بهذا الحديث على أن الصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ صرتم إليها ودفنتم بها.

قال القاري: (تزيره القبور» أي: تحمله الحمى على زيارة القبور، وتجعله من أصحاب القبور»[٣].

* عن بريدة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ: «**لعن زوارات القبور**»[٥].

★فوائد الحديثين:

قال الترمذي عقب حديث أبي هريرة: «وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخص دخل في رخصته الرجال

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٥٠)، والبخاري (٦/ ٧٧٤/ ٣٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٦/ ٧٤٩٩)، (٦/ ٢٥٨/ ١٠٨٧٨).

(٢) عمدة القاري (١٤/ ٦٥٢).

(٣) المرقاة (٤/ ١٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٥)، ومسلم (٢/ ٦٧٢/ ٩٧٧)، وأبو داود (٣/ ٥٥٨/ ٣٢٢٥)، والترمذي (٣/ ٣٧٠/ ١٠٥٤)، وقال: «حسن صحيح» والنسائي (٨/ ٥٦٦٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٧)، والترمذي (٣/ ٣٧١/ ١٠٥٦)، وقال: «حسن صحيح» وصححه ابن حبان (٧/ ٤٥٢/ ٣١٧٨).

والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن»[١].

قال القرطبي: «زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك. وجائز لجميعهن. ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء اللّه. وعلى هذا المعنى يكون قوله: «زوروا القبور» عاما. وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز. فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. واللّه أعلم»[٢].

* * *

(١) السنن (٣/ ٣٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٧٠-١٧١).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر. وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غِبَّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة اللَّه ربكم. وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر، وكرر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ مرتين؛ لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد، كرروا الكلمة مرتين»[1].

قال ابن القيم: «وقيل: ليس تأكيدا؛ بل العلم الأول المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، هذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس، ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط (ثم) بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زمانا وخطرا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علما هو فوق الأول.

الرابع: أن عليا بن أبي طالب ﷺ وغيره من السلف، فهموا من الآية عذاب القبر، قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن أسلم الرازي عن عمرو بن

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٨٤-٢٨٥).

أبي قيس، عن الحجاج بن المنهال بن عمر، عن زر عن علي ﷺ قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾»[1]

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ في القبر، الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها»[2].

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤١٧/ ٣٣٥٥) وقال: «حديث غريب». قال عنه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٤٢٥): «إسناده ضعيف ورجاله ثقات لولا أن الحجاج -وهو ابن أرطأة- مدلس وقد عنعنه».

(٢) عدة الصابرين (ص: ٣٠١-٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علما يقينا، أن اللَّه باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم، ما ألهاكم التكاثر عن طاعة اللَّه ربكم، ولسارعتم إلى عبادته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقا على أنفسكم من عقوبته»[١].

قال الرازي: «في الآية تهديد عظيم للعلماء، فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة، لتركوا التكاثر والتفاخر، وهذا يقتضي أن من لم يترك التكاثر والتفاخر، لا يكون اليقين حاصلا له، فالويل للعالم الذي لا يكون عاملا ثم الويل له»[٢].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرة خر كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٨٥).

(٢) التفسير الكبير (٣٢/ ٨٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٩٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا، ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ واختلف أهل التأويل في ذلك النعيم ما هو؟ فقال بعضهم: هو الأمن والصحة.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم ليسألن يومئذ عما أنعم اللّه به عليهم مما وهب لهم من السمع والبصر وصحة البدن.. وقال آخرون: هو العافية.. وقال آخرون: بل عني بذلك: بعض ما يطعمه الإنسان، أو يشربه.. وقال آخرون: ذلك كل ما التذه الإنسان في الدنيا من شيء.. وكان الحسن وقتادة يقولان: ثلاث لا يسأل عنهن ابن آدم، وما خلاهن فيه المسألة والحساب، كسوة يواري بها سوأته، وكسرة يشد بها صلبه، وبيت يظله.

والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن اللّه أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع؛ بل عم بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض»[1].

قال ابن القيم: «ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالا آخر هل شكر اللّه تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟ فالأول سؤال عن سبب استخراجه، والثاني عن محل صرفه.. وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار، وهم المسؤولون عن النعيم، وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٨٥-٢٨٩).

الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر[1] لما نزلت هذه الآية قال لرسول الله: «أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله: «**إنما ذلك للكفار**» ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[2].

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم، والمعنى أيضا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم، حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم، توبيخا لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم، قال: وهذا معنى قول مقاتل. وهو قول الحسن، قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ، ولا في السنة الصحيحة، ولا في أدلة العقل، ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار؛ بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك، ويدل على ذلك قول النبي عند قراءة هذه السورة: «**يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت**»[3]، الحديث وهو في صحيح مسلم، وقائل ذلك قد يكون مسلما وقد يكون كافرا، ويدل عليه أيضا الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة النبي، وفهمهم العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هو الأسودان، فلو كان الخطاب مختصا بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار، فالصحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم، وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح، والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٤)، لابن مردويه عن الكلبي عن الشعبي عن الحارث عن ابن مسعود، وقد ضعفه ابن القيم في هذا النص.

(٢) سبأ: الآية (١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤)، مسلم (٤/ ٢٢٧٣/ ٢٩٥٨)، الترمذي (٤/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٢٣٤٢)، والنسائي (٦/ ٥٤٨/ ٣٦١٥).

هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله! قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما**» فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول اللّه ﷺ: «**وأين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول اللّه وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا. فأخذ المدية فقال له رسول الله: «**إياك والحلوبة**» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول اللّه لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**» فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرا؛ بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول اللّه فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[1] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا اللّه.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه؟ قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار؛ لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد، فخصوهم به، وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان، على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[2]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾[3]، ﴿إِنَّ

---

(١) البقرة: الآية (١٨٣).

(٢) الإسراء: الآية (١١).

(٣) الإسراء: الآية (١٠٠).

ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾[١]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[٢]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾[٣]، ونظائره كثيرة. فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما اللَّه سبحانه هو الذي يكمله بذلك، ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه؛ بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية اللَّه له، وجعله مريدا للآخرة مؤثرا لها على التكاثر بالدنيا فإن أعطاه ذلك، وإلا فهو ملته بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلا له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما يقتضي دخول النار فضلا عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانا، وقد أقسم الرب -تبارك وتعالى- أنه لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها. وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعا، إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وباللَّه التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها، وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي، وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها واللَّه أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء؛ بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق؛ يتبين لك أن

---

(١) العاديات: الآية (٦).

(٢) الأحزاب: الآية (٧٢).

(٣) الحج: الآية (٦٦).

العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به؛ ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكاثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصى   وإنما العزة للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم؛ إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانا في دنياه أو جاهه، أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة، فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به، وتزكو وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكاثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر مُلْه عن اللَّه والدار الآخرة، وهو صائر إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان، والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر باللَّه ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولا، وأحسن منه عملا، وأغزر علما، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذموما ولا قادحا في إخلاص العبد؛ بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ في تصاولهم بين يدي رسول اللَّه ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر ﷺ فلما تبين له مدى سبقه له قال: «**واللَّه لا أسابقك إلى شيء أبدا**»[1].

ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرا عن التكاثر، ونفيا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهيا ونفيا، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم،

(١) أخرجه: أبو داود (٢/ ٣١٢-٣١٣/ ١٦٧٨)، الترمذي (٥/ ٥٧٤/ ٣٦٧٥) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (١/ ٤١٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

علما بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيرا، وأشدها ترغيبا في الآخرة وتزهيدا في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحيا.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين؛ بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر، فهاهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على شكر النعم والإقرار بها للمنعم والقيام بحقه سبحانه فيها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟** قالوا: لا، قال: **فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟** قالوا: لا، قال: **فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد فيقول: أي فل! ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل! ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب! فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب! آمنت بك وبكتابك**

---

(١) عدة الصابرين (ص: ٣٠٢-٣١٠).

وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذا. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللَّه عليه»[١].

⋆ غريب الحديث:

تضارون: تفاعلون من الضرار، والضرار أيضًا: أن يتضار الرجلان عند الاختلاف في الشيء، فيضار هذا ذاك وذاك هذا، فيقال: قد وقع الضرار بينهما، أي: الاختلاف.

أي فل: منادى مرخم، أي: فلان، وقيل: فُل: لغة مثل فلان.

أسودك: أي: أجعلك سيدًا على غيرك.

ترأس: بفتح التاء وإسكان الراء وبعدها همزة مفتوحة، ومعناه: رئيس القوم وكبيرهم.

تربع: بفتح التاء والباء الموحدة، وفي بعض الروايات: ترتع بالمثناة فوق بعد الراء، ومعناه بالموحدة: تأخذ المرباع التي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها، يقال: ربعتهم، أي: أخذت ربع أموالهم ومعناه: ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا. ومعناه بالمثناة: تتنعم، وقيل: تأكل، وقيل: تلهو، وقيل: تعيش في سعة[٢].

فيقول: ههنا إذن: معناه: قف ههنا حتى يشهد عليك جوارحك؛ إذ قد صرت مُنكِرًا.

*** عن أبي هريرة ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قال الناس: يا رسول الله! عن أي النعيم نسأل؟ فإنما هما الأسودان، والعدو**

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٩-٢٢٨٠/ ٢٩٦٨) بهذا السياق، وأخرجه مختصرًا: أحمد (٢/ ٤٩٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٢٤٢٨).

(٢) شرح مسلم (١٨/ ٨١-٨٢).

حاضر، وسيوفنا على عواتقنا، قال: **إن ذلك سيكون**»[(١)].

⋆ غريب الحديث:

عواتقنا: جمع عاتق، وهو ما بين المنكب والعنق.

* عن عبد اللَّه بن الزبير بن العوام عن أبيه قال: «لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قال الزبير: يا رسول الله! فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: **أما إنه سيكون**»[(٢)].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة يعني العبد- من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد؟**»[(٣)].

* عن ابن عباس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[(٤)].

⋆ غريب الحديث:

مغبون: إما مشتق من الغبن، بسكون الباء، وهو النقص في البيع، وإما من الغبن بفتح الباء، وهو النقص في الرأي.

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ قال: جاءنا رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وعمر

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤١٧/ ٣٣٥٧)، من طريق أبي بكر بن عياش عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. وقال: «وحديث ابن عيينة عن محمد بن عمرو عندي أصح من هذا - سفيان بن عيينة أحفظ وأصح حديثًا من أبي بكر بن عياش». ويشهد للحديث ما بعده.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٤)، والترمذي (٥/ ٤١٧/ ٣٣٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٢/ ٤١٥٨)، كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن محمد بن عمرو عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد اللَّه بن الزبير عن أبيه به. وهو سند حسن من أجل محمد بن عمرو. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤١٨/ ٣٣٥٨)، وقال: «هذا حديث غريب»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٦٥/ ٧٣٦٤)، والحاكم (٤/ ١٣٨) ووافقه الذهبي. وانظر «السلسلة الصحيحة» (٥٣٩).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٤و٢٥٨)، والبخاري (١١/ ٢٧٥/ ٦٤١٢)، والترمذي (٤/ ٤٧٧/ ٢٣٠٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٦/ ٤١٧٠).

فأطعمناهم رطبًا، وسقيناهم من الماء، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه**»[١].

* عن أبي هريرة ؓ قال: «خرج رسول اللَّه ﷺ ذات يوم -أو ليلة- فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: **ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟** قالا: الجوع يا رسول اللَّه، قال: **وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا**، فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مرحبًا وأهلًا، فقال لها رسول اللَّه ﷺ: **أين فلان؟** قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول اللَّه ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول اللَّه ﷺ: **إياك والحلوب**، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر وعمر: **والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[٢].

★ غريب الحديث:

ذهب يستعذب لنا من الماء: أي: يأتينا بماء عذب، وهو الطيب.

بعذق فيه بسر وتمر ورطب: بكسر العين، وهو الغصن من النخل، وإنما أتى بهذا العذق الملون ليكون أطرف، وليجمعوا بين أكل أنواع، فقد يطيب لبعضهم هذا، ولبعضهم هذا.

المدية: بضم الميم وكسرها، هي السكين.

الحلوب: ذات اللبن؛ فَعُول، بمعنى مفعول.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣٨و٣٥١و٣٩١)، والنسائي (٦/ ٥٥٦/ ٣٦٤١)، وفي الكبرى (٤/ ١٠٦/ ٦٤٦٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٨/ ٢٠١/ ٣٤١١).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ١٦٠٤/ ٢٠٣٨) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٥٠٤/ ٢٣٣٩) مطولًا، وفي «الشمائل» (١١٣) المختصر، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢١/ ١١٦٩٧) مقتصرًا على موضع الشاهد، وأبو داود (٥/ ٣٤٥/ ٥١٢٨) مختصرًا دون ذكر الشاهد، وكذا ابن ماجه (٢/ ١٢٣٣/ ٣٧٤٥).

* عن أبي عسيب مولى رسول اللَّه ﷺ قال: «خرج رسول اللَّه ﷺ ليلًا، فمر بي، فدعاني إليه فخرجت، ثم مر بأبي بكر، فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه، ثم انطلق يمشي حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: **أطعمنا بسرًا**، فجاءه بعذق فوضعه، فأكل، فأكل رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال: **لتسئلن عن هذا يوم القيامة**، فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قبل رسول اللَّه ﷺ، ثم قال: يا نبي الله! إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: **نعم، إلا من ثلاث: خرقة كف بها الرجل عورته، وكسرة يسد بها جوعته، أو جحر يدخل فيه من الحر والقر**»[(١)].

★ غريب الحديث:

حائطًا: الحائط: البستان من النخل إذا كان عليه حائط، وهو الجدار.

* عن معاذ بن عبد اللَّه الجهني عن أبيه عن عمه قال: كنا في مجلس فجاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقال له بعضنا: نراك اليوم طيب النفس، فقال: أجل، والحمد لله، ثم أفاض القوم في ذكر الغنى، فقال: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم**»[(٢)].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

«الحث على شكر النعم، والإقرار بها للمنعم، والقيام بحقه ﷻ فيها»[(٣)].

قال ابن بطال: «قال بعض العلماء: إنما أراد ﷺ بقوله: «الصحة والفراغ نعمتان» تنبيه أمته على مقدار عظيم نعمة اللَّه على عباده في الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًا مؤنة العيش في الدنيا، فمن أنعم اللَّه عليه بهما فليحذر أن يغبنهما، ومما يستعان به على دفع الغبن أن يعلم العبد أن اللَّه تعالى

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٨١)، وابن جرير (٣٠/ ٢٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ١٤٣/ ٤٦٠١). قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦٧): «رجاله ثقات».

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧٢و٣٨٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٢٤/ ٢١٤١) واللفظ له، قال البوصيري: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات»، والحاكم (٢/ ٣) وقال: «هذا حديث مدني صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) أضواء البيان (٩/ ٤٨٦) بتصرف.

خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها، فمنّ عليهم بصحة الأجسام، وسلامة العقول، وتضمن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يضاعف عليهم السيئات، وأمرهم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرف يسيرة، وجعل مدة طاعتهم في الدنيا منقضية بانقضاء أعمالهم، وجعل جزاءهم على ذلك خلودًا دائمًا في جنات لا انقضاء لها، مع ما ادخر لمن أطاعه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أنعم النظر في هذا كان حريًّا ألا يذهب عنه وقت من صحته وفراغه إلا وينفقه في طاعة ربه، ويشكره على عظيم مواهبه، والاعتراف بالتقصير عن بلوغ كنه تأدية ذلك، فمن لم يكن هكذا وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا، ومرت أيامه عنه في سهو ولهو وعجز عن القيام بما لزمه لربه تعالى؛ فقد غبن أيامه، وسوف يندم حيث لا ينفع الندم»[١].

وفيها: «أن السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية»[٢].

قال النووي: «الذي نعتقده أن السؤال هنا -أي سؤال المؤمنين عن النعيم يوم القيامة- سؤال تعداد النعم، وإعلام بالامتنان بها، وإظهار الكرامة بإسباغها، لا سؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة، والله أعلم»[٣].

قال ابن العربي: «أما النعيم منه كثير ومنه قليل، والأسودان مع الصحة نعيم عظيم وإن كان قليلًا؛ فما ظنك بما وراءه بعد ذلك من النعيم»[٤].

وفي بعض هذه الأحاديث دليل على أن ما سد الجوع، ورفع العطش، وأكنّ من الحرّ والقرّ، وستر العورة مما لا بد للآدمي، لا حساب على ابن آدم فيه؛ «قال سفيان ابن عيينة: إن ما سد الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يسأل عن النعيم. قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ١٤٦-١٤٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٧٦-١٧٧).
(٣) شرح مسلم (١٣/ ١٨٣).
(٤) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٥٦).

آدم الجنة. فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1]. فكانت هذه الأشياء الأربعة -ما يسد به الجوع، وما يدفع به العطش، وما يستكن فيه من الحر، ويستر به عورته- لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها؛ لأنه لا بد له منها»[2].

* * *

(١) طه: الآيتان (١١٨-١١٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٧٧-١٧٨).



سورة العصر

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت على إثبات الخسران الشديد لأهل الشرك ومن كان مثلهم من أهل الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوته، وكذلك من تقلد أعمال الباطل التي حذر الإسلام المسلمين منها.

وعلى إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات والداعين منهم إلى الحق، وعلى فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق.

وقد كان أصحاب رسول اللّه ﷺ اتخذوها شعارا لهم في ملتقاهم. روى الطبراني بسنده إلى عبيداللّه بن عبد اللّه بن الحصين الأنصاري (من التابعين) أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول اللّه إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهم على الآخر (أي سلام التفرق، وهو سنة أيضا مثل سلام القدوم).

وعن الشافعي: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم. وقال غيره: إنها شملت جميع علوم القرآن»[1].

وقال الشوكاني: «وأما الغرض الذي سيقت له فهو ترهيب عباد اللّه سبحانه عن معاصيه، وإهمال ما أوجبه على عباده من الإيمان والعمل، وترغيبهم بالإيمان وعمل الصالحات، وأن ذلك هو الذي يكون به خروجهم من ظلمات الخسر إلى أنوار الإيمان والطاعة، فمن ألقى السمع وهو شهيد، إلى هذا الوعد والوعيد، والترغيب

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢٧و٥٢٨)

والتهديد، جذبه ذلك إلى خير البداية والنهاية، ونعم الدنيا والآخرة، ونجا من دركات الخسران، ووصل إلى درجات الجنان. ومعلوم أن العقلاء من هذا النوع الإنساني يطلبون الوصول إلى النعيم الأبدي، والعيش الهني الذي لا ينقطع ولا يفنى، لأن نعيم الدنيا وإن بلغ في الحسن والرفاهية إلى أرفع الرتب، وأعلى المنازل، فهو مكدر بأنه زائل ذاهب، والانتقال عنه قريب، وإن ظنه من طاوع كواذب الآمال بعيدا، وكل عاقل يعلم أن كل نعيم يزول، وكل نعمة تذهب، فيكون حزنها أكثر من سرورها، وغمها أعظم من الفرح لها. وقد أحسن المتنبي حيث يقول:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا»[1].

* * *

(١) الفتح الرباني (٣/ ١٣٥٢).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلْعَصْرِ ①﴾

★ **غريب الآية:**

العصر: الدهر والزمان. جمعه: أَعْصُرٌ وعصور. قال الشاعر:

سَبيلُ الهوى وَعْرٌ وبَحْرُ الهوى غَمْرُ ويَوْمُ الهوى شَهْرٌ وشَهْرُ الهوى دَهْرُ

وقيل: العصر: الليل والنهار. قال الشاعر:

ولَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ: يومٌ وليلةٌ إذا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا ما تَيَمَّمَا

وقيل: العصر: العشي. قال الشاعر:

تَرَوَّحْ بنا يا عمرو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ وفي الرَّوْحَةِ الأولى الغَنِيمَةُ والأَجْرُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «اختلف المفسرون في العصر الذي أقسم اللَّه به، فقيل: هو الدهر لما فيه من العبر التي تظهر فيه على تعاقب الليل والنهار، مع ما فيها من الدلالة البينة على الصانع سبحانه، وعلى توحيده، وتطلق على الليل والنهار أنهما عصر، وعلى كل واحد منهما أنه عصر. . وأطلقوا على الغداة أنها عصر، وعلى العشي أنه عصر. . فالعصر يطلق على كل واحد من هذه الأوجه لمن ذهب إلى تخصيص واحد منهما دون غيره، كما روي عن قتادة والحسن أن المراد به في هذه الآية العشي. وروي عن قتادة أنه آخر ساعة من ساعات النهار. والظاهر في هذه الآية أن المراد به الدهر لعدم التقييد بما يشعر ببعض الأوقات دون بعض. وقد استبعد قوم وقوع الإقسام منه سبحانه بالعصر بمعنى الدهر، فقال قائل: المراد به صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى، فقدّر مضافًا محذوفًا، وقيل: هو قسم بعصر النبي ﷺ؛ لكونه أشرف العصور، وأفضل أجزاء الدهر. وقال الزجاج: قال بعضهم: معناه: ورب العصر. ولا يخفاك أنه لا وجه لشيء من هذه التقديرات،

ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يحتاج مثل ذلك إلى التعليل يكون للمقسم به شرفًا وفضلًا، فالرب سبحانه لا يُسأل عما يفعل. .

إذا تقرر لك أنه سبحانه أقسم في كتابه العزيز بهذه المخلوقات المتنوعة؛ تقرر أن المراد بالعصر هو الدهر كما قررناه، ولا وجه لتقدير مضاف محذوف فيه، ولا في سائر ما أقسم اللَّه سبحانه به من مخلوقاته؛ فإن اللَّه سبحانه يقسم بما شاء منها، ولم يأتنا دليل ولا شبهة دليل أنه لا يقسم إلا بما له شرف، وبما فيه فضيلة ممن حرّف المعاني القرآنية الواردة على نمط لغة العرب، لأجل تحصيل شيء في المقسم به يصير به ذا شرف، فقد أخطأ خطأً بينًا، وغلط غلطًا واضحًا، فإنه تلاعب بكتاب اللَّه سبحانه لخيال مختلّ، وتعليل معتلّ، وتوهم فاسد، وفهم كاسد. فاعرف هذا، وليكن منك على ذكر، فكثيرًا ما يقع لأهل العلم الوهم الباطل، ثم يبنى عليه ما هو أبطل منه، وينقله عنه من يهاب الرد عليه، فيحرر في كتب التفسير ونحوها من زائف الأقوال، وباطل الآراء ما يضحك منه تارة، ويبكى منه أخرى. والتقليد وإحسان الظن بالأموات هو السبب لكل غلط، والمنشأ لكل جهل، والحامل على ترويج كل باطل»[١].

قال ابن القيم: «وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم»[٢].

وقال أيضا: «أقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها، على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر على المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين: خيرا وشرا، تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين؛ بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحم اللَّه فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين»[٣].

---

(١) الفتح الرباني (٣/ ١٣٢٦-١٣٣٤).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٦).
(٣) التبيان (ص: ٥٦-٥٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تواصي الصحابة ﷺ بسورة العصر

* عن أبي مدينة الدارمي -وكانت له صحبة- قال: «كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر»[1].

★ فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «وقد كان لهذه السورة شأن عظيم عند السلف -ﷺ- فذكر الحديث ثم قال: ولعل الحامل لهم على ذلك ما اشتملت عليه من الموعظة الحسنة، من التواصي بالحق والتواصي بالصبر بعد الحكم على هذا النوع الإنساني حكمًا مؤكدًا بأنه في خسر، فإن ذلك مما ترجف له القلوب، وتقشعر عنده الجلود، وتقف لديه الشعور، وكأن كل واحد من المتلاقيين يقول لصاحبه: أنا وأنت وسائر أبناء جنسنا وأهل جلدتنا خاسر لا محالة إلا أن يتخلص عن هذه الرزية، وينجو بنفسه عن هذه البلية بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق وبالصبر، فيحمله الخوف الممزوج بالرجاء على فتح أسباب النجاء، وقرع أبواب الالتجاء، فإن قلت: كيف وقع منهم تخصيص هذه السورة بهذه المزية دون غيرها من السور المختصرة؟ قلت: وجه ذلك ما قدمنا من اشتمالها على ما اشتملت عليه ترهيبًا وترغيبًا، وتحذيرًا وتبشيرًا، وإنذارًا وإعذارًا، بخلاف غيرها من السور، فإنك تجدها غير مشتملة على ما اشتملت عليه هذه. انظر إلى السورة التي قبلها فإنها خاصة بالتهديد والتشديد على من ألهاهم التكاثر، وانظر إلى السورة التي بعدها فإنها مختصة بالوعيد العظيم، والترهيب الأليم للهمزة اللمزة، وهكذا سائر هذه السور المختصرة، مع قيام كل واحدة في بابها مقامًا يعجز عنه البشر، غير أنها لم تكن كهذه السورة في ذلك الحكم العام بذلك الأمر الشديد المشتمل على أبلغ تهديد، مع أكمل توكيد، ثم تعليق النجاة منه بذلك الأمر الذي هو لب اللباب، وغاية طلبات أولي الألباب. وبالجملة فهو حكم بالهلاك على كل فرد من أفراد

---

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٦/ ٥٧-٥٨/ ٥١٢٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٥٠١/ ٩٠٥٧)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٧): «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة».

النوع إلا إذا لاحظه التوفيق بسلوك تلك الطريق، وسلم من آفات التعويق. وسيأتيك إن شاء الله- من البيان لهذا الشأن ما هو أعظم برهان. فإن قلت: هل يحسن منا عند الالتقاء الاقتداء بذلك السلف الصالح؟ قلت: نعم، وإن لم يدل عليه دليل يخصه من المرفوع، لكن قد ورد في عمومات الكتاب والسنة ما يدل على أنه ينبغي لكل فرد من المسلمين أن يدعو أخاه إلى أسباب الهداية، ويزجره عن ذرائع الغواية، ويعظه بمواعظ اللّه سبحانه، فإن ذلك من النصيحة التي يقول رسول اللّه ﷺ فيها: «الدين النصيحة»[(١)]، وقد تواترت الأدلة المرشدة إلى المناصحة، وأيضًا: ذلك يندرج تحت عمادي هذا الدين اللذين تُبنى عليهما قناطره، وترجع إليهما أوائله وأواخره، وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا وجدنا لذلك موضعًا، ورأينا له قبولًا. ولا أقول إنه يتعين على الآمر الناهي تلاوة هذه السورة؛ بل أقول: إنها من أتم ما يحصل به هذا الغرض، ويتأدى عنده هذا المطلب، وأنت تعلم أن اللّه سبحانه إنما أنزل هذه السورة على عباده ليعملوا بها، ويقوموا بما اشتملت عليه من التواصي بالحق والصبر، وفي تلاوتها عند تلاقيهم أعظم موعظة، وأتم مُوقظة»[(٢)].

قال القاسمي: «قال الإمام -بعد ذكر الأثر- قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك، وهو خطأ؛ إنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها، خصوصًا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، حتى يجتلب منه قبل التفرق وصية خير لو كانت عنده»[(٣)].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٢)، مسلم (١/ ٧٤/ ٥٥) أبو داود (٥/ ٢٣٣-٢٣٤/ ٤٩٤٤)، النسائي (٧/ ١٧٦/ ٤٢٠٨).

(٢) الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني (٣/ ١٣١٨-١٣٢١).

(٣) محاسن التأويل (١٧/ ٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذا جواب القسم. والإنسان يعم كل فرد من أفراد هذا النوع، لتحليته باللام المفيدة لذلك، كما هو مقرر في علم المعاني والبيان، وبهذا يندفع ما قيل: إن المراد بالإنسان هنا الكافر، وما قيل إنهم جماعة من الكفار، وهم الوليد ابن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وإن كان هؤلاء وغيرهم من رؤساء الكفر؛ بل وسائر الكفار داخلون في عموم الإنسان دخولًا أوليًا، وكما يدل عموم الإنسان على الإحاطة واستغراق النوع، كذلك يدل على ذلك الاستغناء معه. والمراد بالخسر هنا المعنى اللغوي. قال الأخفش: في خسر: في هلكة.. وقال الفراء: في عقوبة. وقال ابن زيد: في شر. والخسران النقصان وذهاب رأس المال. قيل: والمعنى أن كل إنسان في المتاجر والمساعي، وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت.. أقول: والمناسب للمقام أن يكون الخسر الهلاك للإنسان المذكور لعدم استقامته على الدين، وليس المراد الهلاك الدنيوي بالقتل أو نحوه، بل المراد الهلاك الديني الموجب لمصيره إلى النار، كما يفيد ذلك استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وأيضا المقام مقام الترهيب للعصاة، والترغيب لأهل الإيمان والطاعات، ومجموع ذلك يفيد أن تفسير الخسر بذهاب الدين الموجب للشقاوة الأبدية، وهذا أولى من تفسير الخسر بالنقص، لأن مقام الترهيب والتشديد والمبالغة في الوعيد يقتضي الخسران التام، وهو ذهاب الدين بالمرة، المستلزم لهلاك صاحبه، لا نقصه وذهاب بعضه وبقاء بعض»[1].

قال الشيخ عطية محمد سالم: «ولم يبين هنا نوع الخسران في أي شيء، بل أطلق ليعم، وجاء بحرف الظرفية، ليشعر أن الإنسان مستغرق في الخسران، وهو

---

(١) الفتح الرباني (٣/ ١٣٣٥-١٣٣٧).

محيط به من كل جهة.

ولو نظرنا إلى أمرين وهما: المستثنى والسورة التي قبلها، لا يتضّح هذا العموم؛ لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور: عدم الإيمان، وهو الكفر، وعدم العمل الصالح، وهو العمل الفاسد، وعدم التواصي بالحق، وهو انعدام التواصي كلية، أو التواصي بالباطل، وعدم التواصي بالصبر، وهو إما انعدام التواصي كلية أو الهلع والجزع.

والسورة التي قبلها تلهي الإنسان بالتكاثر في المال والولد، بغية الغنى والتكثر فيه، وضده ضياع المال والولد، وهو الخسران.

فعليه يكون الخسران في الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر، وفي الإسلام وهو ترك العمل، وإن كان يشمله الإيمان في الاصطلاح، والتلهي في الباطل وترك الحق، وفي الهلع والفزع.

ومن ثم ترك الأمر والنهي بما فيه مصلحة العبد وفلاحه، وصلاح دينه ودنياه، وكل ذلك جاء في القرآن ما يدل عليه نجمله كالآتي:

أما الخسران بالكفر. فكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[1]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾[2]، أي: لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء، وقصروا أمرهم في الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم، وحظهم في الآخرة.

وأما الخسران بترك العمل، فكما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾[3]، لأن الموازين هي معايير الأعمال كما تقدم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾[4]، ومثله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[5]، لأنه سيكون من حزب الشيطان ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[6]، أي: بطاعتهم إياه في معصية الله.

وأما الخسران بترك التواصي بالحق فليس بعد الحق إلا الضلال، والحق هو الإسلام بكامله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى

---

(١) الزمر: الآية (٦٥).
(٢) الأنعام: الآية (٣١).
(٣) الأعراف: الآية (٩).
(٤) الزلزلة: الآية (٧).
(٥) النساء: الآية (١١٩).
(٦) المجادلة: الآية (١٩).

﴿ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

وأما الخسران بترك التواصي بالصبر والوقوع في الهلع والفزع، فكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] »[3].

وله أيضا كلام نفيس في تحقيق المناط في حقيقة خسران الإنسان يقول فيه: «اتفقوا على أن رأس مال الإنسان في حياته هو عمره. كلف بإعماله في فترة وجوده في الدنيا، فهي له كالسوق، فإن أعمله في خير ربح، وإن أعمله في شر خسر، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[4]، وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[5] الآية، وفي الحديث عند مسلم: «**الطهور شطر الإيمان**»، وفي آخره: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[6] مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره، ولأهمية هذا العمر جاء قسيم الرسالة والنذارة في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[7].

وعلى هذا قالوا: إن اللَّه تعالى أرسل رسوله بالهدى، وهدى كل إنسان النجدين، وجعل لكل إنسان منزلة في الجنة ومنزلة في النار.

فمن آمن وعمل صالحًا كان مآله إلى منزلة الجنة، وسلم من منزلة النار، ومن كفر كان مآله إلى منزلة النار، وترك منزلته في الجنة، كما جاء في حديث القبر «**أول ما يدخل في قبره إن كان مؤمنًا يفتح له باب إلى النار، ويقال له: ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقفل عنه، ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له: هذا منزلك يوم تقوم الساعة، فيقول: رب، أقم الساعة**»[8].

---

(١) آل عمران: الآية (٨٥).
(٢) الحج: الآية (١١).
(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٤٩٥-٤٩٧).
(٤) التوبة: الآية (١١١).
(٥) الصف: الآيتان (١٠-١١).
(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢)، مسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣)، الترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧) النسائي في الكبرى (٥/ ٨/ ٢٤٣٦)، ابن ماجه (١/ ١٠٢-١٠٣/ ٢٨٠) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.
(٧) فاطر: الآية (٣٧).
(٨) أخرجه بطوله: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، وصححه الحاكم (١/ ٣٧-٣٨) ووافقه الذهبي. وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ١٧٨) من حديث البراء بن عازب.

وإن كان كافرًا كان على العكس تمامًا، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيأخذ كل منزلته فيها، وتبقى منازل أهل النار في الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة، وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية، فتوزع على أهل النار، وهنا يظهر الخسران المبين؛ لأنه من ترك منزلة في الجنة وذهب إلى منزلة في النار، فهو بلا شك خاسر، وإذا ترك منزلته في الجنة لغيره وأخذ هو بدلًا منها منزلة غيره في النار، كان هو الخسران المبين، عياذًا بالله.

أما في غير الكافر وفي عموم المسلمين، فإن الخسران في التفريط بحيث لو دخل الجنة ولم ينل أعلى الدرجات يُحسّ بالخسران في الوقت الذي فرط فيه، ولم ينافس في فعل الخير، لينال أعلى الدرجات.

فهذه السورة فعلًا دافع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد، فإن أمامه مجالا للكسب والربح، نسأل الله التوفيق والفلاح.

وقد قالوا: لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزينًا، فإن كان مسيئًا فعلى إساءته، وإن كان محسنًا فلتقصيره، وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١]، فالخوف من المستقبل أمامهم، والحزن على الماضي خلفهم، والله تعالى أعلم.

ويبين خطر هذه المسألة: أن الإنسان إذا كان في آخر عمره، وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة، وأراد زيادة يوم فيها، يتزوّد منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضًا مما فاته، لم يستطع لذلك سبيلًا، فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة، كان من الممكن أن تكون مربحة له، وفي الحديث الصحيح: «**نعمتان مغبون فيهما الإنسان: الصحة والفراغ**»[٢]، أي: أنهما يمضيان لا يستغلهما في أوجه الكسب المكتملة، فيفوتان عليه بدون عوض يذكر ثم يندم، ولات حين مندم»[٣].

---

(١) فصلت: الآية (٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٤و٢٥٨)، والبخاري (١١/ ٢٧٥/ ٦٤١٢)، والترمذي (٤/ ٤٧٧/ ٢٣٠٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٦/ ٤١٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٤٩٧-٥٠٠).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «وقد دل العطف بقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾على أنه لابد من الجمع بين الإيمان وبين العمل، وأنه لا يكفي مجرد الإيمان. والمراد بالصالحات الأعمال الصالحة، وأهمها وأقدمها ما يجب على الإنسان القيام به، ومن ذلك أركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج. ثم ترك ما حرمه اللَّه عليه، فإن الكف عن ذلك عمل صالح يمدح التارك له على تركه، ويذم الفاعل له على فعله. ثم يفعل من أعمال الخير ما بلغت إليه قدرته على حسب الحال، ومن زاد زاد اللَّه في حسناته. والحاصل أن الإيمان بالواجبات واجتناب المحرمات متحتم على كل مكلف، فهو لا يخرج من الخسران المذكور في الآية إلا بمجموع الإيمان، والقيام بذلك على التمام. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ قال لمن سأله عن الإسلام: «**أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»[2]. وثبت في الكتاب والسنة الأمر لكل واحد من هذه الأركان على الخصوص، وثبت في الكتاب والسنة الأمر بواجبات والنهي عن محرمات، فلا ينجو من الخسر المذكور في الآية إلا من قام بذلك على الحد الذي أمره اللَّه به، ونهاه عنه. فهذه هي الصالحات التي أمر اللَّه سبحانه بعملها، جعلها مجموع الإيمان، والعمل بهذه الأمور هو الذي يخرج به الإنسان عن الخسر الذي هو ختم في رقاب العباد بالقسم الرباني والحكم الإلهي»[3].

---

(١) العصر: الآية (٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، أبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، الترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

(٣) الفتح الرباني (٣/ ١٣٤٢-١٣٤٤).

وقال: «واعلم أن هذا النظم القرآني قد دل أكمل دلالة على أن الإيمان الذي هو التصديق لابد أن ينضم إليه العمل كما هو المذهب الحق، وفيه أوضح رد، وأكمل دفع لقول من يقول: إنه لا يلزم ضم العمل إلى الإيمان، كما يذهب إليه بعض المرجئة.

واعلم أنها تتفاوت أقدام المؤمنين في التصديق، فقد يكون إيمان الرجل ثابتا كالجبال الرواسي بحيث لا يتزلزل لشبهة، ولا يتقهقر لشك ولا تشكيك، وقد يكون دون ذلك. ولهذا قال الجمهور: إن الإيمان يزيد وينقص، وهو الحق، وذلك مما يعلمه كل عاقل، ولاسيما الإيمان بالقدر؛ فإن بعض أفراد العباد قد يمنحه اللَّه سبحانه من الإيمان بقدره ما يثلج به قلبه، وتقر به عينه، ويطمئن إليه خاطره، فيخرج عن مضيق الهموم والغموم والحسرات والكربات، إلى متسع التسليم والرضا بما يجري به القضاء. اللهم ارزقنا الإيمان بقدرك على الوجه الذي تريده منا مع حلول ألطافك الخفية علينا، ووصول توفيقاتك المباركة إلينا، يا من بيده الخير كله، دقه وجله. وكما تختلف أحوال الإيمان باختلاف الأحوال والأشخاص؛ كذلك يختلف عمل الصالحات باختلاف الأحوال والأشخاص، فالعمل مع الخلوص والتنزه عن شوائب الرياء، والبعد من آفات الغفلة يتضاعف ويكثر ثوابه، ويعظم أجره، بخلاف ما لم يكن على هذه الصفة. والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منادية بذلك بأعلى صوت، ففي بعضها التصريح بأن فاعل ذلك العمل يوفى أجره بغير حساب، وفي بعضها إلى سبعمائة ضعف، وفي بعضها إلى أكثر من ذلك، وفي بعضها أن الحسنة بعشرة أمثالها، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[1].

* * *

---

(١) الفتح الرباني (٣/ ١٣٤٥و١٣٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «يقال: أوصاه ووصاه بوصية عهد إليه. ومعنى التواصي: أنه أوصى به أولهم آخرهم، وهذا ذاك، وذاك هذا. هذا هو المعنى اللغوي. والصيغة تدل على الاشتراك في أصل الفعل كما هو مقرر في علوم اللغة العربية، والحق في الشرع واللغة: ضد الباطل، وأصله الثبوت من حق الشيء إذا ثبت، والمحق ضد المبطل، والمراد هنا: أنه وصى بعضهم بعضا بما يحق القيام به، فيدخل التواصي بالإيمان وبالقيام بأركان الإسلام دخولا أوليا.

ومن أهم أنواع التواصي بالحق أن يتواصوا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أهمها أيضا أن يتواصوا ببيان ما يعرف بعضهم من بعض أنه مرتكب له واقع فيه من المعاصي والمكروهات، وما يخالف ما يرضاه اللّه سبحانه ويحبه من الأخلاق الصالحة والشمائل المرضية فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين أنفسهم.

ومن أعظم ما ينبغي التواصي به حفظ اللسان من الغيبة والنميمة والسخرية والتنابز بالألقاب، فإن هذه أمور نهى عنها الكتاب العزيز ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾[2] إلى آخر الآية، ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾[3] ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾[4] إلخ. ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝﴾[5]. ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾[6] الآية. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾[7].

وفي السنة المطهرة من النهي عن هذه الأمور، والنعي على فاعلها، والذم له ما

---

(١) العصر: الآية (٣).
(٢) الحجرات: الآية (١٢).
(٣) القلم: الآية (١١).
(٤) الحجرات: الآية (١١).
(٥) الهمزة (١).
(٦) الحجرات: الآية (١١).
(٧) الحجرات: الآية (١١).

يزجر من له شيء إيمان، بعضه فضلا عن كله. وإنما يكب الناس على مناخرهم في جهنم حصائد ألسنتهم كما ثبت ذلك عنه ﷺ[1]. ومثل ذلك الكذب بل هو أقبح من كل ذنب، وأشنع من كل معصية. وقد ذم اللَّه مرتكبه بما هو معروف، ونفى عن فاعله الإيمان، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[2] الآية. وورد في السنة المطهرة من ذم الكذب، والتنفير عنه ما هو معروف ذلك لك. وورد في ذمه من كلام الحكماء، ومواعظ الفصحاء ما يتعظ به كل ذي عقل، ويزجر به كل من له فهم لما ينشأ عن هذه الخصلة السيئة القبيحة من مفاسد الدين والدنيا.

والحاصل أن قبحه مما اتفقت عليه الشرائع، وتطابقت على ذمه كتب اللَّه المنزلة على أنبيائه، واتحدت كلمة رسل اللَّه -سبحانه- على قبحه وقبح فاعله.

واعلم أن لكل مقام مقالا، فينبغي للإنسان عند ملاقاة من له اشتغال بعمل من الأعمال أن يأخذ في توصيته بما ينتفع به فيما هو بصدده لمن كان مشتغلا مثلا بالعلم، فينبغي أن يوصيه بحسن النية أولا، ثم بالاشتغال بما يعود نفعه عليه من الكتاب والسنة، وما يتوصل به إليهما، ويعين على فهمهما، وكيفية العمل بهما ثانيا، ثم الإنصاف وعدم التعصب لمذهب من المذاهب ثالثا، ثم الإرشاد إلى الرد إلى كتاب اللَّه سبحانه- وسنة رسوله ﷺ عند الاختلاف رابعا. ثم هكذا يأخذ مع أهل كل صناعة بتوصيتهم بما ينتفعون به في صناعتهم، ويحفظون به دينهم في مباشراتهم. فلا نطيل الكلام في تعداد أهل الحرف، وأنواع أهل الأعمال، فإنه لا يخفى على الذكي الممارس للباس العارف بقواعد الشرع ما يتعلق به النفع أو الضر لكل طائفة من هذه الطوائف، فيأخذ مع كل طائفة فيما يهمها ويخشى منه ضررها، ويرجو فيه نفعها.

وبالجملة فهذه الآية كما تدل على ما ذكرنا فقد دل على ذلك الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودل على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[3]، وما ورد في هذا المعنى من الآيات والأحاديث، وهو الكثير الطيب. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٥/ ١٣/ ٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤ ١٥-١٤١٥/ ٣٩٧٣)، وصححه ابن حبان (١/ ٤٤٧/ ٢١٤) مختصرا.

(٢) النحل: الآية (١٠٥).

(٣) المائدة: الآية (٢).

قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١] فمن فهم هذا الحديث حق الفهم، وتدبره كلية التدبر؛ عرف ما يجب على أهل الأخوة الدينية لبعضهم بعضا؛ فمعلوم لكل عاقل أن الإنسان يحب لنفسه أن يكون في أعلى منازل الدين، وأرفع منازل الدنيا، التي لم تُشَبْ بما يكدرها من الإثم وسوء التبعة، وخطر العاقبة، فإن وجد نفسه أنه يحب لكل فرد من أفراد من جَمَعَتْهُ وإياه الأخوةُ الدينية أن يكون هكذا، فليفرج روعه، ولتقر عينه، ويطمئن قلبه، وينثلج صدره، وإن لم يجد من نفسه محبة ذلك لأخيه فليعلم أنه مفرط في الأخوة الدينية، مفرط في إيمانه الذي لا يتم إلا بذلك؛ بل لا يثبت من الأصل إلا به، كما تدل عليه تلك العبارة التي تكلم بها الصادق المصدوق ﷺ»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٦)، البخاري (١/ ٧٨/ ١٣)، ومسلم (١/ ٦٧/ ٤٥)، والترمذي (٤/ ٥٧٥/ ٢٥١٥)، والنسائي (٨/ ٤٨٩/ ٥٠٣١)، ابن ماجه (١/ ٢٦/ ٦٦) في المقدمة.

(٢) الفتح الرباني (٣/ ١٣٥٣-١٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «الصبر ضد الجزع، والمراد به هنا الصبر على المكاره التي تعرض للعبد في بدنه، أو أهله، أو ماله، فإن من صبر على ذلك لكونه من قدر اللَّه، وما قضى به عليه كان ذلك صبرا محمودا، ومنه الصبر عن معاصي اللَّه ﷻ-، والصبر على ما يقوم به من فرائضه من المداومة عليها وإيقاعها على الوجه المأمور به، ولاسيما ما كان يحتاج العالم به إلى مشقة كالجهاد، والحج، وبعض أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: ما وجه تخصيص التواصي بالصبر بالذكر مع دخوله تحت التواصي بالحق بعد دخوله تحت عمل الصالحات؟ قلت: وجه ذلك أنه لما كان الصبر بمنزلة عظيمة، ورتبة فخيمة كما يفيد ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] كان إفراده بالذكر بعد دخوله تحت ما قبله دليلا على ارتفاع درجته، ومزيد شرفه، كما هو النكتة لذكر الخاص بعد اندراجه تحت عموم متقدم عليه، أو متأخر عنه»[3].

ونختم هذه السورة بكلام نفيس **لابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾، ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾[4] وسع الاستثناء وعممه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾؛ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح

(١) الأنفال: الآية (٤٦).
(٢) الزمر: الآية (١٠).
(٣) الفتح الرباني (٣/ ١٣٥٩).
(٤) التين: الآية (٥).

فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضا على الأعيان، وقد تكون فرضا على الكفاية، وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب، فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم، ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فمطلق الخسار شيء، والخسار المطلق شيء، وهو سبحانه إنما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر وأنه ذو خسر، كما قال عبد اللّٰه بن عمر ﷺ: (لقد فرطنا في قراريط كثيرة)[1] فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط، ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل، وله حالتان: حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر، فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق وصبر عليه، فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني من العلم النافع والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾[2] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

والصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب. ونوع على المشروع. وهذا

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٤٨/ ١٣٢٤).

(٢) السجدة: الآية (٢٤).

النوع أيضا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذلك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «**مرها فلتصبر ولتحتسب**»[١]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾[٣] وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾[٤].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾[٥]، فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان»[٦].

وقال أيضا: « فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافيا من كل داء، هاديا إلى كل خير»[٧].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٤) والبخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٤)، ومسلم (٢/ ٩٣٥و٩٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٣٢١و٣٢٢/ ١٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨) عن أسامة بن زيد ﷺ.

(٢) هود: الآية (١١).

(٣) آل عمران: الآية (١٢٥).

(٤) آل عمران: الآية (١٢٠).

(٥) الروم: الآية (٦٠).

(٦) التبيان في أقسام القرآن (٥٦-٥٨).

(٧) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٩).



سورة الهمزة

أغراض السورة

قال المكي الناصري: «هذه السورة يدور الحديث فيها على تنفير المومنين من الغيبة والنميمة، ومن الطعن في الناس والازدراء بهم قولا أو فعلا، وفيها وعيد شديد من اللّٰه بالعذاب الأليم، لمن يتخذ من أعراض الناس وأحوالهم مجالا للتنقيص والازدراء»[1].

قال ابن عاشور: «غرض هذه السورة وعيد جماعة من المشركين جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضربا من ضروب أذاهم طمعا في أن يلجئهم الملل من أصناف الأذى، إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك»[2].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير للمكي الناصري (٦/ ٤٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣٥و٥٣٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

همزة: الهمزة: الكثير الهمز، وهو الاغتياب بالغيب والطعن في الأعراض.

لمزة: اللمزة: الكثير اللمز. وهو من يعيب جليسه وينال منه بالحاجب والعين. قال زياد الأعجم:

تُدْلِي بِوُدِّي إذا لاقيتني كَذِبًا وإنْ أُغَيَّبْ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس وينتقص بهم. . قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهُمَزة، يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعنُ عليهم. وقال مجاهد: الهمزة: باليد والعين، واللمزةُ: باللسان. وهكذا قال ابن زيد. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هُمَزة لحوم الناس. ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شريق. وقيل غيره. وقال مجاهد: هي عامة»[1].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن اللَّه عمّ بالقول كلّ همزة لمزة، كلّ من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها، سبيله سبيله كائنا من كان من الناس»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترهيب من النميمة ووعيد النمام

* عن همام قال: كنا مع حذيفة فقيل له: إن رجلًا يرفع الحديث إلى عثمان،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٧).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٩٣).

فقال حذيفة : سمعت النبي ﷺ يقول : «**لا يدخل الجنة قتات**»[١] .

★ **غريب الحديث:**

قتات : القتات : النمام، وقد فرق أهل اللغة بين النمام والقتات والقساس، فالنمام الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم، والقتات الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون، والقساس الذي يقس الأخبار، أي : يسأل الناس عنها، ثم ينثو بها، (أي : يظهر القبيح والحسن) على أصحابها .

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال : «وقوله ﷺ : «**لا يدخل الجنة قتات**» معناه إن أنفذ اللَّه عليه الوعيد؛ لأن أهل السنة مجمعون أن اللَّه تعالى في وعيده لعصاة المؤمنين بالخيار، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم»[٢] .

وقال العيني : «أو يؤول على أنه لا يدخلها دخول الفائزين، أو يحمل على المستحل بغير تأويل مع العلم بالتحريم»[٣] .

قال القرطبي : «وفيه دليل على أن النميمة من الكبائر، وإنما كانت كذلك لما يترتب عليها من المفاسد والشرور»[٤] .

وقد تقدم الكلام على هذا النفي -نفي دخول الجنة- في سورة (البقرة) الآية (٣٤) عند قوله ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» .

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝﴾ الآية (١١) من سورة (القلم)، فلا معنى لإعادته .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٥/ ٣٨٩)، والبخاري (١٠/ ٥٧٩/ ٦٠٥٦)، ومسلم (١/ ١٠١/ ١٠٥)، وأبو داود (٥/ ١٩٠/ ٤٨٧١)، والترمذي (٤/ ٣٢٩/ ٢٠٢٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٦/ ١١٦١٤).

(٢) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٣) عمدة القاري (١٥/ ٢٠٩).

(٤) المفهم (١/ ٣٥٥).

قول تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ومن صفة هذا الهماز اللماز، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك»[١].

قال القاسمي: «قال الإمام: أي: أن الذي يحمله على الحط من أقدار الناس، هو جمعه المال وتعديده. أي: عده مرة بعد مرة، شغفا به وتلذذا بإحصائه. لأنه لا يرى عزا ولا شرفا ولا مجدا في سواه، فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة، بحيث يكون كل ذي فضل ومزية دونه، فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه، ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض؛ لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه المآل، فهو ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ أي: يظن أن ماله الذي جمعه وأحصاه، وبخل بإنفاقه، مخلده في الدنيا، فمزيل عنه الموت»[٢].

فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حيا أبد الدهر، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٧١).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ٢٥٠-٢٥١).

(٣) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾

★ غريب الآية:

الحطمة: نار جهنم، سميت بذلك لأنها تحطم، أي: تكسر ما يلقى فيها. قال الراجز:

إنا حَطَمْنَا بالقضيب مُصْعَبَا يوم كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيَغْضَبَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَلَّاۖ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما ذلك كما ظنّ، ليس ماله مخلِّده، ثم أخبر -جل ثناؤه- أنه هالك ومعذب على أفعاله ومعاصيه، التي كان يأتيها في الدنيا، فقال -جل ثناؤه-: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ يقول: ليُقذفنّ يوم القيامة في الحطمة، والحطمة اسم من أسماء النار، كما قيل لها: جهنم وسقر ولظى، وأحسبها سميت بذلك لحطمها كلّ ما ألقي فيها، كما يقال للرجل الأكول: الحطمة. ذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأ ذلك: لينبذانٍّ في الحطمة، يعني: هذا الهمزة اللمزة وماله، فثنَّاه لذلك. وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ يقول: وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة؟ ثم أخبره عنها ما هي فقال -جل ثناؤه-: هي ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾»[1].

قال المراغي: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ أي: إنها النار التي لا تنسب إلا إليه سبحانه، إذ هو الذي أنشأها وأعدها لعقاب العصاة والمذنبين، وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تخمد أبدا؛ بل هي ملتهبة التهابا لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٩٤)

(٢) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: التي يطلع ألمها ووهجها القلوب؛ والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى، حُكي عن العرب سماعا: متى طلعت أرضنا، وطلعت أرضي: بلغت»[١].

قال الزمخشري: «يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشدّ تألـمًا منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا أطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه. ويجوز أن يخصّ الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة»[٢].

* * *

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٢٩٤).

(٢) الكشاف (٤/ ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

★ غريب الآية:

مُؤْصَدَة: مطبقة مغلقة. من: أوصدت البابَ: إذا أغلقته. قال الشاعر:

إِنَّ فـي الـقـصْـرِ لـو دخَـلْـنـا غَـزَالًا   مُـصْـفَـقًـا مُـوصَـدًا عـلـيـه الـحِـجَـابُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: مطبقة، قاله الحسن والضحاك.. وقيل: مغلقة بلغة قريش، يقولون: آصدت الباب: إذا أغلقته. قاله مجاهد»[1].

قال الشيخ عطية سالم: «قيل: مؤصدة في عمد. بأن العمد صارت رصدًا للباب كالقفل والغلق له. وقيل: في عمد: أنهم يدخلون في عمد كالقصبة، مجوفة الداخل.

وقيل: في عمد: أي توضع أرجلهم في العمد على صورة القيد في الخشبة الممتدة، يشد فيها عدد من الأشخاص في أرجلهم.

وكنت سمعت من الشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه- في ذلك: أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم، كما في قوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾[2]. فيكون أرجح في هذا المعنى»[3].

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: معناه: أنهم يعذّبون بعمد في النار، واللَّه أعلم كيف تعذيبه إياهم بها، ولم يأتنا خبر تقوم به الحجة بصفة تعذيبهم بها، ولا وضع لنا عليها دليل، فندرك به صفة ذلك، فلا قول فيه، غير الذي قلنا يصحّ عندنا، واللَّه أعلم»[4].

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٨٥).

(٢) الفرقان: الآية (١٣).

(٣) تتمة الأضواء (٩/ ٥١٧-٥١٨).

(٤) جامع البيان (٣٠/ ٢٩٦).



سورة الفيل

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «قد تضمنت التذكير بأن الكعبة حرم اللَّه، وأن اللَّه حماه ممن أرادوا به سوءا، أو أظهر غضبه عليهم فعذبهم؛ لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه اللَّه كيدا، وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش، بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، وأن لا حظَّ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.

وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند اللَّه، إذ أهلك أصحاب الفيل عام ولادته.

ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن اللَّه يدفع عنه كيد المشركين، فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه، ويشعر بهذا قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

ومن وراء ذلك كله التذكير بأن اللَّه غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم، ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه، فقد أهلك اللَّه من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا.

ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين:

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من اللَّه.

وثانيهما: أن لا يتخذ منه المشركون غرورا بمكانة لهم عند اللَّه، كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[١] الآية، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] »[٣].

* * *

(١) التوبة: الآية (١٩).

(٢) الأنفال: الآية (٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٣-٥٤٤).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ الْفِيلِ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه من النعم التي امتن اللَّه بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم اللَّه، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشرّ خيبة. وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول اللَّه ﷺ؛ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم -يا معشر قريش- على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد -صلوات اللَّه وسلامه عليه- خاتم الأنبياء»(١).

قال القرطبي: «قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تخبر. وقيل ألم تعلم. وقال ابن عباس: ألم تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام، أي: ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل، أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟»(٢).

قال أبو السعود: «الخطاب لرسول اللَّه ﷺ، والهمزة لتقرير رؤيته -عليه الصلاة والسلام- بإنكار عدمها، وكيف معلقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها، والرؤية علمية، أي: ألم تعلم علما رصينا متاخما للمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة، ومعاينة الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية فعله ﷻ لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك الخ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٠٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٨٧).

عجيبة دالة على عظم قدرة اللّه تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله ﷺ، فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي ﷺ»[1].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم»[2].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٠).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٩٦).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوه بكيدهم. والهمزة للتقرير»(١).

وقال الألوسي: «كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها، وصرف شرف أهلها لهم في تضييع وإبطال بأن دمرهم أشنع تدمير. وأصل التضليل: من ضل عنه إذا ضاع، فاستعير هنا للإبطال»(٢).

وقال الشوكاني: «والكيد: هو إرادة المضرة بالغير، لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبي، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم»(٣).

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/ ٧١٨).
(٢) روح المعاني (٣٠/ ٢٣٦).
(٣) فتح القدير (٥/ ٧١٨).

قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

أبابيل: فرق وجماعات. تقول: جاءت إبلك أبابيل، أي: فِرَقًا. قال الشاعر:

كادَتْ تُهَدُّ من الأصواتِ رَاحِلَتِي   إذْ سالَتِ الأرضُ بالجرد الأبابيل

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «أي طوائف وجماعات جمع أبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها»[1].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأرسل عليهم ربك طيرا متفرقة، يتبع بعضها بعضا من نواح شتى؛ وهي جماع لا واحد لها، مثل الشماطيط والعباديد ونحو ذلك. وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى، أنه لم ير أحدا يجعل لها واحدا. وقال الفرّاء: لم أسمع من العرب في توحيدها شيئا. قال: وزعم أبو جعفر الرُّؤاسِيّ، وكان ثقة، أنه سمع أن واحدها: إبالة. وكان الكسائي يقول: سمعت النحويين يقولون: أبول، مثل العجول. قال: وقد سمعت بعض النحويين يقول. واحدها: أبيل»[2].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠١).

(٢) جامع البيان (٣٠/ ٢٩٦).

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

سجيل: طين متحجر كالحمصة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشيخ عطية سالم: «اختلف في معنى السجيل هنا. فقال قوم: هو السجين، أبدلت النون لامًا، والسجين النار. وقيل: إن السجيل من السجل، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجينًا لديوان أعمالهم، واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال، ومنه السجل الدلو المملوء ماء، وهي حجارة مرسلة لقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾.

وقوله: إن سجينًا، علم لديوان أعمالهم، يعني قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾[1].

وقيل: معنى سجيل ستك وطين، يعني بعض حجر وبعض طين. وقيل: معناه الشديد. وقيل: السجيل اسم لسماء الدنيا. وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، ترجيح أنها من طين شديد القوة، وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾[2]، فنص على أنها من طين. والحجارة من الطين: هي الآجر وهو الطين المطبوخ حتى يتحجر. وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضود في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾[3]»[4].

تنبيه: يرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات أن تفسير الحادث

---

(١) المطففين: الآية (٧).
(٢) الذاريات: الآيات (٣٢-٣٤).
(٣) هود: الآية (٨٢).
(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٢١-٥٢٢).

بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل المكروبات والطير كل ما يطير كما يقول الأستاذ محمد عبده، وتلميذه الشيخ رشيد رضا وغيرهما، وقريب من هذا التأويل ما نقله الشيخ عطية محمد سالم عن الرازي قولَه: «واعلم أن من الناس من أنكر ذلك، وقالوا: لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليًا عن الثقل، وأن يكون في وزن التبنة، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات؛ فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار، ولا نراها، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير، حتى يكون هو بالمشرق، ويرى قطعة من الأرض بالأندلس، وكل ذلك محال.

ثم قال: واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا، إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفى سنة ستمائة وست، فنرى استبعادهم إياها مبنيا على تحكيم العقل، وهذا باطل؛ لأن خوارق العادات دائمًا فوق قانون العقل؛ بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده.

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده؛ لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم، لو حدثت به العقول سابقًا من نقل الحديث والصورة على الأثير، وتوجيه الطائرات وأمثالها، لما قوي على تصورها؛ لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته.

وحتى نحن لو لم يسايرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائي، وما له من دور فعال في ذلك؛ لما أمكننا تصوره، ثم من يمنع شيئًا من ذلك على قدرته تعالى، وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعهن المنفوش، أخف من التبنة التي مثلوا بها؛ بل ستكون أقل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾[1]، فظهر بطلان هذا القول الذي استبعدها لعدم إدراك العقل لها.

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ، إلا أنه أثبت الأصل، وفسره بما يتناسب والعقل، وهو محكي عن الإمام محمد

(١) النبأ: الآية (٢٠).

عبده وتلميذه السيد رشيد رضا، إذ فسر الحجارة من سجيل بأنه وباء الجدريّ، وبالتالي: فالطير الأبابيل: هي البعوض وما أشبهه، وقد اعتذر له السيد قطب: بأن الدافع لذلك هو ما كان شائعًا في عصره من موجات متضاربة، موجة انحراف في التفكير نحو الإسلام، واستغلال الإسرائيليات، كمثال على ما يشبه الأباطيل في تشويه حقائق الإسلام عند غير المسلمين.

ومن ناحية أخرى طوفان علمي حديث من إنتاج العقل البشري، فبدلًا من أن تثبت حادثة كهذه صرفت إلى ما يألفه العقل من إيقاع ميكروب الجدري بجيش أبرهة حتى أهلكه؛ لكي لا يتصادم في إثبات الحادثة على ما نص عليه القرآن بواقع العقلية العلمانية الحديثة.

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول.

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية، فقد تقدم أن الحجارة التي من سجيل، جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم؛ بل ألقيت على قوم لوط، بعد أن جعل عاليها سافلها، فما موقع الجدريّ منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور؟ ثم جاء أيضًا: أنها من طين، فأين الطينة من الجراثيم الجدرية؟

ومن الناحية العلمية: من أين جيء بمكروب الجدريّ؟ وأين كان قبل أن تأتي به الطير الأبابيل؟ ومتى كان ميكروب الجدريّ أو غيره يميز بين قرشي وحبشي؟ ومتى كان أي ميكروب يفتك بقوم بسرعة، يجعلهم كعصف مأكول، مع أن: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ تشعر بالسرعة في إهلاكهم، والعصف اليابس الذي تعصف به الريح لخفته.

ومتى كان وجود الجدريّ طفرة وفجاءة، إنه يظهر في حالات فردية ثم ينتشر، هذا من الناحية العلمية، وإدراك العقل لما عرف من ميكروب الجدري.

ولكن ملابسات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلًا؛ لعدم انتشاره في جميع أفراد المنطقة، ولعدم تأثيره فعلًا بهذه الصورة، ولعدم أيضًا تصور مجيئه فجاءة، فدل العقل نفسه على عدم صحة هذا القول.

ثم من ناحية أخرى إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها، فكيف نثبت مثل: حنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ونحو ذلك، وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه؟

وقد شاهد العقل الصورة القصوى، وهي خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح، بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد ما لا ندرك كنهه في وسائل الإعلام، ونسمع الصوت من الجماد مسجلًا على شريط بسيط جدًا. فهل ينفي الباقي؟ بل كيف أثبت النصارى لعيسى ابن مريم عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص. وإحياء الموتى، وعمل الطير من الطين، ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن اللَّه، وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر؟، وأين العقل من ذلك كله؟.

الواقع أننا في زمان ومع كل قضية، يجب أن نلتزم جانب الاعتدال، لا هو جري وراء كل خبر، ولو كان إسرائيليًا، ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحًا قرآنيًا؛ بل كما قال السيد قطب في ذلك: يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن، وأن ما يقرره نعتقده ونقول به.

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التي استبعدت ذلك كلية، والحديثة التي أولتها، ونضيف شيئًا آخر في جانب الفكرة الثانية، وهي لعل مما حدا بأصحابها إلى ذلك ما جاء عن قتادة قوله: إنه لم ير الجدريّ بأرض العرب مثل تلك السنة، وقيل أيضًا: لم ير شجر الحنظل، إلا في ذلك التاريخ، فيقال أيضًا: إن العقل لا يستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش الكبير بتلك الحجارة في مكان معسكره في بطن الوادي، ووقوع الجثث مصابة بها، لا يمنع أن تتعفن ثم يتولد منها مكروب الجدريّ، ولا مانع من ذلك. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

* * *

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٢٢-٥٢٨).

قوله تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

عصف: العصف: ورق الزرع بعد الحصاد كالتبن، إذا أكلته الدواب فراثته. سمي عصفًا لأن الريح تعصف به ذات اليمين وذات الشمال. قال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أصحابَ الفيلْ ترميهم حجارة من سجيلْ
ولعبت طيْرٌ بهم أبابيلْ فَصُيِّرُوا مثل كعصفٍ مأكولْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: فجعل اللَّه أصحاب الفيل كزرع أكلته الدواب فراثته، فيبس وتفرّقت أجزاؤه؛ شبَّه تقطُّع أوصالهم بالعقوبة التي نزلت بهم، وتفرّق آراب أبدانهم بها، بتفرّق أجزاء الروث الذي حدث عن أكل الزرع»[(١)].

قال الشهاب: «ولم يذكر الروث لهجنته، فجاء على الآداب القرآنية»[(٢)].

قال ابن جرير: «وقد كان بعضهم يقول: العصف: هو القشر الخارج الذي يكون على حبّ الحنطة من خارج، كهيئة الغلاف لها. (ثم روى بأسانيده) عن مجاهد، قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال: ورق الحنطة.. عن قتادة: هو التبن.. وعن الضحاك: كزرع مأكول.

وعن ابن زيد، في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ قال: ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار رَوْثا. وعن ابن عباس ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال: البرّ يؤكل ويُلقي عصفه الريح، والعصف: الذي يكون فوق البرّ: هو لحاء البرّ. وعن حبيب بن أبي ثابت: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال: كطعام مطعوم»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٠٤).
(٢) حاشية الشهاب (٨/ ٣٩٩).
(٣) جامع البيان (٣٠/ ٣٠٤).

قال ابن عاشور: «والعصف إذا دخلته البهائم فأكلته داسته بأرجلها وأكلت أطرافه وطرحته على الأرض بعد أن كان أخضر يانعًا. وهذا تمثيل لحال أصحاب الفيل بعد تلك النضرة والقوة كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين»[١].

قال ابن كثير: «والمعنى: أن اللَّه ﷻ أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرًا، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حماية اللَّه تعالى حرمه ممن أراده بسوء

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين. وإنها لن تحل لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**إن اللَّه حبس عن مكة الفيل**» يعني به فيل أبرهة الأشرم الحبشي الذي قصد خراب الكعبة، فلما وصل إلى ذي المجاز -سوق للعرب قريب من مكة- عبّأ فيله، وجهزه إلى مكة، فلما استقبل الفيل مكة رزم، أي: أقام وثبت، فاحتالوا عليه بكل حيلة، فلم يقدروا عليه، واستقبلوا به جهة مكة فامتنع، فلم يزالوا به هكذا حتى رماهم اللَّه بالحجارة التي أرسل الطير بها على ما هو مذكور في السِّير، وفي كتب التفسير»[٤].

قال الحافظ: «أشار بحبسه عن مكة إلى قصة الحبشة، وهي مشهورة ساقها ابن إسحاق مبسوطة، وحاصل ما ساقه أن أبرهة الحبشي لما غلب على اليمن وكان نصرانيًا بنى كنيسة وألزم الناس بالحج إليها، فعمد بعض العرب فاستغفل الحجبة وتغوط فهرب، فغضب أبرهة وعزم على تخريب الكعبة، فتجهز في جيش كثيف

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٥١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٠٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (١/ ٢٧٣-٢٧٤/ ١١٢)، ومسلم (٢/ ٩٨٨/ ١٣٥٥)، وأبو داود (٢/ ٥١٨-٥٢١/ ٢٠١٧)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٤و٤٣٥/ ٥٨٥٥)، وأخرجه دون محل الشاهد النسائي (٨/ ٤٠٧/ ٤٧٩٩و٤٨٠٠)، والترمذي (٤/ ١٤/ ١٤٠٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٦/ ٢٦٢٤).

(٤) المفهم (٣/ ٤٧٥).

واستصحب معه فيلًا عظيمًا، فلما قرب من مكة خرج إليه عبد المطلب فأعظمه وكان جميل الهيئة، فطلب منه أن يرد عليه إبلًا له نهبت فاستقصر همته وقال: لقد ظننت أنك لا تسألني إلا في الأمر الذي جئت فيه، فقال: إن لهذا البيت ربًّا سيحميه، فأعاد إليه إبله، وتقدم أبرهة بجيوشه فقدموا الفيل فبرك وعجزوا فيه، وأرسل اللَّه عليهم طيرًا مع كل واحد ثلاثة أحجار؛ حجرين في رجليه وحجر في منقاره، فألقوها عليهم، فلم يبق منهم أحد إلا أصيب. وأخرج ابن مردويه بسند حسن عن عكرمة عن ابن عباس قال: «جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح، وهو بكسر المهملة ثم فاء ثم مهملة، موضع خارج مكة من جهة طريق اليمن، فأتاهم عبد المطلب فقال: إن هذا بيت اللَّه لم يسلط عليه أحدًا، قالوا: لا نرجع حتى نهدمه، فكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر، فدعا اللَّه الطير الأبابيل فأعطاها حجارة سوداء، فلما حاذتهم رمتهم، فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكة، فكان لا يحك أحد منهم جلده إلا تساقط لحمه» قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة قال: «حدثت أن أول ما وقعت الحصباء والجدري بأرض العرب من يومئذ»، وعند الطبري بسند صحيح عن عكرمة أنها كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع. ولابن أبي حاتم من طريق عبيد بن عمير بسند قوي: «بعث اللَّه عليهم طيرًا أنشأها من البحر كأمثال الخطاطيف»»[1].

قال ابن بطال: «قال المهلب: وقوله: «إن اللَّه حبس عن مكة الفيل، وسلط عليهم رسوله والمؤمنين» ليدخلوا في دين اللَّه أفواجًا، فكان ذلك ساعة من نهار، فلما دخلوا عادت حرمتها المعظمة على سائر الأرض من تضعيف إثم منتهك الذنوب فيها، وزالت حرمتها الغير مشروعة من اللَّه ولا من رسوله، من ترك من لجأ إليها ودخلها مستأمنًا، فارًّا بدم أو بحربه لقول النبي ﷺ: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين»[2] »[3].

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٥/ ١٠٩-١١٠/ ٢٤٣٢)، ومسلم (٢/ ١٨٨/ ١٣٥٥)، وأبو داود (٤/ ٦٤٥/ ٤٥٠٥)، والترمذي (٤/ ١٤/ ١٤٠٥)، والنسائي (٨/ ٤٠٧/ ٤٧٩٩)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٦/ ٢٦٢٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٨/ ٥٠٩).

وقال أيضًا: «والساعة التي أحلت له لم يكن القتل فيها محرمًا لإدخاله إياهم في شرائع اللَّه، فكذلك كل قتيل يكون على شرائع اللَّه لا يعظم فيه، ويقتص فيها من صاحبه[١] »[٢].

* عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ﷺ في قصة صلح الحديبية وفيه: «. . **ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل** . . »[٣].

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «**حبسها حابس الفيل**» أي: حبسها اللَّه ﷻ عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها»[٤].

قال الخطابي: «وقوله: «**ما خلأت**، ولكن حبسها حابس الفيل» يريد أن الخِلاء لم يكن لها بخلق فيما مضى، ولكن اللَّه حبسها عن دخول مكة كما حبس الفيل حين جاء به أبرهة الحبشي يريد هدم الكعبة واستباحة الحرم، ويشبه أن يكون المعنى في ذلك وفي التمثيل بحبس الفيل أن أصحابه لو دخلوا مكة لوقع بينهم وبين قريش قتال في الحرم وأريق فيه دماء وكان منه الفساد والفناء، ولعل اللَّه سبحانه قد سبق في علمه ومضى في قضائه أنه سيسلم جماعة من أولئك الكفار في غابر الزمان وسيخرج من أصلابهم قوم مؤمنون يعبدون اللَّه ويوحدونه، فلو استبيحت مكة وأتى القتل عليهم لانقطع ذلك النسل ولبطلت تلك العواقب»[٥].

وفي هذه القصة -قصة صلح الحديبية- جواز التشبيه من الجهة العامة، وإن اختلفت الجهة الخاصة؛ لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة اللَّه منع الحرم مطلقًا، أما من أهل الباطل فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره[٦].

قال الخطابي: «سأل بعض الملحدين عن هذا فقال: لم كان حبس الفيل في

---

(١) انظر فتح الباري (١/ ٢٧٤). (٢) المصدر السابق (٨/ ٥١٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦، ٣٢٨-٣٣١)، والبخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١، ٢٧٣٢). ورواه: أبو داود (٣/ ١٩٤-٢٠٩/ ٢٧٦٥)، من حديث المسور ﷺ.

(٤) فتح الباري (٥/ ٤٢٠). (٥) معالم السنن (٢/ ٢٨٣).

(٦) فتح الباري (٥/ ٤٢٠).

زمان الجاهلية عنها ومنعه منها ومن الإفساد والإلحاد فيها، ولم يمنع الحجاج بن يوسف في زمان الإسلام عنها، وقد نصب المنجنيق على الكعبة، وأضرمها بالنار، وسفك فيها الدم الحرام، وقتل عبد اللَّه بن الزبير وأصحابه في المسجد؟ وكيف لم يحبس عنها القرامطة وقد سلبوا الكعبة ونزعوا حليتها، وقلعوا الحجر وقتلوا العالم من الحاج وخيار المسلمين بحضرة الكعبة؟ فأجاب عن مسألته بعض العلماء بأن حبس الفيل عنها في الجاهلية كان علمًا لنبوة رسول اللَّه ﷺ وتنويهًا بذكر آبائه، إذ كانوا عمار البيت وسكان الوادي، فكان ذلك الصنيع إرهاصًا للنبوة وحجة عليهم في إثباتها، فلو لم يقع الحبس عنها والذب عن حريمها لكان في ذلك أمران:

أحدهما: فناء أهل الحرم، وهم الآباء والأسلاف لعامة المسلمين ولكافة من قام به الدين.

والآخر: أن اللَّه سبحانه أراد أن يقيم به الحجة عليهم في إثبات نبوة رسوله ﷺ، وأن يجعله مقدمة لكونها وظهورها فيهم، فكان مولد رسول اللَّه ﷺ عامئذ، وكانوا قومًا عربًا أهل جاهلية ليست لهم بصيرة في العلم ولا تقدمة في الحكمة، وإنما كانوا يعرفون من الأمور ما كان دركه من جهة الحس والمشاهدة. فلو لم يجر الأمر في ذلك على الوجه الذي جرى لم يكن يبقى في أيديهم شيء من دلائل النبوة تقوم به الحجة عليهم في ذلك الزمان. فأما وقد أظهر اللَّه الدين ورفع أعلامه وشرح أدلته وأكثر أنصاره، فلم يكن ما حدث عليها من ذلك الصنيع أمرًا يضر بالدين أو يقدح في بصائر المسلمين، وإنما كان ما حدث منه امتحانًا من اللَّه سبحانه لعباده ليبلو في ذلك صبرهم واجتهادهم ولينيلهم من كرامته ومغفرته ما هو أهل التفضيل به، واللَّه يفعل ما يشاء، وله الخلق والأمر تبارك اللَّه رب العالمين»[1].

* * *

---

(١) معالم السنن (٢/ ١٨٨-١٨٩).



سورة قريش

أغراض السورة

اشتملت هذه السورة على «أمر قريش بتوحيد اللَّه تعالى بالربوبية تذكيرا لهم بنعمة أن اللَّه مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عاديا يعدو عليهم.

وبأنه أمنهم من المجاعات وأمنهم من المخاوف لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم؛ لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة. ورد القبائل فلا يغير على بلدهم أحد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1] فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفا منهم»[2].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٥٤).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

لإيلاف: الإِلْفُ والإيلافُ: الاعتياد. يقال: ألف الرجلُ الأمر إلفًا وإلافًا: إذا اعتادَهُ. قال الشاعر:

المُنْعِمِينَ إذا النجوم تغيرت   والظاعنين لرحلةِ الإيلافِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

هذا -**يقول ابن عاشور**-: «افتتاح مُبدع؛ إذ كان بمجرور بلام التعليل، وليس بإثْره بالقرب ما يصلح للتعليق به، ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور. وزاده الطول تشويقًا إذ فصل بينه وبين متعلَّقه (بالفتح) بخمس كلمات، فيتعلق ﴿لِإِيلَافِ﴾ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾.

وتقديم هذا المجرور للاهتمام به؛ إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة اللَّه التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام، والمجرور متعلق بفعل ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾.

وأصل نظم الكلام: لتَعْبُدْ قريشٌ ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فلما اقتضى قصدُ الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله، تولَّدَ من تقديمه معنى جعله شرطًا لعامله، فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط، فالفاء الداخلة في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، أي: مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص، وعناية قوية، هي عناية المشترط بشرطه، وتعليق بقية كلامه عليه لما ينتظره من جوابه، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٥٤-٥٥٥).

وقال ابن كثير: «هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر بسم اللَّه الرحمن الرحيم وإن كانت متعلقة بما قبلها. كما صرح بذلك محمد بن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم اللَّه، فمن عَرَفهم احترمهم، بل من صوفي إليهم وسار معهم أمن بهم. هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1]، ولهذا قال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بدل من الأول ومفسر له. ولهذا قال: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾.

وقال ابن جرير: الصواب أن «اللام» لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان»[2].

قال القرطبي: «لما امتن اللَّه تعالى على قريش برحلتين، شتاء وصيفا، على ما تقدم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادهنجات[3] والخيش للتبريد، واللبد واليانوسة للدفء»[4].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥١٢).
(٣) منفذ الهواء في سقف البيت.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾[1] »[2].

وقال القرطبي: «أمرهم اللَّه تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين. ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط، لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم، على معنى أن نعم اللَّه تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة. والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: أحدهما لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها. الثاني: لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك، تذكيرا لنعمته. وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ أي: ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين. قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ أي: يقيموا بمكة. رحلة الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام»[3].

* * *

(١) النمل: الآية (٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥١٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٠٨و٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السرقندي: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ يعني: أشبعهم بعد الجوع الذي أصابهم حتى جهدوا ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ يعني من خوف الجهد والعدو والغارة. وقال السدي: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ يعني: من خوف الجذام، واللَّه تعالى أعلم بالصواب»[1].

وقال القرطبي: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ قال ابن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم ﷺ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2]. وقال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك المكان الحرم وقرأ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[3] »[4].

ورجح ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ العموم حيث قال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر أنه ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ والعدو مخوف منه، والجذام مخوف منه، ولم يخصص اللَّه الخبر عن أنه آمنهم من العدوّ دون الجذام، ولا من الجذام دون العدوّ؛ بل عمّ الخبر بذلك، فالصواب أن يعمّ كما عمّ -جل ثناؤه-، فيقال: آمنهم من المعنيين كليهما»[5].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ أي: هو رب البيت، وهو ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنمًا ولا ندا ولا وثنًا. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَع اللَّه له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ

---

(١) تفسير السمرقندي (٣/ ٥١٧).
(٢) البقرة: الآية (١٢٦).
(٣) القصص: الآية (٥٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٠٩).
(٥) جامع البيان (٣٠/ ٣٠٩).

مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾[1] »[2].

وقال ابن عاشور: «و(مِن) الداخلة على ﴿جُوعٍ﴾ وعلى ﴿خَوْفٍ﴾ معناها البدلية، أي: أطعمهم بدلًا من الجوع، وآمنهم بدلًا من الخوف. ومعنى البدلية هو أن حالة بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع، فإطعامُهم بدلٌ من الجوع الذي تقتضيه البلاد، وأن حالتهم في قلة العدد وكونهم أهل حضر وليسوا أهل بأس ولا فروسية، ولا شكَّة سلاح تقتضي أن يكونوا معرضين لغارات القبائل، فجعل اللَّه لهم الأمن في الحرم عوضًا عن الخوف الذي تقتضيه قلتهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[3] »[4].

تنبيهات:

قال عطية محمد سالم: «في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾، ربط بين النعمة وموجبها، كالربط بين السبب والمسبب.

ففيه بيان لموجب عبادة اللَّه تعالى وحده، وحقه في ذلك على عباده جميعًا، وليس خاصًا بقريش. وهذا الحق قرره أول لفظ في القرآن، وأول نداء في المصحف، فالأول قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾[5]، كأنه يقول هو سبحانه مستحق للحمد؛ لأنه رب العالمين، أي خالقهم ورازقهم وراحمهم إلى آخره.

والثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[6]. ثم بين الموجب بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[7]. ثم عدد عليهم نعمه بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[8]. فهذه

---

(١) النحل: الآيتان (١١٢-١١٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥١٣).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٦١).
(٥) الفاتحة: الآية (٢).
(٦) البقرة: الآية (٢١).
(٧) البقرة: الآية (٢١).
(٨) البقرة: الآية (٢٢).

النعم تعادل الإطعام من جوع، والأمن من خوف في حق قريش، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾(١).

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها، إلا ما كان استدراجًا، فقال في شكر النعمة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢).

وقال في الكفران وعواقبه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾(٣).

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفرادًا وجماعات أن يقابلوا نعم اللَّه بالشكر، وأن يحذروا كفران النعم.

تنبيه آخر: في الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف، نعمة عظمى لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معًا، إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن مع الخوف، وتكمل النعمة باجتماعهما. ولذا جاء الحديث: «**من أصبح معافى في بدنه آمنًا في سربه، عنده قوت يومه؛ فقد اجتمعت عنده الدنيا بحذافيرها**»(٤).

تنبيه آخر: إن في هذه السورة دليلًا على أن دعوة الأنبياء مستجابة، لأن الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لأهل الحرام بقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٥).

وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾(٦)، فأطعمهم اللَّه من جوع وآمنهم من خوف، وبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته»(٧).

---

(١) الكوثر: الآيتان (١-٢).

(٢) إبراهيم: الآية (٧). (٣) النحل: الآية (١١٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٩٦/ ٢٣٤٦)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية» وابن ماجه (٢/ ١٣٨٧/ ٤١٤١) من حديث عبيد اللَّه بن محصن الأنصاري ﷺ. وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١٨).

(٥) إبراهيم: الآية (٣٧).

(٦) البقرة: الآية (١٢٩).

(٧) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٣٧-٥٤٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل قريش

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن**» يعني به شأن الولاية والإمارة، وذلك أن قريشًا كانت في الجاهلية رؤساء العرب وقادتها؛ لأنهم أهل البيت الحرم حتى كانت العرب تسميهم أهل اللَّه، وإليهم كانوا يرجعون في أمورهم، ويعتمدون عليهم فيما ينوبهم، ولذلك توقف كثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام قبل أن تدخل فيه قريش، فلما أسلموا ودخلوا فيه أطبقت العرب على الدخول في الدين؛ بحكم أنهم كانوا لهم تابعين ولإسلامهم منتظرين، كذا ذكره ابن إسحاق وغيره. فهذا معنى تبعية الناس لهم في الجاهلية، ثم لما جاء الإسلام استقر أمر الخلافة والملك في قريش شرعًا ووجودًا، ولذلك قالت قريش يوم السقيفة للأنصار: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، قال عمر في كلام: لأن هذا الأمر لا تعرفه الناس إلا لهذا الحي من قريش، فانقادوا لذلك ولم يخالف فيه أحد، وهو إجماع السلف والخلف»[٢].

قال النووي: «هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك بعدهم، ومن خالف فيه من أهل البدع، أو عرض بخلاف من غيرهم؛ فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة. قال القاضي: اشتراط كونه قرشيًّا هو مذهب العلماء كافة. قال: وقد احتج به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد. قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار، قال: ولا اعتداد بقول

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦١)، والبخاري (٦/ ٦٥٢/ ٣٤٩٥)، ومسلم (٣/ ١٤٥١/ ١٨١٨).
(٢) المفهم (٤/ ٥-٦).

النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه يجوز كونه من غير قريش، ولا بسخافة ضرار بن عمرو في قوله: القرشي من النبط، وغيرهم يقدم على القرشي لهوان خلعه إن عرض منه أمر، وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه، مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين، والله أعلم»[1].

* عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين**»[2].

* عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الأئمة من قريش إن لهم عليكم حقًّا ولكم عليهم حقًّا مثل ذلك؛ ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[3].

★ فوائد الحديثين:

قال المظهر: «أي: الخلافة في قريش لا يعاديهم ولا يخالفهم أحد في ذلك إلا أذله الله؛ ما داموا يحافظون على الدين، اهـ. ويفهم من قول الشيخ التوربشتي: أن قوله: «ما أقاموا» إذا علق بـ«كبه» يستقيم المعنى إذا حمل الدين على الصلاة، وأما إذا حمل على الدين بأصوله وتوابعها فلا؛ لأن منهم من غير وبدل ولم يصرف عنه الأمر. وقيل معنى الحديث: لا يخالف قريشًا أحد في الأمور المتعلقة في الدين بأن أرادوا نقضه وبطلانه، وقريش تريد إقامته وإمضاءه إلا أذله الله وقهره. أقول: واللفظ لا يساعد إلا ما عليه المظهر، وهو أظهر»[4].

قال الحافظ: «قوله: «ما أقاموا الدين» الدين أي: مدة إقامتهم أمور الدين، قيل: يحتمل أن يكون مفهومه: فإذا لم يقمه لا يسمع لهم، وقيل: يحتمل أن لا يقام

---

(١) شرح مسلم (١٢/ ١٦٨-١٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٤)، والبخاري (٦/ ٦٦١/ ٣٥٠٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٨/ ٨٧٥٠) وفي الباب عن أبي موسى رضي الله عنه وغيره.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٩-١٨٣)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٥٩٤٢)، وأبو يعلى (٦/ ٣٢١/ ٣٦٤٤)، والطيالسي (٢١٣٣)، والبزار (كشف الأستار ٢/ ٢٢٨/ ١٥٧٩)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٩٢) وقال: (رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط» أتم منهما، والبزار إلا أنه قال: «الملك في قريش»، ورجال أحمد ثقات)، وصححه الحاكم (٤/ ٥٠١) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) شرح الطيبي (١٢/ ٣٨٣١).

عليهم وإن كان لا يجوز إبقاؤهم على ذلك ذكرهما ابن التين، ثم قال: وقد أجمعوا أنه -أي الخليفة- إذا دعا إلى كفر أو بدعة أنه يقام عليه، واختلفوا إذا غصب الأموال وسفك الدماء وانتهك، هل يقام عليه أو لا، انتهى. وما ادعاه من الإجماع على القيام فيما إذا دعا الخليفة إلى البدعة؛ مردود إلا إن حمل على بدعة تؤدي إلى صريح الكفر، وإلا فقد دعا المأمون والمعتصم والواثق إلى بدعة القول بخلق القرآن، وعاقبوا العلماء من أجلها بالقتل والضرب والحبس وأنواع الإهانة، ولم يقل أحد بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك، ودام الأمر بضع عشرة سنة حتى ولي المتوكل الخلافة، فأبطل المحنة، وأمر بإظهار السنة، وما نقله من الاحتمال في قوله: «ما أقاموا الدين» خلاف ما تدل عليه الأخبار الواردة في ذلك الدالة على العمل بمفهومه، أو أنهم إذا لم يقيموا الدين يخرج الأمر عنهم، وقد ورد في حديث أبي بكر الصديق نظير ما وقع في حديث معاوية، ذكره محمد بن إسحاق في «الكتاب الكبير» فذكر قصة سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر، وفيها: «فقال أبو بكر: وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا اللَّه واستقاموا على أمره»، وقد جاءت الأحاديث التي أشرت إليها على ثلاثة أنحاء، الأول: وعيدهم باللعن إذا لم يحافظوا على المأمور به كما في الأحاديث التي ذكرتها في الباب الذي قبله حيث قال: «**الأمراء من قريش ما فعلوا ثلاثًا: ما حكموا فعدلوا**» الحديث، وفيه: «**فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله**»[1]، وليس في هذا ما يقتضي خروج الأمر عنهم، الثاني: وعيدهم بأن يسلط عليهم من يبالغ في أذيتهم، فعند أحمد وأبي يعلى من حديث ابن مسعود رفعه: «**يا معشر قريش! إنكم أهل هذا الأمر ما لم تحدثوا، فإن غيرتم بعث اللَّه عليكم من يلحاكم كما يلحى القضيب**»[2]، ورجاله ثقات إلا أنه من رواية عبيداللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة بن مسعود عن عم أبيه عبد اللَّه بن مسعود ولم

---

(١) أخرجه من حديث أبي بـرزة: أحمد (٤/ ٤٢٤)، وأبو يعلى (٦/ ٣٢٣/ ٣٦٤٥)، والبزار (الكشف ٢/ ٢٣٠/ ١٥٨٣)، والطيالسي رقم (٩٢٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٩٣): «رواه أحمد وأبو يعلى أتم منه وفيه قصة البزار ورجال أحمد رجال الصحيح خلا سكين بن عبد العزيز وهو ثقة». وفي الباب عن أبي هريرة وأنس وأبي موسى.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٥٨)، وأبو يعلى (٨/ ٤٣٨/ ٥٠٢٤)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٩٢) وقال: «رواها أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورجال أبي يعلى ثقات»، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٦٩).

يدركه، هذه رواية صالح بن كيسان عن عبيداللّٰه وخالفه حبيب بن أبي ثابت فرواه عن القاسم بن محمد بن عبد الرحمن عن عبيداللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبة عن أبي مسعود الأنصاري ولفظه: «**لا يزال هذا الأمر فيكم، وأنتم ولاته**»[١] الحديث، أخرجه أحمد، وفي سماع عبيداللّٰه من أبي مسعود نظر مبني على الخلاف في سنة وفاته، وله شاهد من مرسل عطاء بن يسار أخرجه الشافعي والبيهقي من طريقه بسند صحيح إلى عطاء، ولفظه: «**قال لقريش: أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق؛ إلا أن تعدلوا عنه فتلحون كما تلحى هذه الجريدة**»[٢]، وليس في هذا أيضًا تصريح بخروج الأمر عنه، وإن كان فيه إشعار به، الثالث: الإذن في القيام عليهم وقتالهم، والإيذان بخروج الأمر عنهم، كما أخرجه الطيالسي والطبراني من حديث ثوبان رفعه: «**استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإن لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم، فأبيدوا خضراءهم، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء**»[٣]، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا؛ لأن راويه سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان، وله شاهد في الطبراني من حديث النعمان بن بشير بمعناه، وأخرج أحمد من حديث ذي مِخْبَر، بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الموحدة بعدهما راء، وهو ابن أخي النجاشي عن النبي ﷺ قال: «**كان هذا الأمر في حمير فنزعه اللّٰه منهم، وصيره في قريش، وسيعود إليهم**»[٤]، وسنده جيد، وهو شاهد قوي لحديث القحطاني؛ فإن حمير يرجع نسبها إلى قحطان، وبه يقوى أن مفهوم حديث معاوية «ما أقاموا الدين» أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم، ويؤخذ من بقية الأحاديث أن خروجه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤)، والحاكم (٤/ ٥٠٢-٥٠٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والطبراني (١٧/ ٢٦٢/ ٧٢٠-٧٢١)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٧٠/ ١٢٤٤٠)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح خلا القاسم بن محمد بن عبد الرحمن وهو ثقة»، وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة رقم (١١١٨).

(٢) أخرجه الشافعي في «الأم» (٩/ ٤٧٦)، والبيهقي (٨/ ١٤٤)، وصحح الحافظ إسناده.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٣٩٩/ ٧٨١١)، وفي «الصغير» (١/ ٩٧/ ١٩٣) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٩٥) وقال: «رواه الطبراني في «الصغير و«الأوسط»، ورجال «الصغير» ثقات»، إلا أن فيه انقطاعًا لكون سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان، انظر «السلسلة الضعيفة» (٤/ ١٤٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٩١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٦٤/ ٩٠٦)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٣٤/ ٤٢٢٧)، وفي «مسند الشاميين» (٢/ ١٣٥/ ١٠٥٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٩٣): رواه أحمد والطبراني باختصار الحروف ورجالهم ثقات، اهـ وجود الحافظ إسناده.

عنهم إنما يقع بعد إيقاع ما هددوا به من اللعن أولًا، وهو الموجب للخذلان وفساد التدبير، وقد وقع ذلك في صدر الدولة العباسية، ثم التهديد بتسليط من يؤذيهم عليهم ووجد ذلك في غلبة مواليهم بحيث صاروا معهم كالصبي المحجور عليه يقتنع بلذاته ويباشر الأمور غيره، ثم اشتد الخطب فغلب عليهم الديلم فضايقوهم في كل شيء حتى لم يبق للخليفة إلا الخطبة، واقتسم المتغلبون الممالك في جميع الأقاليم، ثم طرأ عليهم طائفة بعد طائفة حتى انتزع الأمر منهم في جميع الأقطار، ولم يبق للخليفة إلا مجرد الاسم في بعض الأمصار»[(١)].

قال الشيخ الألباني: «فقد استمرت الخلافة في قريش عدة قرون، ثم دالت دولتهم بعصيانهم لربهم واتباعهم لأهوائهم، فسلط اللَّه عليهم من الأعاجم من أخذ الحكم من أيديهم، وذُلَّ المسلمون من بعدهم إلا ما شاء اللَّه، ولذلك فعلى المسلمين إذا كانوا صادقين في سعيهم لإعادة الدولة الإسلامية أن يتوبوا إلى ربهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويتبعوا أحكام شريعتهم، ومن ذلك أن الخلافة في قريش بشروط معروفة في كتب الحديث والفقه، ولا يحكموا آراءهم وأهواءهم وما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، وإلا فسيظلون محكومين من غيرهم، وصدق اللَّه إذ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(٢)] والعاقبة للمتقين»[(٣)].

* عن جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**للقرشي قوة الرجلين من غير قريش**». فسأل سائل ابن شهاب: ما يعني بذلك؟ قال: نُبْل الرأي[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله: «إن للقرشي» أي: الواحد من سلالة قريش، «مثل قوة الرجلين من غير قريش» من طبقات العرب، قال الزهري: عنى بذلك نبل الرأي،

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١٤٥-١٤٦).
(٢) الرعد: الآية (١١).
(٣) السلسلة الصحيحة (٤/ ٧٠).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٨١-٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١١٤/ ١٤٩٠)، وأبو يعلى (١٣/ ٣٩٧/ ٧٤٠٠)، والبزار [كشف ٣/ ٢٩٦و٢٩٧/ ٢٧٨٥]، والحاكم (٤/ ٧٢) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٦١-١٦٢/ ٦٢٦٥)، والبغوي (١٤/ ٦١-٦٢/ ٣٨٥٠)، والطيالسي (٩٥١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٢/ ٣٢٨٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح».

وشدة الحزم، وعلو الهمة، وشرف النفس»[١].

وقال: «فعلم أن المراد القوة العلمية، والقوة في الشجاعة والرأي كما تقرر»[٢].

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**الناس تبع لقريش في الخير والشر**»[٣].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال ابن الجوزي: «كانت قريش متقدمة على سائر العرب في الجاهلية، ثم تقدمتهم بالرسول ﷺ في الإسلام»[٤].

وقال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**الناس تبع لقريش في الخير والشر**» فمعناه في الإسلام والجاهلية كما هو مصرح به في الرواية الأولى؛ لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب، وأصحاب حرم اللَّه، وأهل حج بيت اللَّه، وكانت العرب تنظر إسلامهم، فلما أسلموا وفتحت مكة تبعهم الناس، وجاءت وفود العرب من كل جهة، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخلافة، والناس تبع لهم»[٥].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان**»[٦].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذا خبر عن المشروعية، أي: لا تنعقد الإمامة الكبرى إلا لهم متى وجد منهم واحد، وفي حديث آخر: «**الأئمة من قريش**»»[٧].

قال النووي: «بين النبي ﷺ أن هذا الحكم مستمر إلى آخر الدنيا ما بقي من الناس اثنان، وقد ظهر ما قاله ﷺ فمن زمنه ﷺ الخلافة في قريش من غير مزاحمة لهم فيها، وتبقى كذلك ما بقي اثنان كما قاله ﷺ»[٨].

---

(١) فيض القدير (٢/ ٥٠١).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٥١/ ١٨١٩).
(٤) كشف المشكل (٣/ ٩٣).
(٥) شرح مسلم (١٢/ ١٧٠).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩)، والبخاري (٦/ ٦٦١/ ٣٥٠١)، ومسلم (٣/ ١٤٥٢/ ١٨٢٠).
(٧) المفهم (٤/ ٦-٧).
(٨) شرح مسلم (١٢/ ١٧٠).

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه أن الخلافة في قريش دائمة إلى يوم القيامة، وقوله ﷺ: «بقي منهم اثنان» يجوز أن يكون إخبارًا من رسول اللَّه ﷺ بأنه لا ينتهي بهم الأمر إلى أقل من هذا العدد، فيكون الواحد أميرًا والآخر مؤتمرًا له، والناس تبع لهم»[(١)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهم أذقت أول قريش نكالًا، فأذق آخرهم نوالًا**»[(٢)].

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**أول قريش نكالًا**»: يوم بدر والأحزاب، والنكال: العبرة، وقيل: العقوبة، ويؤيده حديث عياض المجاشعي: «**إن اللَّه أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت: رب! إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. .**»[(٣)] الحديث»[(٤)].

قال المناوي: (اللهم كما أذقتهم عذابًا» وفي رواية: «نكالًا» بالقحط والغلاء والقحط والقهر وغيرها، «فأذقهم نوالًا» أي: إنعامًا وعطاءً وفتحًا من عندك، وعبر بالذوق لقلة الزمن فيهما، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[(٥)]، قال السمهودي: كل ما جاء في فضل قريش فهو ثابت لبني هاشم والمطلب؛ لأنهم أخص، وما ثبت للأخص يثبت للأعم، ولا عكس، وتقديمًا لهم على غيرهم وشرفًا»[(٦)].

قال المباركفوري: «قال في «اللمعات»: لعل المراد بالنكال ما أصاب أوائلهم بكفرهم وإنكارهم على رسول اللَّه من الخزي والعذاب والقتل، وبالنوال ما حصل لأواخرهم من العزة والملك والخلافة والإمارة ما لا يحيط بوصفه البيان، انتهى»[(٧)].

---

(١) الإفصاح (٤/ ١٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢)، والترمذي (٥/ ٦٧٢/ ٣٩٠٨) وقال: «حسن صحيح غريب»، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٤١/ ١٥٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

(٤) شرح الطيبي (١٢/ ٣٨٣٤).

(٥) النساء: الآية (٧٧).

(٦) فيض القدير (٢/ ١٠٥).

(٧) تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٨٠).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش: أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»**[١].

★ غريب الحديث:

أحناه: بسكون المهملة بعدها نون: أكثره شفقة، والحانية على ولدها هي التي تقوم عليهم في حال يُتْمِهم فلا تتزوج، فإن تزوجت فليست بحانية، قاله الهروي.

في ذات يده: أي: في ماله المضاف إليه، ومنه قولهم: فلان قليل ذات اليد، أي: قليل المال.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: إنما يركب الإبل نساء العرب، ونساء قريش من العرب، فنساء قريش خير نساء العرب، وقد أخبر عليه السلام بما استوجبن ذلك، وهو حنوهن على أولادهن، ومرعاتهن لأزواجهن، وحفظهن لأموالهم، وإنما ذلك لكرم نفوسهن، وقلة غائلتهن لمن عاشرهن، وطهارتهن من مكايدة الأزواج ومشاحتهن»[٢].

قال القرطبي: «هذا تفضيل لنساء قريش على نساء العرب خاصة؛ لأنهم أصحاب الإبل غالبًا، وقد جاء في الرواية الأخرى: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش» ولم يذكر: «صالح»، وهو مراد حيث سكت عنه ويحمل مطلق الروايتين على مقيدة الأخرى وهو مما اتفق عليه من أقسام حمل المطلق على المقيد كما حققناه في الأصول، ويعني بالصلاح هنا صلاح الدين وصلاح المخالطة للزوج وغيره كما دل عليه قوله ﷺ: **«أحناه على يتيم وولد وأرعاه على زوج»**»[٣].

قال النووي: «فيه فضيلة نساء قريش، وفضل هذه الخصال، وهي الحنوة على الأولاد والشفقة عليهم، وحسن تربيتهم، والقيام عليهم إذا كانوا يتامى، ونحو ذلك مراعاة حق الزوج في ماله وحفظه والأمانة فيه وحسن تدبيره في النفقة وغيرها

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩-٣٩٣-٤٤٩-٥٠٢) والبخاري (٩/ ١٥٥/ ٥٠٨٢) ومسلم (٤/ ١٩٥٨-١٩٥٩/ ٢٥٢٧).

(٢) شرح ابن بطال (٧/ ١٧٥).

(٣) المفهم (٦/ ٤٧٩).

وصيانته ونحو ذلك. ومعنى «ركبن الإبل»: نساء العرب، ولهذا قال أبو هريرة في الحديث: «لم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط»، والمقصود أن نساء قريش خير نساء العرب، وقد علم أن العرب خير من غيرهم في الجملة، وأما الأفراد فيدخل بها الخصوص»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (١٦/ ٦٥).



سورة الماعون

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «من مقاصدها التعجب من حال من كذبوا بالبعث، وتفظيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره، والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة؛ لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب اللّٰه وعقابه»[1].

قال البقاعي: «مقصودها التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث، فإنه يجزي المكذب على مساوئ الأخلاق، حتى تكون الاستهانة بالعظائم خلقا له، فيصير ممن ليس له خلاق»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٦٤).

(٢) مصاعد النظر (٣/ ٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

يَدُعُّ: الدّعّ: الدفع بشدة وعنف. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: أرأيت يا محمد الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ أي: هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه»[2].

وقال الزمخشري: «والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾ يكذب بالجزاء، هو الذي ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه دفعًا عنيفًا بجفوة وأذى، ويردّه ردًّا قبيحًا بزجر وخشونة»[3].

* * *

---

(١) الطور: الآية (١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥١٤).

(٣) الكشاف (٤/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③﴾

★ **غريب الآية:**

يحض: يحثّ ويُرَغِّبُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلا بالمال، أو تكذيبا بالجزاء، وهو مثل قوله في سورة الحاقة ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾[(١)]»[(٢)].

«وكما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾[(٣)] يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوراده وكفايته»[(٤)].

«وفي هذا توجيه لأنظارنا إلى أنا إذا لم نستطع مساعدة المسكين كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته، ونحثه على ذلك كما تفعل جماعات الخير (الجمعيات الخيرية)»[(٥)].

وقال أبو السعود: «وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة عليه»[(٦)].

وقال القرطبي: «وليس الذم عاما حتى يتناول من تركه عجزا، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[(٧)]، فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذم إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا»[(٨)].

---

(١) الحاقة: الآية (٣٤).
(٢) فتح القدير (٥/ ٧٢٦).
(٣) الفجر: الآيتان (١٧-١٨).
(٤) قاله ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥١٥).
(٥) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٤٩).
(٦) تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٣).
(٧) يس: الآية (٤٧).
(٨) الجامع (٢٠/ ٢١١).

وقال الزمخشري: «جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف، والإقدام على إيذاء الضعيف، يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي اللّه تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك، فحين أقدم عليه: علم أنه مكذب، فما أشدّه من كلام، وما أخوفه من مقام. وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدلّ بها على ضعف الإيمان، ورخاوة عقد اليقين»[(١)].

وقال الرازي: «أما قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه لا يحض نفسه على طعام المسكين، وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين، فكأنه منع المسكين مما هو حقه، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه.

والثاني: لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يعتقد في ذلك الفعل ثوابًا. والحاصل أنه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامة الإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف، يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك، فموضع الذنب هو التكذيب بالقيامة»[(٢)].

وقال عطية سالم: «وقد بين تعالى في آية أخرى أن الإيمان بيوم الدين يحمل صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾[(٣)]. ثم قال مبينًا الدافع على إطعامهم إياهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾[(٤)]»[(٥)].

قال أيضا: «وهنا سؤال: وهو لم خص المكذبين بيوم الدين عمن يرتكب هذين الأمرين: دع اليتيم، وهو دفعه وزجره، وعدم الحض على إطعام المسكين، وبالتالي عدم إطعامه هو من عنده؟

والجواب: أنهما نموذجان، ومثالان فقط. والأول منهما: مثال للفعل القبيح. والثاني: مثال للترك المذموم، ولأنهما عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان قبل كل شيء»[(٦)].

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٨٩).
(٢) التفسير الكبير (٣٢/ ١١٤).
(٣) الإنسان: الآية (٨).
(٤) الإنسان: الآيتان (٩-١٠).
(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٤٣).
(٦) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٤٣-٥٤٤).

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فالوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمنافقين الذين يصلون، لا يريدون الله ﷻ بصلاتهم، وهم في صلاتهم ساهون إذا صلوها.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك أنهم يؤخِّرونها عن وقتها، فلا يصلونها إلا بعد خروج وقتها.. وقال آخرون: بل عني بذلك أنهم يتركونها فلا يصلونها.. وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك أنهم يتهاونون بها، ويتغافلون عنها ويلهون»[1].

وقال ابن كثير: «قال ابن عباس وغيره: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق، وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: والحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها»[2].

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله: ﴿سَاهُونَ﴾: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها، تضييعها أحيانا، وتضييع وقتها أخرى، وإذا كان ذلك كذلك؛ صح بذلك قول من قال: عُنِيَ بذلك ترك وقتها، وقول من قال: عُنِيَ به تركها لما ذكرتُ من أن في السهو عنها

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣١١-٣١٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٩-٣٨٠).

المعاني التي ذكرت»[١].

قال ابن كثير: «فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان؛ قام فنقر أربعا لا يذكر اللَّه فيها إلا قليلا**»[٢] فهذا أخر صلاة العصر التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا؛ ولهذا قال: «لا يذكر اللَّه فيها إلا قليلا». ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس، لا ابتغاء وجه اللَّه، فهو إذًا لم يصل بالكلية. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[٣] »[٤].

وقال الزمخشري: «فإن قلت: أيّ فرق بين قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ وبين قولك: (في صلاتهم)؟ قلت: معنى: (عن): أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى (في): أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول اللَّه ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلًا عن غيره؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم »[٥].

قال الشنقيطي: «هذه الآية يتوهم منها الجاهل أن اللَّه توعد المصلين بالويل، وقد جاء في آية أخرى أن عدم الصلاة من أسباب دخول سقر، وهي قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾[٦]، والجواب عن هذا في غاية الظهور، وهو أن التوعد بالويل منصب على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ الآية، وهم المنافقون على التحقيق، وإنما ذكرنا هذا الجواب مع ضعف الإشكال وظهور الجواب عنه؛ لأن الزنادقة الذين لا يصلون يحتجون لترك الصلاة بهذه الآية، وقد سمعنا من ثقات وغيرهم أن رجلًا قال لظالم

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣١٢).
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) النساء: الآية (١٤٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٠).
(٥) الكشاف (٤/ ٢٨٩).
(٦) المدثر: الآيتان (٤٢-٤٣).

تارك للصلاة: مالك لا تصلي؟ فقال: لأن اللَّه توعد على الصلاة بالويل في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤﴾، فقال له: اقرأ ما بعدها، فقال: لا حاجة لي فيما بعدها، فيها كفاية في التحذير من الصلاة. ومن هذا القبيل قول الشاعر:

دَعِ المَساجدَ للعبّاد تسكُنُها ... وسر إلى حانة الخَمَّارِ يَسقينا
مَا قَالَ رَبُّكَ وَيلٌ للألى سكروا ... وإنما قَالَ وَيلٌ للمُصَلِّينا

فإذا كان تعالى توعد بالويل المصلي الذي هو ساهٍ عن صلاته، ويرائي فيها، فكيف بالذي لا يصلي أصلًا؟ فالويل كل الويل له، وعليه لعائن اللَّه إلى يوم القيامة ما لم يتب»[1].

قال عطية محمد سالم: «في هذه السورة، وفي آية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾[2]، التي هي من صفات المؤمنين معادلة كبيرة. إحداهما: في المنافقين تاركي الصلاة أو مضيعيها. والأخرى في المؤمنين المحافظين عليها، أي أن الصلاة هي المقياس والحد الفاصل، وعليه قوله ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر»[3]. أما أثر الصلاة في الإسلام، وعلى الفرد والجماعة، فهي أعظم من أن تذكر، وقد وجدنا بعض آثارها وهو المراءاة في العمل، أي ازدواج الشخصية والانعزال في منع الماعون، أي لا يمد يد العون ولو باليسير لمجتمعه الذي يعيش فيه، وقد جاءت نصوص صريحة في مهمة الصلاة عاجلة وآجلة.

ففي العاجل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[4]، ومن الفحشاء: دع اليتيم وعدم إطعام المسكين، في الدرجة الأولى. ومنها: كل رذيلة منكرة، فهي إذن سياج يصونه عن كل رذيلة، وهي عون على كل شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[5]، فجعلها قرينة الصبر في التغلب على

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٩١-٢٩٢). (٢) المؤمنون: الآية (٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٦ و٣٥٥)، الترمذي (٥/ ١٥/ ٢٦٢١)، وقال: «حسن صحيح غريب»، النسائي (١/ ٢٥٠/ ٤٦٢)، ابن ماجه (١/ ٣٤٢/ ١٠٧٩)، وصححه ابن حبان (٤/ ٣٠٥/ ١٤٥٤)، والحاكم (١/ ٦-٧)، ووافقه الذهبي من حديث بريدة ﷺ.

(٤) العنكبوت: الآية (٤٥).

(٥) البقرة: الآية (٤٥).

الصعاب، وهي في الآخرة نور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[1] الآية، مع قوله ﷺ: «**إن أمتي يأتون يوم القيامة غرًّا محجلين من أثر الوضوء**»[2] »[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من التشبه بالمنافقين في تأخير الصلاة عن وقتها

* عن مصعب بن سعد قال: «قلت لأبي: يا أبتاه! أرأيت قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أيُّنا لا يسهو، أيُّنا لا يحدث نفسه؟ قال: ليس ذاك، إنما هو إضاعة الوقت، يلهو حتى يضيع الوقت»[4].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا، لا يذكر اللَّه فيها إلا قليلًا**»[5].

⋆ فوائد الحديثين:

قال القاضي: «قوله: «**تلك صلاة المنافقين**» ذم لفعلهم، وتحذير من التشبه بهم بتأخير الصلاة لغير عذر إلى حينئذ من اصفرار الشمس، وأن تعجيل الصلاة هو المشروع، وتأخيرها مذموم ممنوع، وقوله: «**نقر أربعًا لا يذكر اللَّه فيها إلا قليلًا**» ذم لمن صلى هذه الصلاة ولم يخشع ولا اطمئن فيها. وعبر عن نقره لها عن سرعة حركاته في الصلاة في ركوعه وسجوده، تشبيهًا لنقر الطائر في شيء بسرعة دون توان، وقد يكون قلة ذكره فيها بلسانه لسرعتها، أو بقلبه لقلة خشوعه»[6].

---

(١) الحديد: الآية (١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٤و٣٦٢و٤٠٠و٥٢٣)، والبخاري (١/ ٣١٣/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ٢١٦/ ٢٤٦[٣٥])، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٤٨و٥٤٩).

(٤) أخرجه: أبو يعلى (٢/ ٦٣-٦٤/ ٧٠٤)، والطبري في التفسير (٣٠/ ٣١١)، والبيهقي (٢/ ٢١٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٢٥): «رواه أبو يعلى، وإسناده حسن».

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٢-١٠٣، ١٤٩، ١٨٥)، ومسلم (١/ ٤٣٤/ ٦٢٢)، وأبو داود (١/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٤١٣)، والترمذي (١/ ٣٠١-٣٠٢/ ١٦٠)، والنسائي (١/ ٢٧٥-٢٧٦/ ٥١٠).

(٦) الإكمال (٢/ ٥٨٩).

قال القرطبي: «قوله: «تلك صلاة المنافقين» إشارة إلى صلاة العصر المخرجة عن وقتها. ومعناه أن الذي يخرجها عن وقتها يشبه فعله فعل المنافق الذي يتهاون بأمرها، ويضيعها حتى يخرجها عن وقتها، ولذلك وصفه بقوله: «يجلس يرقب الشمس»، وهذه عبارة عن عدم مبالاته بها، وتضييعه لها، حتى إذا رأى الشمس قد حان غروبها قام يصليها على ما ذكر رياءً وتلبيسًا»[١].

قال محمود خطاب السبكي: «والحديث يدل على كراهة تأخير صلاة العصر إلى الاصفرار، وعلى التصريح بذم من أخر صلاة العصر، والحكم على صلاته بأنها صلاة المنافق، ولا أقبح من هذا الوصف للمخالفين، وعلى التصريح بذم من صلى مسرعًا بحيث لا يكمل الطمأنينة والخشوع والأذكار. ودل بمفهومه على أن صلاة المؤمنين إنما تكون بالطمأنينة والخشوع والأذكار على الصفة الواردة عن رسول اللَّه ﷺ المشار إليها بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» رواه البخاري[٢]، وبذلك تزداد علمًا أن صلاة غالب أهل هذا الزمان ليس صلاة شرعية، وإنما هي صلاة المنافقين، نعوذ باللَّه تعالى من شرور نفوسنا، وعمى البصيرة، واستحواذ الشياطين»[٣].

* * *

---

(١) المفهم (٢/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) (٢/ ١٤٢/ ٦٣١).

(٣) المنهل العذب (٣/ ٣٣٦).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: « يقول: الذين هم يراءون الناس بصلاتهم إذا صلوا؛ لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنونهم منهم، فيكفون عن سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ، يستبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام»[1].

قال ابن العربي: «وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادات، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس.

فأولها: تحسين السمت؛ وهو من أجزاء النبوة، ويريد بذلك الجاه والثناء.

ثانيها: الرياء بالثياب القصار والخشنة، ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا.

ثالثها: الرياء بالقول بإظهار التسخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة.

رابعها: الرياء بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس، وذلك يطول؛ وهذا دليله»[2].

وقال الزمخشري: «ولا يكون الرجل مرائيًا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حقّ الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله -عليه الصلاة السلام-: «**ولا غمة في فرائض الله**»[3]؛ لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين؛ ولأن تاركها يستحق الذمّ والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار؛ وإن كان تطوعًا، فحقه أن يخفى؛ لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه؛ فإن أظهره قاصدًا للاقتداء به كان

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٩٨٤).

(٣) ذكره القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ٩٩-١٠٠) في فصل فصاحته ﷺ، من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال العباهلة والأوراع المشابيب. وكذا قال الحافظ في تخريج الكشاف.

جميلًا، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم: أنه رأى رجلًا في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيته؛ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الرياء

* عن جندب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**من سَمَّع سَمَّع اللَّه به، ومن يرائي يرائي اللَّه به**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «يقول: من عمل عملًا على غير الإخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعون، جوزي على ذلك بأن يشهره اللَّه ويقطعه فيشيدوا عليه ما كان يبطنه ويسره من ذلك»[٣].

وقال ابن بطال: «قوله: «من سمّع» معناه: من سمع بعمله الناس وقصد به اتخاذ الجاه والمنزلة عندهم، ولم يرد به وجه اللَّه، فإن اللَّه تعالى يسمع به خلقه، أي: يجعله حديثًا عند الناس الذي أراد نيل المنزلة عندهم بعمله، ولا ثواب له في الآخرة عليه، وكذلك من راءى بعمله الناس راءى اللَّه به، أي: أطلعهم على أنه فعل ذلك لهم، ولم يفعله لوجهه، فاستحق على ذلك سخط اللَّه وأليم عقابه، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يقال للعبد يوم القيامة: فعلت كذا وكذا ليقال، فقد قيل، اذهبوا به إلى النار»[٤] »[٥].

وقال القاضي عياض: «وقيل: معنى «**من سمّع سمّع اللَّه به**» أي: من أذاع على المسلم عيبًا وشنعه عليه أظهر اللَّه عيوبه، وقيل: سمع به: أسمعه المكروه»[٦].

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٣)، والبخاري (١١/ ٤٠٨/ ٦٤٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٧/ ٤٢٠٧). وفي الباب عن ابن عباس وأبي سعيد وأبي بكرة ﷺ.

(٣) أعلام الحديث (٣/ ٢٢٥٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٢)، ومسلم (٣/ ١٥١٣/ ١٩٠٥)، والترمذي (٤/ ٥١٠-٥١١/ ٢٣٨٢)، والنسائي (٦/ ٣٣١-٣٣٢/ ٣١٣٧)، من حديث أبي هريرة.

(٥) شرح البخاري (١٠/ ٢٠٨).

(٦) الإكمال (٨/ ٥٣٥).

قال الحافظ: «وقيل: المعنى: من نسب إلى نفسه عملًا صالحًا لم يفعله، وادعى خيرًا لم يصنعه، فإن اللَّه يفضحه ويظهر كذبه. وقيل: المعنى: من يرائي الناس بعمله أراه اللَّه ثواب ذلك العمل، وحرمه إياه. وقيل: معنى «سمع اللَّه به» شهره، أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا، أو في القيامة، بما ينطوي عليه من خبث السريرة»[١].

وقوله ﷺ: «**سمّع اللَّه به**» قد ورد في بعض طرق هذا الحديث داخل الصحيح[٢] وخارجه التصريح بأن ذلك يكون يوم القيامة، وهو المعتمد، كما قال الحافظ في «الفتح»[٣].

قال الخطابي: «قوله: «**من يسمِّع يسمِّع اللَّه به يوم القيامة**» يريد أنه من راءى بعمله وسمع به الناس ليكرموه ويعظموه، شهره اللَّه به يوم القيامة وفضحه حتى يرى الناس ويسمعوا ما يحل به من الفضيحة عقوبة على ما معه في الدنيا من حب الشهرة والسمعة»[٤].

قال البيحاني: «أضر شيء على العبد أن يعمل عملًا أو يقول قولًا لا يريد به وجه اللَّه، جميل ظاهره، قبيح باطنه، يسر غير ما يعلن، ويظهر خلاف ما يبطن، يسبح ويهلل، ويقرأ القرآن، ويخطب، ويعلم، ويدعو إلى اللَّه بلسانه، وقلبه غافل وذاهل، وبغير اللَّه مشغول، وعلى سواه معول ومتكل، وحسبه من الخير ثناء الجاهلين عليه، واستمالة قلوبهم إليه، إذا قرأ جوّد، وإذا وعظ بكى، وإذا خطب أو درس لم يلحن، وجاء بالعجب العجاب. ولو أخلص في قلبه لكان الزعيم المطاع، والمصلح الحكيم، والمرشد العظيم، وإذا رأيته يصلي ظننته إسرافيل! وإن أبصرته يتصدق حسبته ميكائيل، وإن لقيته صائمًا أو معتكفًا لم تشك في أنه جبريل، ولكنه الخادع المنافق، والكذاب المكار المزور، يقول بفيه ما ليس في قلبه، ويرائي الناس بما يعمله لربه، وفيه يقول اللَّه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾[٥]. ويحذر اللَّه عباده المؤمنين من الرياء بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٠٩).
(٢) (٧١٥٢).
(٣) (١١/ ٤٠٩).
(٤) أعلام الحديث (٤/ ٢٣٣٦).
(٥) الماعون: الآيات (٤-٧).

وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾[1]. وفي آية أخرى يقول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾[2].

وبهذا الحديث وأمثاله في الموضوع يحذرنا النبي ﷺ من الرياء والسمعة، وأن يعمل المسلم عملًا يبتغي به الشهرة وثناء الناس عليه؛ لأنه لا يصنع الخير حبًّا فيه، ولا يترك الشر كراهة له، بل ربما إذا خلا بنفسه ارتكب العظائم، واقترف الجرائم، وقصر في الواجبات والمندوبات»[3].

وقال أيضًا: «كل عمل في رياء معدود من السيئات، وإن كان صالحًا في ظاهره، وما يلبث صاحبه أن يظهر سره، ويتضح أمره، فيحيق به مكره. وعلى الإخلاص وعدمه يترتب حسن الخاتمة وسوؤُها، كما جاء في الحديث الشريف: «إن أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعملُ بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»[4].

وكان مع المسلمين يوم أُحُد رجل يقاتل حتى أعجب به، وقيل فيه خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**إنه من أهل النار**»[5]، واستغرب الناس ذلك، وقام أحدهم ينظر أعماله وما يصنع يومئذ حتى إذا أثخنته الجراح أخذ سيفه فانتحر به وقتل نفسه، وقيل له في ذلك، فقال: إنه كان يقاتل حمية وعصبية، وأبى اللَّه إلا أن يموت على نيته، وصدق فيه كلام من لا ينطق عن الهوى. وقال رجل: يا رسول الله! أحدنا يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) البقرة: الآية (٢٦٤). (٢) النساء: الآية (٣٨).

(٣) إصلاح المجتمع (ص: ١٣-١٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦/ ١١٢٤٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١-٣٣٢)، والبخاري (٦/ ١١١-١١٢/ ٢٨٩٨)، ومسلم (١/ ١٠٦/ ١١٢)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

«مَنْ قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله»[(١)]. ويدخل في قوله ﷺ: «من سمّع سمّع اللَّه به» الذين يشققون الخطب، وينمقون الألفاظ، ويتقعرون في الكلمات، ويمططون أصواتهم بالتلاوة والآذان، ليقال: أصواتهم حسنة، وألسنتهم فصيحة، وما لهم من بلاغة القول إلا ما تستحسنه الآذان، ولا ينفذ منها إلى القلوب، وإنما يؤثر في النفوس القول البليغ الذي يتوصل به السامع إلى قصد المتكلم، ويبلغ به المنفعة المرجوّة له ولقائله، وكذلك يدخل فيه الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، والذين يتتبعون عثرات الناس، ويتكشفون عوراتهم، من أجل أن يفضحوهم، وإذا سمعوا منهم الكلمة طاروا بها في الآفاق، وملؤوا بها القلوب والآذان، لا لشيء سوى الإنكار على قائلها والتسميع به، واللَّه لا يحب كل أفاك أثيم»[(٢)].

قال ابن رجب: «واعلم أن العمل لغير اللَّه أقسام: فتارة يكون رياءً محضًا بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾[(٤)]، وكذلك وصف اللَّه تعالى الكفار بالرياء المحض في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[(٥)]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة والتي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من اللَّه والعقوبة. وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه»[(٦)].

قال: «وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فلا يضره، فإن

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢)، والبخاري (١٣/ ٥٤١/ ٧٤٥٨)، ومسلم (٣/ ١٥١٢/ ١٩٠٤)، وأبو داود (٣/ ٣١/ ٢٥١٧)، والترمذي (٤/ ١٥٣/ ١٦٤٦)، والنسائي (٦/ ٣٣٠/ ٣١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) إصلاح المجتمع (ص: ١٤-١٥).

(٣) النساء: الآية (١٤٢).

(٤) الماعون: الآية (٤).

(٥) الأنفال: الآية (٤٧).

(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٩).

كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، فإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، وأرجو أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره»[١].

«وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية»[٢].

«فأما إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقى اللَّه له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك بفضل ورحمة واستبشر بذلك، لم يضره ذلك»[٣].

«وبالجملة، فما أحسن قول سهل بن عبد الله: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب. وقال يوسف بن الحسين الرازي: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر. وقال ابن عيينة: كان من دعاء مطرف بن عبد الله: اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أوف به لك، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت»[٤].

وقد تقدم بعض مباحث الرياء عند قوله تعالى في سورة الكهف ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[٥] الآية.

* * *

(١) المصدر نفسه (١/ ٨٢-٨٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٨٣).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه (١/ ٨٤).
(٥) الكهف: الآية (١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

الماعون: مأخوذ من المَعْن، وهو الشيء القليل. قال المبرد والزجاج: الماعون كل ما فيه منفعة حتى الفأس والقدر والدلو وغير ذلك. وأنشدوا بيت الأعشى:

بأجْوَدَ منه بِمَاعُونِهِ إذا مَا سَمَاؤُهُمْ لم تَغِمِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ يقول: ويمنعون الناس منافع ما عندهم. وأصل الماعون من كلّ شيء منفعته، يقال للماء الذي ينزل من السحاب: ماعون، واختلف أهل التأويل في الذي عُني به من معاني الماعون في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِيَ به الزكاة المفروضة. وقال آخرون: هو ما يتعاوَرُهُ النّاس بينهم من مثل الدّلو والقِدر ونحو ذلك. وقال آخرون: الماعون: المعروف. وقال آخرون: الماعون هو المال.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب -إذ كان الماعون هو ما وصفنا قبل، وكان اللّه قد أخبر عن هؤلاء القوم، وأنهم يمنعونه الناس خبرًا عامًّا من غير أن يخصّ من ذلك شيئًا- أن يقال: إن اللّه وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب اللّه لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كلّ ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض»[1].

قال ابن كثير: «أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى..

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣١٣-٣١٩) بتصرف.

وقال عكرمة: رأس الماعون: زكاة المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة. رواه ابن أبي حاتم، وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد وهو: ترك المعاونة بمال أومنفعة، ولهذا قال محمد بن كعب: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ قال: المعروف، ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة»[1] »[2].

قال ابن العربي: «لما بينا أن الماعون من العون، كان كل ما ذكره العلماء في تفسيره عونًا، وأعظمه الزكاة إلى المحلاب، وعلى قدر الماعون والحاجة إليه يكون الذم في منعه، إلا أن الذم إنما هو على منع الواجب، والعارية ليست بواجبة على التفصيل، بل إنها واجبة على الجملة، واللَّه أعلم؛ لأن الويل لا يكون إلا لمن منع الواجب، فاعلموه وتحققوه»[3].

قال القرطبي: «وقيل لعكرمة مولى ابن عباس: من منع شيئا من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل، يعني: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالماعون.

قلت: كونها في المنافقين أشبه، وبهم أخلق، لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4]، وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[5]. وهذه أحوالهم ويبعد أن توجد من مسلم محقق، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ، وذلك في منع الماعون إذا تعين، كالصلاة إذا تركها. واللَّه أعلم. إنما يكون منعا قبيحا في المروءة في غير حال الضرورة. واللَّه أعلم»[6].

تنبيه:

قال الشيخ عطية محمد سالم: «في هذه السورة بيان منهج علمي يلزم كل باحث، وهو جمع أطراف النصوص وعدم الاقتصار على جزء منه، وذلك في قوله

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٤٤)، البخاري (١٠/ ٥٤٨/ ٦٠٢١)، الترمذي (٤/ ٣٠٦/ ١٩٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٦-٥١٨).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٨٥).

(٤) النساء: الآية (١٤٢).

(٥) التوبة: الآية (٥٤).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢١٥).

تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾، وهي آية مستقلة، ولو أخذت وحدها لكانت وعيدًا للمصلين. كما قال الشاعر الماجن في قوله:

دَعِ المَساجدَ للعبّاد تسكُنُها ... وسر إلى حانة الخَمَّارِ يَسقينا

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيلٌ للألى سكروا ... وإنما قَالَ وَيلٌ للمُصَلِّينا

ولذا لا بد من ضميمة ما بعدها للتفسير والبيان، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ ثم فسر هذا التفسير أيضًا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[1]. ويتفرع على هذا ما أخذه مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب الشهادة: أن الشخص لا يحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه، إلا إذا استشهدوه عليه، وقالوا: اشهد عليه، أو إلا إذا سمع الحديث من أوله مخافة أن يكون في أوله ما هو مرتبط بآخره، كما لو قال المتكلم للآخر: لي عندك فرس، ولك عندي مائة درهم، فيسمع قوله: لك عندي مائة درهم، ولم يسمع ما قبلها، فإذا شهد على ما سمع كان إضرارًا بالمشهود عليه، وهذه السورة تدل لهذا المأخذ، واللَّه تعالى أعلم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الماعون والحث على البذل

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا نعد الماعون على عهد رسول اللَّه ﷺ عارية الدلو والقدر»[3].

★ **فوائد الحديث:**

وفي الحديث تفسير لفظ الماعون وقد تقدم في توضيح الآية.

قال محمود خطاب السبكي: «وفي الحديث الحث والترغيب في بذل ما به يكون التعاون والتآلف من هذه الأشياء القليلة، والتنفير من البخل بها، ولذا قال العلماء: يستحب أن يكثر الرجل في بيته ما يحتاج إليه الجيران؛ ليعيرهم منه، ولا يقتصر على الواجب»[4].

---

(١) الماعون: الآيتان (٦-٧). (٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٦٠-٥٦١).

(٣) أخرجه: أبو داود (٢/ ٣٠٢/ ١٦٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٢/ ١١٧٠١)، وصححه الحافظ في «الفتح» (٨/ ٩٤٨).

(٤) المنهل العذب المورود (٢/ ٢٩٨-٢٩٩).

قال صديق حسن خان: «العارية من مكارم الأخلاق، ومحاسن الطاعات، وأفضل الصلات؛ لأنها إباحة المالك لمنافع ملكه لمن له إليه حاجة، ولا ريب أن هذا الفعل داخل تحت نصوص الكتاب والسنة؛ فإن فيهما من الترغيب في ذلك ما لا يحيط به الحصر، ومن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾»[2].

قال شيخ الإسلام: «إذا قدر أن قومًا اضطروا إلى سكنى في بيت إنسان إذا لم يجدوا مكانًا يأوون إليه إلا ذلك البيت، فعليه أن يسكنهم، وكذلك لو احتاجوا إلى أن يعيرهم ثيابًا يستدفئون بها من البرد، أو إلى آلات يطبخون بها، أو يبنون أو يسقون: يبذل هذا مجانًا، وإذا احتاجوا إلى أن يعيرهم دلوًا يستقون به، أو قدرًا يطبخون فيها، أو فأسًا يحفرون به: فهل عليه بذله بأجرة المثل لا بزيادة؟ فيه قولان للعلماء في مذهب أحمد وغيره. والصحيح وجوب بذل ذلك مجانًا إذا كان صاحبها مستغنيًا عن تلك المنفعة وعوضها، كما دل عليه الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾، وفي السنن عن ابن مسعود قال: «كنا نعد الماعون عارية الدلو والقدر والفأس»[3]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما ذكر الخيل قال: **«هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها»**[4]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«من حق الإبل إعارة دلوها وإضراب فحلها»**[5]. وثبت عنه ﷺ **«أنه نهى عن عسب الفحل»**[6]. وفي الصحيحين عنه أنه قال: **«لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبة في جداره»**[7]. وإيجاب بذل هذه المنفعة مذهب أحمد وغيره.

---

(١) المائدة: الآية (٢).

(٢) التعليقات الرضية (٢/ ٤٨٥). (٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٣)، والبخاري (٥/ ٥٨/ ٢٣٧١)، ومسلم (٢/ ٦٨٠/ ٩٨٧)، والترمذي (٤/ ١٤٨/ ١٦٣٦)، والنسائي (٦/ ٥٢٥-٥٢٦/ ٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٢/ ٢٧٨٨).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢١)، ومسلم (٢/ ٦٨٤-٦٨٥/ ٩٨٨) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٤)، والبخاري (٤/ ٥٨١/ ٢٢٨٤)، وأبو داود (٣/ ٧١١-٧١٢/ ٣٤٢٩)، والترمذي (٣/ ٥٧٢/ ١٢٧٣)، والنسائي (٧/ ٣٥٦/ ٤٦٨٥) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٠)، والبخاري (٥/ ١٣٨/ ٢٤٦٣)، ومسلم (٣/ ١٢٣٠/ ١٦٠٩)، وأبو داود (٤/ ٤٩/ ٣٦٣٤)، والترمذي (٣/ ٦٣٥/ ١٣٥٣)، وابن ماجه (٢/ ٧٨٢-٧٨٣/ ٢٣٣٥).

ولو احتاج إلى إجراء ماء في أرض غيره من غير ضرر بصاحب الأرض: فهل يجبر؟ على قولين للعلماء هما روايتان عن أحمد. والأخبار بذلك مأثورة عن عمر ابن الخطاب قال للمهنع: (واللَّه لنجرينها ولو على بطنك)[١].

ومذهب غير واحد من الصحابة والتابعين: أن زكاة الحلي عاريته. وهو أحد الوجهين في مذهب أحمد وغيره. والمنافع التي يجب بذلها نوعان: منها ما هو حق المال، كما ذكره في الخيل والإبل وعارية الحلي. ومنها ما يجب لحاجة الناس. وأيضًا فإن بذل منافع البدن يجب عند الحاجة كما يجب تعليم العلم، وإفتاءالناس، وأداء الشهادة، والحكم بينهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، وغير ذلك من منافع الأبدان»[٢].

* * *

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٧٤٦/ ٣٣)، والبيهقي (٦/ ١٥٧)، والشافعي في مسنده (٢٢٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٩٨-٩٩).



سورة الكوثر

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت على بشارة النبي ﷺ بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وأمره بأن يشكر اللَّه على ذلك بالإقبال على العبادة.

وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من اللَّه تعالى؛ لأنهم أبغضوا رسوله، وغضب اللَّه بتر لهم إذا كانوا بمحل السخط من اللَّه، وأن انقطاع الولد الذكر فليس بترا؛ لأن ذلك لا أثر له في كمال الإنسان»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٢).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

الكوثر: نهر في الجنة وعد به النبي ﷺ من ربه. وأصل الكوثر: المبالغة في الكثير. وتَكَوْثَرَ الشيءُ: كثر كثرة متناهية. قال الشاعر:

أَبَوْا أن يُبِيحُوا جَارَهُمْ لِعَدُوِّهِمْ   وَقَدْ ثار نقع الموت حتى تَكَوْثَرَا

والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وأنت كثير يا بْنَ مَرْوَانَ طَيِّبُ   وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثَرَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «اختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ على ستة عشر قولا:

الأول: أنه نهر في الجنة..

والثاني: أنه حوض النبي ﷺ في الموقف[1].. والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة.. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرا، لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد ﷺ هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. وأصح هذه الأقوال الأول والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي ﷺ نص في الكوثر.

وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت اللَّه أن يسقيها من حوض النبي ﷺ.

---

(١) اقتصرنا من كلام القرطبي على القولين السابقين لأن صريح الأحاديث تشهد لهما وسيأتي ذكر باقي الأقوال في كلام الحافظ ابن حجر في فوائد الأحاديث.

وفي حوضه يقول الشاعر:

يا صاحب الحوض من يدانيكا وأنت حقا حبيب باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول اللّه ﷺ زيادة على حوضه ﷺ تسليما كثيرا»[1].

قال ابن جرير الطبري بعد ذكر الأقوال في المراد بالكوثر: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هو اسم النهر الذي أُعطيه رسول اللّه ﷺ في الجنة، وصفه اللّه بالكثرة؛ لعظَم قدره. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك لتتابع الأخبار عن رسول اللّه ﷺ بأن ذلك كذلك»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معطٍ كبير غني واسع، وأنه تعالى وملائكته وجنده معه. صدر الآية بـ(إنَّ) الدالة على التأكيد وتحقيق الخبر، وجاء الفعل بلفظ الماضي الدال عن التحقيق، وأنه أمر ثابت واقع، ولا يدفعه ما فيه من الإيذان، بأن إعطاء الكوثر سابق في القدر الأول حين قُدِّرت مقادير الخلائق، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم؛ لما فيه من عدم التعيين، وأتي بالصفة، أي: أنه ﷺ قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، فوصفه بالكوثر، والكوثر المعروف إنما هو نهر في الجنة، كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة. وقال ابن عباس: الكوثر: إنما هو من الخير الكثير الذي أعطاه اللّه إياه، وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات، فما الظن بما لرسول اللّه ﷺ مما أعده اللّه له فيها؟! فالكوثر علامة وأمارة على تعدد ما أعده اللّه له من الخيرات، واتصالها وزيادتها، وسمو المنزلة وارتفاعها.

وإن ذلك النهر -وهو الكوثر- أعظم أنهار الجنة، وأطيبها ماء، وأعذبها، وأحلاها، وأعلاها. وذلك أنه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى وتمامه. كقوله: زيد العَالِم، زيد الشجاع، أي: لا أعلم منه ولا أشجع منه، وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، دل على أنه أعطاه الخير كله كاملًا

(١) الجامع (٢٠/ ٢١٧و٢١٨).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٢٣).

موفرًا، وإن نال منه بعض أمته شيئًا، كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه، والاقتداء به، مع أن له ﷺ مثل أجره من غير أن ينقص من أجر المتبع له شيء، ففيه الإشارة إلى أن اللَّه تعالى- يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم، فإنه هو السبب في هدايتهم ونجاتهم، فينبغي -بل يجب- على العبد اتباعه والاقتداء به، وأن يمتثل ما أمره به، ويكثر من العمل الصالح صومًا وصلاة وصدقة وطهارة؛ ليكون له مثل أجره، فإنه إذا فعل المحظورات، فات الرسول مثل أجر ما فرط فيه من الخير، فإن فعل المحظور مع ترك المأمور قوي وزره، وصعبت نجاته؛ لارتكابه المحظور وتركه المأمور، وإن فعل المأمور وارتكب المحظور، دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ؛ لكونه ناله مثل أجر ما فعله من المأمور، وإلى اللَّه إياب الخلق، وعليه حسابهم، وهو أعلم بحالهم، أي: بأحوال عباده، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته، والمحسن إنما أحسن بتوفيق اللَّه له، والمسيء لا حجة له ولا عذر.

والمقصود أن الكوثر نهر في الجنة، وهو من الخير الكثير الذي أعطاه اللَّه رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، وهذا غير ما يعطيه اللَّه من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة، فكل من قرأ، أو علم أو عمل صالحًا، أو علم غيره، أو تصدق، أو حج، أو جاهد، أو رابط، أو تاب، أو صبر، أو توكل، أو نال مقامًا من المقامات القلبية من خشية وخوف ومعرفة وغير ذلك؛ فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل، واللَّه أعلم»[١].

قال عطية محمد سالم: «والذي تطمئن إليه النفس أن الكوثر: هو الخير الكثير، وأن الحوض أو النهر من جملة ذلك.

وقد أتت آيات تدل على إعطاء اللَّه لرسوله الخير الكثير، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾[٢] الآية. وفي القريب سورة الضحى وفيها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾[٣]، أعقبها بنعم جليلة من شرح الصدور، ووضع الوزر، ورفع الذكر، واليسر بعد العسر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢٩-٥٣١).
(٢) الحجر: الآية (٨٧).
(٣) الضحى: الآية (٥).

وبعدها في سورة التين جعل بلده الأمين، وأعطى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أجرًا غير ممنون.

وبعدها سورة اقرأ، امتن عليه بالقرآن، وعلمه ما لم يكن يعلم، وبعدها سورة القدر: أعطاه ليلة خيرًا من ألف شهر، وبعدها سورة البينة: جعل أمته خير البرية، ومنحهم رضاه عنهم، وأرضاهم عنه، وبعدها سورة الزلزلة: حفظ لهم أعمالهم، فلم يضيع عليهم مثقال الذرة من الخير، وفي سورة العاديات: أكبر عمل الجهاد، فأقسم بالعاديات في سبيل اللَّه، والنصر على الأعداء، وفي سورة التكاثر: تربيتهم على نعمه ليشكروها، فيزيدهم من فضله، وفي سورة العصر: جعل أمته خير أمة أخرجت للناس، تؤمن باللَّه وتعمل الصالحات وتتواصى بالحق وتدعو إليه، وتتواصى بالصبر، وتصبر عليه، وبعدها في سورة قريش: أكرم اللَّه قومه، فآمنهم وأعطاهم رحلتيهم، وفي السورة التي قبلها مباشرة، وهي سورة الماعون: يمكن عمل مقارنة تامة أولًا، وفي الجملة، لئن كان المنافقون يمنعون الماعون، فقد أعطيناك الخير الكثير ثانيًا.

وعلى التفصيل: ففي الأولى، وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم، وفي الضحى قد بين له حق اليتيم ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝﴾[(١)]، فكان هو خير موكل، وخير كافل، ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين.

وقد أوضح له في الضحى، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾[(٢)]، فكان يؤثر السائل على نفسه، وهؤلاء ساهون عن صلاتهم يراءون بأعمالهم.

وفي هذه السورة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، أداء الصلاة، وخالصة لربه، وإطعام المسكين بنحر الهدي والضحية والصدقة، وكل ذلك خير كثير، يضاف إلى ما جاءت به السنة، كما في حديث: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة، وأحلّت لي الغنائم ولم تكن تحل لأحد قبلي. وكان النَّبي يبعث لقومه خاصة، فبعثت للناس كافة، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل**»[(٣)].

---

(١) الضحى: الآية (٩). (٢) الضحى: الآية (١٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠) من حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ.

وقوله: «رفع لي عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

قال ﷺ: «إن الله تعالى قال: قد فعلت، قد فعلت»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾(٤)، وهو المقام الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون. إلى غير ذلك من النصوص، بما يؤكد قول ابن عباس عند البخاري: إن الكوثر: الخير الكثير. وأن النهر في الجنة من هذا الكوثر الذي أعطيه ﷺ»(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الكوثر وبيان صفة الحوض

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»(٦).

* عن حذيفة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ قال: «نهر في الجنة أجوف، فيه آنية من الذهب والفضة، لا يعلمه إلا الله»(٧).

* عن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٦٥٩/ ٢٠٤٥) والحاكم (٢/ ١٩٨) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي وأخرجه ابن حبان (١٦/ ٢٠٢/ ٧٢١٩)، واللفظ له. قال البوصيري: «إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع، بدليل زيادة عبيد بن نمير في الطريق الثاني.. وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلس». وقال ابن حجر: «قال النووي في الطلاق من الروضة في تعليق الطلاق: حديث حسن، وكذا قال في أواخر الأربعين له انتهى» [التلخيص الحبير (١/ ٢٨١)]. وقال السخاوي: «والحديث يروى عن ثوبان وأبي الدرداء وأبي ذر، ومجموع هذه الطرق يظهر أن للحديث أصلا» [المقاصد الحسنة (ص: ٢٣٠)].

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٣)، والمسلم (١/ ١١٦/ ١٢٦)، والترمذي (٥/ ٢٠٦/ ٢٩٩٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٧/ ١١٠٥٩).

(٤) الإسراء: الآية (٧٩).

(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٥٦٧-٥٧١).

(٦) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٦/ ٦٥٨٠)، ومسلم (٤/ ١٨٠٠/ ٢٣٠٣).

(٧) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٢/ ٥٧٩-٥٨٠/ ١٩٩٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٣): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن».

حافتاه قِباب اللؤلؤ مجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»[١].

⋆ غريب الحديث:

حافتاه: بتخفيف الفاء: جانباه. ولا منافاة بين كونه نهرًا أو حوضًا؛ لإمكان اجتماعهما.

قِباب: بكسر القاف وتخفيف الباء الموحدة الأولى: جمع قُبَّة، وهو بناء سقفه مستدير مقعر، أي: خيام اللؤلؤ.

مجوف: أي: أجوف، وفيه تجويف، قال القاري: «الذي له جوف وفي وسطه خلاء يسكن فيه»، قال العيني: «أي: الخاوي».

الكوثر: «على وزن (فَوْعَل) من الكثرة، سمي به النهر لكثرة مائه وآنيته وعظم قدره وخيره، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرًا».

* عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قالت: **«هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم»**[٢].

⋆ غريب الحديث:

شاطئاه: قال الحافظ: أي: حافتاه.

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«أمامكم حوض كما بين جرباء وأذرح»**[٣].

⋆ غريب الحديث:

جرباء: «كأنه تأنيث الأجرب: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام، قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، وهي قرية من أذرح وبينهما كان أمر الحكمين بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، وروي: جربى بالقصر، والجرباء أيضًا: ماء لبني سعد بن زيد بن تميم بين البصرة واليمامة».

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٥-٢٦٣)، والبخاري (٨/ ٩٤٨/ ٤٩٦٤)، والترمذي (٥/ ٤١٨/ ٣٣٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٣-٥٢٤/ ١١٧٠٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٣١/ ٤٩٦٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٣/ ١١٧٠٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري (١١/ ٥٦٦/ ٦٥٧٧)، ومسلم (٤/ ١٧٩٧/ ٢٢٩٩).

أذرح: بالفتح ثم السكون وضم الراء والحاء المهملة: هو جمع ذريحة، جمعها الذرائح، وأذرح إن كان منه فهو على غير قياس؛ لأن (أَفْعُلًا) جمع (فعل) غالبًا، وهي هضاب تنبسط على الأرض حمر، وإن جعل جمع الذَّرَح، وهو شجر تتخذ منه الرحالة نحو زَمَن وأَزْمُن، فأصل (أَفْعُل) أن يجمع على (أفعلا) فيكون أيضًا على غير قياس، فأما أزمن فمحمول على دهر وأدهر؛ لأن معناهما واحد. وهو اسم بلد في أطراف الشام من أعمال السراة ثم من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز، قال ابن وضاح: هي من فلسطين دون غلط منه، إنما هي من قبلي فلسطين من ناحية الشراة، وحدثني الأمير شرف الدين يعقوب بن الحسن الهذياني قبيل من الأكراد ينزلون في نواحي الموصل، قال: رأيت الأذرح والجرباء غير مرة وبينهما ميل واحد وأقل؛ لأن الواقف في هذه ينظر في هذه، واستدعى رجلًا من أهل تلك الناحية ونحن بدمشق واستشهده على صحة ذلك، فشهد به، ثم لقيت أنا غير واحد من أهل تلك الناحية وسألتهم عن ذلك، فكل قال مثل قوله»[(١)].

قال الحافظ صلاح الدين العلائي بعد أن حكى قول ابن الأثير في النهاية: «هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، ثم غلطه في ذلك وقال: ليس كما قال، بل بينهما غلوة سهم، هما معروفتان بين القدس والكرك، قال الحافظ ابن حجر: «وهذا يوافق رواية أبي سعيد عند ابن ماجه كما بين الكعبة وبيت المقدس»[(٢)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: **نزلت علي آنفًا سورة، فقرأ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: **أتدرون ما الكوثر؟** فقلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: **فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول**: رب! إنه من أمتي، **فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك**»[(٣)].

---

(١) معجم البلدان (١/ ١٢٩-١٣٠).
(٢) فتح الباري (١١/ ٥٧٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٢)، ومسلم (١/ ٣٠٠/ ٤٠٠)، وأبو داود (٥/ ١١٠/ ٤٧٤٧)، والنسائي (٢/ ٤٧١/ ٩٠٣).

★ **غريب الحديث:**

أغفى إغفاءة: «أي: أخذته سنة، وهي النوم الذي في العين، وهذه الحالة التي كان يوحى إليه ﷺ فيها غالبًا».

* عن ثوبان رضي الله عنه أن نبي اللَّه ﷺ قال: «**إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن، أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم**». فسئل عن عرضه فقال: «**من مقامي إلى عمان**». وسئل عن شرابه، فقال: «**أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق**»[١].

★ **غريب الحديث:**

إني لبعقر حوضي: «قال ثابت: عقر الحوض، بضم العين وسكون القاف، كوقف الإبل: إذا وردته، وقال غيره: عقره: مؤخره، وعَقر الدار، بفتح العين: أصلها، ويقال هذا بالضم أيضًا، وهي لغة الحجازيين، وقال أبو زيد: عقر دار القوم: وطنهم، وقال ثابت: عقر الدار: معظمها وبيضها، وقال يعقوب: العقر: البناء المرتفع».

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله! ما آنية الحوض؟ قال: «**والذي نفس محمد بيده! لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله: ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

يشخب: أي: يسيل، وهو بالشين والخاء المعجمتين، والشَّخب، بالفتح في الشين: المصدر، وهو السيلان، وبالضم: الاسم، يقال في المثل: شخب في الأرض، وشخب في الإناء، وأصل ذلك في الحالب المفرط، وفي الرواية الأخرى: «يغت» بالغين المعجمة وبالمثناة فوق، وهي الرواية المشهورة، ومعناه:

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٠)، ومسلم (٤/ ١٧٩٩/ ٢٣٠١).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ١٧٩٨/ ٢٣٠٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٤/ ٢٤٤٥).

الصب المتوالي المتتابع، وأصله: إتباع الشيء الشيء، يعني أنه يصب دائمًا متتابعًا صبًا شديدًا سريعًا، وقد رواه العذري: «يعب» بالعين المهملة وبالموحدة، وكذا ذكره الحربي وفسره بالعب، وهو شرب الماء جرعة بعد جرعة، ورواه ابن ماهان: «يثعب» بثاء مثلثة قبل العين المهملة، ومعناه: تتفجر وتسيل، ومنه «**وجرحه يثعب دمًا**»».

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه اللَّه إياه**». قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناسًا يزعمون أنه نهر الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللَّه إياه[(١)].

* عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ وذكر الحوض فقال: «**كما بين المدينة وصنعاء**»[(٢)].

* عن حارثة رضي الله عنه سمع النبي ﷺ قال حوضه ما بين صنعاء والمدينة. فقال له المستورد: ألم تسمعه قال الأواني؟ قال: لا، قال المستورد: «**ترى فيه الآنية مثل الكواكب**»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبدًا**»[(٤)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «سئل رسول اللَّه ﷺ: ما الكوثر؟ قال: **ذاك نهر أعطانيه اللَّه يعني في الجنة-، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها كأعناق الجزر**. قال عمر: إن هذه لناعمة. قال رسول اللَّه ﷺ: **أكلتها أحسن منها**»[(٥)].

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣٧/ ٦٦٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٣/ ١١٧٠٤).
(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٨/ ٦٥٩١)، ومسلم (٤/ ١٧٩٧/ ٢٢٩٨).
(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٨/ ٦٥٩٢)، ومسلم (٤/ ١٧٩٧/ ٢٢٩٨).
(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٦/ ٦٥٧٩)، ومسلم (٤/ ١٧٩٣-١٧٩٤/ ٢٢٩٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٠-٢٢١)، والترمذي (٤/ ٥٨٧/ ٢٥٤٢) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٣/ ١١٧٠٣)، والحاكم (٢/ ٥٣٧) لكن عنده أن الذي قال: «يا رسول الله! إنها لناعمة» هو أبو بكر رضي الله عنه.

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج**»[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال المباركفوري معلقًا على حديث أنس: «لما عرج برسول اللَّه ﷺ..»: «هذا نص صريح في أن المراد بالكوثر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ هو هذا النهر المذكور في هذا الحديث، وروى البخاري في صحيحه عن أبي عبيدة عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، قالت: «نهر أعطيه نبيكم ﷺ» الحديث، وروى من طريق أبي بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه اللَّه إياه»»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: «وحاصل ما قاله سعيد بن جبير أن قول ابن عباس «إنه الخير الكثير» لا يخالف قول غيره: إن المراد به نهر في الجنة؛ لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير. ولعل سعيدًا أومأ إلى أن تأويل ابن عباس أولى لعمومه، لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ، فلا معدل عنه. وقد نقل المفسرون في الكوثر أقوالًا أخرى غير هذين تزيد على العشرة، منها: قول عكرمة: الكوثر: النبوة، وقول الحسن: الكوثر: القرآن، وقيل: تفسيره، وقيل: الإسلام، وقيل: إنه التوحيد، وقيل: كثرة الأتباع، وقيل: الإيثار، وقيل: رفعة الذكر، وقيل: نور القلب، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: إجابة الدعاء، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس»[٣].

قال أبو عمر: «الأحاديث في حوضه ﷺ متواترة صحيحة ثابتة كثيرة، والإيمان بالحوض عند جماعة علماء المسلمين واجب، والإقرار به عند الجماعة لازم، وقد نفاه أهل البدع من الخوارج والمعتزلة، وأهل الحق على التصديق بما جاء عنه في

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٧)، والترمذي (٥/ ٤١٩/ ٣٣٦١) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٥٠/ ٤٣٣٤).

(٢) تحفة الأحوذي (٩/ ٢٠٥).

(٣) فتح الباري (٨/ ٩٥٠).

ذلك ﷺ. . على هذا جماعة المسلمين إلا من ذكرنا، فإنهم لا يصدقون بالشفاعة ولا بالحوض ولا بالدجال. والآثار في الحوض أكثر من أن تحصى، وأصح ما ينقل ويروى، ونحن نذكر في هذا الباب ما حضرنا ذكره منها؛ لأنها مسألة مأخوذة من جهة الأثر، لا ينكرها من يرضى قوله ويحمد مذهبه، وباللَّه التوفيق»[١].

قال ابن كثير: «ذكرُ مَا وَرَدَ في الحوض المحمدي، سَقَانَا اللَّه منه يوم القيامة من الأحاديث المشهورة المتعددة من الطرق المأثورة الكثيرة المتضافرة، وإن رغمت أنوف كثير من المبتدعة المكابرة القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: من كذب بكرامة لم ينلها، ولو اطلع المنكر للحوض على ما سنورده من الأحاديث قبل مقالته لم يقلها»[٢].

وقال الإمام الطحاوي في عقيدته: «والحوض الذي أكرمه اللَّه تعالى به غياثًا لأمته حق».

قال ابن أبي العز: «قاتل اللَّه المنكرين لوجود الحوض، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين ورودهم يوم العطش الأكبر»[٣].

قال القاضي عياض: «وحديث الحوض صحيح، والإيمان به واجب، والتصديق به من الإيمان، وهو على وجهه عند أهل السنة والجماعة لا يتأول، ولا يحال عن ظاهره، خلافًا لمن لم يقل من المبتدعة النافين له، والمحرفين له بالتأويل عن ظاهره، وهو حديث ثابت متواتر النقل، رواه جماعة من الصحابة»[٤].

قال القرطبي: «ومما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به: أن اللَّه تعالى قد خص نبيه محمدًا ﷺ بالكوثر الذي هو الحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه وآنيته في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الشهيرة، التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، واليقين التواتري؛ إذ قد روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين، في الصحيحين منهم نيف على العشرين، وباقيهم في غيرهما مما صح نقله واشتهرت روايته، ثم قد رواها عن الصحابة من التابعين أمثالهم، ثم لم تزل

---

(١) فتح البر (٢/ ١٥٦).
(٢) النهاية في الفتن والملاحم (٢/ ٢٩).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١١٨).
(٤) الإكمال (٧/ ٢٦٠).

تلك الأحاديث مع توالي الأعصار، وكثرة الرواة لها في جميع الأقطار، تتوفر همم الناقلين لها على روايتها وتخليدها في الأمهات وتدوينها، إلى أن انتهى ذلك إلينا، وقامت به حجة اللَّه علينا، فلزمنا الإيمان بذلك، والتصديق به، كما أجمع عليه السلف وأهل السنة من الخلف. وقد أنكرته طائفة من المبتدعة، وأحالوه عن ظاهره، وغلوا في تأويله، من غير إحالة عقلية ولا عادية تلزم من إقراره على ظاهره، ولا منازعة شرعية ولا نقلية تدعو إلى تأويله، فتأويله تحريف صدر عن عقل سخيف، خرق به إجماع السلف، وفارق به مذهب أئمة الخلف»[١].

قال الحافظ: «أنكره الخوارج وبعض المعتزلة. وممن كان ينكره عبيداللَّه بن زياد أحد أمراء العراق لمعاوية وولده، فعند أبي داود[٢] من طريق عبد السلام بن أبي حازم قال: «شهدت أبا برزة الأسلمي دخل على عبيداللَّه بن زياد فحدثني فلان وكان في السماط..» فذكر قصة فيها أن ابن زياد ذكر الحوض فقال: هل سمعت رسول اللَّه ﷺ يذكر فيه شيئًا؟ فقال أبو برزة: «نعم، لا مرة ولا مرتين ولا ثلاثًا ولا أربعًا ولا خمسًا، فمن كذب به فلا سقاه اللَّه منه». وأخرج البيهقي في «البعث»[٣] من طريق أبي حمزة عن أبي برزة نحوه، ومن طريق يزيد بن حبان التيمي: «شهدت زيد بن أرقم، وبعث إليه ابن زياد، فقال: ما أحاديث تبلغني أنك تزعم أن لرسول اللَّه ﷺ حوضًا في الجنة. قال: حدثنا بذلك رسول اللَّه ﷺ». وعند أحمد[٤] من طريق عبد اللَّه بن بريدة عن أبي سَبْرة -بفتح المهملة وسكون الموحدة- الهذلي قال: قال عبيداللَّه بن زياد: ما أصدق بالحوض، وذلك بعد أن حدثه أبو برزة والبراء وعائذ بن عمرو، فقال له أبو سبرة: بعثني أبوك في مال إلى معاوية، فلقيني عبد اللَّه بن عمرو، فحدثني وكتبته بيدي من فيه، أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**موعدكم حوضي**..» الحديث، فقال ابن زياد حينئذ: أشهد أن الحوض حق. وعند أبي يعلى من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس:

---

(١) المفهم (٦/ ٩٠). (٢) (٢/ ٦٥١/ ٤٧٤٩).

(٣) رقم الحديث (١٧٠)، وأخرجه أحمد (٤/ ٣٦٦)، والحاكم (١/ ٧٧)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٨١/ ٥٠٢١) والبزار (الكشف ١/ ١٧/ ٢١٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٤٤)، وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح».

(٤) (٢/ ١٦٢-١٦٣)، والحاكم (١/ ٧٥-٧٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٤) وقال: «رواه أحمد في حديث طويل وأبو سبرة هذا اسمه سالم بن سبرة قال أبو حاتم: مجهول، وله شاهد من حديث أنس سيأتي.

«دخلت على ابن زياد وهم يذكرون الحوض فقال: هذا أنس، فقلت: لقد كانت عجائز بالمدينة كثيرًا ما يسألن ربهن أن يسقيهن من حوض نبيهن»[١] وسنده صحيح»[٢].

قوله ﷺ: **«حوضي مسيرة شهر»** و«كما بين جرباء وأذرح» و**«كما بين أيلة وصنعاء اليمن»** و**«كما بين المدينة وصنعاء»**:

قال القرطبي: «ظن بعض الناس أن هذه التحديدات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف، وليس كذلك، وإنما تحدث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطبًا لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها، فيقول لأهل الشام: ما بين أذرح وجربا، ولأهل اليمن: من صنعاء إلى عدن وهكذا. وتارة أخرى يقدر بالزمان فيقول: مسيرة شهر. والمعنى المقصود أنه حوض كبير متسع الجوانب والزوايا، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات، فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها، والله أعلم. ولا يخطر ببالك أو يذهب وهمك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض، وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة على مسامتة هذه الأقطار، أو في المواضع التي تكون بدلًا من هذه المواضع في هذه الأرض، وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط»[٣].

قال الحافظ: «وحاصله أنه يشير إلى أنه أخبر أولًا بالمسافة اليسيرة، ثم أعلم بالمسافة الطويلة، فأخبره بها، كأن الله تفضل عليه باتساعه شيئًا بعد شيء، فيكون الاعتماد على ما يدل على أطولها مسافة»[٤].

زاد مسلم: **«وزواياه سواء»**: **قال القرطبي**: «أي أركانه معتدلة، يعني أن ما بين الأركان متساو، فهو معتدل التربيع»[٥].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٩٦/ ٣٣٥٥)، والحاكم (١/ ٧٨)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. والألباني في ظلال الجنة (٢/ ٢/ ٦٩٨).
(٢) فتح الباري (١١/ ٥٧١).
(٣) التذكرة (ص: ٣٠٤).
(٤) فتح الباري (١١/ ٥٧٦).
(٥) المفهم (٦/ ٩١-٩٢).

«**كيزانه كنجوم السماء**»: **قال الحافظ**: «في حديث أنس الذي بعده: «**وفيه من الأباريق كعدة نجوم السماء**»، ولأحمد من رواية الحسن عن أنس: «**أكثر من عدد نجوم السماء**»، وفي حديث المستورد في أواخر الباب: «**فيه الآنية مثل الكواكب**»، ولمسلم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر: «**فيه أباريق كنجوم السماء**»»[١].

زاد مسلم من رواية أنس: «**ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء**» وفي آخر الباب حديث حذيفة كذلك:

قال النووي: «المختار الصواب أن هذا العدد للآنية على ظاهره، وأنها أكثر عددًا من نجوم السماء، ولا مانع عقلي ولا شرعي يمنع من ذلك، بل ورد الشرع به مؤكدًا كما قال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء». وقال القاضي عياض: هذا إشارة إلى كثرة العدد وغايته الكثيرة من باب قوله ﷺ: «لا يضع العصا عن عاتقه»[٢]، وهو باب من المبالغة معروف في الشرع واللغة، ولا يعد كذبًا إذا كان المخبر عنه في حيز الكثرة والعظم ومبلغ الغاية في بابه، بخلاف ما إذا لم يكن كذلك. قال: ومثله: كلّمته ألف مرة، ولقيته مائة كرة، فهذا جائز إذا كان كثيرًا، وإلا فلا، هذا كلام القاضي، والصواب الأول»[٣].

قال القاري: «أباريق من الذهب والفضة» لعل اختلاف الوصفين باختلاف الشاربين من الأولياء والصالحين»[٤].

«**ماؤه أبيض من اللبن**» وفي رواية مسلم: «**أبيض من الورق**» و«**أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل**» و«**ماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج**»:

قال القاضي عياض: «وقوله: «ماؤه أبيض من الورق» وخرج هذا اللفظ على غير ما أصلته النحوية من أن فعل التعجب يكون ماضيه على ثلاثة أحرف، فإذا صار

---

(١) فتح الباري (١١/ ٥٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤١٢)، ومسلم (٢/ ١١١٤/ ١٤٨٠)، وأبو داود (٢/ ٧١٢-٧١٤/ ٢٢٨٤)، والترمذي (٣/ ٤٨٤/ ١١٨٠)، والنسائي (٦/ ٣٨٣-٣٨٥/ ٣٢٤٥)، وابن ماجه (١/ ٦٥٦/ ٢٠٣٥)، من حديث فاطمة بنت قيس؛ لكن الترمذي وابن ماجه لم يذكرا محل الشاهد.

(٣) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٤٥).

(٤) المرقاة (٩/ ٥١٢).

على أكثر من ثلاثة أحرف فلا يتعجب من فاعله، وإنما يتعجب من مصدره، فلا يقال: ما أبيض زيدًا، ولا زيد أبيض من عمرو، إنما يقال: ما أشد بياضه وأشد بياضًا من ذلك، وقول الشاعر:

جارية في ذرعها الفضفاض أبيض من أخت بني أياضي

إنما جاء استثناء ولا يقاس عليه، ومثله قول الآخر:

إذا الرجال شتوا واشتد أكلهم فأنت أبيضهم سربال طباخ

وهذا الذي وقع في الحديث يصحح كون ذلك لغة، وكذلك قول عمر رضي الله عنه: «فمن ضيعها فهو لما سواها أضيع»[1] قد احتج به بعضهم في أن التعجب قد يكون من الزائد على الثلاثي، وأنشدوا لذي الرمة:

وماشية خرقاء واهية الكلأ سقى بهما ساق ولم شللا

بأضيع من عينيك للماء كلما توهمت ربعا أو تذكرت منزلا»[2].

قال القرطبي: «ولا معنى لقول من قال من متعسفة النحاة: لا يجوز التلفظ بهذه الألفاظ بهذه الأصول المرفوضة مع صحة هذه الروايات وشهرة تلك الكلمات»[3].

قال المازري: «مقتضى كلام النحاة أن يقال: أشد بياضًا، ولا يقال: أبيض من كذا، ومنهم من أجازه في الشعر، ومنهم من أجازه بقلة، ويشهد له هذا الحديث وغيره. قلت: ويحتمل أن يكون ذلك من تصرف الرواة، فقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم بلفظ: «أشد بياضًا من اللبن»»[4].

قال العيني: «القول بأن هذا جاء من النبي ﷺ أولى من نسبة الرواة إلى الغلط على زعم النحاة واستشهاده لذلك برواية مسلم لا يفيده؛ لأنه لا مانع أن يكون النبي ﷺ استعمل أفضل التفضيل من اللون، فيكون حجة على النحاة»[5].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٦/ ٦)، والبيهقي في الكبرى (١/ ٤٤٥)، والطحاوي في شرح المعاني (١/ ١٩٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١/ ٥٣٦-٥٣٧/ ٢٠٣٨).

(٢) إكمال المعلم (٧/ ٢٦١-٢٦٤).

(٣) المفهم (٦/ ٩٨).

(٤) فتح الباري (١١/ ٥٧٧).

(٥) عمدة القاري (١٥/ ٦٤٥).

قوله: «**ريحه أطيب من المسك**»:

قال الحافظ: «في حديث ابن عمر عند الترمذي: «أطيب ريحًا من المسك»، ومثله في حديث أبي أمامة عند ابن حبان: «رائحته»»[1].

قوله: «**من شرب منها فلا يظمأ أبدًا**»، وعند مسلم: «**من شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا**»:

قال الحافظ: «(من شرب منها) أي: من الكيزان، وفي رواية الكشميهني: «من شرب منه -أي: من الحوض- فلا يظمأ أبدًا»، في حديث سهل بن سعد: «من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا»، وفي رواية موسى بن عقبة: «من ورده فشرب لم يظمأ بعدها أبدًا». وهذا يفسر المراد بقوله: «من مر به شرب» أي: من مر به فمكن من شربه فشرب لا يظمأ، أو من مكن من المرور به شرب»[2].

قال القاضي: «ظاهره يدل على أن الشرب منه بعد الحساب والنجاة من النار، فذلك للذي لا يظمأ لقوله: «لم يظمأ أبدًا»، وقيل: بل لا يشرب منه إلا من لا يقدر عليه بالنار، وقد يحتمل أن من شرب منه من هذه الأمة ثم قدر اللَّه عليه العقوبة بالنار على ذنوبه، أنه لا يعذب فيها بالظمأ، بل يكون عذابه بغير ذلك؛ إذ ظاهر حديث الحوض أنه تشرب منه الأمة كلها، إلا من ارتد على عقبه وغير وبدل»[3].

وقال أيضًا: «وقوله: «ومن ورد شرب» يعني أن الممنوع من شربه إنما هو من لم يرد عليه، وهم الذين زيدوا وذبوا عنه واختلجوا دونه، وأن كل من ورد يشرب»[4].

قال الكرماني: «فيه أن الشرب منه يكون بعد الحساب والنجاة من النار، وفيه أن الواردين المارين عليه كلهم يشربون، وإنما يمنع الذين يذاذون عن الحوض والمرور عليه»[5].

قال القرطبي: «وظاهر هذا وغيره من الأحاديث أن الورود على هذا الحوض والشرب منه؛ إنما يكون بعد النجاة من النار وأهوال يوم القيامة؛ لأن الوصول إلى ذلك المحل الشريف والشرب منه والوصول إلى موضع يكون فيه النبي ﷺ ولا يمنع

---

(١) فتح الباري (١١/ ٥٧٧).

(٢) فتح الباري (١١/ ٥٧٧).

(٣) إكمال المعلم (٧/ ٢٥٧).

(٤) إكمال المعلم (٧/ ٢٥٨).

(٥) الكواكب الدراري (٢٢/ ٦٧).

عنه؛ من أعظم الإكرام وأجل الإنعام، ومن انتهى إلى مثل هذا كيف يعاد إلى حساب أو يذوق بعد ذلك تنكيل خزي وعذاب، فالقول بذلك أوهى من السراب»[١].

قوله: «مجراه على الدر والياقوت»:

قال المباركفوري: «أي: جريان مائه عليهما، «تربته أطيب من المسك» ورواية أنس عند البخاري في «كتاب الرقاق»[٢]: «**فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر** -شك هدبة-» وعند الترمذي[٣]: قال: «**ثم ضرب بيده إلى طينه فاستخرج منها مسكًا**».

قال الطيبي: «(أذفر): أي: طيب الريح، والذَّفَر، بالتحريك، يقع على الطيب والكريه، ويفرق بينهما بما يضاف إليه ويوصف به»[٤].

قال الحافظ ابن حجر: «وقوله في آخره: «**طيبه أو طينه** -شك هدبة» هل هو بموحدة من الطيب أو بنون من الطين، وأراد بذلك أن أبا الوليد لم يشك في روايته أنه بالنون، وهو المعتمد، وتقدم في تفسير سورة (الكوثر) من طريق شيبان عن قتادة: «**فأهوى الملك بيده، فاستخرج من طينه مسكًا أذفر**»[٥]، وأخرج البيهقي في «البعث» من طريق عبد اللَّه بن مسلم عن أنس بلفظ: «**ترابه مسك**»»[٦].

«**فيها طير أعناقها كأعناق الجزر**»، قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول اللَّه ﷺ: «**أكلتها أحسن منها**»:

قال المباركفوري: «(طير أعناقها كأعناق الجُزُر) بضم الجيم والزاي: جمع جزور، وهو البعير، «إن هذه» أي: الطير؛ فإنه يذكر ويؤنث، «لناعمة» أي: سمان مترفة، كذا في النهاية. «أكلتها» ضبط في النسخة الأحمدية بفتح الهمزة والكاف واللام وبمد الهمزة وكسر الكاف. فعلى الأول جمع آكل، اسم فاعل، كطلبة جمع طالب، والمعنى: من يأكلها. وعلى الثاني: مؤنث أكل، وصيغة الواحد المؤنث

---

(١) المفهم (٦/ ٩١).

(٢) (١١/ ٥٦٦/ ٦٥٨١).

(٣) السنن (٥/ ٤٤٩/ ٣٣٦٠).

(٤) شرح الطيبي (١١/ ٣٥١٥).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٧)، وأبو داود (٥/ ١١١/ ٤٧٤٨)، والترمذي (٥/ ٤٤٩/ ٣٣٦٠)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (١٤/ ٣٩١-٣٩٢/ ٦٤٧٤). تنبيه: هذه الرواية التي عزاها الحافظ للبخاري في كتاب التفسير من طريق شيبان عن قتادة ليس في النسخة التي بين أيدينا.

(٦) فتح الباري (١١/ ٥٧٨).

قد تستعمل للجماعة»[١].

قوله: «يشخب فيه ميزابان من الجنة»، «يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة؛ أحدهما من ذهب والآخر من ورق»: قال القاضي عياض: «كذا روينا من طريق الفارسي والسجزي بغير المعجمة وتاء باثنتين فوقها، وكذا ذكره ثابت والهروي والخطابي وأكثرهم، ومعناه: إتباع الصب، وأصله: إتباع الشرب الشرب، والقول القول، فأراد أن هذين الميزابين يصبان فيه دائمًا، واللفظ يدل على أنه دفعة بعد دفعة، قال الهروي: معناه: يدفقان فيه الماء دفقًا شديدًا متتابعًا.. وقوله في الحديث الآخر: «يشخب فيه ميزابان» بالشين والخاء المعجمتين بمعناه، والشَّخب، بالفتح: السيلان بصوت»[٢].

قال عبد الحق الإشبيلي بعدما ذكر طول يوم القيامة وأحواله: «قد سمعت رحمك اللَّه بعطش هذا اليوم والتهابه، وما يصل إلى القلوب من أواره واحتراقه، وأن الماء في ذلك اليوم أعز موجود، وأعظم مفقود، وأن لا منهل مورود إلا صاحب المقام المحمود ﷺ، ولا مورد لأمته سواه، ولا برد أكبادهم إلا به، وأن الشربة منه تروي من الظمأ وتشفي من الصدى، وتذهب بكل داء، فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبدًا، وأنها ترد العقل العازب والشباب الذاهب، وتؤوب معها من الزمن الصالح ما لم يكن قبل تائب، وأنه لا يرد ذلك الحوض إلا من ورد في الدنيا حوض شرعه، وتمسك بسنته وتوفي على ملته، وإلا فيجلى عنه فلا يدنو منه ولا يكاد، ويضرب عنده ضربًا تنقطع له الجوارح والأكباد»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»**[٤].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «أي: ينقل يوم القيامة فينصب على الحوض. وقال الأكثر: المراد منبره بعينه الذي قال هذه المقولة وهو فوقه. وقيل: المراد المنبر الذي يوضع

---

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ٢١٢).　(٢) الإكمال (٧/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٣) كتاب العاقبة (ص: ٢٠٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (١١/ ٥٦٨/ ٦٥٨٨)، ومسلم (٢/ ١٠١١/ ١٣٩١).

له يوم القيامة، والأول أظهر».

وأولى الأقوال ما قاله صاحب «بهجة النفوس»، قال: «لم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره وأنه حق محسوس وموجود على حوضه ﷺ، وفيه من الفقه: الإيمان بالحوض وأنه حق، وأن المنبر عليه حق؛ لأن هذه الأحاديث وما أشبهها فائدتها التصديق بها؛ لأنه من متضمن الإيمان لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، فكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب فالإيمان به واجب»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر من يطرد عن الحوض

* عن عبد اللَّه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال ثم لَيُختلجنّ دوني، فأقول: يا رب! أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**[3].

⋆ غريب الحديث:

أنا فرطكم: «الفَرَط: بفتح الفاء والراء: الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها، يقال: فرطت القوم: إذا تقدمتهم لترتاد لهم الماء، وتهيئ لهم. وفيه بشارة لهذه الأمة، فهنيئًا لمن كان رسول اللَّه ﷺ فرطه».

لَيُختلجنّ: بفتح اللام وضم التحتانية وسكون الخاء المعجمة وفتح المثناة واللام وضم الجيم بعدها نون ثقيلة، أي: ينزعون أو يجذبون مني، يقال: اختلجه منه: إذا نزعه منه، أو جذبه بغير إرادته.

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ليردنّ عليّ ناس من أصيحابي الحوض، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي. فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»**[4].

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إني فرطكم على الحوض، من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم**

---

(١) البقرة: الآية (٣).
(٢) بهجة النفوس (٢/ ٩٤).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٧)، والبخاري (١١/ ٥٦٦/ ٦٥٧٦)، ومسلم (٤/ ١٧٩٦/ ٢٢٩٧).
(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٦٥٨٢)، ومسلم (٤/ ١٨٠٠/ ٢٣٠٤).

يحال بيني وبينهم»[١].

* قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: «**فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن غيّر بعدي**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

سُحقًا: بسكون الحاء المهملة فيهما، ويجوز ضمها، ومعناه: بُعدًا بُعدًا، ونصب بتقدير: ألزمهم اللَّه ذلك.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يحدث أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى**»[٣].

* عن ابن المسيب أنه كان يحدث عن أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يرد علي الحوض رجال من أصحابي فيحلؤون عنه، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى**»[٤].

⋆ غريب الحديثين:

فيجلون: بضم أوله وسكون الجيم وفتح اللام، أي: يصرفون. وفي رواية الكشميهني بفتح الحاء المهملة وتشديد اللام بعدها همزة مضمومة قبل الواو، وكذا للأكثر، ومعناه: يطردون. وحكى ابن التين: أن بعضهم ذكره بغير همزة، قال: وهو في الأصل مهموز، فكأنه سهل الهمزة».

القهقرى: إذا رجعوا إلى الخلف، ومعنى قولهم: رجع إلى القهقرى: رجع الرجوع المسمى بها الاسم، وهو رجوع مخصوص. وقيل: معناه: العدو الشديد.

---

(١) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٧/ ٦٥٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٩٣/ ٢٢٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٣)، والبخاري (١١/ ٥٦٧/ ٦٥٨٤)، ومسلم (٤/ ١٧٩٣/ ٢٢٩١).

(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٧/ ٦٥٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (١١/ ٥٦٨/ ٦٥٨٧).

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**بينا أنا نائم فإذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلت: أين؟ قال: إلى النار واللَّه، قلت: وما شأنهم، قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، قلت: أين؟ قال: إلى النار واللَّه، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل هَمَل النعم**»[1].

⋆ غريب الحديث:

هلم: خطاب للزمرة، ومعناه: تعالوا. وهو على لغة من لا يقول: هلمّا وهلمُّوا وهلمِّي.

زمرة: الزمرة الجماعة.

فلا أراه: فلا أظن أمره.

هَمَل النعم: بفتح الهاء والميم، وهو ما يترك مهملًا لا يتعهد ولا يرعى حتى يضيع ويهلك، أي: لا يخلص منهم من النار إلاّ قليل. وهذا يشعر بأنهم صنفان كفار وعصاة. وقال الخطابي: الهَمَل يطلق على الضوال، ويقال: الهمل: الإبل بلا راع، مثل النفش، إلاّ أن النفش لا يكون إلاّ ليلًا، والهمل يكون ليلًا ونهارًا. ويقال: إبل هاملة وهمال وهوامل، وتركتها هملًا -أي: سدىً-: إذا أرسلتها ترعى ليلًا أو نهارًا بلا راعٍ، وفي المثل: اختلط المرعى بالهمل.

* عن عقبة ﷺ أن النبي ﷺ خرج يومًا فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف على المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني واللَّه لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض -أو مفاتيح الأرض- وإني واللَّه ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»[2].

* عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: قال النبي ﷺ: «**إني على الحوض حتى**

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٥٦٤/ ٧٨٥٦).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٨/ ٦٥٩٠)، ومسلم (٤/ ١٧٩٩/ ٢٢٩٦).

أنظر من يرد علي منكم، وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب مني ومن أمتي. فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم». فكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن عن ديننا[١].

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «قال علماؤنا -رحمة الله عليهم أجمعين-: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع. ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء يعرفون به، ثم يقال لهم سحقًا، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقول لهم: سحقًا سحقًا، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[٢].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١١/ ٥٦٨-٥٦٩/ ٦٥٩٣)، ومسلم (٤/ ١٧٩٤/ ٢٢٩٣).

(٢) التذكرة (ص: ٣٠٦-٣٠٧).

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

وانحر: النحر في الإبل غالبًا. والذبح في البقر والغنم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهرُ الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] »[2].

وقال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الصلاة التي أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يصليها بهذا الخطاب، ومعنى قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فقال بعضهم: حضه على المواظبة على الصلاة المكتوبة، وعلى الحفاظ عليها في أوقاتها بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾..

وقال آخرون: بل عُنِيَ بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾: الصلاة المكتوبة، وبقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أن يرفع يديه إلى النحر عند افتتاح الصلاة والدخول فيها.. وقال آخرون: عني بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ المكتوبة، وبقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾: نحر البُدن.. وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك: صل يوم النحر صلاة العيد، وانحر نسكك.. وقال آخرون: قيل ذلك للنبي ﷺ؛ لأن قوما كانوا يصلون لغير اللَّه، وينحرون لغيره فقيل له: اجعل صلاتك ونحرك لله، إذ كان من يكفر باللَّه يجعله لغيره.. وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية يوم الحديبية، حين حصر النبيّ ﷺ وأصحابه، وصُدّوا عن

---

(١) الأنعام: الآيتان (١٦٢و١٦٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٢٣).

البيت، فأمره اللَّه أن يصلي، وينحر البُدن، وينصرف، ففعل.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: فصل وادع ربك وسله.. وكان بعض أهل العربية يتأوّل قوله: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ واستقبل القبلة بنحرك. وذُكر أنه سمع بعض العرب يقول: منازلهم تتناحر: أي هذا بنحر هذا: أي قبالته.. وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفء له، وخصك به من إعطائه إياك الكوثر.

وإنما قلت: ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- أخبر نبيه ﷺ بما أكرمه به من عطيته وكرامته، وإنعامه عليه بالكوثر، ثم أتبع ذلك قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾، فكان معلوما بذلك أنه خصه بالصلاة له، والنحر على الشكر له، على ما أعلمه من النعمة التي أنعمها عليه، بإعطائه إياه الكوثر، فلم يكن لخصوص بعض الصلاة بذلك دون بعض، وبعض النحر دون بعض وجه، إذ كان حثا على الشكر على النِّعَم.

فتأويل الكلام إذن: إنا أعطيناك يا محمد الكوثر، إنعاما منا عليك به، وتكرمة منا لك، فأخلص لربك العبادة، وأفرد له صلاتك ونسكك، خلافا لما يفعله من كفر به، وعبد غيره، ونحر للأوثان»[1].

وقال ابن عاشور: «أخذوا من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة دلالةً على أن الضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح -مع أن الضّأن- أفضل في الضحايا وهي لا تنحر، وأن النبي ﷺ لم يضحّ إلا بالضأن تغليب للفظ النحر، وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يومَ النحر وليشمل، الضحايا في البدن والهدايا في الحج، أو ليشمل الهدايا التي عُطل إرسالها في يوم الحديبية كما علمت آنفًا. ويرشح إيثارَ النحر رَعْيُ فاصلة الراء في السورة»[2].

قال ابن العربي: «وأما إن قلنا: إن معنى قوله: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ ضع يدك على نحرك، فقد اختلف في ذلك علماؤنا على ثلاثة أقوال: الأول لا توضع في فريضة ولا نافلة؛

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٥).

لأن ذلك من باب الاعتماد، ولا يجوز في الفرض، ولا يستحب في النفل. الثاني: أنه لا يفعلها في الفريضة، ويفعلها في النافلة، استعانة، لأنه موضع ترخص. الثالث يفعلها في الفريضة وفي النافلة، وهو الصحيح»[1].

ثم استدل بحديث وائل بن حجر عند مسلم وحديث سهل بن سعد عند البخاري.

وقال شيخ الإسلام: «أمره اللَّه أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين، وهما: الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى اللَّه، وإلى عدته وأمره، وفضله وخلفه، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن اللَّه الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر، وتركا لإعانة الفقراء وإعطائهم، وسوء الظن منهم بربهم ولهذا جمع اللَّه بينهما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه.

والمقصود: أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى اللَّه، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه اللَّه إياه من الكوثر والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان؛ بل الصلاة نهاية العبادات وغاية الغايات، كأنه يقول: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ الخير الكثير، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين شكرا لإنعامنا عليك، وهما السبب لإنعامنا عليك بذلك فقم لنا بهما، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما وإنعام بعدهما، وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار اللَّه وحسن الظن به وقوة اليقين، والوثوق بما في يد اللَّه أمر عجيب، إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثا وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها.

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٩٠).

وفي قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ إشارة إلى أنك لا تتأسف على شيء من الدنيا، كما ذكر ذلك في آخر «طه» و«الحجر» وغيرهما وفيها الإشارة إلى ترك الالتفات إلى الناس، وما ينالك منهم، بل صل لربك وانحر. وفيها التعريض بحال الأبتر الشانئ، الذي صلاته ونسكه لغير الله»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الذبح لغير اللَّه وتوقيت الذبح يوم النحر

* عن علي رضي الله عنه قال: «حدثني رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات: **لعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه، لعن اللَّه من لعن والديه، لعن اللَّه من أوى محدِثًا، لعن اللَّه من غير منار الأرض**»[2].

★ **غريب الحديث:**

محدِثًا: بكسر الدال، وهو الذي جنى على غيره جناية. وإيواؤه: إجارته من خصمه، والحيلولة بينه وبين ما يحق استيفاؤه، ويدخل في ذلك الجاني على الإسلام بإحداث بدعة إذا حماه عن التعرض له، والأخذ على يده لدفع عاديه.

منار الأرض: العلم والحد بين الأرضين، وذلك بأن يسويه أو يغيره ليستبيح بذلك ما ليس له بحق من ملك أو طريق.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وأما لعن من ذبح لغير اللَّه، فإن كان كافرًا يذبح للأصنام، فلا خفاء بحاله، وهي التي أهلّ بها لغير اللَّه، والتي قال اللَّه تعالى فيها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[3] على ما تقدم، وأما إن كان مسلمًا فيتناوله عموم هذا اللعن، ثم لا تحل ذبيحته؛ لأنه لم يقصد بها الإباحة الشرعية، وقد تقدم أنها شرط في الذكاة، ويتصور ذبح المسلم لغير اللَّه فيما إذا ذبح عابثًا، أو مجربًا لآلة الذبح، أو للهو ولم يقصد الإباحة، وما أشبه هذا»[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣١-٥٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٠٨)، ومسلم (٣/ ١٥٦٧/ ١٩٧٨)، والنسائي (٧/ ٢٦٦/ ٤٤٣٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٢١).

(٤) المفهم (٥/ ٢٤٤-٢٤٥).

قال النووي: «وأما الذبح لغير اللَّه، فالمراد به أن يذبح باسم غير اللَّه تعالى، كمن ذبح للصنم أو الصليب، أو لموسى أو لعيسى صلى اللَّه عليهما، أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة، سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا، نص عليه الشافعي، واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير اللَّه تعالى والعبادة له، كان ذلك كفرًا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا»[1].

قال شيخ الإسلام: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[2] ظاهره أنه ما ذبح لغير اللَّه مثل أن يقال: هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال فيه: باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلى اللَّه سبحانه كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه: باسم الله؛ فإن عبادة اللَّه سبحانه بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور. فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم شركًا من الاستعانة باسم هذا الغير في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه: باسم المسيح والزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه: لأجل المسيح والزهرة، أو قصد به ذلك أولى. وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير اللَّه ولم يحرم ما ذبح لغير اللَّه، كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم، بل لو قيل بالعكس لكان أوجه، فإن العبادة لغير اللَّه أعظم كفرًا من الاستعانة بغير اللَّه، وعلى هذا فلو ذبح لغير اللَّه متقربًا به إليه لحرم وإن قال فيه: بسم اللَّه، كما يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الأولياء والكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، ومن هذا الباب ما قد يفعله الجاهلون بمكة شرفها اللَّه وغيرها من الذبح للجن»[3].

قال النووي: «وذكر الشيخ إبراهيم المروزي من أصحابنا أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه أفتى أهل بخارة بتحريمه؛ لأنه مما أهل به لغير اللَّه تعالى، قال الرافعي: هذا إنما يذبحونه استبشارًا بقدومه، فهو كذبح العقيقة لولادة

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٣/ ١٢٠).

(٢) المائدة: الآية (٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٢٥٩).

المولود، ومثل هذا لا يوجب التحريم، والله أعلم»[١].

قال في «تيسر العزيز الحميد»: «إن كانوا يذبحون استبشارًا كما ذكر الرافعي فلا يدخل في ذلك، وإن كانوا يذبحونه تقربًا إليه فهو داخل في الحديث»[٢].

ويلحق بتحريم الذبح لغير الله الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله، ودليل ذلك حديث ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة، فأتى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»** قالوا: لا، قال: **«هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»** قالوا: لا، قال: **«أوفِ بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا في ما لا يملك ابن آدم»**[٣].

«وأما بوانة: فهي أسفل مكة دون يلملم»[٤].

قال السعدي: «إن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربًا إليها وشركًا بالله قد صار مشعرًا من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله، فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم، وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم، إبعادًا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر، التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله، خوفًا من التشبه المحذور»[٥].

قال شيخ الإسلام: «فلم يأذن النبي ﷺ لهذا الرجل أن يوفي بنذره مع أن الأصل في الوفاء أن يكون واجبًا حتى أخبره أنه لم يكن بها عيد من أعياد الكفار، وقال: لا وفاء لنذر في معصية الله، فإذا كان الذبح بمكان كان فيه عيدهم معصية، فكيف بمشاركتهم في نفس العيد»[٦].

وقال في «تيسير العزيز الحميد»: «وقوله: «أوف بنذرك» هذا يدل على أن الذبح

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٣/ ١٢٠).
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٥).
(٣) أخرجه: أبو داود (٣/ ٦٠٧/ ٣٣١٣)، ومن طريقه البيهقي (١٠/ ٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٧٥-٧٦/ ١٣٤١)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٠).
(٤) شرح الطيبي (٨/ ٢٤٤٩).
(٥) القول السديد (ص: ٤٤-٤٥).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٣٠-٣٣١).

لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغيره، أو في محل أعيادهم معصية؛ لأن قوله: «فأوف بنذرك» تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم، فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خاليًا عن هذين الوصفين، فيكونان مانعين من الوفاء، ولو لم يكن معصية لجاز الوفاء به، ولأنه عقبه بقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»، فدل أن الصورة المسؤول عنها مندرجة في هذا اللفظ العام؛ لأن العام إذا أورد على سبب فلا بد أن يكون السبب مندرجًا فيه، ولأنه لو كان الذبح فيما ذكر جائزًا لسوغ ﷺ للناذر الوفاء به كما سوغ لمن نذرت الضرب بالدف أن تضرب به؛ لأنه ﷺ استفصل، فلما قالوا: لا، قال له: «فأوف بنذرك»، وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانًا لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم، مانع من الذبح بها وإن نذر، وإلا لما حسن الاستفصال»[1].

قال الشيخ ابن عثيمين: «ويستفاد من الحديث: أنه لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير اللَّه، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنه يؤدي إلى التشبه بالكفار.

الثاني: أنه يؤدي إلى الاغترار بهذا الفعل؛ لأن من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظن أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أن هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾[2]»[3].

* عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «خطبنا النبي ﷺ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: **من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة ولا نسك**. فقال أبو بردة بن نيار خال البراء: يا رسول الله! فإني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، وأحببت أن تكون شاتي أول ما يذبح في بيتي، فذبحت شاتي وتغديت قبل أن آتي الصلاة. قال:

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٩٧).
(٢) التوبة: الآية (١٢٠).
(٣) مجموع فتاوى ورسائل (٩/ ٢٣٤).

شاتك شاة لحم. قال: يا رسول الله! فإن عندنا عناقًا لنا جذعة هي أحب إلي من شاتين، أفتجزي عني؟ قال: **نعم، ولن تجزئ عن أحد بعدك**»[١].

★ **غريب الحديث:**

عناقًا: العناق بفتح العين، وهي الأنثى من المعز إذا قويت ما لم تستكمل سنة، وجمعها: أعنق وعنوق.

★ **فوائد الحديث:**

استدل بهذا الحديث من فسر النحر في الآية بذبح المناسك يوم العيد كما تقدم عن ابن كثير في توضيح الآية. واستدل به أيضا على أنه لا يجوز أن يضحى قبل الصلاة.

قال ابن عبد البر: «لا خلاف بين العلماء أن من ذبح أضحيته قبل أن يغدو إلى المصلى ممن عليه صلاة العيد فهو غير مضحّ، وأنه ذبح قبل وقت الذبح، وكذلك من ذبح قبل الصلاة»[٢].

قال القاضي عياض: «قد أجمع المسلمون على أن الذبح لأهل الحضر لا يجوز قبل الصلاة».

قال ابن العربي: «من عجيب الأمر أن الشافعي قال: إن من ضحى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ فبدأ بالصلاة قبل النحر. وقد قال النبي ﷺ في البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: «أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، من فعل فقد أصاب نسكنا، ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه إلى أهله، وليس من النسك في شيء»، وأصحابه ينكرونه، وحبذا الموافقة»[٣].

وقد مضى القول عن الأضحية في سورة الحج الآية (٣٦).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٣)، والبخاري (٢/ ٥٦٩/ ٩٥٥)، ومسلم (٣/ ١٥٥٣-١٥٥٤/ ١٩٦١[٧])، وأبو داود (٣/ ٢٣٣-٢٣٤/ ٢٨٠٠)، والترمذي (٤/ ٧٨-٧٩/ ١٥٠٨)، والنسائي (٣/ ٢٠٥/ ١٥٦٩).

(٢) فتح البر (٩/ ٢٧٩).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٩٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

شانئك: الشانئ: المبغض. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾[1]، أي: بغضهم.

الأبتر: من الرجال: مَنْ لا عقب له. مأخوذ من البتر، وهو القطع. تقول: بترت الشيء بترًا: قطعته. ومنه السيف الباتر، أي: القاطع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه»[2].

وقال الشوكاني: «أي: إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعم خيري الدنيا والآخرة؛ أو الذي لا عقب له، أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته»[3].

وقال: «وظاهر الآية العموم، وأن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مر غير مرة»[4].

وقال الزمخشري: «﴿إِنَّ﴾ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ لا أنت؛ لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر والمنار، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر اللَّه ويثني بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له أبتر: وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة، وإن ذكر

(١) المائدة: الآية (٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٢٤).
(٣) فتح القدير (٥/ ٧٣٠).
(٤) فتح القدير (٥/ ٧٣٠).

ذكر باللعن. وكانوا يقولون: إنّ محمدًا صنبور: إذا مات مات ذكره»[1].

وقال ابن كثير: «وقال عكرمة: الأبتر: الفرد. وقال السُّدِّي: كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا: بُتر. فلما مات أبناء رسول اللَّه ﷺ قالوا: بتر محمد. فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا؛ بل قد أبقى اللَّه ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات اللَّه وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد»[2].

وقال شيخ الإسلام: وفي قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أنواع من التأكيد: أحدها تصدير الجملة بإن. الثاني: الإتيان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والاختصاص. الثالث: مجيء الخبر على أفعل التفضيل دون اسم المفعول. الرابع: تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه. وأنه أحق به من غيره، ونظير هذا في التأكيد قوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3] »[4].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام نفيس في تفسير سورة الكوثر يحسن إيراده هنا. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سورة (الكوثر)، ما أجلها من سورة! وأغزر فوائدها -على اختصارها- وحقيقة معناها تعلم من آخرها، فإنه ﷺ بتر شانئ رسوله من كل خير، فيبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحًا لمعاده، ويبتر قلبه فلا يَعِي الخير، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته، والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصرًا ولا عونًا، ويبتره من جميع القُرب والأعمال الصالحة، فلا يذوق لها طعمًا، ولا يجد لها حلاوة -وإن باشرها بظاهره- فقلبه شارد عنها.

وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ، وردّه لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره، أو كبيره، كمن شنأ آيات الصفات وأحاديث الصفات، وتأولها

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٩١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٠).
(٣) طه: الآية (٦٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٣).

على غير مراد اللَّه ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه، ومذهب طائفته، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت، ولا أحاديث الصفات قالها رسول اللَّه ﷺ.

ومن أقوى علامات شناءته لها، وكراهته لها، أنه إذا سمعها -حين يستدل بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق- اشمأز من ذلك، وحاد ونفر عن ذلك؛ لما في قلبه من البغض لها، والنفرة عنها. فأي شانئ للرسول أعظم من هذا؟ وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغنا والقصائد والدفوف والشَّبَّابات، إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأي شنآن أعظم من هذا؟ وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب.

وكذا من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان، ولكن أعظم من شنأه ورده: من كفر به وجحده، وجعله أساطير الأولين، وسحرًا يؤثر، فهذا أعظم وأطم انبتارًا.

وكل من شنأه له نصيب من الانبتار، على قدر شناءته له. فهؤلاء لما شنؤوه وعادوه، جازاهم اللَّه بأن جعل الخير كله معاديًا لهم، فبترهم منه، وخص نبيه ﷺ بضد ذلك، وهو أنه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه اللَّه في الدنيا والآخرة، فمما أعطاه في الدنيا: الهدى، والنصر، والتأييد، وقرة العين والنفس، وشرح الصدر، ونعم قلبه بذكره وحبه، بحيث لا يشبه نعيمَه نعيم في الدنيا البتة، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد، والحوض العظيم في موقف القيامة.. إلى غير ذلك. وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم، وهذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به.

وقولهَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك. والأبتر: المقطوع النسل، الذي لا يولد له خير ولا عمل صالح، فلا يتولد عنه خير، ولا عمل صالح. قيل لأبي بكر ابن عياش: إن بالمسجد قومًا يجلسون ويجلس إليهم، فقال: من جلس للناس، جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يموتون، ويحيي ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم؛ لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من

قولهَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾[1]، وأهل البدعة شنؤوا ما جاء به الرسول ﷺ، فكان لهم نصيب من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾.

فالحذَرَ الحذر أيها الرجل، من أن تكره شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، أو ترده لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك، أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات، أو بالدنيا، فإن اللَّه لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق، واتبع الرسول ما سأله اللَّه عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع، إنما يطاع تبعًا للرسول، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول، ما أطيع.

فاعلم ذلك واسمع، وأطع واتبع، ولا تبتدع، تكن أبتر مردودًا عليك عملك؛ بل لا خير في عمل أبتر من الاتباع، ولا خير في عامله. واللَّه أعلم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس قال: «قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المنصبر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة؟ قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾»[3].

★ **غريب الحديث:**

المنصبر: عند الطبري: الصنبور، قال ابن الأعرابي: الصُّنْبُور من النخلة: سَعَفات تنبُت في جذع النخلة غير مُسْتَأْرِضَةٍ من الأرض، وهو المُصَنْبِرُ من النخل، وإذا نبتت الصَّنابير في جذع النخلة أَضْوَتْها؛ لأَنها تأْخذ غذاء الأُمهات. قال أَبو عبيدة: الصُّنْبُورُ: النخلة تبقى منفردة، ويَدِقُّ أَسفلها ويَنْقَشِرُ. يقال: صَنْبَرَ أَسفلُ النخلة. ومُراد كفار قريش بقولهم: صُنْبُور، أَي: أَنه إذا قُلِعَ انقطع ذِكْرُه، كما

---

(١) الشرح: الآية (٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢٦-٥٣١).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٤/ ١١٧٠٧) والبزار (كشف الأستار ٣/ ٨٣/ ٢٢٩٣)، وابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٧٣/ ٥٤٤٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٥٣٤/ ٦٥٧٢) وقال ابن كثير بعدما ساق سند البزار: «وهو إسناد صحيح».

يذهب أَصل الصُّنْبُور؛ لأَنه لا عَقِب له. ورجل صنبور: فرد ضعيف، لا أهل له ولا عقب ولا ناصر».

المنبتر: قال ابن الأثير: المنبتر: الذي لا ولد له.

⋆ فوائد الحديث:

في هذا الأثر بيان سبب نزول الآية كما ذكر ذلك المفسرون. اهـ.

* * *



سورة الكافرون

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن سورة الكافرون تعدل ربع القرآن

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «تعدل ربع القرآن»:

قال الرازي: «والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات، والنهي عن

---

(١) أخرجه: الحاكم (١/ ٦٦٥) من طريق غسان بن الربيع حدثنا جعفر بن ميسرة عن أبيه عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: . . فذكره. قال الحاكم: «صحيح»، وتعقبه الذهبي بقوله: بل جعفر بن ميسرة منكر الحديث جدًا، قاله أبو حاتم، وغسان ضعفه الدارقطني. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٠٥) وفي «الأوسط» من طريق عبيدالله بن زحر عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه وفيه: «ابن زحر صدوق يخطئ، وليث صدوق اختلط فترك». وله شاهد أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٧)، والترمذي (٥/ ١٥٣/ ٢٢٩٥) من طريق سلمة بن وردان قال: سمعت أنس بن مالك يقول فذكره. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن رجاله ثقات غير سلمة فإنه ضعيف لسوء حفظه، وله طرق أخرى:

١- عن أنس: أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٢/ ٢٨٩٣)، والعقيلي في الضعفاء (٨٩)، وقال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم».

٢- أخرجه: الترمذي (٥/ ١٥٣/ ٢٨٩٤)، والحاكم (١/ ٥٦٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «بل يمان ضعفوه».

٣- عن سعد بن أبي وقاص: أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٨٧/ ١٥٩)، والبزار (٣/ ٨٤-كشف الأستار) وغيرهم، وفيه زكريا بن عطية، قال العقيلي: «مجهول النقل».

فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن إن شاء الله.

المحرمات، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب، فتكون ربعًا للقرآن، والله أعلم»[١].

قال الألوسي بعد حكايته كلام الرازي: «وتعقب بأن العبادة أعم من القلبية والقالبية، والأمر والنهي المتعلقان بهما لا يختصان بالمأمورات والمنهيات القلبية والقالبية، وأن مقاصد القرآن العظيم لا تنحصر في الأمر والنهي المذكورين، بل هو مشتمل على مقاصد أخرى كأحوال المبدأ والمعاد، ومن هنا قيل: لعل الأقرب أن يقال: إن مقاصد القرآن التوحيد والأحكام الشرعية وأحوال المعاد، والتوحيد عبارة عن تخصيص الله تعالى بالعبادة، وهو الذي دعا إليه الأنبياء ﷺ أولًا بالذات، والتخصيص إنما يحصل بنفي عبادة غيره تعالى، وعبادة الله ﷻ، إذ التخصيص له جزءان: النفي عن الغير، والإثبات للمخصص به، فصارت المقاصد بهذا الاعتبار أربعة، وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه والتبرؤ منها، فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن، ولكونها ليس فيها تصريح بالأمر بعبادة الله ﷻ كما أن فيها التصريح بترك عبادة غيره تعالى لم تكن كنصف القرآن، وقيل: إن مقاصد القرآن صفاته تعالى، والنبوات، والأحكام، والمواعظ، وهي مشتملة على أساس الأول وهو التوحيد، ولذا عدلت ربعه، وذكر بعض أجلة أحبابي المعاصرين أوجهًا في ذلك، أحسنها فيما أرى أن الدين الذي تضمنه القرآن أربعة أنواع: عبادات، ومعاملات، وجنايات، ومناكحات، والسورة متضمنة للنوع الأول فكانت ربعًا، وتعقب بأنه إن أراد فكانت ربعًا من القرآن، فلا نسلم صحة تفريعه على كون الدين الذي تضمنه القرآن أربعة أنواع، وإن أراد فكانت ربعًا من الدين، فليس الكلام فيه، إنما الكلام في كونها تعدل ربعًا من القرآن؛ إذ هو الذي تشعر به الأخبار على اختلاف ألفاظها، والتلازم بينهما غير مسلم، على أن المقابلة الحقيقية بين ما ذكر من الأنواع غير تامة، وأجيب باحتمال أنه أراد أن مقاصد القرآن هي تلك الأربعة التي هي الدين، ولا يبعد أن يكون ما تضمن واحدًا منها عدل القرآن كله مقاصده وغيرها، ولا يرد على الحصر أن من مقاصده أحوال المبدأ

---

(١) التفسير الكبير (٣٢/ ١٣٧).

والمعاد، فبدخول ذلك في العبادات بنوع عناية وعدم التقابل الحقيقي لا يضر؛ إذ يكفي في الغرض عد أهل العرف تلك الأمور متقابلة ولو بالاعتبار، فتأمل جميع ذلك، والله تعالى الهادي لأقوم المسالك»[1].

قال البقاعي: «قال الإمام ناصر الدين بن ميلق ما حاصله: إن التفاوت بينهما وبين ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في كونها تعدل ربعًا، وتلك تعدل ثلثًا، مع أن كلًّا منهما تسمى (الإخلاص) أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ اشتملت من صفات الله تعالى ما تشتمل عليه (الكافرون) وأيضًا فالتوحيد إثبات إلهية المعبود وتقدسه ونفي إلهية ما سواه، وقد صرحت (الإخلاص) بالإثبات والتقديس، ولوحت إلى نفي عبادة غيره، و(الكافرون) صرحت بالنفي، ولوحت بالنفي، ولوجت بالإثبات والتقديس، فكان بين الرتبتين من التصريحين والتلويحين ما بين الربع والثلث»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءتها في صلاة الطواف والوتر والفجر وبين العشاءين

* عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ «طاف بالبيت فرمل من الحجر الأسود ثلاثا، ثم صلى ركعتين قرأ فيهما ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ »[3].

* عن ابن عباس ﷺ قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في كل ركعة ركعة»[4].

* عن أبي هريرة ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) مصاعد النظر (٣/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه: البيهقي (٥/ ٩١) وصححه النووي على شرط مسلم [شرح مسلم ٨/ ١٧٦]، وأخرجه مطولا أحمد (٣/ ٣٢٠) ومسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨)، وأبو داود (٢/ ٤٥٥-٤٦٤/ ١٩٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢-١٠٢٧/ ٣٠٧٤)، وأخرج النسائي أطرافا منه (٥/ ١٥٦و١٥٧/ ٢٧١١) و(٥/ ١٦٩-١٧٠/ ٢٧٣٩).

(٤) أخرجه: الترمذي (٢/ ٣٣٥-٣٣٦/ ٤٦٢)، والنسائي (٣/ ٢٦٢-٢٦٣/ ١٧٠١-١٧٠٢)، وابن ماجه (١/ ٣٧٠/ ١١٧٢)، وأخرجه من حديث عائشة ﷺ: أبو داود (٢/ ١٣٣/ ١٤٢٤)، والترمذي (٢/ ٣٢٦/ ٤٦٣) وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (١/ ٣٧١/ ١١٧٣). وفي الباب أيضًا: عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبي بن كعب وعلي بن أبي طالب.

ﱡﭐﭑﱠ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ »[١].

* عن ابن عمر ﭫ قال: «رمقت النبي ﷺ شهرًا، فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ »[٢].

⋆ **فوائد الأحاديث:**

«كان ﷺ يختار هاتين السورتين في هذه الصلوات لما امتازتا به من التوحيد، ونفي الشريك، والبراءة من عبادة غير اللَّه ﷻ»[٣].

قال ابن القيم: «المسألة السادسة: وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها: «إنها براءة من الشرك»[٤]، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتي بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ براءة محضة ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ إثبات أن له معبودًا يعبده، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفاء: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[٥]، وطابقت قول الفئة الموحدين: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٦]، فانتظمت حقيقة (لا إله إلا الله)، ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في سنة الفجر وسنة المغرب؛ فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه اللَّه عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد. وإنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل،

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ٥٠٢/ ٧٢٦)، وأبو داود (٢/ ٤٥/ ١٢٥٦)، والنسائي (٢/ ٤٩٣/ ٩٤٤)، وابن ماجه (١/ ٣٦٣/ ١١٤٨)، وفي الباب عن عائشة أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٩)، وابن ماجه (١/ ٣٦٣/ ١١٥٠)، وصححه ابن حبان (٦/ ٢١٤/ ٢٤٦١)، وابن خزيمة (٢/ ١٦٣/ ١١١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤، ٥٨، ٩٤، ٩٥، ٩٩)، والترمذي (٢/ ٢٧٦/ ٤١٧) وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٢/ ٥١١/ ٩٩١)، وابن ماجه (١/ ٣٦٣/ ١١٤٩)، وابن حبان (الإحسان ٦/ ٢١١-٢١٢/ ٢٤٥٩).

(٣) انظر الجواهر واللآلي المصنوعة للتليدي (٢/ ١١٠٣).

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) الزخرف: الآيتان (٢٦و٢٧).

(٦) الكهف: الآية (١٦).

ولم يكن له كفوًا أحد فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها، فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلًا وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد. والثاني: توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝﴾ مشتملة على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب، وفي السنن أنه كان يوتر بهما فيكونا خاتمة عمل الليل، كما كانا خاتمة عمل النهار. ومن هنا تخريج جواب المسألة السابعة: وهي تقديم براءته من معبودهم، ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده، فتأمله»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءتها عند النوم

* عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه رضي الله عنه قال: يا رسول الله! علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي، قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝﴾، ثم نم على خاتمتها؛ فإنها براءة من الشرك»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال التليدي: «فيه أن قراءة هذه السورة عند النوم تبرئ صاحبها من الشرك، وحق لها ذلك، فينبغي لكل مؤمن تعاهدها عند منامه»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرقية بسورة الكافرون

* عن علي رضي الله عنه قال: «لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال: لعن

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٨و١٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٥٦)، وأبو داود (٥/ ٣٠٣/ ٥٠٥٥)، والترمذي (٥/ ٤٤٢/ ٣٤٠٣)، والنسائي في «الكبرى» في «كتاب عمل اليوم والليلة» (٦/ ٢٠٠/ ١٠٦٣٦-١٠٦٤٠)، وفي «كتاب التفسير» (٦/ ٥٢٤/ ١١٧٠٩)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ٧٠/ ٧٩٠)، والحاكم (١/ ٥٦٥) و(٢/ ٥٣٨) وصححه ووافقه الذهبي.
وفي الباب عن أنس وعن ابن عباس وعن شيخ أدرك النبي ﷺ.

(٣) الجواهر واللآلئ المصنوعة (٢/ ١١٠٤).

اللَّه العقرب، لا تدع مصليًا ولا غيره، ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١).

* * *

(١) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (٢/ ٣٠٤-٣٠٥/ ٨١٧)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ١٩٣)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١١١) وقال: «وإسناده حسن». وفي الباب:

١- عن عائشة أخرجه: ابن ماجه (١/ ٣٩٥/ ١٢٤٦)، وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٢٢٨): «هذا إسناد ضعيف لضعف الحكم بن عبد الملك، لكن لم ينفرد به الحكم، فقد رواه ابن خزيمة في صحيحه عن محمد ابن بشار عن محمد بن جعفر عن شعبة عن قتادة به، ورواه الترمذي في «الجامع» من حديث أبي هريرة وقال: «حديث حسن»، قال: وفي الباب عن ابن عباس وأبي رافع».

٢- وعن أبي هريرة أخرجه: ابن عدي (٣/ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾

★ غريب الآية:

دين: الدين يقع لمعان شتى منها:

الجزاء على الأعمال والحساب عليها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾[1] أي: حسابهم. قال لبيد:

حصادك يومًا ما زرعت وإنما ... يُدَانُ الفتى يومًا كما هو دائِنُ

القضاء. قال طرفة:

لَعَمْرك ما كَانَتْ حمولة مَعْبَدٍ ... على جُدِّهَا حَرْبًا لدينِك مِنْ مُضَرْ

الطاعة. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ ... عَصَينا المَلْكَ فيها أن نَدِينَا

العادة. ومنه قول المثقِّب يذكر ناقته:

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِي ... أهذا دينُهُ أبدًا وديني

القهر والاستعلاء. قال الأعشى:

هو دان الرباب إذا كرهوا الد ... ين دِرَاكًا بغزوة واحْتِيَالِ

ثم دانت بَعْدُ الربابُ وكانتْ ... كعذابٍ عقوبَةُ الأقْوَالِ

الملة والشريعة. يقال: دان بالإسلام، أي: اتخذه ملة وشريعة.

الحكم. قال ذو الأصبع:

لاهِ ابْنُ عَمِّك لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ ... عَنِّي، وَلا أنتَ ديَّاني فَتَخْزُوني

---

(١) النور: الآية (٢٥).

قال ثعلب: دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر. فهو من الأضداد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه»[١].

قال ابن القيم في معرض بيانه لبعض المسائل التي اشتملت عليها هذه السورة: «المسألة الثامنة: وهي إثباته هنا بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، دون: يا أيها الذين كفروا، فسره -واللَّه أعلم- إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ اللَّه منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من اللَّه، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر. وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة فكأنه يقول: كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه، فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبدًا. ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر، وهذا واضح»[٢].

قال أبو حيان: «وفي قوله: ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند اللَّه، وخطابه لهم بياأيها الكافرون في ناديهم، ومكان بسطة أيديهم مع ما في هذا الوصف من الإرذال بهم؛ دليل على أنه محروس من عند اللَّه تعالى لا يبالي بهم. والكافرون ناس مخصوصون، وهم الذين قالوا له تلك المقالة»[٣].

وقال الشوكاني: «الألف واللام في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطابا لمن سبق في علم اللَّه أنه يموت على كفره؛ كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد اللَّه سبحانه»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٢٧).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٣٨-١٣٩).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٥٢٢).
(٤) فتح القدير (٥/ ٧٣٦).

وقال ابن كثير: «شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفارُ قريش.

وقيل: إنهم من جهلهم دَعَوا رسول اللَّه ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل اللَّه هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ يعني: من الأصنام والأنداد، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ وهو اللَّه وحده لا شريك له. ف «ما» هاهنا بمعنى «من».

ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد اللَّه على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ أي: لا تقتدون بأوامر اللَّه وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[١] فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون اللَّه بما شرعه؛ ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا اللَّه محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا اللَّه، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير اللَّه عبادة لم يأذن بها الله»[٢].

وقال محيي الدين الدرويش: «اختلف علماء البلاغة والنحو هل التكرار في هذه السورة للتأكيد أم لا؟، وإذا لم يكن للتأكيد، فبأي طريق حصلت المغايرة حتى انتفى التأكيد؟، وسنورد أقوالهم مع إلماع لابد منه إليها. فقال جماعة: التكرار للتأكيد، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ تأكيد لقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾، ومثله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، و﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾[٣]، و﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾[٤]، و﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾[٥]. وفائدة هذا التأكيد هنا: قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافاتهم الكفر، وأنهم لا يسلمون أبدا.

---

(١) النجم: الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٣٦و٧٣٧).

(٣) المطففين: الآية (١٠).

(٤) التكاثر: الآيتان (٣و٤).

(٥) النبأ: الآيتان (٣و٤).

وقال جماعة: ليس التكرار للتوكيد، قال الأخفش: لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد، فزال التوكيد، وحصل التأسيس، حيث تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان الآخر. وفي هذا القول نظر؛ كيف يقيد رسول اللَّه ﷺ نفي عبادته لما يعبدون؟ هذا مما لا يصح.

وقال ابن عطية: لما كان قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ محتملا أن يراد به الآن، ويبقى المستقبل منتظرا ما يكون فيه، جاء البيان بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أي: أبدا، ثم جاء قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ الثاني حتما عليهم أنهم لا يؤمنون أبدا، فهذا معنى الترديد في هذه السورة، وهو بارع الفصاحة، وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته.

وقال الزمخشري: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ أريد به العبادة فيما يستقبل؛ لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال، كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال، والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهي. ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أي: وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني: ما عهد مني قط عبادة صنم في الجاهلية، فكيف يرجى مني في الإسلام؟ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته الآن.

وقال أبو حيان: والذي أختاره في هذه الجمل: أنه نفى عبادته في المستقبل؛ لأن الغالب في «لا» أن تنفي المستقبل، ثم عطف عليه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ نفيا للمستقبل على سبيل المقابلة، ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ نفيا للحال؛ لأن اسم الفاعل العامل الحقيقة فيه دلالته على الحال، ثم عطف عليه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ نفيا للحال على سبيل المقابلة، فانتظم المعنى أنه -عليه الصلاة والسلام- لا يعبد ما يعبدون حالا ولا مستقبلا، وهم كذلك إذا ختم اللَّه موافاتهم على الكفر، ولما قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ وأطلق على الأصنام ما قابل الكلام بما في قوله: ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ وإن كان المراد بها اللَّه تعالى؛ لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ في الانفراد، وهذا على مذهب من يقول: إن ما لا تقع على آحاد أولي العلم، أما من يجوز ذلك وهو سيبويه- فلا يحتاج إلى

الاعتذار بالتقابل.

وقال القرطبي: وقيل: هذا، أي: التكرار مطابقة لقولهم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدا سنة وسنة، فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده، أي: إن هذا لا يكون أبدا. وقال ابن عباس: قالت قريش للنبي ﷺ: نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة، ونزوجك من شئت، ونطأ عقبك، أي: نمشي خلفك، وتكف عن شتم آلهتنا، فإن لم تفعل، فنحن نعرض عليك خصلة واحدة، وهي لنا ولك صلاح: تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة، ونحن نعبد إلهك سنة، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدا سنة وسنة، فنزلت السورة، فكان التكرار في ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝﴾ لأن القوم كرروا مقالتهم مرة بعد مرة»[١].

وثم قول آخر -**يقول ابن كثير**-: «نصره أبو العباس بن تَيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه قابلا لذلك، ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا. وهو قول حسن أيضا، والله أعلم»[٢].

وقال الشوكاني: «اعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذاهبهم التي لا تجحد، واستعمالاتهم التي لا تنكر، أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء، ويبرهن على ما هو متنازع فيه. وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقيل. وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن، وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن (٨/ ٤٣٢و٤٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٩٣).

يا علقمة يا علقمة يا علقمة　　　خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي　　　ثلاث تحيات وإن لم تكلم

. . وقد ثبت عن الصادق المصدوق، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد، هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول اللّه ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم، وإنما عبر سبحانه ب(ما) التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة؛ لأنه يجوز ذلك كما في قوله: (سبحان ما سخركن لنا) ونحوه، والنكتة في ذلك، أن يجري الكلام على نمط واحد ولا يختلف. وقيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: إن «ما» في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة: أي لا أعبد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي»[1].

وقال شيخ الإسلام: «إذا تبين هذا فنقول: القرآن تنزيل من حكيم حميد، وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت. ولو أن رجلا من بني آدم له علم أو حكمة أو خطبة أو قصيدة أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير؛ لعلم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى. فكيف بكلام رب العالمين وأحكم الحاكمين؟ لاسيما وقد قال فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2]. فنقول: الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي، فيعم الحاضر والمستقبل كما قال سيبويه: وبنوه لما مضى من الزمان ولما هو دائم لم ينقطع ولما لم يأت بمعنى الماضي والمضارع وفعل الأمر. فجعل المضارع لما هو من الزمان دائما لم ينقطع، وقد يتناول الحاضر والمستقبل. فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل كلاهما مضارع. وقال في الجملة الثانية عن نفسه ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾. فلم يقل: «لا أعبد»؛ بل قال:

---

(١) فتح القدير (٥/ ٧٣٧و٧٣٨).

(٢) الإسراء: الآية (٨٨).

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ . ولم يقل «ما تعبدون»؛ بل قال: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ . فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى، والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى. فإنه قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي؛ لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ براءة من كل ما عبدوه في الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولا مما عبدوه في الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماض وحاضر ومستقبل.
وقوله أولا: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ لا يتناول هذا كله، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل ليس مضافا، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضا، لكنه جملة اسمية، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى كما تقول: ما أفعل هذا وما أنا بفاعله، وقولك: ما هو بفاعل هذا أبدا أبلغ من قولك: ما يفعله أبدا، فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك: ما يفعل هذا، فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له؛ بخلاف قوله: ما هو فاعل وما هو بفاعل كما في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾[١]، وقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[٣]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾[٤]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[٥]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[٦]. فالأول نفي الفعل في الماضي والمستقبل، والثاني نفي قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل»[٧].

إشكال وجوابه

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ يدل بظاهره على أن الكفار المخاطبين بها لا يعبدون الله أبدا، مع أنه دلت آيات أخرى على أن

(١) النحل: الآية (٧١).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٣) البقرة: الآية (١٤٠).
(٤) النمل: الآية (٨١).
(٥) فاطر: الآية (٢٢).
(٦) البقرة: الآية (١٠٢).
(٧) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥١-٥٥٤).

منهم من يؤمن بالله تعالى، كقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[1] الآية.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه خطاب لجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد، فهو خطاب لهم ما داموا كفارا، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك؛ لأنهم حينئذ مؤمنون لا كافرون، وإن كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن فيتناولهم الخطاب، واختار هذا الوجه أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: هو أن الآية من العام المخصوص، وعليه فهي في خصوص الأشقياء المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[2] الآية، كما تقدم نظيره مرارا»[3].

وثم وجه ثالث وهو: «أن هذا نزل في قوم بأعيانهم ماتوا على الكفر، وعلم الله تعالى ذلك منهم، فأخبر أنهم لا يؤمنون أبدا»[4].

وقد غلط شيخ الإسلام هذا الوجه فقال: «وهذا غلط، فإن قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ خطاب لكل كافر، وكان يقرأ بها في المدينة بعد موت أولئك المعينين، ويأمر بها ويقول: هي براءة من الشرك، فلو كانت خطابا لأولئك المعينين أو لمن علم منهم أنه يموت كافرا لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه، وأيضا فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذ ذاك علم أنهم يموتون على الكفر. والقول بأنه إنما خاطب بها معينين قول لم يقله من يعتمد عليه، ولكن قد قال مقاتل بن سليمان: إنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد، ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث كنقل الكلبي. . فقد أمر رسول الله ﷺ واحدا من المسلمين أن يقرأها وأخبره أنها براءة من الشرك، فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد. ومعلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك اعتقادي وعملي»[5].

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٧). (٢) يونس: الآية (٩٦). (٣) دفع إيهام الاضطراب (ص ٢٩٢).

(٤) ذكره ابن خالويه كما في إعراب القرآن للدرويش (٨/ ٤٣٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٤٠-٥٤٢)

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۞﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۞﴾، كما أن قوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۞﴾ والمعنى: أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضا كما تطمعون فيه، فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة، فإن ذلك من المحالات، وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضا؛ لأنكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي إياها، ولأن ما وعدتموه عين الإشراك»[(١)].

وفي الآية يقول القرطبي: «معنى التهديد، وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾[(٢)] أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف. وقيل: السورة كلها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شيء؛ لأنها خبر. ومعنى ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وسمى دينهم دينا، لأنهم اعتقدوه وتولوه. وقيل: المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي، لأن الدين الجزاء»[(٣)].

وقال ابن القيم: «وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص؛ بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي

---

(١) تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٧).

(٢) القصص: الآية (٥٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٢٩).

يستحيل دخول النسخ في مضمونها ؛ فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم. ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: منسوخ.

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص، ومعاذ اللَّه أن تكون الآية اقتضت تقريرا لهم أو إقرارا على دينهم أبدا ؛ بل لم يزل رسول اللَّه ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم، وتقبيحه، والنهي عنه، والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد.

وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مضيا على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم؟ معاذ اللَّه من هذا الزعم الباطل، وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدا، فإنه دين باطل، فهو مختص بكم لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص؟ أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ ؛ بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر اللَّه منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا، لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم ؛ بل يقولون لهم: هذه براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان»[١].

وهذه الآية يقول عطية سالم -: «نظير ما تقدم في سورة يونس: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[٢]، وكقوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾[٣].

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤٠و١٤١).

(٢) يونس: الآية (٤١).

(٣) البقرة: الآية (١٣٩).

وليس في هذا تقريرهم على دينهم الذي هم عليه، ولكن من قبيل التهديد والوعيد، كقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[(١)] »[(٢)].

وقال شيخ الإسلام: «وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ خطاب لكل كافر وإن أسلم فيما بعد، فدينه قبل الإسلام له كان، والمؤمنون بريئون منه، وإن غفره اللَّه له بالتوبة منه كما قال لنبيه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾[(٣)]؛ فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها »[(٤)].

تنبيه:

قال الشيخ عطية سالم: «في هذه السورة منهج إصلاحي، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول، لأن ما عرضوه عليه ﷺ من المشاركة في العبادة، يعتبر في مقياس المنطق حلًّا وسطًا لاحتمال إصابة الحق في أحد الجانبين، فجاء الرد حاسمًا وزاجرًا وبشدة؛ لأن فيه أي: فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق، وفيه تعليق المشكلة، وفيه تقرير الباطل، إن هو وافقهم ولو لحظة. وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين، ونهاية المهادنة، وبداية المجابهة»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحكام أهل الملل المختلفة

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين**»[(٦)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وقد استدل الإمام أبو عبد اللَّه الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من

---

(١) الكهف: الآية (٢٩).
(٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٨٤).
(٣) الشعراء: الآية (٢١٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٤٣).
(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٨٥).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٥)، وأبو داود (٣/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٢٩١١)، وابن ماجه (٢/ ٩١٢/ ٢٧٣١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٨٢/ ٦٣٨٣)، وفي الباب عن جابر وأسامة بن زيد وأبي هريرة.

النصارى، وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس؛ لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»»[١].

قال الخطابي: «عموم هذا الكلام يوجب ألا يرث اليهودي النصراني، ولا المجوسي اليهودي، وكذلك قال الزهري وابن أبي ليلى وأحمد، وقال أكثر أهل العلم: الكفر كله ملة واحدة يرث بعضهم بعضًا، واحتجوا بقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٢]، وقد علق الشافعي القول في ذلك، وغالب مذهبه أن ذلك كله سواء»[٣].

قال ابن القيم: «واختار أبو بكر عبد العزيز الرواية الأخرى، وأن الكفر ملل مختلفة لا يرث بعضهم بعضًا، وهو الذي نصره القاضي واختاره في تعليقه، وهذا هو الصحيح إن شاء اللَّه تعالى، وهو قول كثير من أهل العلم، وقول أهل المدينة مالك وأصحابه؛ لقوله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»، ولأنهم لا يتناصرون، ولا يتعاقلون، ولا يوالي بعضهم بعضًا. قال الشيخ في «المغني»: ولم يسمع عن أحمد تصريح بذكر أقسام الملل. قال القاضي: الكفر ثلاث ملل: اليهودية، والنصرانية، ودين من عداهم؛ لأن من عداهم يجمعهم أنهم لا كتاب لهم. وهذا قول شريح وعطاء وعمر بن عبد العزيز والثوري والليث وشريك والحكم ومغيرة الضبي وابن أبي ليلى والحسن بن صالح ووكيع، قال الشيخ: ويحتمل كلام أحمد أن الكفر ملل كثيرة، فتكون المجوسية ملة، وعباد الأوثان ملة، وعباد الشمس ملة، فلا يرث بعضهم بعضًا، روي ذلك عن علي، وبه قال الزهري وربيعة وبعض فقهاء المدينة وأهل البصرة وإسحاق، قال الشيخ في «المغني»: وهو أصح الأقوال إن شاء اللَّه تعالى؛ لقول النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»، ولأن كل فريقين منهم لا موالاة بينهم ولا اتفاق في دين، فلم يرث بعضهم بعضًا كالمسلمين والكفار، والعمومات في التوريث مخصوصة، فيخص منها محل النزاع بالخبر

---

(١) التفسير (٨/ ٥٢٠).

(٢) الأنفال: الآية (٧٣).

(٣) معالم السنن (٤/ ٩٣).

والقياس، ولأن مخالفينا قطعوا التوريث بين أهل الحرب وأهل دار الإسلام مع اتفاقهم في الملة؛ لانقطاع الموالاة، فمع اختلاف الملة أولى. وقول من خص الملة بعدم الكتاب غير صحيح؛ فإن هذا وصف عدمي لا يقتضي حكمًا ولا جمعًا، ثم لا بد لهذا الضابط من دليل يدل على اعتباره، ثم قد افترق حكمهم، فإن المجوس يقرون بالجزية، وغيرهم لا يقر بها، وهم مختلفون في معبوداتهم ومعتقداتهم وآرائهم، يستحل بعضهم دماء بعض، ويكفر بعضهم بعضًا، فكانوا مللًا كاليهود والنصارى، وقد روي ذلك عن علي، فإن إسماعيل بن أبي خالد روى عن الشعبي عن علي أنه جعل الكفر مللًا مختلفة، ولم يعرف له من الصحابة مخالف، فكان إجماعًا، واحتج القاضي على ذلك بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]، فأثبت لكل شريعة دينًا، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[2]، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾[3]، فلو كان من خالف دين النبي ﷺ أهل ملة واحدة لم يخص إبراهيم بملة، وقال النبي ﷺ: «**لا يقبل شهادة ملة على ملة إلا ملة الإسلام**»[4]، هذا يقتضي أن هناك مللًا غير ملة الإسلام، ولأن أحكامهم مختلفة، بدليل أن المجوس لا تؤكل ذبيحتهم، ولا تنكح نساؤهم، ولا كتاب لهم، واليهود والنصارى بخلاف ذلك، ولأنهم مختلفون في النبي والكتاب كاختلاف المسلمين والكفار..

قال الذين جعلوا الكفر ملة واحدة: قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

---

(١) المائدة: الآية (٤٨). (٢) الحج: الآية (٧٨).
(٣) النساء: الآية (١٢٥).
(٤) أخرجه الدارقطني (٤/ ٩-٦٩/ ٦)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٠٧/ ٥٤٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٦٣)، من حديث أبي هريرة مرفوعا: «لا ترث ملة أخرى، ولا يجوز شهادة ملة على ملة، إلا أمتي تجوز شهادتهم على من سواهم»، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠١)، وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: فيه عمر بن راشد وهو ضعيف». وأخرجه البخاري تعليقا (٥/ ٣٦٥) عن الشعبي ووصله عبد الرزاق في المصنف (٦/ ١٢٩/ ١٠٢٢٩) موقوفا عنه بلفظ: (لا يجوز شهادة أهل ملة على أهل ملة إلا المسلمين) وإسناده صحيح من أجل عثمان بن عاصم وهو ثقة ثبت أخرجه له الستة، انظر التقريب (٤٤٨٤) وتابعه عليه داود بن أبي هند القشيري عند ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٩/ ٢٩٢٠)وداود ثقة متقن كما في التقريب، ينظر حاشية أحكام الذمة (٢/ ٨٣٢).
(٥) البقرة: الآية (١٢٠).

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾، فجعل لهم دينًا واحدًا كما جعل لليهود والنصارى ملة واحدة، وقال النبي ﷺ: «**الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز**»[1]، واللَّه تعالى قسم خلقه إلى كفار ومؤمنين، فهؤلاء سعداء، وهؤلاء أشقياء، والكفر وإن اختلفت شعبه فيجمعه خصلتان، الأولى: تكذيب الرسول في خبره، والثانية: عدم الانقياد لأمره، كما أن الإيمان يرجع إلى أصلين: الأولى: طاعة الرسول فيما أمر، والثانية: تصديقه بما أخبر. قال الآخرون: اشتراكهم في الكفر العام لا يوجب تساويهم في ملله؛ فإنهم كلهم يشتركون في الجحيم على اختلاف مراتبهم في الكفر، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[2]، لا يدل على أن ملة اليهود هي ملة النصارى، بل إضافة الملة إلى جميعهم لا يقتضي اشتراكهم في عين الملة، وكذلك قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾، لا يقتضي اشتراكهم في دين واحد بحيث يدين هؤلاء بعين ما يدين به هؤلاء، بل المعنى: لكل منكم دينه وملته. واللَّه سبحانه يذكر الحق والهدى والإسلام ويجعله واحدًا، ويذكر الباطل والضلال والكفر ويجعله متعددًا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[5]، وقال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «خَطَّ رسول اللَّه خطًّا وقال: هذا سبيل اللَّه، ثم خطّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: **هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه**، ثم قرأ قوله: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[6]»[7]»[8].

---

(١) سيأتي تخريجه في سورة النصر من حديث أبي سعيد.

(٢) البقرة: الآية (١٢٠).

(٣) الأنعام: الآية (١٥٣).

(٤) البقرة: الآية (٢٥٧).

(٥) المؤمنون: الآيتان (٥٢و٥٣).

(٦) الأنعام: الآية (١٥٣).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والحاكم (٢/ ٢٣٩)، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث ابن مسعود.

(٨) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٢٩-٨٣٥).



سورة النصر

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «والغرض منها الوعد بنصر كامل من عند اللَّه، أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه، إن كان نزولها عند منصرف النبي ﷺ من خيبر كما قال ابن عباس في أحد قوليه، والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول اللَّه ﷺ إلى الآخرة، ووعده بأن اللَّه غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية، الحد الذي لا يفي بما تطلبه همته الملكية، بحيث يكون قد ساوى الحد الملكي الذي وصفه اللَّه تعالى في الملائكة بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ⑳﴾[1]»[2].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

نصر: النصر: العون، يقال: نصرته، أي: أَعَنْتُهُ على عدوه ومنعته منه.

الفتح: فتح مكة، وكان في السنة الثامنة للهجرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾:

يقول أبو السعود: «أي: إعانته وإظهاره إياك على عدوك»[٢].

قال القاسمي: «و﴿وَالْفَتْحُ﴾ أي: فتح مكة الذي فتح اللَّه به بينه وبين قومه -صلوات اللَّه عليه-، فجعل له الغلبة عليهم وضعف أمرهم في التمسك بعقائدهم الباطلة»[٣].

قال ابن كثير: «والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولا واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح اللَّه عليه مكة دخلوا في دين اللَّه أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام»[٤].

وقال ابن عاشور: «وقد اتفقت أقوال المفسرين من السلف فمَن بعدهم على أن الفتح المذكور في هذه السورة هو فتح مكة إلا رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هو فتح المدائن والقصور، يعني الحصون، وقد كان فتح مكة يخالج نفوس العرب كلهم، فالمسلمون كانوا يرجونه ويعلمون ما أشار به القرآن من الوعد به وأهل مَكة

---

(١) النصر: الآية (١).

(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٨).

(٣) محاسن التأويل (١٧/ ٢٨١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٢٣).

يتوقعونه»[١].

قال عطية سالم: «وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة، وجاءت الوفود في دين اللَّه أفواجًا عام تسع منها، وجاء وفد اليمن وأرسل ﷺ عماله إلى اليمن بعد فتح مكة، وقدم عليه علي ﷺ من اليمن في العام العاشر في موسم الحج، ففتحت اليمن بعد فتح مكة في حياته ﷺ.

وعليه: تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة، يمكن أن يشملها هنا قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾، وليس مقصورًا على فتح مكة كما قالوا. وقد يؤخذ بدلالة الإيماء: الوعد بفتوحات شاملة، لمناطق شاسعة من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾[٢]؛ لأن الإتيان من كل فج عميق، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام، وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد، وهو محل الاستدلال واللَّه تعالى أعلم»[٣].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩١).

(٢) الحج: الآية (٢٧).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٩٤-٥٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

أفواجًا: أي: جماعات، فوجا بعد فوج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي: ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون في دين اللَّه، وهو دينك الذي جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحول بينهم وبينه، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجا طوائف وجماعات لا آحادا، كما كان في بدء الأمر أيام الشدة»[(١)].

وقال الشوكاني: «أي: أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين اللَّه الذي بعثك به جماعات فوجًا بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول اللَّه ﷺ مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم اللَّه من أصحاب الفيل؛ فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين اللَّه أفواجًا، أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن»[(٢)].

قال ابن عطية: «قال أبو عمر بن عبد البر النمري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الاستيعاب في الصحابة في باب أبي خراش الهذلي: لم يمت رسول اللَّه ﷺ وفي العرب رجل كافر؛ بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف، منهم من قدم ومنهم من قدم وفده، ثم كان بعده من الردة ما كان، ورجعوا كلهم إلى الدين.

قال القاضي أبو محمد: والمراد واللَّه أعلم عرب عبدة الأوثان، وأما نصارى

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٢٨١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٧٤١).

بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول اللَّه ﷺ، لكن أعطوا الجزية، والأفواج: الجماعة إثر الجماعة، كما قال تعالى: ﴿أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾[1] »[2].

* * *

(١) الملك: الآية (٨).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده فإنك حينئذ لاحق به، وذائق ما ذاق من قبلك من رسله من الموت»[(٢)].

وقال القاسمي: «أي: فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله، وعن أن يخلف وعده في تأييده، وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب، والحكيم الذي إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين، والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين، فلا يذهب عليه رياء المرائين»[(٣)].

وقال الشوكاني: «أي: فقل: سبحان اللَّه، ملتبسًا بحمده، أو حامدا له. وفيه الجمع بين تسبيح اللَّه المؤذن بالتعجب مما يسره اللَّه له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة، التي هي النصر والفتح لأم القرى، التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ، حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن»[(٤)].

وقال الخازن: «وقيل في معنى السورة: إذا جاء نصر اللَّه والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين اللَّه أفواجًا فاشتغل أنت بالتسبيح والتحميد والاستغفار، فالاشتغال بهذه الطاعة يصير سببًا لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة، وفي معنى التسبيح وجهان: أحدهما: نزه ربك عما لا يليق بجلاله ثم احمده. والثاني: فصل

(١) النصر: الآية (٣).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٣٣٣).
(٣) محاسن التأويل (١٧/ ٢٨١).
(٤) فتح القدير (٥/ ٧٤٢).

لربك لأن التسبيح جزء من أجزاء الصلاة، ثم قيل: عني به صلاة الشكر، وهو ما صلاه رسول اللَّه ﷺ يوم فتح مكة ثمان ركعات. وقيل: هي صلاة الضحى. وفي الآية دليل على فضيلة التسبيح والتحميد، حيث جعل ذلك كافيا في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح»[1].

وقال ابن عاشور: «وتقديم التسبيح والحمد على الاستغفار؛ لأن التسبيح راجع إلى وصف اللَّه تعالى بالتنزه عن النقص وهو يجمع صفات السلب، فالتسبيح متمحض لجانب اللَّه تعالى، ولأن الحمد ثناء على اللَّه لإنعامه، وهو أداء العبد ما يجب عليه لشكر المنعم، فهو مستلزم إثبات صفات الكمال لله، التي هي منشأ إنعامه على عبده، فهو جامع بين جانب اللَّه وحظ العبد، وأما الاستغفار فهو حظ للعبد وحده؛ لأنه طلبه اللَّه أن يعفو عما يؤاخذه عليه»[2].

* * *

(١) تفسير الخازن (٤/ ٤٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي-نقلا عن الإمام-: «أي: اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح. والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة، والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد اللّٰه، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر، ولكن اللّٰه علم أن نفس نبيه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال، فلذلك أمره به، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه ﷺ، واللّٰه يتقبل منهم»(٢).

وقال الشوكاني: «أي: اطلب منه المغفرة لذنبك هضمًا لنفسك، واستقصارًا لعملك، واستدراكًا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى.

وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق اللّٰه، ويكثر من الاستغفار والتضرّع، وإن كان قد غفر اللّٰه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. وقيل: إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم اللّٰه به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. وقيل: إنما أمره اللّٰه سبحانه بالاستغفار تنبيهًا لأمته، وتعريضًا بهم، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار. وقيل: إن اللّٰه سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة، والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورًا بالنعمة، وفرحًا بما هيأه اللّٰه من نصر الدين، وكبت أعدائه، ونزول الذلة بهم، وحصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم اللّٰه رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح والتوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: «**سبحانك اللّٰهم وبحمدك اغفر لي إنك أنت**

---

(١) النصر: الآية (٣).

(٢) محاسن التأويل (١٧/ ٢٨١و٢٨٢).

التوّاب»[١] قال قتادة، ومقاتل: وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين»[٢].

وقال الزمخشري: « والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين: من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، ليكون أمره بذلك مع عصمته لطفًا لأمته، ولأنّ الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس، فهو عبادة في نفسه. وعن النبي ﷺ: «**إني لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة**»[٣] »[٤].

وعلق الشيخ عطية محمد سالم على كلام الزمخشري قائلا: «وفي هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر اللَّه تعالى، حيث هذا كان من أكثر ما يداوم عليه رسول اللَّه ﷺ، مع ما ورد عنه ﷺ في أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء اللَّه تعالى وحده منفردًا، مما لم يرد به نص صحيح ولا صريح. ولا شك أن الخير كل الخير في الاتباع لا في الابتداع، وأي خير أعظم مما اختاره اللَّه لنبيه ﷺ في آخر حياته، ويأمره به، ويلازم هو عليه. وقلنا في آخر حياته: لأنه ﷺ توفي بعدها بمدة يسيرة»[٥].

وقال أيضًا: «ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل، ولو بدأنا من آدم عليه السلام مع قصته ففيها: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾[٦]، ومعلوم موجب تلك التوبة، ثم نوح عليه السلام يقول: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٧] الآية، وإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٨]، وبناء عليه قال بعض العلماء: إن الاستغفار نفسه عبادة كالتسبيح، فلا يلزم منه وجود ذنب»[٩].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤١٠)، والطيالسي (٣٣٩)، والطبراني في الدعاء (٢/ ١٠٦٧/ ٥٩٥)، والحاكم (٢/ ٥٣٨-٥٣٩) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

(٢) فتح القدير (٥/ ٧٤٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١١)، مسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

(٤) الكشاف (٤/ ٢٩٤).

(٥) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٩٧-٥٩٨).

(٦) البقرة: الآية (٣٧).

(٧) نوح: الآية (٢٨).

(٨) البقرة: الآية (١٢٨).

(٩) تتمة أضواء البيان (٩/ ٥٩٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. وإذا كان ﷺ وهو معصوم يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟»[(٢)].

وقال الشوكاني: «وتوّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين»[(٣)].

وقال السمعاني: «ويقال: التواب هو المسهل لسبيل التوبة، ويقال: هو القابل لها»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي: إنَّ وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه»[(٥)].

وقال القاسمي نقلا عن الإمام-: «أي: إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة، لأنه رب يربي النفوس بالمحن، فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة، وشدد همها بحسن الوعد، ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال، وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها، وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم. وكأن اللّه يقول: إذا حصل الفتح، وتحقق النصر، وأقبل الناس على الدين الحق، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن، فلم يبق إلا تسبيح اللّه وشكره، والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الكثرة في ذلك الإخلاص. ومن هذا أخذ النبي ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه»[(٦)].

وقال الشيخ عطية سالم: «وفي هذه الآية دلالة الإيماء، كما قالوا؛ ودلالة

---

(١) النصر: الآية (٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٣٣).
(٣) فتح القدير (٥/ ٧٤٢).
(٤) تفسير السمعاني (٦/ ٢٩٦).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٦).
(٦) محاسن التأويل (١٧/ ٢٨٢).

الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر ﷺ مع كبار المهاجرين والأنصار . .
أي أنه ﷺ جاء لمهمة، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجًا .

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة، فعليه أن يتأهب لملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله، وهو مأخذ في غاية الدقة، وبيان لقول علي ﷺ : (أو فهم أعطاه اللَّه من شاء في كتاب الله»)[1] .

وقال صديق حسن خان: «وتوفي ﷺ في ربيع الأول على رأس العاشرة بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة، وإن كانت لشهرين وشيء مضت من الحادية عشرة إذا اعتبر التاريخ من أول السنة الشرعية وهو المحرم، فلما هاجر ﷺ لاثني عشر من ربيع الأول حسبوا الباقي من هذه السنة سنة مع أنها ناقصة شهرين واثني عشر يوما، فلما كانت وفاته لاثني عشر من ربيع الأول كان الماضي من هذه السنة وهو شهران واثنا عشر يوما مكملا ومتمما لما نقصته السنة الأولى، فصح قولهم: إنه توفي في العاشرة، أي: على رأسها وحين كمالها بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة، ويصح أن يقال: توفي في الحادية عشرة بالنظر لجعل التاريخ من أول السنة الشرعية تأمل واللَّه تعالى أعلم»[2] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستنباط الدقيق

* عن ابن عباس ﷺ قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما أُريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ① وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ②﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد اللَّه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس! أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول اللَّه أعلمه اللَّه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ

---

(١) تتمة أضواء البيان (١٥/ ٤٣٤).
(٢) فتح البيان (١٥/ ٤٣٤).

كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»[(١)].

★ غريب الحديث:

أشياخ بدر: أي: من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وأما ما فسر به ابن عباس وعمر -رضي اللَّه تعالى عنهما- من أن هذه السورة نُعِي فيها إلى رسول اللَّه ﷺ روحه الكريمة، واعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾»[(٢)].

* عن ابن عباس أن عمر ﷺ سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: «أجل -أو مثل- ضرب لمحمد ﷺ، نُعيت له نفسه»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قوله: «نعيت إليه نفسه» قال الطيبي: «يقال: نعى الميت ينعاه نعيًا ونعاه: إذا أذاع موته وأخبر به. ولعل السر في ذلك أنه تعالى رتب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على مجموع قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾.. فهو أمر لرسول اللَّه ﷺ بالاشتغال بخاصة نفسه في الثناء على نفسه بصفات الجلال حامدًا له على ما أولى من النعم بصفات الإكرام، وهي بذل المجهود فيما كلف به من تبليغ الرسالة ومجاهدة أعداء الدين، بالإقبال على العبادة والتقوى، والتأهب للمسير إلى المقامات العليا واللحوق بالرفيق الأعلى»[(٤)].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٧-٣٣٨)، والبخاري (٨/ ٢٤/ ٤٢٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٩-٤٢٠/ ٣٣٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٥/ ١١٧١١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٣٧/ ٩٦٩٤).

(٤) شرح الطيبي (١٢/ ٣٨٢٤).

وقال ابن القيم: «فلما تكامل وبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاءه منشور: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾[1]، وبعده توقيع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾، جاءه رسول ربه يخيره بين المقام في الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء ربه شوقًا إليه، فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة، لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك، إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه فرحًا واستبشارًا بقدوم روحه، فكيف ستعلم يوم الحشر أي سريرة تكون عليها ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾[2]، فكيف بقدوم روح سيد الخلائق؟»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفاعله ﷺ مع القرآن

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ يكثر من قول: سبحان اللَّه وبحمده وأستغفر اللَّه وأتوب إليه، فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول: سبحان اللَّه وبحمده وأستغفر اللَّه وأتوب إليه، فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قولي: سبحان اللَّه وبحمده أستغفر اللَّه وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝﴾ فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝﴾»[4].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن[5].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝﴾ إلا يقول فيها: «**سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»[6].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ

---

(١) الفتح: الآيات (١-٣). (٢) الطارق: الآية (٩).

(٣) الفوائد (ص: ٨٢-٨٣).

(٤) أخرجه: مسلم (١/ ٣٥١/ ٤٨٤[٢٢٠]) بهذا اللفظ. وأصل الحديث عند البخاري (٨٦٩٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٥و٤٩و١٠٠و١٨٤و١٩٠)، والبخاري (٨/ ٧٣٣/ ٨٦٩٤)، ومسلم (١/ ٣٥٠/ ٤٨٤)، وأبو داود (١/ ٥٤٦/ ٨٧٧)، والنسائي (٢/ ٥٦٨/ ١١٢١)، وابن ماجه (١/ ٢٨٧/ ٨٨٩).

(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٣٧/ ٧٦٩٤)، ومسلم (١/ ٣٥٠/ ٤٨٤[٢١٩]).

ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾﴾ فقال: «ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا»[١].

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾: عونه على إظهار نبيه ﷺ على قريش وغيرهم، ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة، كما فسره النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها، ولا يلتفت لما قيل في ذلك مما يخالفه، و(الأفواج): الزمر، يعني زمرة بعد زمرة، وهذا كان عند فتح مكة؛ فإن أهل مكة كانوا عظماء العرب وقادتهم، ومكة بيت اللّٰه تعالى، فتوقفت العرب في إسلامها على أهل مكة ينظرون ما يفعلون، فلما فتح اللّٰه تعالى مكة على نبيه ﷺ وأسلم أهلها أطبقت العرب على الدخول في الإسلام، وهجرت الأوثان، وعطلت الأزلام، وحصل التمام، وكمل الإنعام، فوجب الشكر لهذا المنعم الكريم، واستغفار هذا المولى الرحيم، لاسيما وقد أفصح خطابًا: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ أي: قل يا محمد: سبحان اللّٰه وبحمده، وأستغفر اللّٰه وأتوب إليه، فكان ﷺ يكثر من قول ذلك شكرًا لله تعالى، وامتثالًا لما أُمِرَ به هنالك»[٢].

قال النووي: «معنى «يتأول القرآن»: يعمل ما أُمِر به في قول اللّٰه عز وجل: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾، وكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع في الجزالة، المستوفى ما أمر به في الآية، وكان يأتي به في الركوع والسجود؛ لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها، فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذي أُمِر به ليكون أكمل»[٣].

قال الحافظ: «ومعنى قوله: «يتأول القرآن» يجعل ما أُمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار في أشرف الأوقات والأحوال، وقد أخرجه ابن مردويه من طريق أخرى عن مسروق عن عائشة، فزاد فيه: «علامة في أمتي أمرني ربي إذ رأيتها أن أقول: سبحان اللّٰه وبحمده وأستغفر اللّٰه وأتوب إليه، فقد رأيت (جاء نصر اللّٰه والفتح) فتح مكة، ورأيت (الناس يدخلون في دين اللّٰه أفواجا)». وقال ابن القيم

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٩٦) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.
(٢) المفهم (٧/ ٤٣٦-٤٣٧).
(٣) شرح مسلم (٤/ ١٦٩).

في «الهدي»: كأنه أخذه من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾؛ لأنه كان يجعل الاستغفار في خواتم الأمور، فيقول إذا سلّم من الصلاة: أستغفر اللَّه، ثلاثًا، وإذا خرج من الخلاء قال: غفرانك، وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1] الآية. قلت: ويؤخذ أيضًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ فقد كان يقول عند انقضاء الوضوء: «اللهم اجعلني من التوابين»[2] »[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في آخر سورة نزلت

* عن عبيداللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة، قال: «قال لي ابن عباس: تعلم آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعًا؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾. قال: صدقت»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «هذا الحديث يدل على أن آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، وقد روي في حديث البراء أن آخر سورة نزلت (براءة)»[5].

وقال ابن الجوزي: «والذي يقوله ابن عباس أليق؛ لأنها نزلت سنة تسع، وقد نزل بعدها أشياء»[6].

وقال الحافظ: «قد تقدم في تفسير (براءة) أنها آخر سورة نزلت، والجمع بينهما أن آخرية سورة (النصر) نزولها كاملة بخلاف (براءة)»[7].

---

(١) البقرة: الآية (١٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (١/ ٧٧-٧٨/ ٥٥)وقال: هذا حديث في إسناده اضطراب، قال أحمد شاكر: «وقد أخطأ الترمذي فيما زعم من اضطراب الإسناد في هذا الحديث، وأصل الحديث صحيح مستقيم الإسناد، وإنما جاء الاضطراب من الأسانيد التي نقلها الترمذي»، وانظر بقية تعليق الشيخ شاكر على الترمذي، وأصل الحديث دون هذا المقطع عند أحمد (٤/ ١٤٥-١٤٦)، ومسلم (٢٠٩-٢١٠/ ٢٣٤)، وأبو داود (١/ ١١٩/ ١٦٩)، والنسائي (١/ ١٠٠/ ١٤٨)، وابن ماجه (/ ١٥٩/ ٤٦٩)، من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) فتح الباري (٨/ ٩٥٢).

(٤) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٣١٨/ ٣٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٥/ ١١٧١٣)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٣٠٤/ ١٠٧٣٦).

(٥) الإفصاح (٣/ ٢٢٢).

(٦) كشف المشكل (٢/ ٤٢٣).

(٧) فتح الباري (٨/ ٩٥٢).

والراجح أن آخر سورة نزلت بجملتها هي سورة (النصر)(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه لا هجرة بعد الفتح

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ يوم افتتح مكة: «**لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(٢).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قرأها رسول اللَّه ﷺ حتى ختمها، ثم قال: «**أنا وأصحابي حيز والناس حيز، لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»(٣).

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن الجوزي: «قوله: «**لا هجرة**»: إنما وجبت الهجرة لمعنيين: أحدهما: نصرة الرسول ﷺ؛ فإنه كان في قلة، فوجب على الناس النفير إليه لنصره على أعدائه. والثاني: اقتباس العلم، وفهم الدين. وكان أعظم المخوف عليهم مكة، فلما فتحت أمن المسلمون، وانتصر الدين، فقيل للناس: قد انقطعت الهجرة، وبقيت نية المجاهدة، وكونوا مستعدين، فإذا دعيتم إلى عدو فانفروا»(٤).

قال الطيبي: «قال التوربشتي: كانت الهجرة إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول اللَّه ﷺ فرضًا على المؤمن المستطيع؛ ليكون في سعة من أمر دينه، فلا يمنعه عنه مانع، ولينصر رسول اللَّه ﷺ في إعلاء كلمة اللَّه، وإظهار دينه، فينحاز إلى حزب الحق وأنصار دعوته، ويفارق الفريق الباطل فلا يكثر سوادهم، إلى غير ذلك من المعاني الموجبة لكمال الدين، فلما فتح مكة، وأظهره اللَّه على الدين كله، أعلمهم بأن الهجرة المفروضة قد انقطعت، وأن السابقة بالهجرة بعد الفتح قد

---

(١) هامش مصاعد النظر (٢/ ١٠٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٦)، والبخاري (٤/ ٥٧/ ١٨٣٤)، ومسلم (٢/ ٩٨٦/ ١٣٥٣)، وأبو داود (٣/ ٨/ ٢٤٨٠)، والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠)، والنسائي (٧/ ١٦٥/ ٤١٨١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢)، والطيالسي (٢٠٠٥)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٨٦-٢٨٧/ ٤٤٤٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٠٧/ ٣٦٩٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٥٧) وقال: «صحيح الإسناد» وافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٥٠) وقال: «رواه أحمد والطبراني باختصار كثير».

(٤) كشف المشكل (٢/ ٣٢٥).

انتهت، وأن ليس لأحد بعد ذلك أن ينال فضيلة الهجرة إليه، ولا أن ينازع المهاجرين في مراتبهم وحقوقهم. وقوله: «**لا هجرة**» أي: لم تبق هجرة، ولكن بقي الجهاد، فينالون بذلك الأجر والفضل والغنيمة، تنبيه على أنهم إذا حرصوا على الجهاد وأحسنوا النية أدركوا الكثير مما فاتهم بفوات الهجرة. وفي قوله: «**لا هجرة**» تنبيه على الرخصة في ترك الهجرة، يعني إلى المدينة، لنصرة الرسول ﷺ، فأما الهجرة التي تكون من المسلم لصلاح دينه، فإنها باقية مدى الدهر»[(١)].

قال الحافظ: «المعنى: أن وجوب الهجرة من مكة انقطع بفتحها، إذ صارت دار إسلام، ولكن بقي وجوب الجهاد على حاله عند الاحتياج إليه، وفسره بقوله: «**فإذا استنفرتم فانفروا**» أي: إذا دعيتم إلى الغزو فأجيبوا»[(٢)].

وقال ابن بطال نقلًا عن المهلب: «ومن ذلك قوله: «**لا هجرة بعد الفتح**»، وذلك أنه كان في بدو الإسلام فرضًا على كل مسلم أن يهاجر مع الرسول ﷺ، فلما فتح اللَّه مكة، وكسر شوكة صناديد قريش، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، نزلت المقاومة من المسلمين.. على عدوهم، فلم تلزم الناس الهجرة بعد لكثرة المسلمين»[(٣)].

وقال أيضًا: «فهذا بين أن الهجرة منسوخة بعد الفتح، إلا أن سقوط فرضها بعد الفتح لا يسقطها عمن هاجر قبل الفتح، فدل أن قوله: «لا هجرة بعد الفتح» ليس على العموم؛ لأن الأمة مجمعة أن من هاجر قبل الفتح أنه يحرم عليه الرجوع إلى وطنه الذي هاجر منه، كما حرم على أهل مكة الرجوع إليها، ووجب عليهم البقاء مع النبي ﷺ، والتحول معه حيث تحول لنصرته ومؤازرته وصحبته وحفظ شرائعه والتبليغ عنه، وهم الذين استحقوا اسم (المهاجرين)، ومدحوا به دون غيرهم، ألا ترى أن النبي ﷺ رثى بسعد بن خولة أن مات بمكة في الأرض التي هاجر منها، ولذلك دعا له فقال: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم»[(٤)].

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ٢٤٠-٢٤١). (٢) فتح الباري (٤/ ٥٨).

(٣) شرح صحيح البخاري (٥/ ٣٧-٣٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٧٦)، والبخاري (١٢/ ١٥/ ٦٧٣٣)، ومسلم (٣/ ١٢٥٠-١٢٥١/ ١٦٢٨)، وأبو داود (٣/ ٢٨٤-٢٨٦/ ٢٨٦٤)، والترمذي (٤/ ٣٧٤/ ٢١١٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣-٩٠٤/ ٢٧٠٨)، والبخاري وابن ماجه لم يذكرا محل الشاهد.

وذكر أبو عبيد في «كتاب الأموال» أن الهجرة كانت على غير أهل مكة من الرغائب، ولم تكن فرضًا، يدل على ذلك قوله ﷺ للذي سأله عن الهجرة: «**إن شأنها شديد، فهل لك من إبل تؤدي زكاتها؟ قال نعم، قال: فاعمل من وراء البحار، فإن اللَّه لا يترك من عملك شيئًا**»[1]، ولم يوجب عليه الهجرة. وقيل: إنما كانت الهجرة واجبة إذا أسلم بعض أهل البلد ولم يسلم بعضهم؛ لئلا يجري على من أسلم أحكام الكفار، فأما إذا أسلم كل من في الدار فلا هجرة عليهم؛ لقوله ﷺ لوفد عبد القيس حين أمرهم بما أمرهم به، ولم يأمرهم بهجرة أرضهم: «**وقد عذر اللَّه المستضعفين من الرجال والنساء الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلًا**»[2] يعني طريقًا إلى المدينة. وأما الهجرة الباقية إلى يوم القيامة فقوله ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه**»[3] اهـ[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فتح مكة

* عن عمرو بن سلمة قال: «قال لي أبو قلابة: ألا تلقاه فتسأله؟ قال: فلقيته فسألته، فقال: كنا بما ممرِّ الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن اللَّه أرسله، أوحى إليه، أو أوحى اللَّه بكذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام، فكأنما يُقَرّ في صدري، وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم واللَّه من عند النبي ﷺ حقًّا، فقال: «**صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٤)، والبخاري (٣/ ٤٠٢-٤٠٣/ ١٤٥٢)، ومسلم (٣/ ١٤٨٨/ ١٨٦٥)، وأبو داود (٣/ ٨/ ٢٤٧٧)، والنسائي (٧/ ١٦٢/ ٤١٧٥)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) قصة وفد عبد القيس أخرجها أحمد (١/ ١٧٤)، والبخاري (١/ ١٧٢/ ٥٣)، مسلم (١/ ٤٦-٤٧/ ١٧)، وأبو داود (٤/ ٩٦-٩٧/ ٣٦٩٦)، والترمذي (٥/ ٩-١٠/ ٢٦١١)، والنسائي (٨/ ٤٩٥/ ٥٠٤٦)، من حديث ابن عباس ﷺ إلا أن الجزء الذي ذكره ابن بطال ليس في المصادر التي خرجت الحديث.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٣)، والبخاري (١/ ٧٣/ ١٠)، وأبو داود (٣/ ٩/ ٢٤٨١)، والنسائي (٨/ ٤٧٩/ ٥٠١١)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص وأخرجه مسلم (١/ ٦٥/ ٤٠)، دون محل الشاهد.

(٤) شرح صحيح البخاري (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).

أكثركم قرآنًا»، فنظروا، فلم يكن أحد أكثر قرآنًا مني، لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا است قارئكم، فاشتروا فقطعوا لي قميصًا، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»[١].

★ **غريب الحديث:**

يُقَرّ: بضم أوله وفتح القاف وتشديد الراء من القرار. وفي رواية عنه بزيادة ألف مقصورة من التقرية، أي: يجمع، وللأكثر بهمزة من القراءة، وللإسماعيلي: يغري، بغين معجمة وراء ثقيلة، أي يلصق بالغراء، ورجحها عياض.

تَلَوّم: بفتح أوله واللام وتشديد الواو، أي: تنتظر، وإحدى التاءين محذوفة.

بَدَرَ: أي: سبق.

تقلصت: أي: انجمعت وارتفعت.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة، يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد -وهو ماء بين عسفان وقديد- أفطر وأفطروا». قال الزهري: وإنما يؤخذ من أمر النبي ﷺ الآخر فالآخر[٢].

★ **غريب الحديث:**

الكَديد: بفتح الكاف وكسر الدال المهملة، وهي عين جارية بينها وبين المدينة سبع مراحل أو نحوها، وبينها وبين مكة قريبًا قريب من مرحلتين، وهي أقرب إلى المدينة من عسفان.

عسفان: قرية جامعة على ست وثلاثين ميلًا من مكة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٩-٣٠)، والبخاري (٨/ ٢٧/ ٤٣٠٢)، وأبو داود (١/ ٣٩٣-٣٩٤/ ٥٨٥)، والنسائي (٢/ ٤١٥/ ٧٨٨) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩و٢٦٦و٣٣٤و٣٤٨و٣٦٦)، والبخاري (٨/ ٣/ ٤٢٧٦)، ومسلم (٢/ ٧٨٤/ ١١١٣)، والنسائي (٤/ ٥٠٢/ ٢٣١٢).

★ **فوائد الحديث:**

بوّب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على حديث ابن عباس بقوله: «باب غزوة الفتح في رمضان». قال العيني: «أي: هذا باب في بيان أن غزوة يوم فتح مكة كانت في شهر رمضان، سنة ثمان من الهجرة، وكان خروجه من المدينة يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من رمضان. وروى ابن إسحاق عن الزهري أنه استعمل على المدينة أبا رُهْم الغفاري»[١].

قال القرطبي: «وهذه الأحاديث المشتملة على ذكر هذه المواضع الثلاثة كلها ترجع إلى معنى واحد، وهي حكاية حاله ﷺ عن سفره في قدومه إلى فتح مكة، وكان في رمضان»[٢].

قال ابن القيم: «فصل في الفتح الأعظم الذي أعزَّ اللهُ به دينَه، ورسولَه، وجنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيتَه الذي جعله هُدىً للعالمين مِن أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتحُ الذي استبشر به أهلُ السماءِ، وضربت أطنابُ عِزِّه على مَناكِبِ الجوزاء، ودخل الناسُ به في دين اللَّه أفواجًا، وأشرق به وجهُ الأرضِ ضِياءً وابتهاجًا، خرج له رسولُ اللَّه ﷺ بكتائِبِ الإسلام، وجُنود الرحمن سنةَ ثمانٍ لعشر مَضَيْنَ مِن رمضان، واستعمل على المدينة أبا رُهْمٍ كُلثوم بن حُصين الغِفاري. وقال ابن سعد: بل استعمل عبد اللَّه بْنَ أُمِّ مكتوم»[٣].

* عن أم هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «ذهبت إلى رسول اللَّه ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: «**من هذه؟**» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: «**مرحبًا بأم هانئ**». فلما فرغ من غُسله قام فصلى ثماني ركعات، ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله! زعم ابن أمي أنه قاتلٌ رجلًا قد أجرتُه، فلانَ بن هبيرة. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ**». قالت أم هانئ: وذاك ضحى»[٤].

---

(١) عمدة القاري (١٢/ ٢٦٢).
(٢) المفهم (٣/ ١٧٥).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٩٤).
(٤) أحمد (٦/ ٣٤٣و٤٢٣و٤٢٥)، والبخاري (١/ ٦١٩/ ٣٥٧)، ومسلم (١/ ٢٦٥/ ٣٣٦)، والترمذي (٥/ ٧٣/ ٢٧٣٤)، والنسائي (١/ ١٣٧/ ٢٢٥).

★ **فوائد الحديث:**

ذكر ابن كثير عن بعض أهل العلم أن هذه الصلاة التي صلاها رسول اللَّه ﷺ يوم الفتح هي صلاة الضحى، قال: «وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافرًا لم ينو الإقامة بمكة؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريبًا من تسع عشرة يومًا يقصر الصلاة ويفطر هو وجميع الجيش، وكانوا نحوًا من عشرة آلاف، قال هؤلاء: وإنما كانت صلاة الفتح. قالوا: فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن. ثم قال بعضهم: يصليها كلها بتسليمة واحدة، والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين، كما ورد في سنن أبي داود أن رسول اللَّه ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين»[1].

قال ابن القيم: «ثم دخل رسولُ اللَّه ﷺ دارَ أُمِّ هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل، وصلَّى ثمانِ ركعات في بيتها، وكانت ضُحىً، فظنها من ظنها صلاةَ الضحى، وإنما هذه صلاةُ الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنًا أو بلدًا، صلّوا عَقيب الفتح هذه الصلاةَ اقتداءً برسول اللَّه ﷺ، وفي القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرًا لله عليه، فإنها قالت: «ما رأيتُه صلاها قبلَها ولا بعدَها»»[2].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤١٠).





سورة المسد

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أغراضها زجر أبي لهب على قوله: «تبا لك ألهذا جمعتنا؟» ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضها النبيء ﷺ»[1].

وقال البقاعي: «ومقصودها البت والقطع الحتم بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين، اللازم عنه أن شارع الدين له من العظمة ما يقصر عنه الوصف، فهو يفعل ما يشاء لأنه لا كفؤ له أصلا، حثا على التوحيد من سائر العبيد، ولذلك وقعت بين سورة الإخلاص المقرون بضمان النصر وكثرة الأنصار»[2].

وقال شيخ الإسلام: «سورة تبت نزلت في هذا وامرأته، وهما من أشراف بطنين في قريش، وهو عم علي، وهي عمة معاوية، واللذان تداولا الخلافة في الأمة هذان البطنان: بنو أمية، وبنو هاشم، وأما أبو بكر وعمر فمن قبيلتين أبعد عنه ﷺ، واتفق في عهدهما ما لم يتفق بعدهما.

وليس في القرآن ذم من كفر به ﷺ باسمه إلا هذا وامرأته، ففيه أن الأنساب لا عبرة بها؛ بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾[3] الآية»[4].

---

(1) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠٠).

(2) نظم الدرر (٢٢/ ٣٢٧).

(3) الأحزاب: الآية (٣٠).

(4) التفسير الكبير (٧/ ١٠٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نـزول السورة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: (وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين)، خرج رسول اللَّه ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**يا صباحاه!**» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيّ؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». قال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت: (تبت يدا أبي لهب وتب وقد تب»). هكذا قرأها الأعمش يومئذ[١].

★ غريب الحديث:

يا صباحاه: يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يغيرون وقت الصباح، وأنشدوا:

نحن صبحنا عامرًا في دارها

فكأن القائل: يا صباحاه، يقول: قد رهقنا العدو.

والثاني: لما كان الأعداء يترجعون عن القتال في الليل، فإذا جاء النهار عاودوه، كان قول القائل: يا صباحاه، بمعنى: قد جاء وقت الصباح، فتأهبوا للّقاء[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: وأبو لهب هو ابن عبد المطلب، وأمه خزاعية، وكني أبا لهب إما بابنه لهب، وإما لشدة حمرته[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٢)، والبخاري (٨/ ٧٣٧/ ١٧٩٤)، ومسلم (١/ ١٩٤/ ٢٠٨)، والترمذي (٥/ ٤٢٠/ ٣٦٣٣).

(٢) كشف المشكل (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٣) فتح الباري (٨/ ٩٥٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «معنى: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكت. وقال مقاتل: خسرت. وقيل: خابت. وقال عطاء: ضلت. وقيل: صفرت من كل خير»[١].

وقال أبو حيان: «وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، وقالوا: فيما حكي: أشابة أم تابة، أي: هالكة من الهرم والتعجيز»[٢].

قال القرطبي: «وخص اليدين بالتباب لأن العمل أكثر ما يكون بهما، أي: خسرتا وخسر هو، وقيل: المراد باليدين نفسه، وقد يعبر عن النفس باليد كما قال الله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[٣] أي: نفسك، وهذا مهيع كلام العرب تعبر ببعض الشيء عن كله»[٤].

وقال أيضا: ﴿وَتَبَّ﴾ قال الفراء: التب الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله وقد هلك، وفي قراءة عبد الله وأبي (وقد تب) وأبو لهب اسمه عبد العزى، وهو ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ. وامرأته العوراء أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، وكلاهما كان شديد العداوة للنبي ﷺ»[٥].

وقال ابن عاشور: «كنيته أبو عتبة تكنية باسم ابنه، وأمّا كنيته بأبي لهب في الآية فقيل: كان يكنّى بذلك في الجاهلية (لحسنه وإشراقِ وجهه)، وأنه اشتهر بتلك الكنية كما اقتضاه حديث طارق المحاربي، ومثله حديث عن ربيعة بن عباد الديلي في «مسند أحمد»، فسماه القرآن بكنيته دون اسمه لأن في اسمه عبادة العزى، وذلك لا يُقره القرآن، أو لأنه كان بكنيته أشهر منه باسمه العَلَمِ، أو لأن في كنيته ما يتأتى به

---

(١) فتح القدير (٥/ ٧٤٤).
(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٢٦).
(٣) الحج: الآية (١٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٣٥-٢٣٦).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٣٦).

التوجيه بكونه صائرًا إلى النار، وذلك كناية عن كونه جهنميًا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان كثرة إيذاء أبي لهب لرسول اللَّه ﷺ وبغضه له وازدرائه به وتنقصه له ولدينه

* عن ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهليًا، قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «**يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا اللَّه، تفلحوا**». والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول، ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فذكروا لي نسب رسول اللَّه ﷺ وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب»[٢].

★ غريب الحديث:

ذو غديرتين: أي ضفيرتين.

صابئ: يقال: صَبَأَ فلانٌ: إذا خرج من دين إلى دين.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن كثير: «والمقصود أن رسول اللَّه ﷺ استمر يدعو إلى اللَّه تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك رادّ، ولا يصده عن ذلك صادّ، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠١و٦٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٢) و(٤/ ٣٤١)، وعبد اللَّه بن أحمد في زيادات المسند (٣/ ٤٩٢-٤٩٣)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٦١/ ٤٥٨٢)، وفي «الأوسط» (٢/ ٢٩٠-٢٩١/ ١٥١٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٢): «رواه أحمد وابنه والطبراني في «الكبير» بنحوه و«الأوسط» باختصار بأسانيد، وأحد أسانيد عبد اللَّه ابن أحمد ثقات الرجال».

تنبيه: وقع خطأ في النسخة المطبوعة للمسند، وهو أن رواية عبد اللَّه بن أحمد نسبوها لأبيه، وللتفصيل انظر أطراف المسند (٢/ ٣٣٩/ ٢٣٥٩) بمقارنتها مع الأسانيد الموجودة في «المسند» تجد أن مصعب بن عبد اللَّه الزبيدي وسريج بن يونس وسعيد بن أبي الربيع ومسروق بن المرزبان ومحمد بن بكار وسعيد بن يحيى بن سعيد كلهم من شيوخ عبد اللَّه بن الإمام أحمد، وليسوا من شيوخ أحمد، فقولهم مثلًا: عبد اللَّه حدثني أبي ثنا مصعب بن عبد اللَّه الزبيدي، فكلمة (أبي) زيادة من الناسخ أو الطابع. واللَّه الموفق للصواب لا رب سواه.

المواسم، ومواقف الحج، يدعو من لقيه حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده شرع سواء، وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء من مشركي قريش بالأذية القولية والفعلية، وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان. وخالفه في ذلك عمه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول اللَّه ﷺ أحب خلق اللَّه إليه طبعًا، وكان يحنو عليه ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك، مع أنه على دينهم وعلى خلتهم، إلا أن اللَّه تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبًّا طبعيًّا لا شرعيًّا.

وكان استمراره على دين قومه من حكمة اللَّه تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية؛ إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وقد قسم خلقه أنواعًا وأجناسًا، فهذان العمان كافران أبو طالب وأبو لهب، ولكن هذا يكون في القيامة في ضحضاح من نار، وذلك في الدرك الأسفل من النار، وأنزل اللَّه فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر، وتقرأ في المواعظ والخطب، تتضمن أنه سيصلى نارًا ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب»[1].

* * *

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٤٦٠-٤٦١).

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: ما دفع عنه ما حلّ به من التباب، وما نزل به من عذاب اللَّه ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه؛ أو المراد بقوله: ﴿مَالُهُۥ﴾ ما ورثه من أبيه، وبقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الذي كسبه بنفسه. قال مجاهد: وما كسب من ولد، وولد الرجل من كسبه»[1].

وقال القاسمي: «وكانت العرب تعد أولادها للنائبات كالأموال، فنفى إغناءهما عنه حين حل به التباب»[2].

قال الشوكاني: «ويجوز أن تكون «ما» في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ استفهامية، أي: أيُّ شيء أغنى عنه؟ وكذا يجوز في قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أن تكون استفهامية، أي: وأيّ شيء كسب؟ ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وكسبه. والظاهر أن «ما» الأولى نافية، والثانية موصولة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن ولد الرجل من كسبه

* عن عمارة بن عمير عن عمته أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري يتيم، أفآكل من ماله؟ فقالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه**»[4].

★ فوائد الحديث:

سيق هذا الحديث في تفسير الآية لبيان أن المقصود من قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) فتح القدير (٥/ ٧٤٥).
(٢) محاسن التأويل (١٧/ ٢٨٧).
(٣) فتح القدير (٥/ ٧٤٥).
(٤) أخرجه: أبو داود (٣/ ٨٠٠/ ٣٥٢٨)، والترمذي (٣/ ٦٣٩/ ١٣٥٨)، والنسائي (٧/ ٢٧٦/ ٤٤٦١)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٨-٧٦٩/ ٢٢٩٠).

﴿كَسَبَ﴾ ولده، وهو قول ابن عباس وعائشة ومجاهد والحسن وابن سيرين وغيرهم، وعليه يدل حديث عائشة المشار إليه[١].

* * *

(١) انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾

★ غريب الآية:

حمالة الحطب: الحطب: ما يعد لإيقاد النار. ويكنى بذلك عن النميمة. يقال: فلان يحطب لفلان، أي: يسعى به. قال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس. وقال الشاعر:

إن بني الأَدْرَمِ حَمَّالُو الحَطَبْ ... هُمُ الوُشَاةُ في الرضا وفي الغَضَبْ

عليهم اللعنةُ تَتْرَى وَالْحَرَبْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمعاني: «يقال: صلى الشيء: إذا قاسى شدته وحره. ويقال: صليته أي: شويته، ومنه شاة مصلية أي: مشوية، والمعنى: سوف يصلى أي: يدخل نارا ذات لهب أي: التهاب وتوقد»[1].

وقال الشوكاني: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ معطوف على الضمير في «يصلى». وجاز ذلك للفصل. أي: وتصلى امرأته نارًا ذات لهب. وهي أمّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. وكانت تحمل الغضى والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبيّ ﷺ، كذا قال ابن زيد والضحاك، والربيع بن أنس، ومرّة الهمداني »[2].

وقال الخازن: «فإن قلت: إنها كانت من بيت العز والشرف فكيف يليق بها حمل الحطب؟ قلت: يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها وشرفها في نهاية البخل والخسة، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها، ويحتمل أنها كانت تفعل ذلك لشدة عداوتها لرسول اللَّه ﷺ، ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد؛ بل تفعله هي بنفسها»[3].

---

(١) تفسير السمعاني (٦/ ٣٠٠).
(٢) فتح القدير (٥/ ٧٤٥).
(٣) تفسير الخازن (٤/ ٤٢٥).

قال الشوكاني: «وقال مجاهد، وقتادة، والسديّ: إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس، والعرب تقول: فلان يحطب على فلان: إذا نمّ به.. وقال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، كما في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[1]. وقيل: المعنى حمالة الحطب في النار»[2].

وقال ابن كثير: «وكانت زوجته من سادات نساء قريش.. وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَونًا عليه في عذابه في نار جهنم»[3].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٣١).
(٢) فتح القدير (٥/ ٧٤٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٣٥).

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

جيدها : أي : عنقها . قال امرؤ القيس :

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلا بِمُعَطَّلِ

مسد : أي : لِيف . ومَسَدَ الحَبْلَ : أَجَادَ فَتْلَهُ . والمَسَدُ : الحبل من أيّ شيء اتُّخِذَ . قال الشاعر :

يَا ربَّ عيسى لا تبارِكْ في أَحَدْ في قائِمٍ منهُمْ ولا في من قَعَدْ
إلا الذين قاموا بأطرافِ المَسَدْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الواحدي : «المسد : الفتل ، والمسد : ما فتل وأحكم من أي شيء كان ، والمعنى : أن السلسلة التي في عنقها فتلت من حديد فتلا محكما»[١] .

وقال ابن عطية : «قال ابن عباس والضحاك والسدي وابن زيد : الإشارة إلى الحبل حقيقة الذي ربطت به الشوك وحطبه ، قال السدي : المسد : الليف ، وقيل : ليف المقل ذكره أبو الفتح وغيره ، وقال ابن زيد : هو شجر باليمن يسمى المسد ، تصنع منه الحبال . .

والمسد : الحبل ، وقال عروة بن الزبير وسفيان ومجاهد وغيرهم : هذا الكلام استعارة والمراد : سلسلة من حديد في جهنم ذرعها سبعون ذراعا ، ونحو هذا من العبارات ، وقال قتادة : ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ : قلادة من ودع ، قال ابن المسيب : كان لها قلادة فاخرة فقالت : لأنفقنها على عداوة محمد .

قال القاضي أبو محمد : فإنما عبر عن قلادتها بـ ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ على جهة

---

(١) الوسيط (٤/ ٥٦٩).

التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث»[1].

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو حبل جُمع من أنواع مختلفة، ولذلك اختلف أهل التأويل في تأويله على النحو الذي ذكرنا، ومما يدلّ على صحة ما قلنا في ذلك قول الراجز:

وَمَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أيانِقِ ... صُهْبٍ عِتاقٍ ذاتِ مُخ زَاهِقِ

فجعل إمراره من شتى، وكذلك المسد الذي في جيد امرأة أبي لهب، أُمِرَّ من أشياء شتى، من ليف وحديد ولحاء، وجعل في عنقها طوقا كالقلادة من ودع»[2].

وقال الزمخشري: «المعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون: تخسيسًا لحالها، وتحقيرًا لها، وتصويرًا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن، لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها؛ وهما في بيت العزّ والشرف، وفي منصب الثروة والجدة. .

ويحتمل أن يكون المعنى: أنّ حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك؛ فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل من ما مسد من سلاسل النار؛ كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه»[3].

قال ابن كثير: «قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة؛ فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما، لا ظاهرًا ولا باطنًا، لا مسرًّا ولا معلنًا. وكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة»[4].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٥).
(٢) جامع البيان (٣٠/ ٣٤١).
(٣) الكشاف (٤/ ٢٩٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٣٧).



سورة الإخلاص

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن**»(١).

* عن أبي سعيد الخدري أخبرني أخي قتادة بن النعمان: «أن رجلًا قام زمن النبي ﷺ يقرأ من السحر: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لا يزيد عليها، فلما أصبحنا أتى الرجل النبي ﷺ.. نحوه»(٢).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: **أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟**» فشق ذلك عليهم، وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**(اللَّه الواحد الصمد) ثلث القرآن**»(٣).

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن**»(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤-٣٥)، والبخاري (٩/ ٥٨-٥٩/ ٥٠١٣)، وأبو داود (٢/ ١٥٣/ ١٤٦١)، والنسائي (٢/ ٥١٢/ ٩٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٥٩/ ٥٠١٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨)، والبخاري (٩/ ٥٩/ ٥٠١٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٤/ ١٠٥٢٢) وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٧): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢/ ٧٧/ ٥١٩). وله شواهد من حديث أبي سعيد الخدري - عند البخاري - وعائشة وغيرهم.

* عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ من قرأ (اللَّه الواحد الصمد) فقد قرأ ثلث القرآن**»[١].

* عن أبي الدرداء أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟**» قالوا: نحن أضعف من ذاك، وأعجز، قال: «**فإن اللَّه جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن**»[٢].

* عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، قال: «**ثلث القرآن أو تعدله**»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن**»، فحشد من حشد ثم خرج نبي اللَّه ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، ثم خرج نبي اللَّه ﷺ فقال: «**إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن**»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

فصل في معنى قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن»:

قال شيخ الإسلام: «فقد قيل فيه وجوه، أحسنها -واللَّه أعلم-: الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس بن سريج، فعن أبي الوليد القرشي؛ أنه سأل العباس بن سريج عن معنى قول النبي ﷺ: «**قل هو اللَّه أحد تعدل ثلث القرآن**»، فقال: معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤١٨-٤١٩)، والترمذي (٥/ ١٥٣-١٥٤/ ٢٨٩٦) وقال: «حسن»، والنسائي (٢/ ٥١٢-٥١٣/ ٩٩٦) مختصرًا، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ١١٢، ح: ٢٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٢-٤٤٧)، ومسلم (١/ ٥٥٦/ ٨١١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٦-١٧٧/ ١٠٥٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٥/ ١٠٥٣١)، والطبراني في الأوسط (٩/ ٢٥٦/ ٨٥٥٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٧): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح»، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٥٠٧/ ٢٥٤٥)، وابن الضريس (ص: ١٠٨، ح: ٢٤٢)، وصحح السيوطي سنده في «الدر المنثور».

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٩)، ومسلم (١/ ٥٥٧/ ٨١٢)، والترمذي (٥/ ١٥٥/ ٢٩٠٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٠٣).

قال الحافظ: «ويستأنس لهذا بما أخرجه أبو عبيدة من حديث أبي الدرداء قال: «جزأ النبي ﷺ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءًا من أجزاء القرآن».

وقال القرطبي: اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء اللَّه تعالى يتضمنان جميع أصناف الكمال لم يوجدا في غيرها من السور، وهما (الأحد)، (الصمد)؛ لأنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال؛ وبيان ذلك أن الأحد يشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره، والصمد يشعر بجميع أوصاف الكمال؛ لأنه الذي انتهى إليه سؤدده، فكان مرجع الطلب منه وإليه، ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حاز جميع خصال الكمال، وذلك لا يصلح إلا لله تعالى، فلما اشتملت هذه السورة على معرفة الذات المقدسة، كانت بالنسبة إلى تمام المعرفة بصفات الذات وصفات الفعل ثناءً، اهـ. وقال غيره: تضمنت هذه السورة توجيه الاعتقاد، وصدق المعرفة لما يجب إثباته لله من الأحدية المنافية لمطلق الشركة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص، ونفي الولد والوالد المقرر لكمال المعنى، ونفي الكفء المتضمن لنفي الشبيه والنظير، وهذه مجامع التوحيد الاعتقادي، ولذلك عادلت ثلث القرآن؛ لأن القرآن خبر وإنشاء، والإنشاء أمر ونهي وإباحة، والخبر خبر عن الخالق وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة (الإخلاص) الخبر عن اللَّه، وخلصت قارئها من الشرك الاعتقادي. ومنهم من حمل المثلية على تحصيل الثواب، فقال: معنى كونها ثلث القرآن: أن ثواب قراءتها يحصل للقارئ مثل ثواب من قرأ ثلث القرآن، وقيل مثله بغير تضعيف، وهي دعوى بغير دليل، ويؤيد الإطلاق ما أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء فذكر نحو حديث أبي سعيد الأخير، وقال فيه: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **تعدل ثلث القرآن**». ولمسلم أيضًا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**احشدوا فسأقرأ عليكم ثلث القرآن**. فخرج فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم قال: **ألا إنها تعدل ثلث القرآن**». ولأبي عبيد من حديث أبي بن كعب: «**من قرأ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **فكأنما قرأ ثلث القرآن**». وإذا حمل ذلك على ظاهره، فهل ذلك لثلث من القرآن معين، أو لأي ثلث فرض منه؟ فيه نظر، ويلزم على الثاني أن من قرأها ثلاثًا كان كمن قرأ ختمة كاملة. وقيل: المراد من عمل بما تضمنته من

الإخلاص والتوحيد، كان كمن قرأ ثلث القرآن. وادعى بعضهم أن قوله: «**تعدل ثلث القرآن**» يختص بصاحب الواقعة؛ لأنه لما رددها في ليلته كان كمن قرأ ثلث القرآن بغير ترديد. قال القابسي: ولعل الرجل الذي جرى له ذلك لم يكن يحفظ غيرها، فلذلك استقل علمه، فقال له الشارع ذلك ترغيبًا له في عمل الخير وإن قل. وقال ابن عبد البر: من لم يتأول هذا الحديث أخلص ممن أجاب فيه بالرأي، وفي الحديث إثبات فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وقد قال بعض العلماء: إنها تضاهي كلمة التوحيد؛ لما اشتملت عليه من الجمل المثبتة والنافية، مع زيادة تعليل، ومعنى النفي فيها أنه الخالق الرزاق المعبود؛ لأنه ليس فوقه من يمنعه كالوالد، ولا من يساويه في ذلك كالكفء، ولا من يعينه على ذلك كالولد. وفيه إلقاء العالم المسائل على أصحابه، واستعمال اللفظ في غير ما يتبادر للفهم؛ لأن المتبادر من إطلاق ثلث القرآن أن المراد ثلث حجمه المكتوب مثلث، وقد ظهر أن ذلك غير مراد»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: أقبلت مع رسول اللَّه ﷺ فسمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وجبت**». فسألته: ماذا يا رسول الله؟ قال: «**الجنة**»[2].

* عن أنس ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**حبك إياها أدخلك الجنة**»[3].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «ودل تبشيره له بالجنة على الرضا بفعله، وعبر بالفعل الماضي في قوله: «أدخلك» وإن كان دخول الجنة مستقبلًا تحقيقًا لوقوع ذلك. قال ناصر الدين

(١) فتح الباري (٩/ ٧٤-٧٥).

(٢) أخرجه: النسائي (٢/ ١١٥-٢١٥/ ٣٩٩)، والترمذي (٥/ ٤٥١/ ٧٩٨٢) وحسنه، وصححه الحاكم (١/ ٦٦٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤١-١٥٠)، والبخاري تعليقًا (٢/ ٣٢٤)، والترمذي (٥/ ١٥٦/ ٢٩٠١) وقال: «حسن غريب صحيح»، والدارمي (٢/ ٤٦٠-٤٦١).

ابن المنير: في هذا الحديث أن المقاصد تغير أحكام الفعل؛ لأن الرجل لو قال: إن الحامل له على إعادتها أنه لا يحفظ غيرها لأمكن أن يأمره بحفظ غيرها، لكنه اعتل بحبها، فظهرت صحة قصده، فصوبه. قال: وفيه دليل على جواز تخصيص بعض القرآن بميل النفس إليه والاستكثار منه، ولا يعد ذلك هجرانًا لغيره. وفيه ما يشعر بأن سورة (الإخلاص) مكية»[1].

* عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك**». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن اللَّه تعالى يحبه**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال الغنيمان: «قوله: «**لأنها صفة الرحمن**»؛ قال ابن دقيق العيد: يحتمل أن يراد: أن فيها ذكر صفة الرحمن كما إذا ذكر وصف فعبر عن ذلك الذكر بأنه الوصف وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف، ويحتمل أن يراد به غير ذلك، إلا أنه لا يختص ذلك بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ولعلها خصت بذلك لاختصاصها بصفات الرب تعالى دون غيرها. قلت: يريد بيان وجه تخصيص الصحابي لها بما ذكر أنها خالصة لذكر الرحمن تعالى وتقدس، وقوله: إلا أنه لا يختص ذلك بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يعني أن أوصاف الرحمن تعالى موجودة في آيات كثيرة من القرآن، وهذه السورة وسائر سور القرآن هي صفة الرحمن؛ لأنها كلامه، وكلامه من صفاته، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن تعالى، وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابي رضي الله عنه، أي أنها خالصة لوصف الرحمن تعالى دون غيره، قال ابن التين: إنما قال: «لأنها صفة الرحمن» لأن فيها أسماءه، وأسماؤه مشتقة من صفاته، وقال غيره: يحتمل أن الصحابي قال ذلك مستندًا إلى شيء سمعه من النبي ﷺ إما بالنص أو بالاستنباط، وروى البيهقي في «الأسماء

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١٣/ ٤٣١/ ٧٣٧٥)، ومسلم (١/ ٥٥٧/ ٨١٣)، والنسائي (٢/ ٥١١/ ٩٩٢).

والصفات» عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك؟ فأنزل اللَّه ﷻ: بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها، فقال: هذه صفة ربي ﷻ»[١]»[٢].

قوله: «أخبروه أن اللَّه يحبه»: قال الغنيمان: «قد يكون سبب محبة اللَّه له محبته لهذه السورة، أو لمحبته ذكر صفات الرب ﷻ، وحسن فهمه وعقيدته في ذلك، أو لمجموع الأمرين، وهو الأولى. وفيه ثبوت محبة اللَّه تعالى لأهل طاعته من عباده، والأدلة عليه كثيرة جدًا، فلذلك صار إنكاره ضلالًا بينًا..

ومحبته -تبارك وتعالى- لعبده المؤمن شيء فوق إنعامه وإحسانه وعطائه وإثابته؛ فإن هذا أثر المحبة وموجبها. أما هي فأعظم من ذلك وأشرف، وهي التي يتسابق إليها أنبياؤه وملائكته وأولياؤه وعباده الصالحون، وكم في كتاب اللَّه وسنة رسوله من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٤]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾[٥]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٦]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٧]، والآيات في هذا كثيرة، وأما الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ التي تنص على أن اللَّه يحب عباده المؤمنين فإحصاؤها عسير، كقوله ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبه اللَّه ورسوله، ويحب اللهَ ورسولَهُ**»[٨]، وقوله ﷺ: «**إن اللَّه يحب العبد التقي الغني الخفي**»[٩].

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها؛ إذ هي من الضروريات الثابتة بالعقل

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٨/ ٦٠٦)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠/ ٣٤٧٤/ ١٩٥٣٤)، وابن عدي في الكامل (/ ٢٥٣)، وفيه محمد بن موسى الجرشي ضعفه أبو داود ووهاه، وقال: أبو حاتم: «شيخ»، وقال النسائي: «صالح»، وذكره ابن حبان في الثقات، كما في تهذيب التهذيب (٩/ ٤١٥)، وفيه أيضا عبد اللَّه بن عيسى أبو خلف قال في التقريب: «ضعيف»، وقد حسنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٤١).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٦٠-٦١).

(٣) آل عمران: الآية (٣١).

(٤) البقرة: الآية (٢٢٢).

(٥) آل عمران: الآية (٧٦).

(٦) آل عمران: الآية (١٣٤).

(٧) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٣)، والبخاري (٦/ ١٣٦-١٣٧/ ٢٩٤٢)، ومسلم (٤/ ١٨٧٢/ ٢٤٠٦)، وأبو داود (٤/ ٦٩/ ٣٦٦١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٦/ ٨١٤٩).

(٩) أخرجه أحمد (١/ ١٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٧/ ٢٩٦٥)، من حديث سعد بن أبي وقاص وفيه قصة.

والشرع والفطرة، فإنكارها إنكار للواقع المحسوس، كما أن تأويل المحرفين بأنها الاستقامة على الطاعة، كما ذكره المازري، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم، كما نقله الحافظ عن ابن التين، مخالف للشرع والعقل والواقع المحسوس؛ بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام؛ لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله، ومعنى الإله: المحبوب الذي تأله له القلوب وتحبه وتعظمه وتجله وتقصده بالإنابة والخضوع والذل والافتقار إليه والخوف منه ورجائه، فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله فقد أنكر حقيقة الإسلام، وهل الشرك الذي حرمت الجنة على صاحبه إلا أن يجعل للمخلوق نصيبًا مع الله تعالى في هذا الحب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1]، فبين تعالى أن الذي يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله ندًّا، وأخبر تعالى عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٨﴾[2]، ولا يجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا في الحب؛ لأنه لا يمكن أن يقول عاقل: إن أحدًا من الخلق يساوي الله تعالى في الفعل والتصرف.

وقول ابن التين الذي نقله الحافظ: إن معنى محبة المخلوقين لله إرادته أن ينفعهم، من أبطل الكلام المخالف للواقع وللشرع والعقل، ولو أن هذا مسجل في الكتب المتداولة بين المسلمين لم يجز ذكره، وهل يوجد أحد من الخلق لا يريد أن ينفعه الله حتى إبليس ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد من الأولين والآخرين؛ بل كلهم يريد أن ينفعهم الله، فهل يقال: إنهم يحبون الله المحبة المأمور بها شرعًا؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله ونقص الإيمان بذلك.

«وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين، وأن قوله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن قوله الفصل ليس بالهزل، وأنه الهدى والنور والشفاء لما في الصدور من الجهل والشكوك، وأنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه، وعلم أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأفصح الخلق في النطق والبيان، وأنه أنصح

---

(١) البقرة: الآية (١٦٥).

(٢) الشعراء: الآيتان (٩٧و٩٨).

الخلق للخلق، من علم ذلك، تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه، وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه، ويجب أن يعلم أن كلام اللَّه ورسوله أبلغ ما يمكن، وأتم ما يكون، وأعظمه بيانًا لأمور الدين من حقوق اللَّه، وأسمائه وصفاته، وغير ذلك. فمن وقر هذا في قلبه لم يجرؤ على تأويل النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرها العاقل المنصف وجدها أبعد شيء عن كتاب اللَّه وعن صفات الرسول ﷺ، وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص في علمه وإيمانه بكلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ.

وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هي حياة القلوب، ونعيم الروح؛ بل هي أعلى نعيم في الدنيا والآخرة، وهي فوق كل محبة تفترض، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة (لا إله إلا الله)، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند اللَّه في الدنيا والآخرة.. وفي الصحيحين مرفوعًا: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

وأصل التأله: التعبد، والتعبد هو آخر مراتب الحب، يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه وذلّله لمحبوبه، فالمحبة هي حقيقة العبودية، ولا يمكن وجود العبادة التي يريدها اللَّه ويأمر بها عباده بدونها أبدًا؛ بل لا يوجد أي نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعًا بدونها، مثل الإنابة والخشية والخوف والرجاء والحمد والشكر والصبر والدعاء والاستغاثة والاستعانة وغير ذلك من أنواع العبادة، فمنكر المحبة في الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان، وهؤلاء المحرفون لمثل هذا النص في المحبة يغالطون أنفسهم.

وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعاني القرآن حيث قالوا عن سورة (الصمد): «إنها صفة الرحمن»، ووجه ذلك أن هذه السورة تضمنت أنواع التنزيه لله

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٣)، والبخاري (١/ ٨٩/ ١٦)، ومسلم (١/ ٦٦/ ٤٣)، والترمذي (٥/ ١٦/ ٢٦٢٩)، والنسائي (٨/ ٤٧١-٤٧٢/ ٥٠٠٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨-١٣٣٩/ ٤٠٣٣)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

تعالى، والتحميد، ونفي النقائص كلها، وإثبات الكمال جميعه، ولهذا عدلت ثلث القرآن، كما تقدمت الإشارة إليه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تضمن سورة الإخلاص لاسم اللَّه الأعظم

* عن بريدة أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللَّه لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن لك كفوًا أحد، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«لقد سألت اللَّه بالاسم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»**[(٢)].

★ فوائد الحديث:

قوله: «إذا سئل به أعطي وإذا دعي به أجاب»: قال في «عون المعبود»: «السؤال: أن يقول: العبد أعطني فيعطى، والدعاء: أن ينادي ويقول: يا رب، فيجيب الرب تعالى ويقول: لبيك يا عبدي، ففي مقابلة السؤال الإعطاء، وفي مقابلة الدعاء الإجابة، وهذا هو الفرق بينهما، ويذكر أحدهما مقام الآخر أيضًا.

واعلم أنه قد ورد أقوال من العلماء في الاسم الأعظم، فقال قائل: إن أسماء اللَّه تعالى كلها عظيمة، لا يجوز تفضيل بعضها على بعض، وينسب هذا إلى الأشعري والباقلاني وغيرهما، وحمل هؤلاء ما ورد في ذكر الاسم الأعظم على أن المراد به العظيم.

وقال الطيبي: في الحديث دلالة على أن لله تعالى اسمًا أعظم إذا دعي به أجاب، وأن ذلك مذكور ههنا، وفيه حجة على من قال: كل اسم ذكر بإخلاص تام مع الإعراض عما سواه هو الاسم الأعظم؛ إذ لا شرف للحروف.

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٦٤-٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٩-٣٥٠)، وأبو داود (٢/ ١٦٦-١٦٧/ ١٤٩٣)، والترمذي (٥/ ٤٨١-٤٨٢/ ٣٤٧٥) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٧-١٢٦٨/ ٣٨٥٧)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٧٣-١٧٤/ ٨٩١-٨٩٢)، والبغوي (٥/ ٣٧-٣٨/ ١٢٥٩-١٢٦٠)، والحاكم (١/ ٥٠٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

قال المنذري: وأخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي ﷺ: وهو إسناد لا مطعن فيه، ولا أعلم أنه روي في هذا الباب حديث أجود إسنادًا منه، وهو يدل على بطلان مذهب من ذهب إلى نفي القول بأن لله اسمًا هو الاسم الأعظم، وهو حديث حسن»[١].

قال محمد المحمود النجدي: «وقد اختار القول بأن الاسم الأعظم لله تعالى هو (الله) الطحاوي.. وكذا ابن القيم، فقد قال -بعد أن بين لوازم أسماء اللَّه الحسنى-: «فاسم اللَّه دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف اللَّه تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٢]، ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء اللَّه، ولا يقال: اللَّه من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك، فعلم أن اسمه اللَّه مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم اللَّه، واسم اللَّه دال على كونه مألوهًا معبودًا تألهه الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله)، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب)، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم (الرحمن)، وكرر إيذانًا بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته»، وقد ساق فخر الدين الرازي في كتابه «شرح أسماء اللَّه الحسنى» حجج

---

(١) عون المعبود (٤/ ٣٦٢).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٠).

من قال: إن الاسم الأعظم هو (الله) منها:

١- إن هذا الاسم ما أطلق على غير اللَّه تعالى؛ فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير اللَّه ﷻ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٢) ومعناه: هل تعلم من اسمه (الله) سوى اللَّه، ولما كان هذا الاسم في الاختصاص باللَّه تعالى على هذا الوجه، وجب أن يكون أشرف أسماء اللَّه ﷻ.

٢- إن هذا الاسم هو الأصل في أسماء اللَّه ﷻ، وسائر الأسماء مضافة إليه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾(٣)، فأضاف سائر الأسماء إليه، ولا محالة أن الموصوف أشرف من الصفة، ولأنه يقال: الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء اللَّه تعالى، ولا يقال: اسم اللَّه (الرحمن الرحيم)، فدل هذا على أن الاسم هو الأصل، فإن قيل: لفظ (الله) قد جعل نعتًا في قوله تعالى في أول سورة (إبراهيم): ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٤)، قلنا: قرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف، وخبره فيما بعده، والباقون بالجر عطفًا على قوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، تقديره: صراط اللَّه العزيز الحميد.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾(٥) خص هذين الاسمين بالذكر، وذلك يدل على أنهما أشرف من غيرهما، ثم إن اسم (الله) أشرف من اسم (الرحمن)، وأما أولًا فلأنه يقال: قدمه في الذكر، وأما ثانيًا فلأن اسم (الرحمن) يدل على كمال الرحمة، ولا يدل على كمال القهر والغلبة والعظمة والقدس والعزة، وأما اسم (الله) فإنه يدل على كل ذلك، فثبت أن اسم (الله) تعالى أشرف.

٤- هذا الاسم له خاصية غير حاصلة في سائر الأسماء، وهي أن سائر الأسماء

---

(١) لقمان: الآية (٢٥).
(٢) مريم: الآية (٦٥).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٠).
(٤) إبراهيم: الآيتان (١و٢).
(٥) الإسراء: الآية (١١٠).

والصفات إذا دخل عليه النداء أسقط عنه الألف واللام، ولهذا لا يجوز أن يقال: يا الرحمن يا الرحيم؛ بل يقال: يا رحمن يا رحيم، أما هذا الاسم فإنه يحتمل هذا المعنى فيصح أن يقال: يا اللَّه، وذلك أن الألف واللام في هذا الاسم صار كالجزء الذاتي، فلا جرم لا يسقطان حالة النداء، وفيه إشارة لطيفة، وذلك أن الألف واللام للتعريف، فعدم سقوطهما عن هذا الاسم يدل على أن هذه المعرفة لا تزول أبدًا البتة. اهـ باختصار»[1].

قلت: ولعل في إبهام الشرع وعدم تعيينه للاسم الأعظم ما يدل على أنه سبحانه أراد من العباد الاجتهاد في الدعاء لتحصيل هذا الاسم فيدعونه ويجتهدون في الثناء عليه ﷻ علهم يصيبون هذا الاسم، ولا يخفى ما في ذلك من عظيم الأجر على الذكر واللَّه أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرقية بسورة الإخلاص والمعوذتين

* عن عائشة ﵂: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[2].

* عن عبد اللَّه بن خبيب ﵁ قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول اللَّه ﷺ ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: «**أصليتم؟**» فلم أقل شيئًا، فقال: «**قل**»، فلم أقل شيئًا، ثم قال: «**قل**»، فلم أقل شيئًا، ثم قال: «**قل**»، فقلت: يا رسول الله! ما أقول؟ قال: «**قل، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ و(المعوذتين) حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**»[3].

---

(١) النهج الأسمى (١/ ٦٧-٦٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ١٥٠/ ٦٣١٩)، وأبو داود (٥/ ٣٠٣-٣٠٤/ ٥٠٥٦)، والترمذي (٥/ ٤٤١/ ٣١٠٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٧/ ١٠٦٢٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٥/ ٣٨٧٥).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ٣٢٠-٣٢١/ ٥٠٨٢)، والترمذي (٥/ ٥٣٠/ ٣٥٧٥) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي (٨/ ٦٤٢/ ٥٤٤٣).

* عن عبد اللَّه بن أنيس الأسلمي: «أن رسول اللَّه ﷺ وضع يده على صدره ثم قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ حتى فرغت منها، ثم قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝﴾ قلت: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى فرغت منها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هكذا فتعوذ فما تعوذ العباد بمثلهن قط**»[1].

★ **غريب الأحاديث:**

النفث: النفث بالفم، وهو شبيه بالنفخ، وهو أقل من التفل؛ لأن التفل لا يكون إلا ومعه شيء من الريق.

★ **فوائد الأحاديث:**

بوّب البخاري على حديث عائشة في «كتاب الطب»: «باب الرقى بالقرآن والمعوذات».

قال الحافظ: «المراد بالمعوذات سورة (الفلق) و(الناس) و(الإخلاص) كما تقدم في أواخر التفسير، فيكون من باب التغليب، أو المراد (الفلق) و(الناس)، وكل ما ورد من التعويذ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[2]، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[3]، وغير ذلك، والأول أولى»[4].

وبوّب عليه في كتاب «الدعوات»: «باب التعوذ والقراءة عند المنام».

١- في حديث عائشة استحباب النفث في الرقية، **قال النووي**: «وقد أجمعوا على جوازه، واستحبه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قال القاضي: وأنكر جماعة النفث والتفل في الرقى، وأجازوا فيها النفخ بلا ريق»[5].

---

(١) أخرجه: البزار (كشف الأستار ٣/ ٨٥-٨٦/ ٢٣٠٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٩): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور». وله شواهد كلها صحاح أخرجها النسائي (٨/ ٦٤٢-٦٤٣/ ٥٤٤٤-٥٤٤٥-٥٤٤٧) من حديث عبد اللَّه بن خبيب وعقبة بن عامر الجهني وابن عباس ﭫ أجمعين.

(٢) المؤمنون: الآية (٩٧).

(٣) النحل: الآية (٩٨).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٣٩).

(٥) شرح مسلم (١٤/ ١٥٢).

قال القاضي عياض: «وقد اختلف في التفل والنفث، فقيل: هما بمعنى، ولا يكونان إلا ومعهما شيء من الريق، وقال أبو عبيد: لا يكون التفل إلا ومعه شيء من الريق بخلاف النفث، وقيل بعكس هذا. وقال بعضهم: والتفل بالفتح: البصاق نفسه. وسئلت عائشة عن نفث النبي ﷺ في الرقية فقالت: «كما ينفث آكل الزبيب»[١]. قال بعض شيوخنا: هذا يقتضي أنه يلقي اليسير من الريق، وليس كما قال؛ بل هو كما قاله الأول؛ لأن نافث الريق لا بزاق معه، ولا اعتبار بما يخرج عليه من بلل، ولا يقصد ذلك، لكن قد جاء في حديث الذي رقى بفاتحة الكتاب: «فجعل يجمع بزاقه ويتفل».

وفائدة ذلك -واللَّه أعلم-.. قد يكون على وجه التفاؤل بزوال ذلك الألم عن المريض وانفصاله عنه كانفصال ذلك النفث عن في الراقي[٢] »[٣].

وقال أيضا: «وفيها سنة المسح باليد اليمنى عند الرقية. قال الطبري: ومعنى ذلك تفاؤلا لذهاب الوجع لمسحه بالرقى، وفيه جواز الرقى بالقرآن وبالمعوذات وبالدعاء إلى اللَّه بالشفاء»[٤].

٢- **قال ابن بطال**: «في الاسترقاء بالمعوذات استعاذة باللَّه تعالى من شر كل ما خلق، ومن شر النفاثات في السحر، ومن شر الحاسد، ومن شر الشيطان ووسوسته، وهذه جوامع من الدعاء تعم أكثر المكروهات، ولذلك كان ﷺ يسترقي بهما، وهذا الحديث أصل ألا يسترقى إلا بكتاب اللَّه وأسمائه وصفاته، وقد روى مالك في

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠١/ ٨٩٣٥)، وابن ماجه (١/ ٥١٧/ ١٦١٨)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٥٥٣/ ٦٥٨٨).

(٢) وقد عقد البخاري في صحيحه في كتاب الطب باب النفث في الرقى، وأورد تحته عدة أحاديث وآثارًا تدل على المقصود؛ قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٥٧-٢٥٨): «في هذه الترجمة إشارة إلى الرد على من كره النفث مطلقًا، كالأسود بن يزيد أحد التابعين، تمسكًا بقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلۡعُقَدِ ۝﴾، وعلى من كره النفث عند قراءة القرآن خاصة، كإبراهيم النخعي، أخرج ذلك ابن أبي شيبة وغيره. فأما الأسود فلا حجة له في ذلك؛ لأن المذموم ما كان من نفث السحرة وأهل الباطل، ولا يلزم منه ذم النفث مطلقًا، ولاسيما بعد ثبوته في الأحاديث الصحيحة. وأما النخعي فالحجة عليه ما ثبت في حديث أبي سعيد الخدري ثالث أحاديث الباب، فقد قصوا على النبي ﷺ القصة وفيها أنه قرأ بفاتحة الكتاب وتفل، ولم ينكر ذلك ﷺ، فكان ذلك حجة».

(٣) الإكمال (٧/ ١٠٠-١٠١).

(٤) إكمال المعلم (٧/ ١٠١).

«الموطأ» أن أبا بكر الصديق دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها، فقال أبو بكر: ارقيها بكتاب اللَّه. يعني بالتوراة والإنجيل؛ لأن ذلك كلام اللَّه الذي فيه الشفاء. وقد روي عن مالك جواز رقية اليهودي والنصراني للمسلم إذا رقى بكتاب اللَّه، وهو قول الشافعي، وفي «المستخرجة»[1] أن مالكًا كره رقى أهل الكتاب، وقال: لا أحبه. وذلك -واللَّه أعلم- لأنه لا يدرى هل يرقون بكتاب اللَّه أو الرقى المكروهات التي تضاهي السحر. وروى ابن وهب عن مالك أنه سئل عن المرأة التي ترقي بالحديدة والملح، وعن التي تكتب الكتاب للإنسان ليعلقه عليه من الوجع، وتعقد في الخيط الذي يربط به الكتاب سبع عقد، والذي يكتب خاتم سليمان في الكتاب، فكرهه كله، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم»[2].

٣- **قال ابن بطال**: «في حديث عائشة رد قول من زعم أنه لا تجوز الرقى واستعمال العوذ إلا عند حلول المرض ونزول ما يتعوذ باللَّه منه، ألا ترى أن النبي ﷺ نفث في يديه، وقرأ المعوذات، ومسح بهما جسده، واستعاذ بذلك من شر ما يحدث عليه في ليلته مما يتوقعه، وهذا من أكبر الرقى»[3].

٤- **وقال أيضًا**: «ودل فعل النبي ﷺ في رقية نفسه عند شكواه وعند نومه متعوذًا بهما على عظيم البركة في الرقى بهما، والتعوذ باللَّه من كل ما يخشى في النوم، وقد روى عبد الرزاق عن الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال: قال النبي ﷺ: «أنزل علي آيات لم أسمع بمثلهن: المعوذتين». وقال عقبة في حديثه مرة أخرى: قال لي النبي ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، تعوذ بهن، فإنه لم يتعوذ بهن قط»[4]»[5].

* * *

(١) المستخرجة: هي المعروفة بالعتبية. قال حاجي خليفة: العتبية: منسوبة إلى مصنفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة أربع وخمسين ومائتين وهو مسائل في مذهب الإمام مالك. (كشف الظنون ٢/ ١١٢٤).

(٢) شرح البخاري (٩/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٨٨).

(٤) سيأتي تخريج الحديثين في سورة الفلق.

(٥) شرح البخاري (١٠/ ٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن. قال أبو السعود: ومدار وضعه موضعه، مع عدم سبق ذكره، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، وإليه يشير كل مشير، وإليه يعود كل ضمير ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي واحد في الألوهية والربوبية.

قال الزمخشري: (أحد) بمعنى واحد. وقال ابن الأثير: (الأحد) في أسمائه تعالى الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر، والهمزة فيه بدل من الواو، وأصله (وحد) لأنه من الوحدة. وفي المصباح: يكون (أحد) مرادفا (لواحد) في موضعين سماعا:

أحدهما: وصف اسم الباري تعالى فيقال: هو الواحد وهو الأحد، لاختصاصه بالأحدية، فلا يشركه فيها غيره، ولهذا لا ينعت به غير اللَّه تعالى، فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك.

والموضع الثاني: أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال، فيقال: أحد وعشرون، وواحد وعشرون، وفي غير هذين يقع بينهما الفرق في الاستعمال، بأن (الأحد) لنفي ما يذكر معه، فلا يستعمل إلا في الجحد، لما فيه من العموم، نحو: ما قام أحد، أو مضافا نحو (ما قام أحد الثلاثة). و(الواحد) اسم لمفتتح العدد، ويستعمل في الإثبات، مضافا وغير مضاف. فيقال: (جاءني واحد من القوم). انتهى.

وقال الأزهري: الواحد من صفات اللَّه تعالى، معناه: أنه لا ثاني له، ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد، فأما (أحد) فلا ينعت به غير اللَّه تعالى، لخلوص هذا

الاسم الشريف له -جل ثناؤه-.

قال الإمام: ونكر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن اللَّه بأنه واحد، لا بأنه لا واحد سواه؛ فإن الواحدة تكون لكل واحد، تقول: (لا أحد في الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها. والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته، فأراد نفي ذلك بأنه أحد، وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من المجوس، وما يعتقده القائلون بالثلاثة، منهم ومن غيرهم»[١].

وقال الشيخ عطية سالم: «وقد دلت الآية الكريمة على أن اللَّه ﷻ أحد، أي في ذاته وصفاته لا شبيه ولا شريك، ولا نظير ولا ند له، ﷻ. وقد فسره ضمنا قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٢]، أما المعنى العام فإن القرآن كله والرسالة المحمدية كلها؛ بل وجميع الرسالات إنما جاءت لتقرير هذا المعنى، بأن اللَّه سبحانه واحد أحد؛ بل كل ما في الوجود شاهد على ذلك كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهي أكثر من أن تحصى؛ لأنها بمعنى لا إله إلا اللَّه.. وفي البقرة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣]، وفي التوبة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[٤]، فجاء مقرونًا بلا إله إلاَّ اللَّه، وفي «ص» قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[٥].

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هذا المعنى، كما في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٦]، سبحانه جل جلاله وتقدست أسماؤه، وتنزهت صفاته، فهو واحد أحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله.

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلًا كما قرره نقلًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ

---

(١) محاسن التأويل (١٧/ ٢٩١و٢٩٢).

(٢) الشورى: الآية (١١).

(٣) البقرة: الآية (١٦٣).

(٤) التوبة: الآية (٣١).

(٥) ص: الآية (٦٥).

(٦) إبراهيم: الآية (٥٢).

عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾[١]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢]، فدل على عدم فسادهما بعدم تعددها، وجمع العقل والنقل في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) الإسراء: الآيتان (٤٢-٤٣).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٢).

(٣) المؤمنون: الآية (٩١).

(٤) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦١٣-٦١٥).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال عكرمة عن ابن عباس: يعني: الذي يصمد الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو اللَّه سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان اللَّه الواحد القهار.

وقال الأعمش عن شقيق عن أبي وائل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده، ورواه عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود مثله. وقال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد. وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه. وقال الحسن أيضا: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الحي القيوم الذي لا زوال له. وقال عكرمة: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم.

وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ وهو تفسير جيد.

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد اللَّه بن بُريدة، وعكرمة أيضا، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك، والسدي: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له. قال سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ المصمت الذي لا جوف له. وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب. وقال عبد اللَّه بن بُرَيدة أيضًا: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نور يتلألأ. روى ذلك كلَّه وحكاه: ابن أبي حاتم، والبيهقي والطبراني، وكذا أبو

جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده»[١].

وقال أحمد الحمود النجدي: «قال الخطابي: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج والنوازل، وأصل الصمد القصد، ويقال للرجل: اصْمِد صَمْد فلان، أي: اقصد قصده، وجاء في التفسير: أن الصمد: الذي قد انتهى سؤدده، وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الدائم، وقيل: الباقي بعد فناء الخلق، وأصح هذه الوجوه، ما شهد له معنى الاشتقاق، والله أعلم.

وقال الشنقيطي: من المعروف في كلام العرب إطلاق الصمد على السيد العظيم، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له، فمن الأول قول الزبرقان:

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمروا ... ولا رهينة إلا سيد صمد

ومن الثاني قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده ... عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

فإذا علمت ذلك، فالله تعالى هو السيد الذي وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات، وهو الذي تنزه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه، ﷻ عن ذلك علوا كبيرا»[٢].

وقال: «ولنفصل ما توجبه تلك المعاني من آثار إيمانية في قلب المؤمن بالله تعالى وصفاته فنقول:

قد احتوى هذا الاسم على أوصاف عظيمة ومدائح جميلة لربنا جل في علاه، لا تنبغي إلا لمن تناهى سؤدده، وعظم فضله وجوده وهو الله وحده، فقد قالوا: إن معنى الصمد: هو الذي ليس بأجوف ولا جوف له ولا يأكل ولا يشرب. وهو كذلك؛ فإنه سبحانه الغني عن كل شيء، وهذا من صفات كماله كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾[٣]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٤٧).

(٢) النهج الأسمى (٢/ ٩٨).

(٣) الأنعام: الآية (١٤).

ٱلْمَتِينُ﴾[١]، وقد رد اللّه تعالى على النصارى الذين قالوا بإلهية عيسى -عليه الصلاة والسلام- بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾[٢]، فدلت الآية على أن الإله الحق ينبغي أن يكون مستغنيا عن الطعام والشراب.

وقالوا: إن معنى الصمد: هو الذي لم يلد ولم يولد. وهذا حق أيضا، فقد نفى اللّه سبحانه أن يكون له مثيل أو نظير أو مكافئ في آيات لا تحصر كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ وغيرها.

وإذا ثبت أنه ليس لله تعالى مثيل، بطل أن يكون متولدا من شيء، إذ الشيء لا يتولد إلا عن جنسه..

فصفات السؤدد كلها كاملة له، لا يشاركه في هذا شيء من مخلوقاته.

وقالوا: إن الصمد الباقي الذي لا يفنى. وهذا حق لا مرية فيه، فإنه سبحانه أول بلا ابتداء، ودائم بلا انتهاء كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾[٤]، وفسره النبي ﷺ بقوله: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[٥]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٦]، وكل من سبق ذكره من صفات السؤدد والكمال باقية له لم تزل ولا تزال كذلك أبديا، لا يطرأ عليها النقص ولا الآفات ولا الاختلال، كما هو شأن المخلوق الذي يكون سؤدده وكماله في حال دون حال، فسبحان الواحد الصمد ذي العزة والجلال.

قال الأقليشي: فعلى هذا يتشعب من صفات الصمد صفات السؤدد كلها من الجود والحلم وغير ذلك. وإذا قلنا: إن الصمد هو العالي من قولهم بناء مصمد، ومكان مرتفع، فيتشعب من صفات الصمد صفات التعالي كلها من العزة والقهر

---

(١) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).
(٢) المائدة: الآية (٧٥).
(٣) مريم: الآية (٦٥).
(٤) الحديد: الآية (٣).
(٥) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٠٨٤/ ٢٧١٣[٣٦])، الترمذي (٥/ ٤٨٤/ ٣٤٨١) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩-١٢٦٠/ ٣٨٣١)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٤٦/ ٩٦٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٥/ ٧٦٦٩).
(٦) الرحمن: الآيتان (٢٦-٢٧).

والعلو إلى غير ذلك مما يضاهيه.

وإذا قلنا: إن الصمد مأخوذ من قولهم: شيء مصمد إذا لم يكن أجوف، ففيه نفي التركيب عن اللَّه تعالى، وأنه لا بعض له كما قلنا في الأحد وإلى هذا أشار من قال: الصمد لا جوف له، ومن قال: هو الذي لا يطعم، ومن قال: هو الذي لم يلد ولم يولد، ومن قال: هو الباقي الدائم.

فترجع حقيقة الصمدانية في حقه إلى قيامه بذاته واستغنائه عن غيره، واحتياج كل شيء إليه، فهي صفة ذاتية له ﷻ، تارة دون إضافة إذا نظر إلى عين ذاته وصمدانيته، وتارة بإضافة إذا نظر إلى صمد الخلق إليه، وقيامهم به، واحتياجهم إليه في جميع أمورهم.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى هذا الاسم لغة وفي حق اللَّه وما يتضمنه من الصفات الجليلة بحث موسع طيب ننقل منه ما يناسب هذا الموضع قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما اسم (الصمد) فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم، فلم يقل اللَّه صمد؛ بل قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال، والمخلوق وإن كان صمدا من بعض الوجوه؛ فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه؛ فإنه يقبل التفرق والتجزئة، وهو أيضا محتاج إلى غيره؛ فإن كل ما سوى اللَّه محتاج إليه من كل وجه، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا اللَّه -تبارك وتعالى-، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم، وينفصل بعضه من بعض، واللَّه سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك؛ بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه؛ كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه، كما قال في آخر السورة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، استعملها هنا في النفي، أي: ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء لأنه أحد. وقال رجل للنبي ﷺ: «أنت سيدنا فقال: **السيد الله**»[1].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤-٢٥)، البخاري في الأدب المفرد (٢١١)، أبو داود (٥/ ١٥٤-١٥٥/ ٤٨٠٦)، النسائي في الكبرى (٦/ ٧٠/ ١٠٠٧٦).

ودل قوله: (الأحد الصمد) على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد؛ فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء، فلا يأكل ولا يشرب ﷻ، كما قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[1]، وفي قراءة الأعمش وغيره ولا يَطعم بالفتح، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾[2]، ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون، فالخالق لهم ﷻ أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته، فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد المصمد الذي لا جوف له، فلا يخرج منه عين من الأعيان فلا يلد، ولذلك قال من قال من السلف: هو الذي لا يخرج منه شيء، ليس مرادهم: أنه لا يتكلم، وإن كان يقال في الكلام: إنه خرج منه كما قال في الحديث: «ما تقرب العباد إلى اللَّه بشيء أفضل مما خرج منه»[3] يعني: القرآن، وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة: (إن هذا لم يخرج من إله). فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ويبلغ إلى غيره، ليس بمخلوق في غيره كما يقول الجهمية: ليس بمعنى أن شيئا من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين، أن تفارق الصفة محلها وتنتقل إلى غير محلها، فكيف بصفات الخالق ﷻ، وقد قال تعالى في كلام المخلوقين: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[4]، وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم، وسمعت منه، ليس خروجها من فيه أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته وانتقل إلى غيره، فخروج كل شيء بحسبه، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء، وهو باق على حاله لم ينقص، فقول من قال من السلف: الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه. ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما

---

(١) الأنعام: الآية (١٤).
(٢) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي (٥/ ١٦٢/ ٢٩١١) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي أمامة ﷺ»، وأورده الألباني في الضعيفة (٤/ ٤٢٥/ ١٩٥٧).
(٤) الكهف: الآية (٥).

يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين، وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضا قائما بغيره فلا بد له من محل يقوم به، فالأول نفاه بقوله: (أحد)؛ فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير، فيمتنع أن تكون لا صاحبة، والتولد إنما يكون بين شيئين، قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١]، فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، وبأنه خالق كل شيء، كل ما سواه مخلوق له، ليس فيه شيء مولود له.

والثاني: نفاه بكونه سبحانه (الصمد) وهذا المتولد من أصلين يكون بجزأين ينفصلان من الأصلين، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر، وإلى أن يخرج منهما شيء، وكل ذلك ممتنع في حق اللّٰه تعالى، فإنه أحد، فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيرا، وهو صمد لا يخرج منه شيء، فكل واحد من كونه أحدا، ومن كونه صمدا يمنع أن يكون والدا، ويمنع أن يكون مولودا بطريق الأولى والأحرى.

وإذا كان ربنا كذلك فينبغي على العباد أن لا يلجؤوا إلا إليه، ولا يطلبوا إلا منه، فهو سبحانه السيد الصمد، الذي لا شيء فوقه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

قال القرطبي: فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا صمدانية ولا وحدانية إلا لله وحده، فلا يقصد غيره ولا يلجأ في حوائجه إلا إليه، ثم عليه أن يتخلق بأخلاق السيادة والسادة حتى يكون مصمودا، وبابه مقصودا، روى هشام بن عروة عن أبيه قال: أدركت سعد بن عبادة ومنادي ينادي على أطمة، من أحب شحما ولحما فليأت سعدا، ثم أدركت ابنه قيسا ينادي مثل ذلك»[٢].

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (١٠١).

(٢) النهج الأسنى (٢/ ٩٨-١٠٦).

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة»[1].

وقال الشوكاني: «أي: لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقًا ولاحقًا. قال قتادة: إن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات اللَّه، وقالت اليهود: عزير ابن اللَّه، وقالت النصارى: المسيح ابن اللَّه، فأكذبهم اللَّه فقال: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾. قال الرازي: قدّم ذكر نفي الولد مع أن الوالد مقدّم للاهتمام، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات اللَّه، واليهود: عزير ابن اللَّه، والنصارى: المسيح ابن اللَّه، ولم يدّع أحد أن له والدًا، فلهذا السبب بدأ بالأهمّ، فقال: ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾، ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، كأنه قيل: الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره، وإنما عبّر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل؛ لأنه ورد جوابًا عن قولهم: ولد اللَّه، كما حكى اللَّه عنهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾[2]، فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى، وردت الآية لدفع قولهم هذا»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تنزه اللَّه ﷻ عن الصاحبة والولد

* عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس أحدٌ -أو ليس شيءٌ- أصبر على**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥٤٨).

(٢) الصافات: الآيتان (١٥١-١٥٢).

(٣) فتح القدير (٥/ ٧٦٣).

أذىً سمعه من اللَّه، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»[١].

★ غريب الحديث:

أصبر: أفعل تفضيل من الصبر. وأصل الصبر في الكلام: الحبس.

أذى: لفظ الأذى في اللغة: هو لما خف أمره وضعف أثره من الشر والمكروه، وهو بخلاف الضرر.

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: قال اللَّه تعالى: **«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللَّه ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفؤًا أحد»**[٢].

★ غريب الحديث:

شتمني: الشتم: الوصف بما يقتضي النقص.

بأهون: أي: بأيسر.

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد:

أن من نسب غيره إلى أمر لا يليق به، فقد شتمه وآذاه. قال الطيبي: «والشتم توصيف الشيء بما هو إزراء ونقص فيه، وإثبات الولد كذلك؛ لأنه قول بمماثلة الولد في تمام حقيقة، وهي مستلزمة للإمكان المتداعى إلى الحدوث، ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النوع، فلو كان الباري تعالى متخذًا ولدًا لكان مستخلفًا خلفًا يقوم بأمره بعد عصره تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأقول: ذكر اللَّه تعالى تكذيب ابن آدم وشتمه وعظمهما، ولعمري! إن أقل الخلق وأدناه إذا نسب ذلك إليه استنكف، وامتلأ غضبًا، وكاد يستأصل قائله،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥-٤٠١-٤٠٥)، والبخاري (١٠/ ٦٢٦/ ٦٠٩٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٥/ ١١٣٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧، ٣٩٣، ٣٩٤)، والبخاري (٨/ ٩٥٨/ ٤٧٩٤) واللفظ له، والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧)، وفي الكبرى (٤/ ٣٩٥/ ٧٦٦٧).

فسبحانه ما أحلمه وما أرحمه! ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾[1].

ثم انظر إلى كل واحد من التكذيب والشتم وما يؤديان من التهويل والفظاعة: أما الأول، فإن منكر الحشر جعل اللّه تعالى كاذبًا، والقرآن المجيد الذي هو مشحون بإثباته مفترى، ويجعل حكمة اللّه تعالى في خلق السماوات والأرض عبثًا ولعبًا، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[2] علل اللّه ﷻ خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش لتدبير العالم بالجزاء، من ثواب المؤمن وعقاب الكافر، ولا يكون ذلك إلا في القيامة، فيلزم منه أن لو لم يكن الحشر لكان ذلك عبثًا ولهوًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، وفيها كثرة.

وأما الثاني، فإن قائله يحاول إزالة المخلوقات بأسرها، ويزاول تخريب السماوات من أصلها، قال اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾[4]»[5].

وفي هذا -حديث أبي موسى رضي الله عنه-: إثبات صفة الصبر لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله ﷻ من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، خلافًا لمن أنكر ذلك أو تأوله كما حكاه الحافظ قوام السنة عن بعض أهل النظر في كتابه «الحجة في بيان المحجة»[6].

قال ابن القيم: «أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهًا له بصيغة المبالغة.. وفي أسمائه الحسنى الصبور، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصابر والصبار. وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة: منها: أنه عن قدرة تامة. ومنها: أنه لا يخاف الفوت، والعبد إنما يستعجل الخوف

---

(١) الكهف: الآية (٥٨).
(٢) يونس: الآيتان (٣و٤).
(٣) الأنبياء: الآية (١٦).
(٤) مريم: الآيتان (٩٠و٩١).
(٥) شرح الطيبي (٢/٤٦٨-٤٦٩).
(٦) (٢/٤٥٦).

بالفوت. ومنها: أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن، ولا نقص بوجه ما.

وظهور أكثر هذا الاسم في العالم مشهور بالعيان كظهور اسم الحليم. والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾(١)، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾(٢).

وفي أثر: «أن حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»(٣).

فإن المخلوق يحلم عن جهل، ويعفو عن عجز، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته، وما أُضيف من شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى اقتدار، ولهذا كان في دعاء الكرب وصف له سبحانه بالحلم مع العظمة؛ وكونه حليمًا من لوازم ذاته سبحانه.

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد، وشركهم، ومسبتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة بل يصبر على كيده، ويمهله، ويستصلحه، ويرفق به، ويحلم عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضع للضيعة، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم، ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الإعذار إليه، وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب، وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجب وجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله، فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعشره، وقل من تنبه له

---

(١) الأحزاب: الآية (٥١). (٢) النساء: الآية (١٢).

(٣) أخرجه: أبو نعيم في الحلية (٦/ ٧٤) وأورده الذهبي في العلو وقال: «إسناده قوي» ووافقه الألباني في مختصر العلو (ص١٠١،ح٤٢) عن حسان بن عطية مقطوعا، وأخرجه كذلك عن هارون بن رياب: البيهقي في الشعب (١/ ٣٢٧/ ٣٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) وأبو الشيخ في العظمة (٤٨١).

ونبه عليه، وأشكل على كثير منهم هذا الاسم.

وقالوا: لم يأت في القرآن فأعرضوا عن الاشتغال به صفحًا، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب أحق به من جميع الخلق كما هو أحق باسم العليم، والرحيم، والقدير، والسميع، والبصير، والحي، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال: «لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله».

فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته، وعفوه، وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه؛ فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومَنْ إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح، وأعظم الفجور، وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله، وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله ﷺ، ومقابلتهم بالسب، والشتم، والأذى، وتحريق أوليائه، وقتلهم، وإهانتهم، أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه، وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما، فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[3] على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر على معاجلة أعدائه، وفي الآية إشعار

---

(١) فاطر: الآية (٤١).

(٢) مريم: الآيات (٨٨-٩١).

(٣) إبراهيم: الآية (٤٦).

بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد؛ فيمسكها بحلمه ومغفرته وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة؛ ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها؛ فتأمله..

ولما كان اسم (الحليم) أدخل في الأوصاف، واسم (الصبور) في الأفعال، كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم (الصبور)، واللَّه أعلم»[١].

وفي حديث أبي موسى أيضًا: «إشارة إلى أن الصبر على احتمال الأذى محمود، وترك الاشتغال بالمكافآت والانتقام ممدوح، ولهذا كان جزاء كل عمل محصورًا وجزاء الصبر غير محصور.. وبالصبر يفتح كل باب مغلق، ويمهل به كل صعب مريج»[٢].

* * *

(١) عدة الصابرين (ص: ٤٢٠-٤٢٥).

(٢) شرح الطيبي (٢/ ٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كفوًا: الكفؤ: المساوي والنظير. يقال: فلان يكافئ فلانًا، أي: يُسَاوِيه. قال حسان:

وجبريل رسول اللَّه منا ... وروح القدس ليس له كفاء

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفًا بالصفات المتقدمة كان متصفًا بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء، وأخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله: ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بقوله: ﴿كُفُوًا﴾ قدم عليه لرعاية الاهتمام؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته»[(١)].

قال عطية محمد سالم: «قد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية وكلها تدور على معنى نفي المماثلة، فعن كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عديل، وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه بمعنى ليس كمثله شيء وعن مجاهد أي: لا صاحبة له، وقد جاء نفي الكفء والمثل والند والعدل، فالكفء في هذه السورة، والمثل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[(٢)]، والند في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، والعدل في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[(٤)]»[(٥)].

قال ابن المنير: «الغرض الذي سيقت له الآية نفي المكافأة والمساواة عن ذات اللَّه تعالى، فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أوّلا، ثم لما قدمت لتسلب ذكر عنها الظرف ليبين الذات المقدسة بسلب المكافأة واللَّه أعلم»[(٦)].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٧٥٣).
(٢) الشورى: الآية (١١).
(٣) البقرة: الآية (٢٢).
(٤) الأنعام: الآية (١).
(٥) تتمة الأضواء (٩/ ٦٢٢).
(٦) الانتصاف (٤/ ٢٩٩) حاشية الكشاف.

قال صديق حسن خان: «ولعل الوصل بين هذه الجمل الثلاث وهي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ بالعاطف دون ما عداها من هذه السورة؛ لأنها سيقت لمعنى وغرض واحد، وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه، وهذه أقسامها، لأن المماثل إما ولد أو والد أو نظير، فلتغاير الأقسام واجتماعها في المقسم لزم العطف فيها بالواو وكما هو مقتضى قواعد المعاني، وترك العطف في ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾؛ لأنه محقق ومقرر لما قبله وكذا ترك العطف في ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنه مؤكد للصمدية، لأن الغني عن كل شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والدا ولا مولودا انتهى»[(١)].

* * *

(١) فتح البيان (١٥/ ٤٥١).



سورة الفلق

بيان ما اشتملت عليه المعوذتان من أصول الاستعاذة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول وهي أصول الاستعاذة، أحدها: نفس الاستعاذة، والثانية: المستعاذ به، والثالثة: المستعاذ منه، فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول: في الاستعاذة، والثاني: في المستعاذ به، والثالث: في المستعاذ منه.

الفصل الأول: اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا، كما يسمى ملجأ ووزرا. وفي الحديث أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت: أعوذ باللّه منك، فقال لها: **«قد عذت بمعاذ الحقي بأهلك»**[1] فمعنى أعوذ: ألتجئ وأعتصم وأتحرز، وفي أصله قولان:

أحدهما: أنه مأخوذ من الستر.

والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة. فأما من قال: إنه من الستر قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها: عُوَّذٌ بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذا، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

(١) أخرجه من حديث أبي أسيد: أحمد (٣/ ٤٩٨)، البخاري (٩/ ٤٤٥-٤٤٦/ ٥٢٥٥-٥٢٥٧). وأخرجه من حديث عائشة: البخاري (٩/ ٤٤٥/ ٥٢٥٤)، النسائي (٦/ ٤٦١/ ٣٤١٧)، ابن ماجه (١/ ٢٠٥٠/ ٢٠٥٠).

ومن قال: هو لزوم المجاورة قال: العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه: عوذ؛ لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه، والقولان حق، والاستعاذة تنتظمهما معا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفا، وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلا، فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق..

الفصل الثاني: في المستعاذ به وهو اللَّه وحده رب الفلق، ورب الناس ملك الناس إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه؛ بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر اللَّه تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾[1] جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا، أي: طغيانا وإثما وشرا، يقولون: سدنا الإنس والجن.

---

(١) الجن: الآية (٦).

والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن، واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات اللَّه غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات اللَّه التامات**»[1]، وهو لا يستعيذ بمخلوق أبدا.

ونظير ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك**»[2] فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق، وكذلك قوله: «**أعوذ بعزة اللَّه وقدرته**»[3] وقوله: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»[4] وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا باللَّه أو صفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها، وقد قررنا في مواضع متعددة أن اللَّه سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه.

وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث وهو الشيء المستعاذ منه، فتتبين المناسبة المذكورة فنقول:

الفصل الثالث في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين: الشر الذي

---

(١) أحمد (٦/ ٣٧٧)، مسلم (٤/ ٢٠٨٠/ ٢٧٠٨)، الترمذي (٥/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٣٤٣٧)، النسائي في الكبرى (٦/ ١٤٤/ ١٠٣٩٤-١٠٣٩٥)، ابن ماجه (٢/ ١١٧٤/ ٣٥٤٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٨-٢٠١)، ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١/ ٥٤٧/ ٨٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٨٩/ ٣٤٩٣)، والنسائي (٢/ ٥٧١-٥٧٢/ ١١٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢١)، وأبو داود (٤/ ٢١٧-٢١٨/ ٣٨٩١)، والترمذي (٤/ ٣٥٥-٣٥٦/ ٢٠٥٠)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٧/ ٧٥٤٦) وابن ماجه (٢/ ١١٦٣-١١٦٤/ ٣٥٢٢)، والحاكم (١/ ٣٤٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا اللفظ»، وابن حبان (٧/ ٢٣١/ ٢٩٦٥).

(٤) أخرجه الطبراني كما في المجمع (٦/ ٣٥)، قال الهيثمي: «وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات». والحديث أورده الألباني في الضعيفة (٦/ ٤٨٦/ ٢٩٣٣)، وعزاه للطبراني في الكبير والضياء في المختارة وابن عدي وابن عساكر، وقال عنه: «ضعيف».

يصيب العبد لا يخلو من قسمين: إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدهما اتصالا بصاحبه، وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما، فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة: أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموما. الثاني: شر الغاسق إذا وقب. الثالث: شر النفاثات في العقد. الرابع: شر الحاسد إذا حسد»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
من إنكار كون المعوذتين من القرآن وتوجيه ذلك

* عن عبد الرحمن بن يزيد يعني النخعي قال: «كان عبد اللّه يحكّ المعوذتين من مصاحفه، ويقول: إنهما ليستا من كتاب اللّه -تبارك وتعالى-»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وقد تأول القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب الانتصار وتبعه عياض وغيره ما حكي عن ابن مسعود فقال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيئا إلا إن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك، قال: فهذا تأويل منه وليس جحدا لكونهما قرآنا. وهو تأويل حسن إلا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك حيث جاء فيها: ويقول: إنهما ليستا من كتاب اللّه.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٩-٢٠٥).

(٢) أخرجه: عبد اللّه بن أحمد في زوائده على المسند (٥/ ١٢٩-١٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٣٥/ ٩١٥٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٩): «رواه عبد اللّه بن أحمد والطبراني، ورجال عبد اللّه رجال الصحيح، ورجال الطبراني ثقات».

نعم يمكن حمل لفظ كتاب اللَّه على المصحف فيتمشى التأويل المذكور. وقال غير القاضي: لم يكن اختلاف ابن مسعود مع غيره في قرآنيتهما، وإنما كان في صفة من صفاتهما انتهى. وغاية ما في هذا أنه أبهم ما بينه القاضي. ومن تأمل سياق الطرق التي أوردتها للحديث استبعد هذا الجمع. وأما قول النووي في شرح المهذب[1]: أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منهما شيئا كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح، ففيه نظر، وقد سبقه لنحو ذلك أبو محمد بن حزم فقال في أوائل «المحلى»[2]: ما نقل عن ابن مسعود من إنكار قرآنية المعوذتين فهو كذب باطل. وكذا قال الفخر الرازي في أوائل تفسيره: الأغلب على الظن أن هذا النقل عن ابن مسعود كذب باطل. والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل، بل الرواية صحيحة، والتأويل محتمل، والإجماع الذي نقله إن أراد شموله لكل عصر فهو مخدوش، وإن أراد استقراره فهو مقبول، وقد قال ابن الصباغ في الكلام على مانعي الزكاة: وإنما قاتلهم أبو بكر على منع الزكاة، ولم يقل: إنهم كفروا بذلك، وإنما لم يكفروا لأن الإجماع لم يكن استقر. قال: ونحن الآن نكفر من جحدها. قال: وكذلك ما نقل عن ابن مسعود في (المعوذتين) يعني: أنه لم يثبت عنده القطع بذلك، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك. وقد استشكل هذا الموضع الفخر الرازي فقال: إن قلنا: إن كونهما من القرآن كان متواترًا في عصر ابن مسعود لزم تكفير من أنكرهما، وإن قلنا: إن كونهما من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود لزم أن بعض القرآن لم يتواتر. قال: وهذه عقدة صعبة. وأجيب باحتمال أنه كان متواترًا في عصر ابن مسعود، لكن لم يتواتر عند ابن مسعود، فانحلت العقدة بعون الله»[3].

قال ابن كثير: «وهذا هو المشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود لا يكتب (المعوذتين) في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة ﵃ قد أثبتوها في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة»[4].

---

(١) المجموع (٣/ ٣٩٦).
(٢) المحلى (١/ ١٣).
(٣) فتح الباري (٨/ ٩٦٤).
(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٤١٥).

وقال أبو بكر البزار: «وهذا لم يتابع عبد اللَّه عليه أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتتا في المصحف»[١].

وقال الطحاوي بعدما سرد أحاديث كثيرة وردت في (المعوذتين): «فكان فيما روينا: تحقيق رسول اللَّه ﷺ أنها من القرآن، فاتفق جميع ما رويناه عنه في ذلك لما صح وخرجت معانيه ولم تخالف بشيء منه شيئًا»[٢].

قال الزرقاني: «يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية (المعوذتين) و(الفاتحة) - على فرض صحته- كان قبل علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعدُ تمَّ التواتر وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن. قال بعضهم: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع (المعوذتين) من النبي، ولم تتواترا عنده، فتوقف في أمرهما، وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر، اهـ. ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس؛ لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها (المعوذتان) و(الفاتحة)، وهي صحيحة، ونقلها عن ابن مسعود صحيح، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر، إذن فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود جمعًا بين الروايتين، وما يقال في نقل إنكاره قرآنية (المعوذتين) يقال في نقل إنكاره قرآنية (الفاتحة)، بل نقل إنكاره قرآنية (الفاتحة) أدخل في البطلان، وأغرق في الضلال[٣]؛ باعتبار أن (الفاتحة) أم القرآن، وأنها السبع المثاني التي تثنى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة على لسان كل مسلم ومسلمة، فحاشى لابن مسعود أن يكون قد خفي عليه قرآنيتها، فضلًا عن إنكاره قرآنيتها، وقصارى ما نقل عنه أنه لم يكتبها في مصحفه، وهذا لا يدل على الإنكار، قال ابن قتيبة ما نصه: وأما إسقاطه (الفاتحة) من مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن، معاذ اللَّه، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان، والزيادة والنقصان، اهـ. ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان، والزيادة

(١) كشف الأستار (٣/ ٨٦).

(٢) مشكل الآثار (١/ ١١٧).

(٣) هذا الوصف للنقل لا للمنقول عنه فرضي اللَّه عن ابن مسعود.

والنقصان، ثالثًا : أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر (المعوذتين) وأنكر (الفاتحة)، بل أنكر القرآن كله، فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء؛ لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته، القائم على التواتر، ولم يقل أحد في الدنيا : إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف، وإلا لأمكن من هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه بمجرد أن يخالف فيه مخالف، ولو لم يكن في العير ولا في النفير. قال ابن قتيبة في «مشكل القرآن»: ظن ابن مسعود أن (المعوذتين) ليستا من القرآن؛ لأنه رأى النبي يعوذ بهما الحسن والحسين، فأقام على ظنه، ولا نقول: إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورتي الفلق والناس

* عن زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب عن (المعوذتين) فقال: سألت النبي ﷺ، فقال: «**قيل لي فقلت**». فنحن نقول كما قال رسول اللَّه ﷺ[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «مفعول القول محذوف وتقديره: **قيل لي**: قل، أو قيل لي هذا اللفظ فقلت كما قيل لي، وتحت هذا السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغه، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله

وقد قال اللَّه له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول قل أعوذ برب الفلق كما قال اللَّه، وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: (قيل لي فقلت) أي: إني لست مبتدئا بل أنا مبلغ أقول كما يقال لي، وأبلغ كلام ربي كما أنزله إلي فصلوات اللَّه وسلامه عليه، لقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به، ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول وأنه

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٧٥-٢٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٢٩)، والبخاري (٨/ ٧٤١/ ٤٩٧٦)، وعزاه صاحب «التحفة» (١/ ١٥) للنسائي في الكبرى.

بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى إنه لما قيل له قل لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ»[١].

* عن أبي العلاء يزيد بن عبد اللّٰه بن الشخير قال: «قال رجل: كنا مع رسول اللّٰه ﷺ في سفر، والناس يعتقبون، وفي الظهر قلة، فحانت نزلة رسول اللّٰه ﷺ ونزلتي فلحقني من بعدي فضرب منكبي فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فقلت: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فقرأها رسول اللّٰه ﷺ وقرأتها معه، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ فقرأها رسول اللّٰه ﷺ وقرأتها معه، قال: **إذا أنت صليت فاقرأ بهما**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

الظهر: الإبل التي يحمل عليها وتركب، يقال: عند فلان ظهر، أي: إبل، وتجمع على ظُهران، بالضم.

يعتقبون: أي: يتعاقبون في الركوب واحدًا بعد واحد، يقال: دارت عقبة فلان، أي: جاءت نوبته ووقت ركوبه.

* عن عقبة بن عامر قال: أتيت رسول اللّٰه ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني سورة (هود)، أقرئني سورة (يوسف). فقال: «**لن تقرأ شيئًا أبلغ عند اللّٰه من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**»[٣].

* عن جابر بن عبد اللّٰه قال: قال لي رسول اللّٰه ﷺ: «**اقرأ يا جابر**»، قلت: وماذا أقرأ بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «**اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾** و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فقرأتهما، فقال: «**اقرأ بهما، ولن تقرأ بمثلهما**»[٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٢و٢٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤و٧٩)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ١٥٦، ح: ٣٣٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٨): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور».

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٩-١٥٩)، والنسائي (٢/ ٤٩٦/ ٩٥٢) و(٨/ ٦٤٦/ ٥٤٥٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: النسائي (٨/ ٦٤٦/ ٥٤٥٥)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ٧٦/ ٧٩٦) وصححه، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ١٢١، ح: ٢٨٣) كلهم من طريق شداد بن سعيد أبي طلحة الراسبي عن الجريري=

* عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أسير مع رسول اللَّه ﷺ بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح وظلمة شديدة، فجعل رسول اللَّه ﷺ يتعوذ بـ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ويقول: «**يا عقبة! تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما**». قال: وسمعته يؤمّنا بهما في الصلاة[1].

* عن أبي مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لقد أنزل علي آيات لم ينزل عليّ مثلهن: المعوذتين**»[2].

* عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنزل أو أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط: المعوذتين**»[3].

* عن أبي سعيد الخدري قال: «**كان رسول اللَّه ﷺ يتعوذ من عين الجان ثم أعين الإنس، فلما نزلت (المعوذتان) أخذ بهما وترك ما سوى ذلك**»[4].

★ فوائد الأحاديث:

«قوله: «لم يُر مثلُهنّ» بصيغة المجهول وبرفع «مثلهن»، أي: في بابها، وهو التعوذ، يعني لم يكن آيات سورة كلهن تعويذًا للقارئ غير هاتين السورتين، ولذلك كان ﷺ يتعوذ من عين الجان وعين الإنسان، فلما نزلت (المعوذتان) أخذ بهما وترك ما سواهما، ولما سحر استشفى بهما. وإنما كان كذلك لأنهما من الجوامع في هذا الباب»[5].

= عن أبي نضرة عن جابر. وشداد بن سعيد قال عنه الحافظ في «التقريب»: «صدوق يخطئ» وله شواهد من حديث عقبة بن عامر الجهني وأبي سعيد وغيرهما.

(١) أخرجه: أبو داود (٢/ ١٥٣/ ١٤٦٣)، والنسائي (٨/ ٦٤٥/ ٥٤٥٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) بلفظ: «يا عقبة! اقرأ بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فإنك لن تقرأ بسورة أحب إلى اللَّه وأبلغ عنده منها، فإن استطعت أن لا تفوتك فافعل». وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٣١٧-٣١٨/ ٢٦٧٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٤٩): «رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات». وحسن إسناده السيوطي في «الدر المنثور».

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٤-١٥٠-١٥١)، ومسلم (١/ ٥٥٨/ ٨١٤)، والترمذي (٥/ ٤٢٢/ ٣٣٦٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٤٩٧/ ٩٥٣).

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/ ٣٤٥/ ٢٠٥٨) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٥٨/ ٧٩٣٠)، وابن ماجه (٢/ ١١٦١/ ٣٥١١).

(٥) تحفة الأحوذي (٨/ ١٧٣).

قال ابن العربي: «قوله: «لم ير مثلهن» يعني في معناهن؛ لما جمعن من فنون الاستعاذة، وقد كان النبي ﷺ كما روي في الصحيح من الخبر يقرأ بها كل ليلة وينفث في يده ويمسح بها وجهه وما استطاع من جسده في فراشه ثلاث مرات»[1].

وقال النووي: «فيه بيان عظم هاتين السورتين.. وفيه دليل واضح على كونهما من القرآن.. وفيه أن لفظة (قل) من القرآن ثابتة من أول السورتين بعد البسملة، وقد أجمعت الأمة على هذا كله»[2].

قال الحافظ ابن حجر -معلقا على قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان رسول اللَّه ﷺ يتعوذ من عين الجان ثم عين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك»- قال: «وهذا لا يدل على المنع من العوذ بغير هاتين السورتين؛ بل يدل على الأولوية، ولاسيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من مكروه جملةً وتفصيلًا»[3].

قال ابن القيم: «وفي (المعوِّذتين) الاستعاذةُ مِن كل مكروه جملةً وتفصيلًا، فإنَّ الاستعاذة من شرّ ما خلق تَعُمُّ كلَّ شَرٍّ يُستعاذ منه، سواء أكان في الأجسام أم الأرواح، والاستعاذةَ من شر الغاسق، وهو اللَّيل، وآيتِهِ وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر، انتشرت وعاثت.

والاستعاذة من شرّ النفاثات في العُقد تتضمن الاستعاذة من شرّ السواحر وسِحرهن.

والاستعاذة من شرّ الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورةُ الثانية: تتضمن الاستعاذة من شرّ شياطين الإنس والجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كلّ شرّ، ولهما شأنٌ عظيم فى الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، ولهذا أوصى النبي ﷺ عقبةَ بن عامر بقراءتهما عَقِبَ كلّ

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٦١).
(٢) شرح مسلم (١٤/ ٨٣-٨٤).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٤٠).

صلاةٍ، ذكره الترمذي في جامعه، وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرورِ من الصلاة إلى الصلاة. وقال: «ما تَعَوَّذ المتعوِّذون بمثلهما». وقد ذُكر أنه ﷺ سُحر في إحدى عشرة عُقدة، وأنّ جبريل نزل عليه بهما، فجعَلَ كلّما قرأ آية منهما انحلّت عُقدة، حتى انحلّت العُقَد كلّها، وكأنما نُشِطَ من عِقَال[١] »[٢].

* عن عائشة ﵂: «أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث. قالت: فلما اشتد وجعه، كنت أنا أقرأ عليه، وأمسح بيده رجاء بركتها»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها، ولم يمنعها من ذلك. وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا، ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى، فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها على رقيته أن يكون مسترقيًا، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه، ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على يديه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو تنقل يده، لا رقيته»[٤].

وقال ابن بطال: «في الاسترقاء بالمعوذات استعاذة باللَّه تعالى من شر كل ما خلق، ومن شر النفاثات في السحر، ومن شر الحاسد، ومن شر الشيطان ووسوسته، وهذه جوامع من الدعاء تعم أكثر المكروهات، ولذلك كان ﷺ يسترقي بهما، وهذا الحديث أصل ألا يسترقى إلا بكتاب اللَّه وأسمائه وصفاته»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٧)، والنسائي (٧/ ١٢٨-١٢٩/ ٤٠٩١)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٨٠/ ٥٠١٦) من حديث زيد بن أرقم، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٨١)، وقال: «رواه النسائي باختصار، والطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح»، وصححه الحاكم (٤/ ٣٦٠-٣٦١)، على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: لم يخرجا لثمامة شيئا، وهو صدوق، وأما قوله: «في إحدى عشرة عقدة» فلم أقف على هذه الجملة في كتب الحديث التي خرجت الحديث.

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٨١-١٨٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٤)، والبخاري (٩/ ٦٢/ ٥٠١٦)، ومسلم (٤/ ١٧٢٣/ ٢١٩٢[٥١])، وأبو داود (٤/ ٢٢٤/ ٣٩٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٦/ ٣٥٢٩).

(٤) الفوائد (٢/ ١٩٩).

(٥) شرح البخاري (٩/ ٤٢٧).

قال النووي: «في هذا الحديث استحباب الرقية بالقرآن وبالأذكار، وإنما رقى بـ(المعوذات) لأنهن جامعات للاستعاذة من كل المكروهات جملة وتفصيلًا، ففيها الاستعاذة من شر ما خلق، فيدخل فيه كل شيء، ومن شر النفاثات في العقد، ومن السواحر، ومن شر الحاسدين»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (١٤/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾

★ غريب الآية:

الفلق: الصبح. تقول العرب: هو أبيَن من فَلَقِ الصبح. وأصل الفَلْقِ: الشق. تقول: فَلَقْتُ الشيء فَلْقًا، إذا شققته. وكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوىً فهو فَلَقٌ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾[١]. قال الشاعر:

يا ليلةً لم أنَمْهَا بِتُّ مُرْتَفِقَا ... أرْعَى النجومَ إلى أنْ نَوَّرَ الْفَلَقُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد أستجير برب الفلق من شر ما خلق من الخلق.

واختلف أهل التأويل في معنى (الفلق) فقال بعضهم: هو سجن في جهنم يسمى هذا الاسم.. وقال آخرون: هو اسم من أسماء جهنم.. وقال آخرون: الفلق: الصبح.. وقال آخرون: الفلق الخلق، ومعنى الكلام: قل أعوذ برب الخلق.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه -جل ثناؤه- أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبين من فَلَق الصُّبح، ومن فرق الصبح. وجائز أن يكون في جهنم سجن اسمه فَلَق. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن -جل ثناؤه- وضعَ دلالة على أنه عُنِي بقوله: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ بعض ما يُدْعَى الفلق دون بعض، وكان اللَّه -تعالى ذكره- ربّ كل ما خلق من شيء، وجب أن يكون معنيا به كل ما اسمه الفَلَق، إذ كان ربّ جميع ذلك»[٢].

---

(١) الأنعام: الآية (٩٦).

(٢) جامع البيان (٣٠/ ٣٤٨-٣٥١).

قال عطية سالم: «والذي يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب في جهنم من قبيل اختلاف التنوع، وأنها كلها محتملة، قال ابن جرير: على الإطلاق، أما القول بأنه جب في جهنم، فلم يثبت فيه نص، وليست فيه آية مشاهدة يحال عليها للدلالة على قدرة اللَّه تعالى كما في الأشياء الأخرى المشاهدة. والذي يشهد له القرآن هو الأول، كما جاء النص الصريح في الصبح والحب والنوى، كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[1]. وكلها آيات دالة على قدرة اللَّه، وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي، وأنه ﷺ (ما كان يرى رؤيا، إلا جاءت كفلق الصبح)[2]. والفلق: بمعنى الصبح معروف في كلام العرب. وعليه قول الشاعر:

يا ليلة لم أنمها بت مرتفقا أرعى النجوم إلى نور الفلق»[3].

قال ابن القيم: «واعلم أن الخلق كله فلق وذلك أن فلق فعل بمعنى مفعول كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص، واللَّه عز وجل فالق الإصباح وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبات والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فلقا وفرقا، يقال هو أبيض من فرق الصبح وفلقه.

وكما أن في خلقه فلقا وفرقا، فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمى كتابه الفرقان، ونصبه فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى وسماه فلقا.

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته، وأن العباد لا يقدرون قدره، وأنه تنزيل من حكيم حميد»[4].

---

(١) الأنعام: الآيتان (٩٥-٩٦).

(٢) أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦٣٤-٦٣٥).

(٤) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٠-٢٢١).

قال أبو السعود: «في تعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبىء عن النور عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفتق بعد الرتق عدة كريمة بإعاذة العائذ مما يعوذ منه وإنجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه تعالى»[١].

قال ابن جرير: «وقال -جل ثناؤه-: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ «(لأنه أمر نبيه لأن يستعيذ من شر كل شيء، إذ كان كل ما سواه، فهو ما خلق»[٢].

قال ابن عطية: «﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ يعم كل موجود له شر، وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن اللَّه لم يخلق الشر (من شر ما خلق) على النفي، وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل»[٣].

قال ابن القيم: «و(ما) ههنا موصولة ليس إلا، والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله كما لا يلحق ذاته -تبارك وتعالى-، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلا، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم تعالى وتقدس عن ذلك، وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم لا في فعله القائم به تعالى ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر.

ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال:

أحدهما: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا، لا يكون وصفا له ولا فعلا من أفعاله.

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢١٤).

(٢) جامع البيان (٣٠/ ٣٥١).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٨).

الثاني: أن كونه شرًّا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق ﷻ خلقا وتكوينا ومشيئة؛ لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها فضلا عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن اللَّه سبحانه هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله لحاجته المنافية لغناه، أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده، فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلا، وإن كان هو الخالق للخير والشر، فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافي، وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبته، ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء، وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية، وكتاب الفتح القدسي وغيرهما.

وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة: أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس؛ لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرا وحكما؛ لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموما بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم، المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة.

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم، فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث اللَّه به رسله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به. أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم. والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلى اللَّه ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وأنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن فهو

الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته رحمته؛ بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته، وهو العزيز الحكيم فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن اللّه تعالى أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلا بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار، وتنزيه نفسه عنها كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢] وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[٣]، فأنكر سبحانه على من ظن هذا الظن ونزه نفسه عنه، فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلاهيته لا إله إلا هو، تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا.

وقد فطر اللّه عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان، ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار، واستهجنته أعظم الاستهجان، وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام، ورفعه وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله. هذه فطرة اللّه التي فطر الناس عليها، فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها، ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

---

(١) القلم: الآيتان (٣٥-٣٦).

(٢) الجاثية: الآية (٢١).

(٣) ص: الآية (٢٨).

نعمة اللّه لا تعاب ولكن ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم اللّه لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادين عن سبيله، الساعين في خلاف مرضاته، الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره، والحكم لغيره، والطاعة لغيره، فهم مضادون في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه ويدعون إليه، ويبغضون ما يحبه وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾[1]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾[2]، فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقابا، وجلالة وتهديدا، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك، فطرده ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد لعنته وطردته إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدوا لكم ولأبيكم، فواليتموه وتركتموني، أفليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم، ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم، وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلى لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس؟ فيقولون: «**فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، إنه لا مثل له فيتجلى لهم ويكشف عن ساق فيخرون له سجدا**»[3].

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة، ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق، فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه، إن أولياءه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله، ونزولها منه

---

(١) الفرقان: الآية (٥٥).

(٢) الكهف: الآية (٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦-١٧)، والبخاري (٨/ ٣١٦/ ٤٥٨١)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٦٩/ ١٨٣).

منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة، مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

فصل: إذا عرف هذا عرف معنى قوله في الحديث الصحيح: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك» وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك، وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه، والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته -تبارك وتعالى- عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[3]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾[4]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾[5]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل، وتارة بحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾[6]، فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرحوا بمريد الرشد، ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[7]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوبا إلى من قام به، والغضب محذوفا فاعله، ومثله قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[8]، وفي الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[9]، ومثله قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[10]، فنسب هذا

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٢) المائدة: الآية (١٠٨).
(٣) النساء: الآية (١٦٠).
(٤) الأنعام: الآية (١٤٦).
(٥) الزخرف: الآية (٧٦).
(٦) الجن: الآية (١٠).
(٧) الفاتحة: الآية (٧).
(٨) الكهف: الآية (٧٩).
(٩) الكهف: الآية (٨٢).
(١٠) الحجرات: الآية (٧).

التزيين المحبوب إليه وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾[١]، فحذف الفاعل المزين، ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝﴾[٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن الكريم.

ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية وبينا هناك السر في مجيء ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٣]، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٤]، والفرق بين الموضعين وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذم أو منقسما، وذلك من أسرار القرآن الكريم. ومثله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٦]، وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾[٧] وبالجملة فالذي يضاف إلى اللّٰه تعالى كله خير وحكمة، ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

فصل: وقد دخل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره، إنسيا كان أو جنيا أو هامة أو دابة، أو ريحا أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت فهل في ما ههنا عموم؟ قلت: فيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه اللّٰه تعالى، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء وغير ذلك.

---

(١) آل عمران: الآية (١٤).
(٢) الشعراء: الآيات (٧٨-٨٢).
(٣) البقرة: الآية (١٢١).
(٤) البقرة: الآية (١٠١).
(٥) فاطر: الآية (٣٢).
(٦) الشورى: الآية (١٤).
(٧) الأعراف: الآية (١٦٩).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه»[١] رواه مسلم . . .

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات اللَّه التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن»[٢] »[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن اللَّه هو الخالق لأفعال عباده خيرها وشرها

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعوذوا باللَّه من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»[٤].

★ غريب الحديث:

جَهد: الجهد: بفتح الجيم وضمها: المشقة.

دَرَك: بفتح الدال والراء، ويجوز تسكين الراء، وهو الإدراك واللحوق.

الشقاء: بالفتح والمد: الشدة والعسر، وهو ضد السعادة، ويطلق على السبب المؤدي إلى الهلاك.

★ فوائد الحديث:

بوّب البخاري على هذا الحديث في كتاب القدر من صحيحه بقوله: «باب من تعوذ باللَّه من درك الشقاء وسوء القضاء، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٠)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٣٧-٢٣٨/ ٦٨٤٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٧) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بنحوه ورجال أحمد وأبي يعلى وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح وكذلك رجال الطبراني.

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٢١٠-٢١٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٦)، والبخاري (١١/ ٥١٣/ ٦٦١٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠/ ٢٧٠٧)، والنسائي (٨/ ٦٦٤/ ٥٥٠٧).

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾، قال الحافظ: «يشير بذكر الآية إلى الرد على من زعم أن العبد يخلق فعل نفسه؛ لأنه لو كان السوء المأمور بالاستعاذة باللَّه منه مخترعًا لفاعله، لما كان للاستعاذة باللَّه منه معنى؛ لأنه لا يصح التعوذ إلا بمن قدر على إزالة ما استعيذ به منه، والحديث يتضمن أن اللَّه تعالى فاعل جميع ما ذكر»[1].

قال ابن بطال: «المستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة: خلق اللَّه تعالى لشر ما خلق ولشر غاسق، ولشر النفاثات ولشر حاسد؛ لأنه لو كان هذا الشر كله خلقًا لمن أضافه إليه من الغاسق والنفاثات والحاسد مخترعًا لا كسبًا، لم يكن لأمر اللَّه تعالى لنبيه ولعباده بالتعوذ به من شر ذلك كله معنى، وإنما يصح التعوذ به ﷻ مما هو قادر عليه دون من أضافه إليه، فتعبدنا تعالى بسؤاله دفع شر خلقه عنا؛ لأنه إذا كان قادرًا على فعل ما أضافه إلى من ذكر في السورة، كان قادرًا على فعل ضده، وتعبدنا بسؤاله تعالى فعل ضد ما أمرنا بالاستعاذة منه، فبان أن الخير والشر بهذا النص خلق لله تعالى، وأما قوله ﷺ: «تعوذوا باللَّه من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»، فإنما أمرنا بالتعوذ به تعالى من ينزل بنا فعلًا من أفعاله سبق علينا نزوله بنا لما يقتضيه من الشدة والمشقة، وذلك بلاء وشقاء وسوء قضاء وشماتة أعداء، فالشقاء يكون في دين ودنيا، وإذا كان في الدنيا كان تضييقًا في العيش وتقتيرًا في الرزق وذلك فعل اللَّه، وإن كان في الدين فذلك كفر أو معاص، وذلك فعل اللَّه أيضًا، وكذلك سوء القضاء عام في جميع ما قضاه تعالى من أمر الدين والدنيا، وشماتة الأعداء وإن كانت مضافة إليهم إضافة الفعل إلى فاعله في الظاهر، فإنما ذلك على إضافة الكسب إلى مكتسبه لا على سبيل الاختراع؛ إذ لا يصح في المخلوق اختراع عين، فبان أن جميع ما أمرنا بالتعوذ منه به خلق الله؛ بدليل قوله: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2]»[3].

وقال أيضًا: «كل ما أصاب الإنسان من شدة المشقة والجهد مما لا طاقة له بحمله، ولا يقدر على دفعه عن نفسه، فهو من جهد البلاء، وروي عن ابن عمر أنه سئل عن جهد البلاء، فقال: قلة المال وكثرة العيال، ودرك الشقاء ينقسم قسمين:

---

(١) فتح الباري (١١/ ٦٢٧).

(٢) الأنعام: الآية (١٠٢).

(٣) شرح ابن بطال (١٠/ ٣٢٢-٣٢٣).

فيكون في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة، وكذلك سوء القضاء هو علم أيضًا في النفس والمال والأهل والخاتمة والمعاد، وشماتة الأعداء مما ينكأ القلب ويبلغ من النفس أشد مبلغ، وهذه جوامع ينبغي للمؤمن التعوذ باللَّه منها، كما تعوذ النبي ﷺ، وإنما دعا بذلك ﷺ معلمًا لأمته ما يتعوذ باللَّه منه، فقد كان أمنه اللَّه من كل سوء.. أعاذنا اللَّه من جميع ذلك بمنه وفضله»[1].

* * *

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

غاسق: الغاسق: الليل إذا اشتد ظلامه. والغَسْقُ: أول ظلمته. يقال: غَسَقَ الليلُ يَغْسِقُ، أي: أظلم. قال ابن قيس الرقيات:

إنَّ هذا الليلَ قد غَسَقَا ... واشتكيتُ الْهَمَّ وَالْأَرَقَا

وقب: دخل. وقيل: نزل. قال الشاعر:

وَقَبَ العذابُ عليهم فكأنهم ... لَحِقَتْهُمْ نَارُ السمومِ فَأُحْصِدوا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ومن شرّ مظلم إذا دخل وهجم علينا بظلامه.

ثم اختلف أهل التأويل في المظلم الذي عُني في هذه الآية، وأمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة منه، فقال بعضهم: هو الليل إذا أظلم.. وقال آخرون: هو كوكب. وكان بعضهم يقول: ذلك الكوكب هو الثُّريا.. وقال آخرون: بل الغاسق إذا وقب: القمر، ورووا بذلك عن النبيّ ﷺ خبرا.. وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، أن يقال: إن اللَّه أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ ﴿مِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ وهو الذي يُظْلم، يقال: قد غَسَق الليل يَغْسِقُ غسوقا: إذا أظلم ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: إذا دخل في ظلامه؛ والليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، ولم يخصص بعض ذلك بل عمّ الأمر بذلك، فكلّ غاسق، فإنه ﷺ كان يُؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب. وكان قتادة يقول في معنى وقب: ذهب»[(١)].

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة، وأدعى إلى الإعادة»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٥١-٣٥٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢١٤).

قال ابن القيم: «والسبب الذي لأجله أمر اللَّه بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين، وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، ولهذا قال: «**فاكفتوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم، حتى تذهب فحمة العشاء**»[1]. وفي حديث آخر: «**فإن اللَّه يبث من خلقه ما يشاء**»[2]، والليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات، والمواضع المظلمة، وعلى أهل الظلمة..

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

فصل: ومن هاهنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كِنٍّ[3] أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها.

فأمر اللَّه تعالى عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[4] وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٢)، والبخاري (٦/ ٤٣٧-٤٣٨/ ٣٣١٦)، ومسلم (٣/ ١٥٩٥-١٥٩٦/ ٢٠١٣[٩٨])، وأبو داود (٣/ ٧٨-٧٩/ ٢٦٠٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٣٢٦/ ٥٥١٧)، والحاكم (١/ ٦١٤).

(٣) الكن: السترة، والجمع أكنان قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وكنَّ الشيءَ: ستَرَه وصانَه.

(٤) البقرة: الآية (٢٥٧).

ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[١]، وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[٢].

وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[٣].

فالإيمان كله نور ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن؛ بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة، وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ، ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه.

وإن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه ولا يليق بهم ولا يتأتى منهم ولا يقدرون عليه، وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها، وما شفوا في جوابها، وإنما اللَّه سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا أنظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير النبي ﷺ للغاسق إذا وقب

* عن عائشة قالت: نظر رسول اللَّه ﷺ إلى القمر فقال: «**يا عائشة! استعيذي باللَّه من شر هذا؛ فإن هذا الغاسق إذا وقب**»[٥].

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٢) النور: الآية (٤٠).
(٣) النور: الآية (٣٥).
(٤) بدائع الفوائد (٢/ ٢١٨-٢٢٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠٦)، والترمذي (٥/ ٤٢١-٤٢٢/ ٣٣٦٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في=

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «وهذا المرفوع أي: حديث الباب قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل، فجعلوه قولا آخر، ثم فسروا وقوبه بسكونه. قال ابن قتيبة: ويقال: الغاسق: القمر، إذا كسف واسود. ومعنى وقب: دخل في الكسوف، وهذا ضعيف، فإن ما قال رسول اللَّه ﷺ لا يعارض بقول غيره وهو لا يقول إلا الحق، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه؛ بل مع ظهوره، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1]، فالقمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل، فأمره بالاستعاذة من ذلك، أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجودا فشر الليل موجود، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى: «**هو مسجدي هذا**»[2] مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعا، وكذلك قوله عن أهل الكساء: «**هؤلاء أهل بيتي**»[3] مع أن القرآن يتناول نساءه، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان، والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك، فالشر دائما مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله اللَّه لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته، وأبو معشر البلخي له (مصحف القمر) يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب

= الكبرى (٦/ ٨٣/ ١٠١٣٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٠-٥٤١) وصححه ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الحافظ في «الفتح» (٨/ ٩٦٢).

(١) الإسراء: الآية (١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣١) مطولًا، والطبراني (٦/ ٢٠٧/ ٦٠٢٥)، وذكره الهيثمي (٤/ ١٠) وقال: «رواه كله أحمد والطبراني باختصار ورجالهما رجال الصحيح» من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٣) أخرجه: الحاكم (٣/ ١٥٠) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه مطولا: أحمد (١/ ١٨٥)، ومسلم (٤/ ١٨٧١/ ٢٤٠٤[٣٢])، والترمذي (٥/ ٥٩٦/ ٣٧٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

الاستعاذة منه .

فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموما ، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب، وهو الزمان الذي يعم شره، ثم خص بالذكر السحر والحسد»[١] .

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٦-٥٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

النفاثات: النساء السواحر اللائي ينفثن في عقد الخيط حين يَسْحَرْنَ أو يرقين. وأصل النفث: شبه النفخ بالريق. قال عنترة:

فإن يبرأ فلَمْ أنفث عليه وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ومن شرّ السواحر الّلاتي ينفُثن في عُقَد الخيط، حين يَرْقِين عليها»[1].

قال ابن القيم: «وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن اللَّه الكوني القدري، لا الأمر الشرعي. فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو أن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي ﷺ، هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا بسديد؛ فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم كما جاء في الصحيح، والجواب المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٥٣).

النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم»[١].

قال ابن عاشور: «إنما جعلت الاستعاذة من النفاثات لا من النفْث، فلم يقل: إذا نفثن في العقد، للإشارة إلى أن نفثهن في العُقد ليس بشيء يجلب ضرًا بذاته وإنما يجلب الضر النافثاتُ وهن متعاطيات السحر؛ لأن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئًا مما يحقق له ما يعمله لأجله إلاّ احتال على إيصاله إليه، فربما وضع له في طعامه أو شرابه عناصر مفسدة للعقل أو مهلكة بقصد أو بغير قصد، أو قاذورات يُفسد اختلاطُها بالجسد بعضَ عناصر انتظام الجسم يختلّ بها نشاط أعصابه أو إرادته، وربما أغرى به من يغتاله أو من يتجسس على أحواله ليُرِي لمن يسألونه السحر أن سحره لا يتخلف ولا يخطئ»[٢].

قال ابن عطية: «وهذا النفث هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذى بذلك، وهذا الشأن في زمننا موجود شائع في صحراء المغرب، وحدثني ثقة: أنه رأى عند بعضهم خيطًا أحمر قد عقد فيه عقدا على فصلان، فمنعت بذلك رضاع أمهاتها، فكان إذا حل جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع أعاذنا الله من شر السحر والسحرة بقدرته»[٣].

قال القرطبي: «اختلف في النفث عند الرقي فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث، ولا يمسح ولا يعقد. قال إبراهيم: كانوا يكرهون النفث في الرقي. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وجع، فقلت: ألا أعوذك يا أبا محمد؟ قال: بلى، ولكن لا تنفث، فعوذته بالمعوذتين. وقال ابن جريج قلت لعطاء: القرآن ينفخ به أو ينفث؟ قال: لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا. ثم قال بعد: انفث إن شئت. وسئل محمد بن سيرين عن الرقية ينفث فيها، فقال: لا أعلم بها بأسا، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة. روت عائشة أن النبي ﷺ كان ينفث في الرقية، رواه الأئمة[٤]..

وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمه النبي ﷺ، ينفث عليها

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٩).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٩).

(٤) تقدم تخريجه في أول سورة الإخلاص.

ويتكلم بكلام، زعم أنه لم يحفظه[١]. وقال محمد بن الأشعث: ذهب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء، فرقتني ونفثت[٢].

وأما ما روي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للراقي أن ينفث، فكأنه ذهب فيه إلى أن اللَّه تعالى جعل النفث في العقد مما يستعاذ به، فلا يكون بنفسه عوذة، وليس هذا هكذا؛ لأن النفث في العقد إذا كان مذموما لم يجب أن يكون النفث بلا عقد مذموما؛ ولأن النفث في العقد إنما أريد به السحر المضر بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان، فلا يقاس ما ينفع بما يضر. وأما كراهة عكرمة المسح فخلاف السنة»[٣].

قال ابن القيم: «وقد دل قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝﴾ وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر، وأن له حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث.. وما يعرفه عامة العقلاء. والسحر الذي يؤثر مرضا وثقلا وحلا وعقدا وحبا وبغضا وتزينا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرا كما يقوله هؤلاء، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضا: فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٣/ ١٠٨٦٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٤٠/ ٥٣٧)، وصححه ابن حبان (٧/ ٢٤١/ ٢٦٧٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١١٣)، وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٤٦/ ٢٣٥٦٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٥٨).

والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن .

فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركا ، والمتصل منفصلًا ، والميت حيًّا ، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضا ، والبغيض محبوبا ، وغير ذلك من التأثيرات ، وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(1) ، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت ، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي ، وهو الحبال والعصي مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين ، فظنوا أنها تحركت بأنفسها ، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيرا أو بساطا ، فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له مع أنه هو الذي يجره ، فهكذا حال الحبال والعصي ، التبستها الشياطين فقلبتها كتقلب الحية ، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبونها ، وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك ، وهي ساكنة في أنفسها ، ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها .

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة ، فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا ؛ بل حركة حقيقية ، ولم يكن ذلك سحرا لأعين الناس ، ولا يسمى ذلك سحرا ؛ بل صناعة من الصناعات المشتركة ، وقد قال تعالى : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾(2) ، ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون لم يكن هذا من السحر في شيء ، ومثل هذا لا يخفى ، وأيضا لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق ، وبيان ذلك المحال ، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها ، وأيضا فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة ؛ بل يكفي فيها حذاق الصناع ، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ، ووعدهم بالتقريب والجزاء ، وأيضا

(1) الأعراف : الآية (116) .
(2) طه : الآية (66) .

فإنه لا يقال في ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[١]، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها، وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في السحر وأن له حقيقة وتأثيرا

* عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول اللَّه ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا. فقال: **«يا عائشة! أعلمت أن اللَّه قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليف ليهود كان منافقًا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان»**، قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: **«هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين»**. قال: فاستخرج. قالت: فقلت: أفلا -أي تنشرت؟- فقال: **«أما واللَّه فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا»**[٣].

★ **غريب الحديث وفوائده:**

تقدم الكلام على غريبه وبعض فوائده في سورة (البقرة) و(النساء) وغيرهما.

* عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، قال: فاشتكى لذلك أيامًا، قال: فجاءه جبريل ﵇، فقال: إن رجلًا من اليهود سحرك، عقد لك عقدًا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول اللَّه ﷺ عليًا ﵁، فاستخرجها، فجاء بها فحلّها، قال: فقام رسول اللَّه ﷺ كأنما نُشِط من عقال، فما ذكر لذلك اليهودي، ولا رآه في وجهه قط حتى مات»[٤].

---

(١) طه: الآية (٧١). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٣)، والبخاري (١٠/ ٢٨٥/ ٥٧٦٥)، ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥) كلهم من حديث عائشة ﵂.

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٧)، والنسائي (٧/ ١٢٨/ ٤٠٩١)، وعبد بن حميد (المنتخب، ح: ٢٧١)، وفيه عنعنة الأعمش وهو مدلس لكن يشهد له حديث عائشة -الذي قبله- في الصحيحين.

★ **غريب الحديث:**

أرسل إليها : أي : إلى البئر .

من يجيء بها : أي : بالعقد .

كأنما نُشِط : على البناء للمفعول ، قيل : الصحيح : أُنشط ، بزيادة الألف ؛ إذ يقال : نشطت الحبل ، كضرب : عقدته ، أنشطته : حللته . العِقال ، بكسر العين : ما يشد به البعير من الحبل»[1] .

قال في «النهاية» : «أُنشط من عِقال ، أي : حل . وكثيرًا ما يجيء في الرواية : «كأنما نُشط من عقال» ، وليس بصحيح ؛ يقال : نشطت العقدة : إذا عقدتها ، وأنشطتها : إذا حللتها»[2] .

ولا رآه : أي : ولا رأى اليهودي ذلك في وجهه ﷺ بأن يظهر له الكراهة وسوء المعاملة» .

★ **فوائد الحديث:**

وقع في حديث زيد بن أرقم : «رجل من اليهود» ، وفي حديث عائشة : «رجل من بني زريق حليف ليهود كان منافقًا» .

قال الحافظ : «يجمع بينهما بأن من أطلق أنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأمر ، ومن أطلق عليه منافقًا نظر إلى ظاهر أمره . وقال ابن الجوزي : هذا يدل على أنه كان أسلم نفاقًا ، وهو واضح . وقد حكى عياض في الشفاء أنه كان أسلم ، ويحتمل أن يكون قيل له : يهودي ؛ لكونه كان من حلفائهم ، لا أنه كان على دينهم ، وبنو زريق بطن من الأنصار مشهور من الخزرج ، وكان بين كثير من الأنصار وبين كثير من اليهود قبل الإسلام حلف وإخاء وود ، فلما جاء الإسلام ودخل الأنصار فيه تبرؤوا منهم»[3] .

قال الخطابي : «وقد أنكر قوم من أصحاب الطبائع السحر ، وأبطلوا حقيقته ،

---

(١) حاشية السندي على المسند (٣٢/ ١٧) .

(٢) النهاية (٥/ ٥٧) بتصرف .

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٧٧) .

ودفع آخرون من أهل الكلام هذا الحديث، وقالوا: لو جاز أن يعمل في نبي اللَّه السحر أو يكون له فيه تأثير، لم يُؤمَن أن يؤثر ذلك فيما يوحى إليه من أمور الدين والشريعة، ويكون في ذلك ضلال الأمة.

والجواب: أن السحر ثابت، وحقيقته موجودة، وقد اتفق أكثر الأمم من العرب والفرس والهند وبعض الروم على إثباته، وهؤلاء من أفضل سكان واسطة الأرض، وأكثرهم علمًا وحكمةً، وقد ذكر اللَّه ﷻ أمر السحر في كتابه في قصة سليمان وما كان الشياطين يعملونه من ذلك، ويعلمون الناس منه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[1]، وأمر بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾، وورد في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابة أخبار كثيرة لا ينكرها لكثرتها إلا من أنكر العيان وجحدوا الضرورة، ولذلك فرع الفقهاء في كتبهم من الأحكام في السحرة، وما يلزمهم من العقوبات في ما يأتونه من أفعالهم كما فعلوه في سائر الجنايات التي يقترفها الجناة من أهل العبث والفساد، ولا يبلغوا ما لا أصل له ولا حقيقة هذا المبلغ من الشهرة والاستفاضة، فنفي السحر جهل، والاشتغال بالرد على من نفاه لغو وفضل، فأما ما زعموه من دخول الضرر على النبوة من أجل إثبات السحر وتأثيره في أهلها ووقوع الوهن في أمرها، فليس الأمر في ذلك على ما قدروه، والأنبياء -صلوات اللَّه وسلامه عليهم- يجوز عليهم من الأعراض والعلل ما يجوز على غيرهم، إلا فيما خصهم اللَّه به من العصمة في أمر الدين الذي أرشدهم له وبعثهم به، وليس تأثير السحر في أبدانهم بأكثر من القتل، وتأثير السم والأمراض وعوارض الأسقام فيهم، وقد قتل زكرياء وابنه يحيى ﵉، وسُمّ نبينا ﷺ في الشاة التي أهديت له بخيبر، وقال آخر عمره: «**ما زالت أكلة خيبر تعادني، فهذا أوان قطعت أبهري**»[2]، وقال عبد اللَّه بن مسعود: «دخلت على رسول اللَّه ﷺ وهو محموم، فقلت:

---

(١) البقرة: الآية (١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٦٥/ ٤٤٢٨)، تعليقا عن عائشة ﵂، قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٥): «وصله البزار والحاكم (٣/ ٥٨)، والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد». وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وله شاهد من حديث أم مبشر عند أحمد (٦/ ١٨)، وأبي داود (٤/ ٦٥٢/ ٤٥١٤)، وصححه الحاكم (٣/ ٢١٩) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

يا رسول الله! إنك لتوعك وعكًا، فقال: أجل إني أوعك وعك رجلين منكم»[١]، فلم يكن شيء مما ذكرنا قادحًا في نبوته، ولا دافعًا لفضيلتهم، وإنما هو امتحان وابتلاء، وقد قال ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء كما يضاعف لنا الثواب**»[٢]، أو كما قال، ولم يكن أحد يلقى من عداوة الشيطان ما يلقى النبي ﷺ، وقد أخبر اللَّه تعالى في محكم كتابه أن الشيطان يكيد الأنبياء أشد الكيد، ويعرض لهم بأبلغ ما يكون من العنت، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[٣]، أي: في قراءته كيدًا له وتلبيسًا على أمته، وقد قال ﷺ فيما رواه شريك بن طارق: «**ما منكم من أحد إلا وله شيطان**»، فقيل: ولك يا رسول الله؟ فقال: «**ولي، إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم**»[٤].

والسحر من عمل الشيطان يفعله في الإنسان بنفثه وهمزه ووسوسته، ويتولاه الساحر بتعليمه إياه ومعونته عليه، فإذا تلقاه عنه استعمله في غيره بالقول والنفث في العقدة، وللكلام والقول تأثير لين في النفوس والطباع، ولذلك صار الإنسان يحمى ويغضب إذا سمع الكلام المكروه، وربما حم الإنسان من غم يصيبه وبقول يسمعه، وقد مات فيما رويناه من الأخبار قوم بكلام سمعوه، ولقول امتعضوا منه، ولولا أن يطول الكتاب لذكرنا منها أخبارًا بأسانيدها، وعزينا إلى أصحابها. فأما ما يتعلق من أمره ﷺ بالنبوة فقد عصمه اللَّه في ذلك، وحرص وحيه أن يلحقه الفساد والتبديل، وإنما كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله في أمر النساء خصوصًا، وفي إتيان أهله قصرة، إذا كان قد أخذ عنهن بالسحر دون ما سواه من أمر الدين والنبوة، وهذا من جملة ما تضمنه قوله ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾[٥] الآية، فلا ضرر إذن ما لحقه من السحر على نبوته، ولا نقص فيما أصابه منه على دينه وشريعته، والحمد لله على ذلك»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (١٠/ ١٣٦-١٣٧/ ٥٦٤٧)، ومسلم (٤/ ١٩٩١/ ٢٥٧١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٧/ ٧٥٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤-١٣٣٥/ ٤٠٢٤)، قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح رجاله ثقات».

(٣) الحج: الآية (٥٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥-٣٩٧-٤٠١-٤٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦٧/ ٢٨١٤).

(٥) البقرة: الآية (١٠٢).

(٦) أعلام الحديث (٢/ ١٥٠٠-١٥٠٤).

قال الحافظ: «لم يقع لي أيهما قعد عند رأسه، لكنني أظنه جبريل؛ لخصوصيته به ﷺ، ثم وجدت في السيرة للدمياطي الجزم بأنه جبريل، قال: لأنه أفضل، ثم وجدت في حديث زيد بن أرقم عند النسائي وابن سعد وصححه الحاكم وعبد بن حميد: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أيامًا، فأتاه جبريل فقال: إن رجلًا من اليهود سحرك، عقد لك عقدًا في بئر كذا»، فدل مجموع الطرق على أن المسؤول هو جبريل، والسائل ميكائيل».

وقال أيضًا: (وجع الرجل» كذا للأكثر، وفي رواية ابن عيينة: «ما بال الرجل؟»، وفي حديث ابن عباس عند البيهقي: «ما ترى؟»، وفيه إشارة إلى أن ذلك وقع في المنام؛ إذ لو جاء إليه في اليقظة لخاطباه وسألاه، ويحتمل أن يكون كان بصفة النائم وهو يقظان، فتخاطبا وهو يسمع، وأطلق في رواية عمرة عن عائشة أنه كان نائمًا، وكذا في رواية ابن عيينة عند الإسماعيلي: «فانتبه من نومه ذات يوم»، وهو محمول على ما ذكرت، وعلى تقدير حملها على الحقيقة فرؤيا الأنبياء وحي»[1].

وقال أيضًا: «قال ابن بطال: ذكر المهلب أن الرواة اختلفوا على هشام في إخراج السحر المذكور، فأثبته سفيان وجعل سؤال عائشة عن النشرة، ونفاه عيسى ابن يونس وجعل سؤالها عن الاستخراج ولم يذكر الجواب، وصرح به أبو أسامة قال: والنظر يقتضي ترجيح رواية سفيان؛ لتقدمه في الضبط، ويؤيده أن النشرة لم تقع في رواية أبي أسامة، والزيادة من سفيان مقبولة؛ لأنه أثبتهم، ولا سيما أنه كرر استخراج السحر في روايته مرتين، فيبعد من الوهم، وزاد ذكر النشرة، وجعل جوابه ﷺ عنها بـ(لا) بدلًا عن الاستخراج، قال: ويحتمل وجهًا آخر. فذكر ما محصله أن الاستخراج المنفي في رواية أبي أسامة غير الاستخراج المثبت في رواية سفيان، فالمثبت هو استخراج الجف، والمنفي استخراج ما حواه، قال: وكأن السر في ذلك أن لا يراه الناس، فيتعلمه من أراد استعمال السحر. قلت: وقع في رواية عمرة: «فاستخرج جف طلعة من تحت راعوفة»، وفي حديث زيد بن أرقم: «فأخرجوه فرموا به»، وفي مرسل عمر بن الحكم أن الذي استخرج السحر قيس بن

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٨٠).

محصن، وكل هذا لا يخالف الحمل المذكور، لكن في آخر رواية عمرة وفي حديث ابن عباس أنهم وجدوا وترًا فيه عقد، وأنها انحلت عند قراءة (المعوذتين)، ففيه إشعار باستكشاف ما كان داخل الجف، فلو كان ثابتًا لقدح في الجمع المذكور، لكن لا يخلو إسناد كل منهما من ضعف»[1].

قال ابن القيم وهو يتكلم على هديه في علاج السحر الذي سحرته اليهود به: «وقد رُوي عنه فيه نوعان:

أحدهما: وهو أبلغُهما: استخراجُه وإبطاله، كما صحَّ عنه ﷺ أنه سأل ربَّه سبحانه في ذلك؛ فدُلّ عليه، فاستخرجه من بئر، فكان في مِشط ومُشاطة، وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَر، فلمّا استخرجه، ذهب ما به، حتى كأنّما أُنشط من عِقال، فهذا من أبلغ ما يعالَج به المطبوب، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ.

والنوع الثاني: الاستفراغُ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، فإن للسحر تأثيرًا في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثرُهُ فى عضو، وأمكن استفراغُ المادة الرديئة من ذلك العضو، نَفَع جدًا»[2].

فائدة:

قال الحافظ: «ووقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: «فأقام أربعين ليلة»، وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد: «ستة أشهر»، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يومًا من استحكامه. وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري: أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولًا بإسناد الصحيح، فهو المعتمد»[3].

* * *

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٨٨).
(٢) زاد المعاد (٤/ ١٢٤-١٢٥).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٧٨).

قوله تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

حاسد: الحسد: تمني زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها. خلافه: الغبطة، وهي المنافسة. ولقد أحسن من قال:

قل للحسود إذا تنفس طَعْنَةً ... يا ظالما وكأنه مظلومُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الحاسد الذي أمر النبيّ ﷺ أن يستعيذ من شرّ حسده به، فقال بعضهم: ذلك كلّ حاسد أمر النبيّ ﷺ أن يستعيذ من شرّ عينه ونفسه.. وقال آخرون: بل أمر النبيّ ﷺ بهذه الآية أن يستعيذ من شرّ اليهود الذين حسدوه.. وأولى القولين بالصواب في ذلك، قول من قال: أمر النبيّ ﷺ أن يستعيذ من شرّ كلّ حاسد إذا حسد، فعابه أو سحره، أو بغاه سوءًا. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن اللّه ﷻ لم يخصص من قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ حاسدا دون حاسد؛ بل عمّ أمره إياه بالاستعاذة من شرّ كلّ حاسد، فذلك على عمومه»[1].

قال ابن القيم: « وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود، فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه، فإن اللّه تعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ فحقق الشر منه عند صدور الحسد.

والقرآن ليس فيه لفظة مهملة، ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدا إلا إذا قام به الحسد، كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد، وهو غافل عن المحسود لاه عنه، فإن خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٥٣-٣٥٤).

الحسد من قلبه إليه، ووجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ باللَّه ويتحصن به، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات، والتوجه إلى اللَّه والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على اللَّه، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقد تقدم في حديث أبي سعيد الخدري الصحيح رقية جبريل النبي ﷺ وفيها: «**بسم اللَّه أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، اللَّه يشفيك**»[1]، فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها؛ إذ لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره، لم يؤثر فيه شيئا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة، وانسمت واحتدت فصارت نفسا غضبية خبيثة حاسدة، أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد، فربما أعطبه وأهلكه، بمنزلة من فوق سهما نحو رجل عريان، فأصاب منه مقتلا، وربما صرعه وأمرضه، والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة، وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصر وتسقط الحبل، كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين منها، وقال: «**اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل**»[2]، فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فلله كم من قتيل، وكم من سليب، وكم من معافى عاد مضنى على فراشه، يقول طبيبه:

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨ و٥٦ و٥٨)، مسلم (٤/ ١٧١٨-١٧١٩/ ٢١٨٦)، الترمذي (٣/ ٣٠٣/ ٩٧٢)، وقال: «حديث أبي سعيد حديث حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٣/ ٧٦٦٠)، ابن ماجه (٢/ ١١٦٤/ ٣٥٢٣).

(٢) أحمد (٣/ ٤٥٢)، البخاري (٦/ ٤٢٧/ ٣٢٩٧)، مسلم (٤/ ١٧٥٢/ ٢٢٣٣)، أبو داود (٥/ ٤١١/ ٥٢٥٢)، الترمذي (٤/ ٦٤-٦٥/ ١٤٨٣)، ابن ماجه (٢/ ١١٦٩/ ٣٥٣٥).

لا أعلم داءه ما هو، فصدق، ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها.

وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى؟ وهل الانفعال والتأثر، وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة، والآثار الغريبة، إلا من الأرواح والأجسام؟ آلتها بمنزلة آلة الصانع، فالصنعة في الحقيقة له، والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع، ومن له أدنى فطنة وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها، كل ذلك بتقدير العزيز العليم، خالق الأسباب والمسببات، رأى عجائب في الكون، وآيات دالة على وحدانية اللَّه وعظمته وربوبيته.

وأن ثم عالمًا تجري عليه أحكام أخرى تشهد آثارها وأسبابها غيبا عن الأبصار، فتبارك اللَّه رب العالمين وأحسن الخالقين، الذي أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه، ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح؛ بل هو أعظم وأوسع، وعجائبه أبهر، وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم، فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل؟ وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك، ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر؟

فرب رجل عظيم الهيولى، كبير الجثة، خفيف على قلبك حلو عندك، وآخر لطيف الخلقة، صغير الجثة، أثقل على قلبك من جبل، وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها، وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلا، والأشباح تبعا.

فصل: والعاين والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن تتكيف نفسه عند

مقابلة المعين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضا.

ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه، وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين.

وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾[١] : إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول اللَّه ﷺ، فنظر إليه قوم من العائنين وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته. وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وآتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول اللَّه ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره، فعصمه اللَّه تعالى وحفظه وأنزل عليه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك.

قال الزجاج يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظر إلي نظرا كاد يصرعني. قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن الكريم، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا

---

(١) القلم: الآية (٥١).

غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا.

وقد يكون سببه الإعجاب، وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « «**العين حق**» ونهى عن الوشم»[1] وروى سفيان عن عمرو ابن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول اللَّه! إن بني جعفر تصيبهم العين، أفنسترقي لهم؟ قال: «**نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين**»[2].

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العدواة، فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ اللَّه وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن؛ بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال: إنه من الإصابة بالعين أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن الكريم حق.

وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان[3]. فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها، وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حية بن حابس التميمي حدثني أبي أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا شيء في الهام والعين حق**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (١٠/ ٢٤٩/ ٥٧٤٠)، ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٧)، وأبو داود (٤/ ٢١٠/ ٣٨٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٨)، والترمذي (٤/ ٣٤٦/ ٢٠٥٩)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١١٦٠/ ٣٥١٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٥/ ٧٥٣٧)، من حديث أسماء بنت عميس ﵂.

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٤٥/ ٢٠٥٨)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤١/ ٧٨٥٣)، وابن ماجه (١/ ١١٦١/ ٣٥١١).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٦٧)، والترمذي (٤/ ٣٤٧/ ٢٠٦١)، من حديث حابس التميمي، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٥-١٠٦) وقال: فيه حية بن حابس لم يرو عنه غير يحيى وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٢٠٦١): «ضعيف لكن قوله «العين حق» صحيح».

وفيه أيضا من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه ﷺ يقول: «**لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**»[1]، وفي الباب عن عبد اللّه بن عمر وهذا حديث صحيح.

والمقصود أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا واللّه أعلم إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائنا، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته، وأصل الحسد هو بغض نعمة اللّه على المحسود، وتمني زوالها.

فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفس الحاسد وطبعها، ليس هو شيئا اكتسبه من غيرها؛ بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا واللّه أعلم قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرى كما سيأتي الكلام عليها إن شاء اللّه تعالى، فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه؛ بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخله بواسطة مساكنته له وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال والعزم الجازم؛ لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه؛ إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيرا ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة.

ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر

---

(١) أخرجه: مسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٨). الترمذي (٤/ ٣٤٧/ ٢٠٦٢). النسائي في الكبرى (٤/ ٣٨١/ ٤٦٢٠).

والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم اللّه تعالى في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[(١)].

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في موضع غير هذا، إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين، وشدة حاجة الخلق إليهما، وأن لا يقوم غيرهما مقامهما، وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ﴾[(٢)]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ﴾[(٣)].

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم اللّه عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسدا، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون اللّه تعالى حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب، ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ، ولهذا كان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر

---

(١) البقرة: الآية (١٠٢).
(٢) النساء: الآية (٥٤).
(٣) البقرة: الآية (١٠٩).

المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول اللَّه ﷺ. وفي الموطأ عن كعب قال: كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حمارا: (أعوذ بوجه اللَّه العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات اللَّه التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء اللَّه الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ)[1].

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر؛ لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه، والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين . . .

فصل: وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده؛ بل يجد في قلبه شيئا من ذلك ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب اللَّه، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه اللَّه، وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها؛ بل يعصيها طاعة لله وخوفا وحياء منه وإجلالا له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضا لما يحب اللَّه، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك، وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هو كله حسد تمني الزوال.

وللحسد ثلاث مراتب: أحدها: هذه.

الثانية: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث اللَّه لعبده نعمة؛ بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن اللَّه أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة اللَّه، وعدو عباده، وممقوت عند اللَّه تعالى وعند الناس، ولا يسود أبدا ولا يواسى، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم.

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١-٩٥٢/ ١٢).

فأما عدو نعمة اللَّه عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدا إلا قهرا يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم اللَّه بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه؛ بل هذا قريب من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[١]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس»[٢]. فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كِبَرُ نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومُصْلِهم،[٣] لا من فَسَاكِلِهِم[٤]، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه وتمني دوام نعمة اللَّه عليه، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على اللَّه والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إلي أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه، وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٥]، فلا تستبطيء نصره ورزقه وعافيته، فإن اللَّه ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحدا غير اللَّه إلا لنقص خوفه من اللَّه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى

---

(١) المطففين: الآية (٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٩)، والبخاري (١٣/ ٦١٤/ ٧٥٢٩)، ومسلم (١/ ٥٥٨/ ٨١٥)، والترمذي (٤/ ٢٩١/ ١٩٣٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧/ ٨٠٧٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢٠٩)، من حديث ابن عمر ﷺ.

(٣) المصلي من الخيل هو الفرس الذي يأتي ثانيا في حلبة السباق.

(٤) الفسكل الفرس الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل.

(٥) الطلاق: الآيتان (٢-٣).

ﵟالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠ﵞ[١]، وقال: ﵟإِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ﵞ[٢]، أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم وأفردوني بالمخافة، أكفكم إياهم.

فصل: ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب: أحدها التعوذ بالله تعالى من شره، والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام، فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده». وقول الخليل: ﵟإِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِﵞ[٣] ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله تعالى يراه ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي: مجيب عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن الكريم كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: ﵟٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُﵞ في الأعراف[٤] وحم السجدة[٥]، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ: السميع البصير في سورة (حم المؤمن) فقال: ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ﵞ[٦]؛ لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر.

وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر، ويدرك بالرؤية والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﵟوَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗﵞ[٧]،

---

(١) النحل: الآيات (٩٨-١٠٠).
(٢) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٣) إبراهيم: الآية (٣٩).
(٤): الآية (٢٠٠).
(٥): الآية (٣٦).
(٦) غافر: الآية (٥٦).
(٧) آل عمران: الآية (١٢٠).

وقال النبي ﷺ لعبد اللَّه بن عباس: «احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك»[١]. فمن حفظ اللَّه حفظه اللَّه ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان اللَّه حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر.

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على اللَّه، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[٢] فإذا كان اللَّه قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا فكيف بمن لم يستوف شيئا من حقه؟ بل بغي عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة اللَّه أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكا.

السبب الرابع: التوكل على اللَّه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن اللَّه حسبه، أي: كافيه ومن كان اللَّه كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل اللَّه تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال؛ بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على اللَّه تعالى حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجا من ذلك وكفاه ونصره.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح».
(٢) الحج: الآية (٦٠).

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في كتاب الفتح القدسي، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين[١]، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجاته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه؛ بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر.

وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما.

فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضا، فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضا.

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق روحه به، ولا يرى شيئا آلم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوارعة اللينة، التي رضيت بوكالة اللَّه لها، وعلمت أن نصره له خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت باللَّه وسكنت إليه واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من اللَّه، ولا أصدق منه قيلا، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من

---

(١) ذكرنا في تفسير الفاتحة التنبيه على هذه اللفظة وأن التعبير بالعلماء هو الصواب.

نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئا فشيئا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره، كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبه انصرافا عن ذكره ولا روحه انصرافا عن محبته، فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت إنكاره وقلبه معمورا بالفكر في حاسده والباغي عليه؟ والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه، هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته؛ بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها ونزل بها، ما لك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليزك، وأدار عليه الحرس، وأحاطه بالسور.

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[3]، وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[4].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن وصار داخل اليزك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[5].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[6]، وقال لخير

---

(١) ص: الآيتان (٨٢-٨٣).
(٢) الحجر: الآية (٤٢).
(٣) النحل: الآيتان (٩٩-١٠٠).
(٤) يوسف: الآية (٢٤).
(٥) الجمعة: الآية (٤).
(٦) الشورى: الآية (٣٠).

الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[١]، فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[٢] فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه فقال له ما صنعت؟ فقال: تبت إلى اللّه من الذنب الذي سلطك به علي.

وسنذكر -إن شاء اللّه تعالى- أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به؛ بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، واللّه يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد اللّه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به ولا إرادة له، ولا قدرة عليه ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء، ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

---

(١) آل عمران: الآية (١٦٥).

(٢) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٢/ ١٧٩/ ٧١٦)، وأبو يعلى (١/ ٦١-٦٣/ ٥٩، ٦٠، ٦١). وصححه الشيخ الألباني، من حديث معقل بن يسار ﷺ.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه، وصدقته عليه من اللَّه جنة واقية، وحصن حصين، وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببا لزوالها.

ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن، فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفيء ناره لا أطفأها اللَّه، فما حرس العبد نعمة اللَّه تعالى عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي اللَّه، وهو كفران النعمة وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندا وعسكرا يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر واللَّه المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من اللَّه، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ازددت إليه إحسانا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون فضلا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[1]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾[2].

وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[3]، كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه، أحدها: عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. الرابع استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي.

---

(١) فصلت: الآيات (٣٤-٣٦). (٢) القصص: الآية (٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠و٤٢٧)، والبخاري (٦/ ٦٣٧/ ٣٤٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٥)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به، اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين اللَّه تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم، ليعاملك اللَّه هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل اللَّه معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقا، فانتقم بعد ذلك أو اعف، وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك، فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر اللَّه ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، فقال: «لا يزال معك من اللَّه ظهير ما دمت على ذلك»[1]، هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر اللَّه عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعا ولا خبزا، هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده، وينقاد له ويذل له، ويبقى من أحب الناس إليه، وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، واللَّه هو الموفق المعين بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

وفي الجملة: ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة، سنذكرها في موضع آخر إن شاء اللَّه تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم. والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٤)، مسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلا بإذنه، فهو الذي يمس عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾(١).

وقال النبي ﷺ لعبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه اللَّه عليك**»(٢)، فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع اللَّه تعالى؛ بل يفرد اللَّه بالمخافة، وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا واشتغالا به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، واللَّه يتولى حفظه والدفع عنه، فإن اللَّه يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنا فاللَّه يدافع عنه ولا بد، وبحسب إيمانه يكون دفاع اللَّه عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع اللَّه عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرة ومرة فاللَّه له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على اللَّه بكليته أقبل اللَّه عليه جملة، ومن أعرض عن اللَّه بكليته أعرض اللَّه عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فاللَّه له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن اللَّه الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف اللَّه خافه كل شيء، ومن لم يخف اللَّه أخافه من كل شيء.

فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى اللَّه وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره؛ بل يكون خوفه منه وحده ولا يرجو سواه؛ بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئا غير اللَّه سلط عليه، ومن رجا شيئا سوى اللَّه خذل من جهته، وحرم خيره، هذه سنة اللَّه في خلقه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(٣)»(٤).

---

(١) يونس: الآية (١٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الأحزاب: الآية (٦٢).

(٤) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٨-٢٤٦).

وقال عطية سالم: «مسألة في حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئًا بالعين تقدم بيان ذلك في حق السحر، أما في حق العين، فقد قال ابن حجر في فتح الباري في كتاب الطب ما نصه: وقد اختلف في جريان القصاص بذلك، يعني بالعين.

فقال القرطبي: لو أتلف العائن شيئًا ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه، بحيث يصير عادة، وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفرًا. اهـ.
ولم يتعرض الشافعية للقصاص في ذلك؛ بل منعوه وقالوا: إنه لا يقتل غالبًا ولا يعد مهلكًا.

وقال النووي في الروضة: ولا دية فيه ولا كفارة؛ لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال مما لا انضباط له، كيف ولم يقع منه فعل أصلًا، وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة. وأيضًا: فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص، ولا يتعين ذلك المكروه في زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين. اهـ. ولا يعكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر، فإنه في معناه، والفرق بينهما عسير.

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم: إنه ينبغي للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس، وأنه يلزمه بيته، فإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي أمر عمر رضي الله عنه بمنعه من مخالطة الناس، وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع آكله من حضور الجماعة.

قال النووي: وهذا القول صحيح متعين، لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه. اهـ. من فتح الباري.

وبتأمل قول القرطبي والنووي بدقة لا يوجد بينهما خلاف في الأصل، إذ القرطبي يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له. والنووي يقول: إنه لا يقتل غالبًا، وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالبًا وتكرر ذلك منه فإنه يتفق مع كلام القرطبي تمامًا في أن من أتلف بعينه وكان معتادًا منه ذلك فهو ضامن، وهذا معقول المعنى، والله تعالى أعلم. وعند الحنابلة في كشاف القناع ما نصه: والمعيان الذي يقتل بعينه. قال ابن نصر الله في حواشي الفروع: ينبغي أن يلحق بالساحر الذي يقتل بسحره غالبًا، فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختياره وجب به القصاص اهـ»[1].

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦٤٦-٦٤٨).

وقال أيضًا: «وقد ذكروا للحسد دواء كذلك، أي: يداوي به الحاسد نفسه ليستريح من عناء الحسد المتوقد في قلبه، المنغص عليه عيشه الجالب عليه حزنه، وهو على سبيل الإجمال في أمرين: العلم ثم العمل، والمراد بالعلم هو أن يعلم يقينًا أن النعمة التي يراها على المحسود، إنما هي عطاء من اللَّه بقدر سابق وقضاء لازم، وأن حسده إياه عليها لا يغير من ذلك شيئًا، ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد وحده في دينه لعدم رضائه بقدر اللَّه وقسمته لعباده، لأنه في حسده كالمعترض على قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وفي دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والكآبة ونفرة الناس منه، ومقتهم إياه، ومن وراء هذا وذاك، العقاب في الآخرة.

أما العمل فهو مجاهد نفسه ضد نوازع الحسد، كما تقدمت الإشارة إليه في الأسباب، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه، فليحاول أن يقدره ويخدمه، وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه، ردها إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار، وإن سوّلت له نفسه تمنى زوال النعمة عن غيره، صرف ذلك إلى تمني مثلها لنفسه، وفضل اللَّه عظيم، وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود، سعى إلى الإحسان إليه، وهكذا فيسلم من شدة الحسد، ويسلم غيره من شره. وكما في الأثر: «المؤمن يغبط، والمنافق يحسد»[2]. نسأل اللَّه العافية والمعافاة»[3].

قال القرطبي: «هذه سورة دالة على أن اللَّه سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من جميع الشرور. فقال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيها على عظمه، وكثرة ضرره. والحاسد عدو نعمة اللَّه. قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه: أحدها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره، وثانيها: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟ وثالثها: أنه ضاد فعل اللَّه، أي إن فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل اللَّه، ورابعها: أنه خذل أولياء اللَّه، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم، وخامسها: أنه أعان عدوه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند

(١) الزخرف: الآية (٣٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥)، من كلام الفضيل بن عياض رحمه الله.

(٣) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦٥٣-٦٥٤).

الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جزعا وغما، ولا ينال في الآخرة إلا حزنا واحتراقا، ولا ينال من اللَّه إلا بعدا ومقتا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الحسد والنهي عنه

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

إياكم والظن: يريد: إياكم وسوء الظن وتحقيقه دون مبادئ الظنون التي لا تملك.

ولا تجسسوا: معناه: لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوا أخبارهم.

ولا تحسسوا: من التحسس، بالحاء، وهو طلب الخبر ومنه قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[٣]، ويقال: تجسست الخبر وتحسسته، بمعنى واحد.

ولا تباغضوا: أي: لا تتعاطوا أسباب البغض؛ لأن البغض لا يكتسب ابتداءً.

ولا تدابروا: التدابر: التهاجر، وهو أن يولي كل واحد منهما صاحبه دبره.

* عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»[٤].

* عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا حسد**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٥)، والبخاري (١٠/ ٥٨٩/ ٦٠٦٤)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣)، وأخرجه أبو داود مختصرًا (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٤٩١٧).

(٣) يوسف: الآية (٨٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٥)، والبخاري (١٠/ ٤٨١/ ٦٠٦٥)، ومسلم (٤/ ١٩٨٣/ ٢٥٥٩)، وأبو داود (٥/ ٢١٣/ ٤٩١٠)، والترمذي (٤/ ٢٩٠/ ١٩٣٥).

إلا على اثنتين: رجل آتاه اللَّه الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه اللَّه مالًا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار»[١].

★ غريب الحديث:

آناء الليل والنهار: أي: ساعاته، وواحدها: الآن وأنًا وأنى وأنو، أربع لغات.

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ ابن رجب: «قوله: «لا تحاسدوا» يعني: لا يحسُدْ بعضُكم بعضًا، والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر، وهو أنَّ الإنسان يكرهُ أن يفوقَهُ أحدٌ منْ جنسهِ في شيءٍ من الفضائل. ثم ينقسم الناس بعدَ هذا إلى أقسام: فمنهم من يسعى في زوال نعمةِ المحسودِ بالبغي عليه بالقول والفعل، ثمَّ منهم من يسعى في نقلِ ذلك إلى نفسه، ومنهم من يَسعى في إزالته عن المحسودِ فقط من غيرِ نقل إلى نفسه، وهو شرُّهما وأخبثهما، وهذا هو الحسدُ المذمومُ المنهيُّ عنه، وهو كان ذنبَ إبليس حيث حسدَ آدم ﷺ لما رآه قد فاق على الملائكة بأنْ خلقه اللَّه بيده، وأسجد له ملائكتَه، وعلَّمه أسماء كلِّ شيءٍ، وأسكنه في جواره، فما زال يسعى في إخراجه من الجنَّة حتَّى أخرج منها، ويروى عن ابن عمرَ أنَّ إبليسَ قال لنوح: اثنتان بهما أُهلك بني آدم: الحسد، وبالحسد لُعِنتُ وجُعلتُ شيطانًا رجيمًا، والحرص، وبالحرص أُبيح آدمُ الجنةَ كلَّها، فأصبتُ حاجتي منه بالحرص. خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا. وقد وصف اللَّه اليهودَ بالحسد في مواضع من كتابه القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[٢]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٣].. وقسم آخر من الناسِ إذا حسدَ غيره لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يبغِ على المحسود بقولٍ ولا فعلٍ. وقد رُوي عن الحسن أنَّه لا يأثمُ بذلك، وروي مرفوعًا من وجوه ضعيفة..

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٨-٩)، والبخاري (٩/ ٨٩/ ٥٠٢٥)، ومسلم (١/ ٥٥٨/ ٨١٥)، والترمذي (٤/ ٢٩١- ١٩٣٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧/ ٨٠٧٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢٠٩).

(٢) البقرة: الآية (١٠٩).

(٣) النساء: الآية (٥٤).

وقسم آخر إذا وجدَ من نفسه الحسدَ سعى في إزالته، وفي الإحسان إلى المحسود بإسداءِ الإحسان إليه والدُّعاء له، ونشر فضائله، وفي إزالة ما وَجَدَ له في نفسه مِنَ الحسدِ حتّى يبدلَه بمحبَّة أنْ يكونَ أخوه المسلمُ خيرًا منه وأفضلَ، وهذا مِنْ أعلى درجات الإيمان، وصاحبه هو المؤمنُ الكاملُ الذي يُحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[1].

قال ابن عبد البر: «قوله أيضا في هذا الحديث «لا تحاسدوا» يقتضي النهي عن التحاسد وعن الحسد في كل شيء، على ظاهره وعمومه، إلا أنه أيضا عندي مخصوص بقوله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه اللَّه مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**».. فكأنه ﷺ -على ترتيب الأحاديث وتهذيبها- قال: لا حسد ولكن الحسد ينبغي أن يكون في قيام الليل والنهار بالقرآن، وفي نفقة المال في حقه، وتعليم العلم أهله، ولا هجرة إلا لمن ترجو تأديبه بها أو تخاف من شره في بدعة أو غيرها واللَّه أعلم»[2].

* عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: «أن عامر بن ربيعة أخا بني عدي بن كعب رأى سهل بن حنيف وهو مع رسول اللَّه ﷺ بالخَرّار يغتسل، فقال: واللَّه ما رأيت كاليوم ولا جلدَ مخبّأة، قال: فلبط سهل، فأتي النبي فقيل: يا رسول الله! هل لك في سهل بن حنيف لا يرفع رأسه؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هل تتهمون من أحد؟**» قالوا: نعم، عامر بن ربيعة رآه يغتسل فقال: واللَّه ما رأيت كاليوم ولا جِلْدَ مخبّأة، فدعا رسول اللَّه ﷺ عامر بن ربيعة، فتغيظ عليه، وقال: «**علامَ يقتل أحدكم أخاه؟ ألا تبرّك؟ اغتسل له**»، فغسل له عامر، فراح سهل مع الركب ليس به بأس»[3].

★ **غريب الحديث:**

مخبّأة: مهموز من خبأت الشيء: إذا سترته، وهي المخدرة المكنونة التي لا تراها العيون، ولا تبرز للشمس فتغيرها.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٠-٢٦٣). (٢) فتح البر (١٠/ ٤٢٠-٤٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨٤-٧٨٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٠/ ١٠٠٣٦)، وصححه ابن حبان (٣١/ ٤٧٠/ ٦١٠٦) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٢١٥-٢١٦) وصححه ووافقه الذهبي.

لبط: صرع وسقط.

تغيظ: أي: أظهر الغيظ، والغيظ: تغيير يلحق الإنسان من مكروه يصيبه.

تبرّك: التبريك أن يقول: تبارك اللَّه أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه.

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر ابن عبد البر: «في هذا الحديث أن العين حق.

وفيه أن العين إنما تكون مع الإعجاب، وربما مع الحسد.

وفيه أن الرجل الصالح قد يكون عائنا، وأن هذا ليس من باب الصلاح ولا من باب الفسق في شيء.

وفيه أن العائن لا ينفى كما زعم بعض الناس.

وفيه أن التبريك لا تضر معه عين العائن. والتبريك قول القائل: اللهم بارك فيه، ونحو هذا، وقد قيل: إن التبريك أن يقول تبارك اللَّه أحسن الخالقين. اللهم بارك فيه.

وفيه جواز الاغتسال بالعراء، والخرار موضع بالمدينة. وقيل: واد من أوديتها.

وفيه دليل على أن العائن يجبر على الاغتسال للمعين»[1].

وقال: «وفيه ما يدل على أن في طباع البشر الإعجاب بالشيء الحسن والحسد عليه، وهذا لا يملكه المرء من نفسه، فلذلك لم يعاتبه رسول اللَّه ﷺ على ذلك، وإنما عاتبه على ترك التبريك الذي كان في وسعه وطاقته.. وفي قوله ﷺ: «**علام يقتل أحدكم أخاه**» دليل على أن العين ربما قتلت وكانت سببا من أسباب المنية.. وفي تغيظ رسول اللَّه ﷺ على عامر بن ربيعة، دليل على أن تأنيب كل من كان منه أو بسببه سوء وتوبيخه مباح، وإن كان الناس كلهم يجرون تحت القدر، ألا ترى أن القاتل يقتل وإن كان المقتول يموت بأجله. وذكر الحسن بن علي الحلواني قال: حدثنا عبد الصمد قال: حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفراني، قال: قلت للحسن: رجل قتل رجلا أبأجله قتله؟ قال: قتله بأجله، وعصى ربه.

---

(١) فتح البر (٦/ ٢٩٣-٢٩٤).

قال أبو عمر: وكذلك يوبخ كل من كان منه أو بسببه سوء، وإن كان القدر قد سبق له بذلك. وفي قوله(في غير هذا الحديث «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين». دليل على أن المرء لا يصيبه إلا ما قدر له، وإن العين لا تسبق القدر ولكنها من القدر. وفي قول رسول اللَّه ﷺ: «**ألا بركت؟**» دليل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يبرك، فواجب على كل من أعجبه شيء أن يبرك، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة، واللَّه أعلم..

وفيه أن العائن يؤمر بالاغتسال للذي عانه، ويجبر -عندي- على ذلك إن أباه، لأن الأمر حقيقته الوجوب، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، لاسيما إذا كان بسببه، وكان الجاني عليه، فواجب على العائن الغسل عندي واللَّه أعلم.

وفيه إباحة النشرة، وإباحة عملها، وقد قال الزهري في ذلك: إن هذا من العلم. وإذا كانت مباحة، فجائز أخذ البدل عليها، وهذا إنما يكون إذا صح الانتفاع بها، فكل ما لا ينتفع به بيقين، فأكل المال عليه باطل محرم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر بالنشرة للمعين، وجاء ذلك عن جماعة من أصحابه، منهم سعد بن أبي وقاص، خرج يوما وهو أمير الكوفة، فنظرت إليه امراة فقالت: إن أميركم هذا لأهضم الكشحين، فعانته فرجع إلى منزله فوعك، ثم إنه بلغه ما قالت، فأرسل إليها، فغسلت له أطرافها، ثم اغتسل به فذهب ذلك عنه»[١].

فصل في بيان حكم قول العلماء بعضهم في بعض

* عن ابن عباس -رضي اللَّه تعالى عنهما- قال: «استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايرًا من التيوس في زربها»[٢].

* وقال مالك بن دينار: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض؛ فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس تنصب لهم الشاة الضارب فينيبها

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٢٨٧-٢٨٩).

(٢) جامع بيان العلم (٢/ ١٨٥).

هذا من هنا وهذا من هنا»[١].

وفي رواية: «فإني وجدتهم أشد تحاسدًا من التيوس بعضها على بعض».

★ **فوائد الأثرين:**

قال أبو عمر بعد ذكره لهذين الأثرين وغيرهما: «هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس، وضلت به نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك، والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته، وثبتت في العلم أمانته، وبانت ثقته وعنايته بالعلم، لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينة عادلة، تصح بها جرحته على طريق الشهادات والعمل فيها، من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب قوله من جهة الفقه والنظر، وأما من لم تثبت إمامته، ولا عرفت عدالته، ولا صحت لعدم الحفظ والإتقان روايته، فإنه ينظر فيه إلى ما اتفق أهل العلم عليه، ويجتهد في قبول ما جاء به على حسب ما يؤدي النظر إليه، والدليل على أنه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين إمامًا في الدين قول أحد من الطاعنين أن السلف رضوان اللَّه عليهم قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير في حال الغضب، ومنه ما حمل عليه الحسد، كما قال ابن عباس ومالك بن دينار وابن حازم، ومنه على جهة التأويل مما لا يلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان ولا حجة توجبه، ونحن نورد في هذا الباب من قول الأئمة الجلة الثقاة السادة بعضهم في بعض ما لا يجب أن يلتفت فيهم إليه، ولا يخرج عليهم، ما يوضح لك صحة ما ذكرنا، وباللَّه التوفيق»[٢].

ثم قال: «ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما بدر من بعضهم في بعض الحسد والهفوات، والغضب والشهوات، دون أن يعي بفضائلهم، ويروي مناقبهم، حرم التوفيق، ودخل في الغيبة، وحال عن الطريق، جعلنا اللَّه وإياك ممن يسمع القول فيتبع أحسنه. وقد افتتحنا هذا الباب بقوله ﷺ: **«دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء»**[٣]، وفي ذلك كفاية، وقد أكثر الناس من القول في الحسد نظمًا

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٨٥-١٨٦).

(٢) جامع بيان العلم (٢/ ١٨٦-١٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي (٤/ ٥٧٣/ ٢٥١٠)، من حديث الزبير ﷺ، وفيه مولى آل الزبير مجهول، وقد جود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤٣)، والهيثمي في المجمع (٨/ ٣٠).

ونثرًا، وقد بينا ما يجب بيانه من ذلك، وأوضحناه في كتاب «التمهيد» عند قوله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا**»[١]، ومن صحبه التوفيق أغناه من الحكمة يسيرها، ومن المواعظ قليلها، إذا فهم واستعمل ما علم، وما توفيقي إلا باللَّه، وهو وحسبي ونعم الوكيل»[٢].

* * *

(١) تقدم تخريجه في هذه السورة.

(٢) جامع بيان العلم (٢/ ١٩٩-٢٠٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: أستجير بِرَبِّ النّاس مَلِكِ النّاس، وهو ملك جميع الخلق: إنسِهم وجنهم، وغير ذلك، إعلامًا منه بذلك مَنْ كان يعظِّم الناس تعظيم المؤمنين ربّهم، أنه مَلِكُ من يعظمه، وأن ذلك في مُلكه وسلطانه، تجري عليه قُدرته، وأنه أولى بالتعظيم، وأحقّ بالتعبد له ممن يعظمه، ويتعبّد له، من غيره من الناس. وقوله: ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾ يقول: معبود الناس الذي له العبادة من كل شيء سواه»[1].

قال أبو السعود: «وتخصيص الإضافة بالناس مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته تعالى وملكوتيته وألوهيته؛ للإرشاد إلى منهج الاستعاذة المرضية عنده تعالى الحقيقة بالإعاذة، فإن توسل العائذ بربه وانتسابه إليه تعالى بالمربوبية والمملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من أفراده، من دواعي مزيد الرحمة والرأفة، وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة، ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم، ففي التنصيص على انتظامهم في

---

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٥٤).

سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[1]، فمن جعل مدار تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من المضار المختصة بالنفوس البشرية، فقد قصر في توفية المقام حقه، وأما جعل المستعاذ منه فيما سبق المضار البدنية فقد عرفت حاله، وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف»[2].

قال القرطبي: «وإنما ذكر أنه رب الناس، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين: أحدهما: لأن الناس معظمون، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ لأن في الناس ملوكا يذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء»[3].

قال ابن القيم: «وهذه السورة أي: سورة الناس مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل.

فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه؛ لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب، والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما، فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة»[4].

قال عطية سالم: «في هذه السورة الكريمة اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، ولكأنها لأول وهلة

---

(1) الإسراء: الآية (٦٥).

(2) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢١٦).

(3) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٦٠-٢٦١).

(4) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٠).

تشير إلى أن الرب الملك هو الإله الحق الذي يستحق أن يعبد وحده.

ولعله ما يرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها: هو اللَّه أحد، اللَّه الصمد، وهذا هو منطق العقل والقول الحق؛ لأن مقتضى الملك يستلزم العبودية، والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد في الألوهية؛ لأن العبد المملوك تجب عليه الطاعة والسمع لمالكه بمجرد الملك، وإن كان مالكه عبدًا مثله، فكيف بالعبد المملوك لربه وإلهه، وكيف بالمالك الإله الواحد الأحد الفرد الصمد؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث: الرب الملك الإله، في أول افتتاحية أول المصحف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[1]، والقراءة الأخرى: (ملك يَوْمِ الدين).

وفي أول سورة البقرة أول نداء يوجه للناس بعبادة اللَّه تعالى وحده؛ لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[2]، ثم بين الموجب لذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[3].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[4]، وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة، ثم بين موجب إفراده وحده بذلك في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: كما أنه لا ند له في الخلق ولا في الرزق ولا في شيء مما ذكره، فلا تجعلوا لله أندادا أيضًا في عبادة، وأنتم تعلمون حقيقة ذلك، وعبادته تعالى وحده ونفي الأنداد هو ما قال الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه، معنى لا إله إلا اللَّه نفيا وإثباتا، فالإثبات في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، والنفي في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وكون الربوبية تستوجب العبادة جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾[5]، فالموصول وصلته في معنى التعليل لموجب العبادة، وسيأتي لذلك مزيد إيضاح إن شاء اللَّه في نهاية السورة، وقد جاء هنا لفظ رب الناس بإضافة الرب إلى

---

(١) الفاتحة: الآيات (٢-٤).
(٢) البقرة: الآية (٢١).
(٣) البقرة: الآية (٢١).
(٤) البقرة: الآية (٢٢).
(٥) قريش: الآيتان (٣-٤).

الناس، بما يشعر بالاختصاص، مع أنه سبحانه رب العالمين ورب كل شيء كما في أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[١]، وفي قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٢]، فالإضافة هنا إلى بعض أفراد العام، وقد أضيف إلى بعض الأفراد الأخرى كالسموات والأرض وغيرها من بعض كل شيء كقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾[٣]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾[٤]، وإلى البيت: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾، وإلى البلد الحرام: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾[٥]، وإلى العرش: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[٦]، وإلى الرسول: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٧]، وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[٨]، إلى غير ذلك، ولكن يلاحظ أنه مع كل إضافة من ذلك ما يفيد العموم، وأنه مع إضافته لفرد من أفراد العموم فهو رب العالمين، ورب كل شيء، ففي إضافته إلى السموات والأرض جاء معها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾[٩]، وفي الإضافة إلى المشرق والمغرب جاء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[١٠]، وفي الإضافة إلى البيت جاء: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾[١١]، وهو اللَّه سبحانه، وفي الإضافة إلى البلدة جاء: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾[١٢]، وهو اللَّه تعالى، وفي الإضافة إلى العرش جاء قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾[١٣]، وفي الإضافة إلى الرسول ﷺ جاء قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[١٤]، وغير ذلك من الإضافة إلى أي فرد من أفراد العموم يأتي معها ما يفيد العموم وأن اللَّه رب العالمين، وهو رب الناس جاء معها: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ ليفيد العموم أيضا؛ لأن إطلاق الرب قد يشارك فيه السيد المطاع كما في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١٥] وقول

(١) الفاتحة: الآية (٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٣) الرعد: الآية (١٦).
(٤) المزمل: الآية (٩).
(٥) النمل: الآية (٩١).
(٦) المؤمنون: الآية (١١٦).
(٧) الأحزاب: الآية (٢).
(٨) المدثر: الآية (٣).
(٩) الرعد: الآية (١٦).
(١٠) المزمل: الآية (٩).
(١١) قريش: الآية (٤).
(١٢) النمل: الآية (٩١).
(١٣) المؤمنون: الآية (١١٦).
(١٤) الضحى: الآية (٣).
(١٥) التوبة: الآية (٣١).

يوسف لصاحبه في السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[١]، أي: الملك على أظهر الأقوال، وقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾[٢] الآية. فجاء بالملك والإله للدلالة على العموم في معنى رب الناس، فهو سبحانه رب العالمين ورب كل شيء، ولكن إضافته هنا إلى خصوص الناس إشعار بمزيد اختصاص ورعاية الرب سبحانه لعبده الذي دعاه إليه ليستعيذ به من عدوه كما أن فيه تقوية رجاء العبد في ربه بأنه سبحانه بربوبيته سيحمي عبده لعوذته مما استعاذ به منه، ويقوي هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول ﷺ في جميع أطواره منذ البدأين: بدء الخلقة، وبدء الوحي في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[٣]، ثم في نشأته: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[٤] إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾[٥].

وجعل الرغبة إليه في السورة بعدها ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[٦]، بعد تعداد النعم عليه من شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، ثم في المنتهى قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾[٧].

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، في مجيء ملك الناس بعد رب الناس، تدرج في التنبيه على تلك المعاني العظام، وانتقال بالعباد من مبدإ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية في الخلق والرزق، وجميع تلك الكائنات، كما تقدم في أول نداء وجه إليهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[٨].

كل هذه الآثار التي لمسوها وأقروا بموجبها، بأن الذي أوجدها هو ربهم، ومن ثم ينتقلون إلى الدرجة الثانية، وهي أن ربه الذي هذه أفعاله هو ملكه، وهو المتصرف في تلك العوالم، وملك لأمره وجميع شؤونه، ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعًا.

---

(١) يوسف: الآية (٤٢).
(٢) يوسف: الآية (٥٠).
(٣) العلق: الآيتان (١-٢).
(٤) الضحى: الآية (٣).
(٥) الضحى: الآيات (٦-٨).
(٦) الشرح: الآية (٨).
(٧) العلق: الآية (٨).
(٨) البقرة: الآيتان (٢١-٢٢).

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك، أقر له ضرورة بالألوهية وهي المرتبة النهائية.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ أي: مألوههم ومعبودهم وهو ما خلقهم إليه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]. وفي إضافة الملك إلى الناس من إشعار الاختصاص، مع أنه سبحانه ملك كل شيء، فيه ما في إضافة الرب للناس المتقدم بحثه، فهو سبحانه مالك الملك كما في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾[3]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]، وقوله: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾[5]. فهو ﷻ المتفرد بالملك لا شريك له في ملكه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾[6]، فبدأ بالحمد أولًا. ومثله قوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[7]، بدأ بتسبيح نفسه وتنزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفي الشريك؛ لأن ملكه ملك تصرف وتدبير مع الكمال في الحمد والتقديس، وكقوله: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[8].

وبهذه النصوص يعلم كمال ملكه تعالى، ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا، وتعلم أن ملكهم بتمليك اللَّه تعالى إياهم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾[9]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم سياسة ورعاية، لا ملك تملك وتصرف، وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾[10]..

---

(١) الذاريات: الآية (٥٦).
(٢) آل عمران: الآية (٢٦).
(٣) التغابن: الآية (١).
(٤) البقرة: الآية (١٠٧).
(٥) الحشر: الآية (٢٣).
(٦) الإسراء: الآية (١١١).
(٧) يس: الآية (٨٣).
(٨) الملك: الآية (١).
(٩) البقرة: الآية (٢٤٧).
(١٠) البقرة: الآية (٢٤٧).

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه من أن ملوك الدنيا لا يملكون أمر الرعية؛ لأن طالوت ملك وليس مالكًا لأموالهم، بينما ملك اللَّه تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

و﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هنا من خصائصه ﷻ، فيتصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملين سبحانه، له ملك السماوات والأرض، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق، فيتلاشى كل ملك قلَّ أو كثر، ويذل كل ملك كبر أو صغر، ولم يبق إلا ملكه تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾[2]، وفي سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[3]، والقراءة الأخرى: (ملك يَوْم الدين). في القراءتين معًا إشعار بالفرق بين ملك اللَّه وملك العباد، كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبي؛ إذ الملك النسبي لا يملك، والملك المطلق فهو الملك القدوس، والذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجع الخلائق كلهم، ومن كانت هذه صفاته، فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه، ولا يشرك معه أحد، وهذا هو شعار العبد في الركن الخامس من أركان الإسلام، حين يهلّ بالتلبية: إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾: هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية، وإفراد اللَّه تعالى بالألوهية، وهذا هو محل الإحالة التي عناها الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه فيما يظهر؛ لأن العبد إذا أقر بأن اللَّه تعالى ربه وخالقه، ومنعم عليه أوجده من العدم، ورباه بالنعم، لا رب سواه، ثم تدرج بعلمه ويقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليكه والمتصرف في أمره وحده، وأنه لا يملك هو نفسه مع اللَّه شيئًا، ولا يملك له أحد من اللَّه شيئًا، وأن كل تصرفات العالم كله بأمره، فلا يصل إليه خير إلا بإذنه، ولا يصرف عنه ضرر إلا بأمره، وعرف في يقين أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السماوات والأرض، توصل بعلمه هذا أن من كانت هذه صفاته، كان هو وحده المستحق لإفراده بالعبادة وبالألوهية لا إله إلا هو.

---

(١) الشورى: الآيتان (٤٩-٥٠).

(٢) غافر: الآية (١٦).

(٣) الفاتحة: الآية (٤).

فيكون في خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من العبد لله سبحانه بطريق الإلزام، بالمعنى الذي أرسل اللَّه به رسله، وأنزل من أجله كتبه، وهو أن يعبد اللَّه وحده، وهو ما صرح الشيخ به في الإحالة السابقة.

وإذا كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف، فإنا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطًا بديعًا؛ إذ تلك الصفات الثلاث في سورة الناس موجودة في سورة الفاتحة، فاتفقت الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم، إذ في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، فجاءت صفة الربوبية والملك والألوهية في لفظ الجلالة، وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء، وأن القرآن كله فيما بين ذلك شرح وبيان لتقرير هذا المعنى الكبير. وسيأتي لذلك زيادة إيضاح في النهاية إن شاء اللَّه تعالى»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حقيقة ملك اللَّه تعالى

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يقبض اللَّه الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[٢].

★ غريب الحديث:

الملك: هو المتصرف بالأشياء حسب إرادته، لا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه.

★ فوائد الحديث:

ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الحديث بقوله: باب قوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾.

قال الغنيمان: «يظهر لي أن مراده بهذا الباب كالباب الذي قبله أن هذا الاسم الكريم (الملك) من أسماء اللَّه الحسنى. وقد أطلق على بعض خلقه، ولم يكن في ذلك تشبيه؛ إذ المعنى الذي يختص به تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه، فهو مالك الملك، وله الملك التام المطلق، وهو الذي يهب للمخلوق الملك، مع أن ملك

---

(١) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦٥٨-٦٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والبخاري (١٣/ ٤٥٣/ ٧٣٨٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٧)، وابن ماجه (١/ ٦٨-٦٩/ ١٩٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠١/ ٧٦٩٢).

المخلوق ناقص يناسب نقصه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾[1] »[2].

وقال أيضًا: «أما التوفيق بين الحديث والترجمة فظاهر، وهو أن الناس الذين يوجد منهم الملوك والجبابرة، والذين يذل لهم ويخضع بعض العباد، وقد يصرفون لهم ما خالص حق اللَّه من العبادة، هؤلاء ملك له تحت قهره، آخذ بنواصيهم، يتصرف فيهم كيف يشاء، ويظهر ذلك جليًّا لكل أحد يوم يقبض اللَّه الأرض ويطوي السموات بيمينه ويقول: «أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»، فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذي أورثهم الذل والصغار»[3].

قال الغنيمان: «وقوله: «ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» أي أنه تعالى ينفرد بالملك، فهو الملك حقًّا الذي لا منازع له، ولا معاون، ولا ظهير، ولا شريك، وفي ذلك اليوم عندما يقبض الأرض بيده ويطوي السموات بيمينه، ويصبح كل شيء في قبضته، ينادي الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه ويتعدون على سلطانه من المتكبرين والمتجبرين من ملوك الدنيا، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ذي السلطان، وهو متفرد به في كل آن، غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جليًّا، فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم: أين ملوك الدنيا؟ فهل يستطيعون منعًا أو ردًّا؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى؟ لقد ذهب منهم كل شيء، وبقيت التبعات والذل والحسرات»[4].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٢٦).
(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح بالبخاري (١/ ١٤١).
(٣) المصدر نفسه (١٤١-١٤٢).
(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

الوسواس: الشيطان الموَسْوِسُ. والوسوسة: الخطرة الرديئة وحديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه: إذا حدثته بفعل القبيح. وأصل الوسوسة: الصوت الخفي. ومنه قيل لهمس الصائد والكلب وصوت الحلي: وسواس. قال الأعشى:

تسمعُ للحلي وسواسًا إذا انصرفتْ   كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

الخناس: الذي عُدَّته أن يخنس، أي: يختفي ويتأخر. ومنه سميت النجوم بالخنَّسِ، لكونها تخنس بالنهار، أي: تغيب فلا ترى. والخنوس: التأخر. تقول: أَخْنَسْتُ عنه حقَّه: إذا أَخَّرْته عنه. وأنشد أبو العلاء الحضرمي رسولَ اللَّه ﷺ:

وإنْ دَحَسُوا بالشرِّ فاعْفُ تَكَرُّمًا   وَإِنْ خَنَسُوا عَنْكَ الحديثَ فَلا تَسَلْ

الجِنَّة: بكسر الجيم: الجنّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ يعني: من شر الشيطان ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس مرة ويوسوس أخرى، وإنما يخنس فيما ذكر عند ذكر العبد ربه.. وروي عن ابن عباس ﵄ أنه كان يقول في ذلك: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يوسوس بالدعاء إلى طاعته في صدور الناس، حتى يستجاب له إلى ما دعا من طاعته، فإذا استجيب له إلى ذلك خنس.. والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه أمر نبيه محمدا ﷺ أن يستعيذ به من شر شيطان يوسوس مرة ويخنس أخرى، ولم يخص وسوسته على نوع من أنواعها، ولا خنوسه على وجه دون وجه، وقد يوسوس بالدعاء إلى معصية اللَّه، فإذا أطيع فيها خنس، وقد يوسوس بالنهي عن طاعة اللَّه فإذا ذكر العبد أمر ربه فأطاعه فيه وعصى الشيطان

خنس، فهو في كل حالتيه وسواس خناس، وهذه الصفة صفته»[(١)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ لا يخفى ما بين هذين الوصفين اللذين وصف بهما هذا اللعين الخبيث من التنافي؛ لأن الوسواس كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس.

والجواب: أن لكل مقام مقالا؛ فهو وسواس عند غفلة العبد عن ذكر ربه، خناس عند ذكر العبد ربه تعالى، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن القيم: «أما الخناس فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى.. وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس، إيذانا بشدة هروبه ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانا؛ بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر، فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر؛ لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قويا عاتيا شديدا، فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته، عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد

(١) جامع البيان (٣٠/ ٣٥٥-٣٥٦).
(٢) الزخرف: الآية (٣٦).
(٣) النحل: الآية (٩٩).
(٤) دفع إيهام الاضطراب (٢٩٣).

لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل؛ لأنه كلما ذكر اللَّه انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنييهما.

فصل: وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولا، ثم ذكر محلها ثانيا وأنها في صدور الناس، وقد جعل اللَّه للشيطان دخولا في جوف العبد ونفوذا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: كان رسول اللَّه ﷺ معتكفا فأتيته أزوره ليلا فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رسلكما إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان اللَّه يا رسول الله! فقال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا أو قال شيئا**»[(١)].

وفي الصحيح أيضا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضي أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعا، فإذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتي السهو**»[(٢)].

ومن وسوسته: ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق اللَّه،**

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٣٧)، البخاري (٦/ ٤١٤/ ٢٣٨١)، مسلم (٤/ ١٧١٢/ ٢١٧٥)، أبو داود (٢/ ٨٣٤/ ٢٤٧٠-٢٤٧١)، ابن ماجه (١/ ٥٦٥-٥٦٦/ ١٧٧٩)، من حديث صفية ﵂.

(٢) أحمد (٢/ ٤٦٠)، والبخاري (٢/ ١٠٨/ ٦٠٨)، ومسلم (١/ ٢٩١-٢٩٢/ ٣٨٩)، وأبو داود (١/ ٣٥٥/ ٥١٦)، والنسائي (٢/ ٣٥٠-٣٥١/ ٦٦٩).

فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»[١]. وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله! إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»[٢].

من وسوسته أيضًا: أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾[٣].

وتأمل حكمة القرآن الكريم وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرا وأقواها تأثيرا وأعمها فسادا وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددا لهم وعونا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾[٤] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم بتلك النخوة والكبر، ولا يرضاه أن يصير قوادا لكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣١)، والبخاري (٦/ ٤١٣-٤١٤/ ٣٢٧٦)، ومسلم (١/ ١٢٠/ ١٣٤[٢١٤])، وأبو داود (٥/ ٩١-٩٢/ ٤٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٤٩٩).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) الكهف: الآية (٦٣).

(٤) مريم: الآية (٨٣).

عجبت من إبليس في تيهه وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة وصار قوادا لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضا.

فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم اللّٰه تعالى عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف، وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم اللّٰه تعالى، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقا ويخرج مغيرا، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناما أنه فعل كذا وكذا، ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا اللّٰه تعالى، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدا تمنعه من اليقظة، كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر اللّٰه انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[(١)].

ومن شره أن يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه**»[(٢)]. رواه البخاري ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣)، والبخاري (٦/ ٤١٢-٤١٣/ ٣٢٦٩)، ومسلم (١/ ٥٣٨/ ٧٧٦)، وأبو داود (٢/ ٧٢-٧٣/ ١٣٠٦)، والنسائي (٣/ ٢٢٥/ ١٦٠٦)، وابن ماجه (١/ ٤٢١-٤٢٢/ ١٣٢٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٧)، والبخاري (٦/ ٤١٣/ ٣٢٧٠)، ومسلم (١/ ٥٣٧/ ٧٧٤)، والنسائي (٣/ ٢٢٥-٢٢٦/ ١٦٠٧)، وابن ماجه (١/ ٤٢٢/ ١٣٣٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.. ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدا منها أو أكثر.

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه.

فإذا يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى المرتبة الثانية من الشر، وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضا نائبه وداعيا من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر، وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها، ولاسيما إن كان عالما، متبوعا فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينا وتقربا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين، وتتبع لعورتهم، وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى

عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس .

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبي ﷺ : «**إياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض**»[1] وذكر حديثا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا ، ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب؛ بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى المرتبة السادسة ، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ، ويفوته ثواب العمل الفاضل ، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه ، وقل من يتنبه لهذا من الناس فإنه إذا رأى فيه داعيا قويا ومحركا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة ، فإنه لا يكاد يقول : إن هذا الداعي من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول هذا الداعي من اللَّه ، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وإما ليفوت بها خيرا أعظم من تلك السبعين بابا وأجل وأفضل .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من اللَّه يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند اللَّه وأحبها إليه

---

(١) أخرجه : أحمد (٥/ ٣٣١)، الطبراني في الكبير (٦/ ١٦٥-١٦٦/ ٥٨٧٢) ، وفي الأوسط (٨/ ١٥٩/ ٧٣١٩) ، وفي الصغير (٨٨٧)، الروياني في مسنده (٢/ ٢١٦/ ١٠٦٥)، البيهقي في الشعب (٥/ ٤٥٦/ ٧٢٦٧)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٩٩/ ٤٢٠٣). كلهم من طريق أنس بن عياض عن أبي حازم عن سهل بن سعد مرفوعا .
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة». اهـ وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٤٠٠).

وأرضاها له، وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه؛ ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، ولا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته، واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه.

فصل: وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ ولم يقل في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود.

ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1]، فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2]، ولم يقل فيه، لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه.

فصل: وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ اختلف المفسرون في هذا الجار

(١) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٢) طه: الآية (١٢٠).

والمجرور بم يتعلق، فقال الفراء وجماعة: هو بيان للناس الموسوس في صدورهم، والمعنى: يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان: إنس وجن. فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي، وعلى هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال؛ لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة، هذه عبارتهم، ومعناها: أنه لما لم يصلح أن يكون نعتا للمعرفة انقطع عنها، فكان موضعه نصبا، والبصريون يقدرونه حالا أي: كائنين من الجنة والناس، وهذا القول ضعيف جدا لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجن، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه؟.

الثاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضا، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ فكيف يبين الناس بالناس، فإن معنى الكلام على قوله: يوسوس في صدور الناس الذين هم أو كائنين من الجنة والناس، أفيجوز أن يقال: في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم؟ هذا ما لا يجوز، ولا هو استعمال فصيح.

الثالث: أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه، لا أصلا ولا اشتقاقا ولا استعمالا، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجن إنما سموا جنا من الاجتنان وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جنا لذلك من قولهم: جنه الليل وأجنه إذا ستره، وأجن الميت إذا ستره في الأرض، قال:

ولا تبك ميتًا بعد ميت أجنه ... علي وعباس وآل أبي بكر

يريد النبي ﷺ ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾[1]، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة

---

(١) النجم: الآية (٣٢).

لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه الجنة بالضم لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله، وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط، وهو عقد تقاليب الكلمة إلى معنى واحد، والإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾[1]، أي: رآها، ومنه: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[2]، أي: أحسستموه ورأيتموه، فالإنسان سمي إنسانا لأنه يونس، أي: يرى بالعين. فالصواب القول الثاني، وهو أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس إلى الإنسي. فالموسوس نوعان: إنس وجن. فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة؛ لأنه يدخل في ابن آدم، ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي، كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام- بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[3]، فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن، ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[4]، فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله، ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله، فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول. وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين شياطين الإنس والجن، وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط. فتأمله فإنه بديع جدًّا»[5].

---

(١) القصص: الآية (٢٩). (٢) النساء: الآية (٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٧)، البخاري (٦/ ٣٧٣-٣٧٤/ ٣٢١٠)، مسلم (٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨).
(٤) الأنعام: الآية (١١٢). (٥) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٥-٢٦٦).

قال عطية سالم: «تنبيه: ذكر أبو حيان[١] في آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتي المعوذتين فقال: ولما كانت مضرة الدين -وهي آفة الوسوسة- أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث، الرب، والملك، والإله، وإن اتحد المطلوب.

وفي الاستعاذة من ثلاث الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب، وإن تكثر الذي يستعاذ منه، وهذه الأخرى لفتة كريمة، طالما كنت تطلعت إليها في وجهتي نظر، إحداهما: بين السورتين، والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف، سيأتي إيرادهما إن شاء اللَّه.

إلا أنه على وجهة نظر أبي حيان، وهي أنه تعالى في سورة الفلق جاء في الاستعاذة بصفة واحدة وهي رب الفلق. وفي سورة الناس جاء في الاستعاذة بثلاث صفات، مع أن المستعاذ منه في الأولى ثلاثة أمور، والمستعاذ منه في الثانية أمر واحد، فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث.

ويقال أيضًا من جهة أخرى: إن المستعاذ منه في السورة الأولى أمور تأتي من خارج الإنسان، وتأتيه اعتداء عليه من غيره، وقد تكون شرورًا ظاهرة، ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو اتقاؤه قبل وقوعه، وتجنبه إذا علم به. بينما الشر الواحد في الثانية يأتيه من داخليته، وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه، إذ الشيطان يرانا ولا نراه، كما في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[٢].

وهذا يثير عليه خلجات نفسه ونوازع فكره، فلا يجد له خلاصًا إلا بالاستعاذة واللجوء إلى رب الناس ملك الناس إله الناس.

أما الوجهتان اللتان نوهنا عنهما، فالأولى بين السورتين، وهي مما أورده أبو حيان؛ إذ في سورة الفلق قال:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾[٣]، ورب الفلق تعادل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]، لأنه ما من موجود في هذا الكون إلا وهو مفلوق عن غيره: في الزرع: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ

---

(١) انظر أصل هذه المقارنة في التفسير الكبير للرازي (٣٢/ ١٩٩).

(٢) الأعراف: الآية (٢٧). (٣) الفلق: الآية (١).

(٤) الفاتحة: الآية (٢).

وَٱلنَّوَىٰ﴾[١]، وفي الزمن: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[٢]، وفي الحيوانات: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[٣].

وفي الجمادات يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[٤]. فرب الفلق تعادل رب العالمين، فقابلها في الاستعاذة بعموم المستعاذ منه من شر ما خلق، ثم جاء ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به، وهو من شر غاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، وحاسد إذا حسد.

فالمستعاذ به صفة واحدة، والمستعاذ منه عموم ما خلق جملة وتفصيلًا، بينما في السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات هي صفات العظمة لله تعالى: الرب والملك والإله.

فقابل المستعاذ منه وهو شيء واحد فقط، وهو الوسواس الخناس، وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه، وهو كذلك؛ لأننا لو نظرنا في واقع الأمر لوجدنا مبعث كل فتنة ومنطلق كل شر عاجلًا أو آجلًا، لوجدناه بسبب الوسواس الخناس، وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان.

وأول جناية وقعت على الإنسان الأول، إنما هي من هذا الوسواس الخناس، وذلك أن اللَّه تعالى لما كرَّم آدم، فخلقه بيده، وأسجد الملائكة له، وأسكنه الجنة لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، يأكلان منها رغدًا حيثما شاءا إلا من الشجرة الممنوعة، فوسوس إليهما الشيطان حتى أكلا منها ودلاهما بغرور، حتى أهبطوا منها جميعًا بعضهم لبعض عدو، وبعد سكناهما الأرض أتى ابنيهما قابيل وهابيل فلاحقهما أيضًا بالوسوسة، حتى طوَّعت نفس أحدهما قتل أخيه فأصبح من النادمين.

وهكذا بسائر الإنسان في حياته بالوسوسة حتى يربكه في الدنيا، ويهلكه في الآخرة، ولقد اتخذ من المرأة جسرًا لكل ما يريد، وهاهو يعيد الكرة في نزع اللباس عن أبوينا في الجنة، فينتزعه عنهما في ظل بيت اللَّه الحرام في طوافهم قبل البعثة

---

(١) الأنعام: الآية (٩٥).
(٢) الأنعام: الآية (٩٦).
(٣) النساء: الآية (١).
(٤) الأنبياء: الآيتان (٣٠-٣١).

ولا يزال يغويه، وعن طريق المرأة في كل زمان ومكان، ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة، ولا يزال يجلب على الإنسان بخيله ورجله بارًا بقسمه بين يدي اللَّه بعزته ليغوينهم أجمعين، وإن أخطر أبواب الفساد في المجتمعات لهي عن المال أو الدم أو العرض، كما في الحديث في حجة الوداع: «**ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا**»[1] إلى آخره. وهل وجدت جناية على واحد منها، إلا من تأثير الوسواس الخناس، اللَّهم لا، وهكذا في الآخرة.

وقد بين تعالى الموقف جليًا في مقالة الشيطان البليغة الصريحة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾[2] الآية.

ولقد علم عدو المسلمين أن أخطر سلاح على الإنسان هو الشك، ولا طريق إليه إلا بالوسوسة، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم، ويشككهم في قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه، ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستغلال الحقيقي؛ بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع؛ ليظلوا في فلكه ودائرة نفوذه، فيبقى المسلمون يدورون في حلقة مفرغة، يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى، والمتشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبدًا، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غدًا، وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة رئيس مؤتمر المستشرقين في الشرق الأوسط منذ أكثر من ثلاثين عامًا حينما انعقد المؤتمر في بيروت لعرض نتائج أعمالهم ودراسة أساليب تبشيرهم.

فتشكى المؤتمرون من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل، ولم يستطيعوا أن ينصِّروا مسلمًا واحدا، فقال رئيس المؤتمر: إذا لم نستطع أن ننصِّر

---

(١) أخرجه بتمامه أحمد (١/ ٢١٧)، البخاري (٥/ ٣٩٢/ ٢٢٦٢)، مسلم (٣/ ٠٤٢١/ ٢٢٦١)، الترمذي (٣/ ٥٩٢/ ١٢٩٨)، النسائي (٦/ ٥٧٧-٥٧٩/ ٢٦٩٥-٣٧٠٢). وأخرجه أبو داود (٣/ ٨٠٨/ ٣٥٣٨) وابن ماجه (٢/ ٧٩٧/ ٢٣٨٥) مختصرا.

(٢) إبراهيم: الآية (٢٢).

مسلمًا، ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة في الرأي، فقد نجحنا في عملنا. وهكذا منهج العدو، تشكيك في قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة في عقيدة المسلمين، فعن طريق الميراث تارة، وعن طريق تعدد الزوجات أخرى، وعن دوافع القتال، وعن استرقاق الرقيق، وعن وعن؛ حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق، وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو، وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج الوسواس الخناس، فلا غرو إذن أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث: رب الناس، ملك الناس، إله الناس. هذه وجهة النظر الأولى بين سورتي الفلق والناس.

أما الوجهة الثانية: وهي بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف، بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وفي هذه البداية الكريمة بث الطمأنينة في القلب المعبر عنها بالحمد، عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية، ثم الإيمان بالبعث والإقرار لله بملك يوم الدين، ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والالتجاء إليه مستعينًا به، مستهديًا الصراط المستقيم، سائلًا صحبة الذين أنعيم عليهم، ثم يأتي بعدها مباشرة في أول سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾[2]، أي: إن الهدى الذي تنشده إلى الصراط المستقيم، فهو في هذا الكتاب لا ريب فيه، ثم بين المتقين الذي أنعم اللَّه عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾[3]. ومرة أخرى للتأكيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لا سواهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ثم تترسل السورة في تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة: مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين وهم المنافقون، ثم يأتي النداء الصريح وهو أول نداء في المصحف لعموم الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[4]، ويقيم البراهين على استحقاقه للعبادة، وعلى إمكان البعث بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) الفاتحة: الآيات (٢-٧).
(٢) البقرة: الآية (٢).
(٣) البقرة: الآيتان (٣-٤).
(٤) البقرة: الآية (٢١).

تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] .

وبعد تقرير الأصل وهي العقيدة، تمضي السورة في ذكر فروع الإسلام، فتشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد، وقلَّ باب من أبواب الفقه إلا وله ذكر في هذه السورة، ويأتي ما بعدها مبينًا لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها، وهكذا حتى ينتهي القرآن بكمال الشريعة وتمام الدين، ولما جاء في وصف المتقين المهتدين في أول المصحف، أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب، أمور الغيب تستلزم اليقين، لترتب الجزاء عليه ثوابًا أو عقابًا. والثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك، والفعل والترك: هما مناط التكليف؛ لأن الإنسان يمتثل الأمر رجاء الثواب، ويكف عن متعلق النهي مخافة العقاب.

فلكأن نسق المصحف الشريف يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه من أن القرآن بدأ بالحمد ثناءً على اللَّه بما أنعم على الإنسان بإنزاله، وإرسال الرسول صاحبه به، ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وهو الأعظم قدرًا وخطرًا، ثم رسم له الطريق الذي سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى، ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم.

وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية، جاء به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم، فاستوقفه ليقول له إذا اطمأننت لهذا الدين، وآمنت باللَّه رب العالمين، واعتقدت مجيء يوم الدين، وعرفت طريق المهتدين، ورأيت أقسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين، ونهاية كل منهم، فالزم هذا الكتاب، وسر على هذا الصراط ورافق أهل الإنعام، وجانب المغضوب عليهم والضالين، واحذر من مسلك المنافقين المتشككين، وحاذر كل الحذر من موجب ذلك كله، وهو الوسواس الخناس أن يشكك في متعلقات الإيمان، أو في استواء طريقك واستقامته، أو في عصمة كتابك وكماله، وكن على يقين مما أنت عليه، ولا تنس خطره على أبويك من قبل؛ إذ هما في الجنة دار السلام ولم يسلما منه، ودلاهما بغرور، فحاذر منه، ولذ بي كلما ألم بك أو مسك طائف منه، وكن كسلفك الصالح

(١) البقرة: الآيتان (٢١-٢٢).

﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[١].

وقد علمت عداوته لك من بعد، وعداوته ناشئة عن الحسد، ولكأن ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطها بهذا التحذير، إذ في الأولى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٢]، فحسد الشيطان آدم على إكرام اللَّه إياه كما أسلفنا، والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود، ولئن كانت توبة آدم هي سبيل نجاته كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٣]؛ فنجاتك أيضًا في كلمات تستعيذ بها من عدوك: برب الناس ملك الناس إله الناس، لأن الرب هو الذي يرحم عباده، وملك الناس هو الذي يحميهم ويحفظهم ويحرسهم، وإله الناس الذي يتألهون إليه ويتضرعون ويلوذون به سبحانه.

تنبيه: إذا كان هذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس، وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد، فما طريق النجاة منه؟

الذي يظهر واللَّه تعالى أعلم: أن طريق النجاة تعتمد على أمرين: الأول: يؤخذ من عمومات الكتاب والسنة. والثاني: سمعته من الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه.

أما الأول فهو: إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد، فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون تردد كما في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٤]، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاقتداء بهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٥]، وقال ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**[٦]. والقاعدة الفقهية «اليقين لا يرفع بشك». والحديث: **«يأتي الشيطان لأحدكم وهو في الصلاة فينفخ في مقعدته، فيتخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث، فلا ينصرف حتى يسمع صوتًا، أو يجد ريحا»**[٧].

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠١).
(٢) الفلق: الآية (٥).
(٣) البقرة: الآية (٣٧).
(٤) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٥) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٠٠)، الترمذي (٤/ ٥٧٦/ ٢٥١٨) وقال: «حسن صحيح»، النسائي (٨/ ٧٣٢/ ٥٧٢٧)، الحاكم (٢/ ١٣) (٤/ ٩٩) واللفظ له وقال الذهبي: «سنده قوي»، ابن حبان (٢/ ٤٩٨/ ٧٢٢).
(٧) أخرجه: البخاري (١/ ٣٧٥/ ١٧٧)، ومسلم (١/ ٢٧٦/ ٣٦١) وأبو داود (١/ ١٢٢/ ١٧٦)، والنسائي (١٠٦-١٠٧/ ١٦٠)، وابن ماجه (١/ ١٧١/ ٥١٣).

ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين، فالعقائد لا بد فيها من اليقين. والفروع في العبادات لا بد فيها من النية «إنما الأعمال بالنيات»[١]. والشرط في النية الجزم واليقين، فلو نوى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها، لا تنعقد نيته، ولو نوى صومًا أنه إن شاء أفطر، لا ينعقد صومه. ونص مالك في الموطأ أنه إن نوى ليوم الشك في ليلته الصوم غدًا، على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان، وإلا فهو نافلة، لا ينعقد صومه لا فرضًا ولا نفلًا، حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه، وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية. والحج: لو نواه لزمه ولزمه المضي فيه، ولا يملك الخروج منه باختياره. وهكذا المعاملات في جميع العقود مبناها على الجزم حتى في المزح واللعب، يؤاخذ في البعض كالنكاح والطلاق والعتاق.

فمن هذا كله، كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف، مما يقضي على نوازع الشك والتردد، ولم يبق في قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة، وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضي الله عنه.

أما الذي كنت سمعته من الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه فقوله: لقد علمنا اللَّه كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن: أما العدو من الإنس ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[٢]. فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته، وتكسب صداقته، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[٣].

وأما عدو الجن ففي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[٤]، وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع ذكر اللَّه، وعلى قوله رحمه الله: فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه باللَّه، ويكفيه ذلك؛ لأن كيد الشيطان كان ضعيفًا، أما شيطان الإنس فهو في حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧)، من حديث عمر.

(٢) فصلت: الآية (٣٤).

(٣) المؤمنون: الآية (٩٦).

(٤) فصلت: الآية (٣٦).

﴿صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝﴾[1]، رزقنا اللَّه تعالى وجميع المسلمين حظًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، إنه المسؤول، وخير مأمول»[2]. [3]

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عداوة الشيطان لابن آدم

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن**». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[4].

★ **غريب الحديث:**

قرينه: القرين: (فعيل) بمعنى القرين الملازم الذي لا يفارق.

فأسلم: قال القاضي: رويناه بالضبطين من الرفع والفتح، فمن رفع تأولها: فأسلمُ أنا منه، وهي التي صحح الخطابي ورجّح، ومن فتح جعله صفة للقرين من الإسلام، وهي عندي أظهر؛ بدليل قوله: «فلا يأمرني إلا بخير».

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «في هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان»[5].

* عن علي بن الحسين رضي الله عنهما: أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت إلى رسول اللَّه ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرّ رجلان من الأنصار فسلما على رسول اللَّه ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: «**على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان اللَّه يا رسول اللَّه، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ**

---

(١) فصلت: الآية (٣٥). (٢) تتمة أضواء البيان (٩/ ٦٧٦-٦٨٩).

(٣) قلت: ما نقله عطية سالم في كيفية اتقاء العدو من الإنس والجن قد تقدم من كلام الحافظ ابن كثير وقد أوردناه في بداية هذا السفر ولله الحمد والمنة.

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥-٣٩٧-٤٠١-٤٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦٧/ ٢٨١٤).

(٥) شرح مسلم (١٧/ ١٣٠).

الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا»[١].

★ غريب الحديث:

تنقلب: تنصرف، ويقلبها: يصرفها.

يقذف: أي: يرمي.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله ﷺ: «إنما هي صفية» فكأنه قال: «هذه صفية لا غيرها» حسمًا لذريعة التهم، وردًّا لتسويل الشيطان ووسوسته، كما قد نص عليه، وإذا كان النبي ﷺ يتقي مواقع التهم عن قيام الأدلة القاطعة على عصمته، كان غيره بذلك أولى»[٢].

قال ابن بطال: «قال المهلب: فيه من الفقه تجنب مواضع التهم، وأن الإنسان إذا خشي أن يسبق إليه بظن سوء أن يكشف ذلك الظن ويبرئ نفسه من نزغات الشيطان الذي يوسوس بالشر في القلوب. وإنما خشي ﷺ أن يحدث على الرجل من سوء الظن فتنة، وربما زاغ بها فيأثم أو يرتد، وإن كان النبي ﷺ منزهًا عند المؤمنين من مواضع التهم، ففي قوله ﷺ: «إنها صفية» السنة الحسنة لأمته، وأن يمتثلوا فعله ذلك في البعد عن التهم ومواقف الريب»[٣].

قال الحافظ: (وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا» كذا في رواية ابن مسافر، وفي رواية معمر: «سوءًا» أو قال: «شيئًا»، وعند مسلم وأبي داود وأحمد من حديث معمر: «شرًّا» بمعجمة وراء بدل «سوءًا»، وفي رواية هشيم: «إني خفت أن يدخل عليكما شيئًا»، والمحصل من هذه الروايات أن النبي ﷺ لم ينسبهما إلى أنهما يظنان به سوءًا؛ لما تقرر عنده من صدق إيمانهما، ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك؛ لأنهما غير معصومين، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك، فبادر إلى إعلامهما حسمًا للمادة، وتعليمًا لمن بعدهما إذا وقع له مثل

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٣٧)، والبخاري (٤/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٢٠٣٥)، ومسلم (٤/ ١٧١٢/ ٢١٧٥)، وأبو داود (٢/ ٨٣٤-٨٣٥/ ٢٤٧٠)، وابن ماجه (١/ ٥٦٦/ ١٧٧٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٦٢/ ٣٣٥٦).

(٢) المفهم (٥/ ٥٠٥).

(٣) شرح ابن بطال (٤/ ١٧٥).

ذلك، كما قاله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فقد روى الحاكم أن الشافعي كان في مجلس ابن عيينة فسأله عن هذا الحديث، فقال الشافعي: إنما قال لهما ذلك لأنه خاف عليهما الكفر إن ظنا به التهمة، فبادر إلى إعلامهما نصيحة لهما قبل أن يقذف الشيطان في نفوسهما شيئًا يهلكان به. قلت: وهو بين من الطرق التي أسلفتها، وغفل البزار فطعن في حديث صفية هذا، واستبعد وقوعه، ولم يأت بطائل»[١].

قال النووي: «فيه استحباب التحرز من التعرض لسوء ظن الناس في الإنسان، وطلب السلامة والاعتذار بالأعذار الصحيحة، وأنه متى فعل ما قد ينكر ظاهره مماهو حق، وقد يخفى أن يبين حاله، ليدفع ظن السوء. وفيه الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان؛ فإنه يجري من الإنسان مجرى الدم، فيتأهب الإنسان للاحتراز من وساوسه وشره، واللَّه أعلم»[٢].

قال ابن دقيق العيد: «هذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب ظن السوء بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك تسبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم»[٣].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: «**اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**».
قال ابن قدامة: «رد أمره» مكان «رد كيده»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[٥].

(١) فتح الباري (٤/ ٣٥٢).
(٢) شرح صحيح مسلم (١٤/ ١٣١).
(٣) الإحكام (٢/ ٢٦٩).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٥و٣٤٠)، وأبو داود (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٥١١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧١/ ١٠٥٠٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٧)، ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٢)، وأبو داود (٥/ ٣٣٦/ ٥١١١)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٢٤٧/ ١٠٤٢٨).

★ **غريب الحديث:**

حممة: واحدة الحمم، وهو الفحم.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «قوله: «ذاك صريح الإيمان» معناه أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان والتصديق به، حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم، ولا تطمئن إليه أنفسكم، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله، فكيف يكون إيمانًا صريحًا»[1].

* * *

(١) معالم السنن (٤/ ١٣٦).

فهرس الموضوعات

سورة التين

سورة العلق

سورة القدر

سورة البينة

سورة الزلزلة

سورة العاديات

سورة القارعة

سورة التكاثر

سورة العصر

سورة الهمزة

سورة الفيل

سورة قريش

سورة الماعون

سورة الكوثر

سورة الكافرون

سورة النصر

سورة المسد

سورة الإخلاص

سورة الفلق

سورة الناس

* * *